غيورغي
غوسبودينوف

The International Booker Prize 2023

مكتبة

ملجأ الزمن

رواية

ترجمة : نيديليا كيتايفا

دار الآداب

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

ملجأ الزمن

ملجأ الزمن

غيورغي غوسبودينوف / روائيّ بلغاريّ

ترجمتها عن البلغاريَّة: نيديليا كيتايفا

الطبعة الأولى عام 2024

VREMEUBEZHISHTE

Copyright © 2020, Georgi Gospodinov

All rights reserved

ISBN 978-9953-89-773-8

مكتبة

t.me/soramnqraa

دار الآداب للطباعة والنشر

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا:

www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net

rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

غيورغي غوسبودينوف

مكتبة
t.me/soramnqraa

ملجأ الزمن

رواية

ترجمها عن البلغاريَّة: نيديليا كيتايفا

دار الآداب بيروت

إلى أبي وأمِّي

اللذين ما زالا يقتلعان الأعشاب الضارَّة

من حقول الفراولة الخالدة

في أرض الطفولة

كلُّ الأشخاص الحقيقيِّين في هذه الرواية
متخيَّلون، والمتخيَّلون فقط هم الحقيقيُّون.

فهرست

I. عيادة الماضي 13
II. القرار 161
III. دولةٌ أوروبيَّة 191
IV. استفتاءٌ على الماضي 297
V. وحوشٌ كامنة 349
الخاتمة 431

لم يخترع أحدٌ بعدُ قناع غازٍ للحماية من الزمن ولا ملجأ قنابل مضادًّا للوقت.

غاوسطين، «ملجأ الزمن»، 1939

ولكن، ما هي حاسَّة الزمن لديْنا؟ هل يمكن أن تسمِّيها لي؟

توماس مان، «الجبل السحريّ»

الإنسان هو آلة الزمن الوحيدة التي نمتلكها.

غاوسطين، «معارض لليوتوبيا»، 2001

إذا لم تكن الأيّام موجودة، فأين سنعيش؟

فيليب لاركين، «الأيّام»

...Oh, yesterday came suddenly

Lennon/McCartney

If the street were time and he at the end of the street ...

T.S. Eliot, «The Boston Evening Transcript»

أمس وأمس وأمس...

غاوسطين/ شكسبير

تحضر الرواية في حالة الطوارئ، وأضواؤها مشتعلة، وصفَّارة الإنذار مطلقة.

Gaustine, Emergency Novel.

Brief Theory and Practice

... واللّـه يطلب ما قد مضى.

سفر الجامعة، 3:15

يختلف الماضي عن الحاضر بشيءٍ جوهريّ، وهو أنَّه لا يجري أبدًا في اتِّجاهٍ واحد.

غاوسطين، «فيزياء الماضي»، 1905

ذات يومٍ وهي لا تزال صغيرة، رسمت
حيوانًا لا يمكن التعرُّف عليه على الإطلاق.
ما هذا، سألتها.
أحيانًا هو سمكة قرش، وأحيانًا أسد، وأحيانًا أخرى سحابة.
آها، فما هو الآن؟
هو الآن مخبأ.

غ. غ. «بداياتٌ ونهايات»

- ١ -

عيادة الماضي

وهكذا، الموضوع هو الذاكرة. الإيقاع: andante يميل إلى andante moderato، وsostenuto (بتحفُّظ). لعلَّ السراباندي برصانتها المنضبطة، وإيقاعها الثاني المطوَّل، يمكن أن تناسب التقديم. قد يكون هاندل هُنا أكثر ملائمةً من باخ. تكرارٌ صارم وفي الوقت نفسه تقدُّمٌ إلى الأمام. رصانةٌ وتحفُّظ، كما يقتضي الاستهلال. ثمَّ كلُّ شيءٍ يمكن، بل وينبغي أن ينهار.

-1-

مكتبة
t.me/soramnqraa

ذات يومٍ شرعوا في حساب بداية الزمان، وتقدير الوقت الذي كُوِّنَت خلاله الأرض. ففي منتصف القرن السابع عشر، لم يحدِّد الأسقف الإيرلنديّ آشر العام فقط، بل وتاريخ بدء الزمان: 22 تشرين الأوَّل 4004 قبل الميلاد. وصادف ذلك يوم السبت (بالطبع). لقد ذكر البعض أنَّ الأسقف أشار أيضًا إلى الساعة قرابة السادسة بعد الظهر. بعد ظهر يوم السبت، وأنا أومن بذلك كلَّ الإيمان. ففي أيِّ يومٍ آخر غير السبت، سيَشرع الخالق ببناء العالم؟ لقد كرَّس آشر حياته كلَّها لهذا العمل الذي بلغ عدد صفحاته 2000 صفحةٍ باللُّغة اللَّاتينيَّة. ورغم أنَّني أشكُّ في كثرة مَن كلَّفوا أنفسهم عناء قراءة المؤلَّف بكامله، إلَّا أنَّ صيته كان قد ذاع في كلِّ مكان، ربَّما ليس بسبب المؤلَّف عيْنه، بل بفضل الاكتشاف بين دفَّتيْه. بعدها أخذوا في بريطانيا يصدرون الأناجيل المؤرَّخة وفقًا للتسلسل الزمنيّ الذي أشار إليه آشر. إنَّ تلك النظريَّة عن الأرض الفتيَّة (وأنا برأيي هي نظريَّة الزمن الفتيّ) قد غزت

العالم المسيحيّ. وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ كبار العلماء، وضمنًا العالِم الألمانيَّ يوهانس كيبلر والسير إسحاق نيوتن، ذكروا أيضًا عامًا محدَّدًا خلق فيه الكون وهو مقاربٌ لما ذكَره أشر. لكن بالنِّسبة إليَّ ليس العام وحداثته النسبيَّة هو الأكثر إدهاشًا، بل اليوم المحدَّد.

22 تشرين الأوَّل، أربعة آلاف وأربع سنواتٍ قبل الميلاد، السادسة بعد الظهر تقريبًا.

«في كانون الأوَّل عام 1910 أو نحوه، تغيَّرت الطبيعة البشريَّة». هذا ما كتبته فيرجينيا وولف. ويمكن للمرء أن يتخيَّل ذلك الشهر من عام 1910 الذي يبدو للوهلة الأولى كغيره من الأشهر رماديًّا، باردًا، تفوح منه رائحة ثلجٍ طازج. ولكنَّ شيئًا ما قد حدث، شيئًا لم يشعر به سوى قلَّةٍ من الناس.

في الأوَّل من أيلول عام 1939، في الصباح الباكر، أزفت نهاية الزمن البشريّ.

-2-

بعد سنوات، وقد طارت الكثير من ذكرياته بعيدًا كحمامٍ خائف، كان لا يزال بإمكانه استعادة ذاك الصباح، الذي كان يتسكَّع فيه بشوارع فيينا، حيث متشرِّدٌ شبيه بغابرييل غارسيا ماركيز يبيع الصحف على الرصيف تحت أشعَّة شمس آذار المبكِّرة. هبَّت ريحٌ وطارت بعض الصحف في الهواء. حاول المساعدة، هرول وقبض على جريدتيْن أو ثلاث، وأعادها إلى البائع. يمكنك أن تأخذ واحدةً لك، قال «ماركيز».

أخذ غاوسطين (سنسمِّيه هكذا، مع أنَّه يستخدم هذا الاسم كقبَّعة التخفِّي السحريَّة) الصحيفة وأعطى البائع ورقةً نقديَّة تجاوزت قيمتها سعر الجريدة بكثير. تفحَّصها المتشرِّد بيده وتمتم: لكنَّني لا أستطيع أن أردَّ لك الباقي. بدا الأمر سخيفًا جدًّا في وقتٍ مبكِّرٍ من صباح فيينا إلى درجةٍ أنَّهما انفجرا ضحكًا.

كان غاوسطين يشعر بالحبِّ والخشية تجاه المتشرِّدين. تلك الكلمات مرتبطةٌ دائمًا الواحدة بالأخرى. لقد أحبَّهم وخاف منهم

بالطريقة ذاتها التي يحبُّ المرء ويخاف فيها ممَّا كان عليه في الماضي أو ما سيكون عليه في المستقبل. وعلِم أنَّه عاجلًا أم آجلًا «سينصهر في صفوف جيشهم»، كما يُقال عادة. تخيَّل للحظةٍ الطوابير الطويلة من المتشرِّدين وهم يسيرون في شارعي «كيرتنير» و«غرابين». نعم، بالانتماء كان واحدًا منهم، رغم اختلافه عنهم، لذا يمكننا أن نلقِّبه بِ «المتشرِّد في الزمن». لقد صادف أن وجد نفسه ومعه بعض المال ما يكفي لدرء تحوُّل مصائب النَّفس إلى معاناةٍ جسديَّة. كان يمارس في تلك الأيَّام إحدى مهنه؛ كان طبيبًا نفسانيًّا للمسنِّين. أظنُّ أنَّه كان يسرق قصص مرضاه خفية، كي يتمكَّن من اللوذ بها، والاستراحة قليلًا في مكان شخصٍ آخر وماضيه. فكان رأسه يعجُّ بالأزمنة، والأصوات، والأماكن إلى درجةٍ قد تجعله إمَّا أن يسلِّم نفسه فورًا لزملائه من الأطبَّاء النفسيِّين، وإمَّا أن يفعل شيئًا من شأنه أن يُجبرهم على وضعه في مستشفى «المجانين».

أخذ غاوسطين الصحيفة، مشى قليلًا وجلس على أحد المقاعد. كان يرتدي قبَّعة «بورسالينو»، ومعطفًا طويلًا لونه داكن، تظهر من تحته كنزة بقبَّةٍ عالية، وحذاءً جلديًّا قديمًا، وحقيبةً جلديَّة بلونٍ أحمر راقٍ. مظهره كان كمظهر رجلٍ وصل لتوِّه بقطارٍ من عقدٍ زمنيٍّ آخر، وكأنَّك به فوضويٌّ متحفِّظ، أو هيبيّ طاعنٌ في السنّ، أو واعظٌ من طائفةٍ مغمورة.

وهكذا، جلس على المقعد وقرأ اسم الجريدة «أَوغُسْطين»، صحيفة المتشرِّدين، حيث يكتب هؤلاء بعض مواضيعها، وبعضها الأخرى يكتبها صحفيُّون محترفون. لقد طُبع المقال في الصفحة قبل الأخيرة، في الزاوية اليسرى السُّفليَّة، أي المكان الأقلُّ أهمِّيَّةً في كلِّ صحيفة، وهو أمرٌ يعرفه جميع الصحفيِّين حقَّ المعرفة. وقع بصره عليه. وارتسمت على وجهه ابتسامةٌ رقيقة تغلَّبت المرارة فيها على الفرح. سيكون في حاجةٍ للاختفاء مرَّةً أخرى.

-3-

قبل سنوات، عندما لم يكن يذكر اسم السيِّد آلزهايمر إلَّا نادرًا، وفي النكات بشكلٍ رئيسيٍّ («إذًا ما هو التشخيص الذي وضعه الطبيب لك؟ «.... تشخيصي... يعني ي ي... كان اسم رجل... لكنَّني نسيته»)، ظهر مقالٌ قصيرٌ في إحدى الجرائد كخبرٍ من تلك الأخبار الموجزة، التي يقرأها خمسة أشخاص... أربعةٌ منهم ينسونها فورًا.

إليكم هذا المقال... أعيد سرده باختصار.

أحد الأطبَّاء، الدكتور غ. (يُذكر بحرف اسمه الأوَّل فقط) الذي كان يعمل في عيادة أمراض الشيخوخة في فيينا، في Wienerwald، وكان من محبِّي فرقة «البيتلز»، زيَّن غرفته بديكور من ستينيَّات القرن الماضي: أحضر غرامافون قديمًا، علَّق ملصقات الفرقة على الجدران، بما فيها ملصق غلاف الألبوم الشهير Sgt. Pepper’s Lonely Hearts Club Band... اشترى من سوق البرغوث خزانةً قديمة، ورتَّب فيها

أنواعًا مختلفةً من الأشياء من طراز الستينيَّات؛ الصابون، علب السجائر، مجموعةٌ من لعب سيَّارات فولكس فاجن بيتل المصغَّرة، سيَّارات كاديلاك وموستانج الورديَّة، ملصقات الأفلام وصور الممثِّلين. كان المقال يَذكر أنَّ مكتبه يعجُّ بأكوامٍ من المجلَّات القديمة وأمَّا هو نفسه، فكان يرتدي دائمًا كنزةً بقبَّةٍ عاليةٍ تحت ملابسه الطبِّيَّة البيضاء. بالطبع، لم تكن هناك صورة، والمقال المؤلَّف من ثلاثين سطرًا لا أكثر، كان محشورًا في الزاوية اليسرى السُّفليَّة من الجريدة. كان الخبر كالتالي: لاحظ الطبيب أنَّ المصابين بأمراض الذاكرة، كانوا يشعرون بالراحة في عيادته، حيث بدأوا يقضون وقتًا أطول، وأصبحوا أكثر ثرثرة. الأمر الذي قلَّل بشكلٍ جذريٍّ محاولات الهروب المتكرِّرة من تلك العيادة المرموقة.

ولم يذيَّل المقال باسم المؤلِّف، بل حمل توقيع هيئة تحرير الجريدة.

تلك كانت فكرتي الخاصَّة. الفكرة التي تدور في رأسي منذ سنوات، ولكن كما يبدو، هناك من سبقني إليها. (مع أنَّها في حالتي لم تكن مرتبطةً بالعيادة بل بالرواية... لكن لا بأس).

كنت أتزوَّد بجريدة الرصيف هذه كلَّما كان ذلك ممكنًا، من جانب، بسبب مَوَدَّتي الخاصَّة تجاه أولئك الذين يكتبونها، ولكن أيضًا بسبب شعوري الواضح (وهو وهمي الشخصيّ) بأنَّ ما يُراد به إبلاغك، سيطير إليك، سيهيم على وجهك، من خلال قصاصة الصحيفة. ذلك أمرٌ لم يضلِّلني أبدًا.

لم يذكر المقال سوى أنَّ العيادة تقع في غابات فيينا. فحصتُ مراكز أمراض الشيخوخة في الجوار، فوجدت أنَّ ثلاثةً منها على الأقلّ موجودةٌ في المنطقة نفسها. ثمَّ أصبح واضحًا أنَّ ما أحتاج إليه، كان في آخر سطرٍ كما هو دائمًا بالطبع. قدَّمت نفسي كصحفيّ، ولم تكن الكذبة

كبيرة، إذ إنَّني أحيانًا أنشر مقالاتٍ في إحدى الجرائد التي منحتني بطاقةً صحفيَّة، كي أتمكَّن من دخول المتاحف مجَّانًا. بخلاف ذلك، أستخدم عادةً مهنة كاتبٍ في هذا المجال، ورغم أنَّها تبدو أكثر براءةً ومراوغة، إلَّا أنَّه لا توجد طريقةٌ لإضفاء الشرعيَّة عليها.

على الرَّغم من امتلاكي البطاقة، واجهت صعوبةً كبيرةً حتَّى ألتقي بمديرة المستشفى، وعندما أدركت ما أبتغيه، تمادت عليَّ في القول.

الشخص الذي تبحث عنه ليس موجودًا، منذ الأمس، قالت.

ولماذا؟

استقال بالتراضي، أجابت، ثمَّ بدأت بصفِّ كلامٍ بيروقراطيّ باهت.

قلت وأنا مستغربٌ حقًّا: هل طُرِد؟

ألم أقل لك: بالتراضي. لماذا تسأل؟

قبل أسبوعٍ قرأت في صحيفةٍ مقالًا مثيرًا للاهتمام... وبينما ألفظ جوابي، أدركت أنَّني أخطأت خطأً جسيمًا.

تلك المقالة عن محاولات الهروب من العيادة؟ لقد رفعنا دعوى نقضٍ في المحكمة، قالت.

أدركت أنَّه لا سبب لبقائي هناك فترةً أطول، كما وعرفت سبب الاستقالة بالتراضي.

وما اسم الطبيب؟ سألتها عند المغادرة. لكن حينها كانت تتحدَّث بالهاتف.

يومها لم أخرج مباشرةً من العيادة، بل ذهبت إلى جناحٍ فيه غرف الأطبَّاء، ورأيت عاملًا ينزع من الباب الثالث على اليمين لافتةً تحمل اسم طبيب. طبعًا، كان هو الاسم بالضبط. كنت على يقينٍ من ذلك منذ البداية.

-4-

إنَّ العثور على أثر غاوسطين الذي يقفز من عقدٍ إلى آخر تمامًا كما نبدِّل نحن الطائرات في المطار، هي فرصةٌ لا تأتي إلَّا مرَّةً واحدةً كلَّ مئة عام. غاوسطين الذي ابتكرته أنا أوَّل الأمر ومن ثمَّ التقيته بلحمه وشحمه. أو ربَّما كان العكس، لا أتذكَّر. صديقي غير المرئيّ كان مرئيًّا وحقيقيًّا أكثر منِّي. غاوسطين من أيام شبابي. غاوسطين كحلمٍ بأن أكون شخصًا آخر، في مكانٍ آخر، أن أسكن زمنًا آخر وغرفًا أخرى. كنَّا نشارك الهوس نفسه بالماضي. الفارق بيننا كان بسيطًا لكن جوهريّ. كنت أحسُّ نفسي غريبًا في كلِّ مكان، بينما يشعر هو بالراحة على قدم المساواة في جميع الأزمنة. كنت أطرق أبواب مختلف السنوات، وهو كان هنالك، ويفتحها لي، يستضيفني، ثمَّ يختفي.

أوَّل مرَّةٍ دعوتُ فيها غاوسطين، كانت كي يضع اسمه تحت الأسطر الثلاثة التالية التي جاءتني فجأةً كما لو كانت من العدم، من زمنٍ آخر. فكَّرت طويلًا، ولم أتمكَّن من إضافةِ أيِّ كلمةٍ أخرى إليها:

التروبادور أبدعته المرأة

أستطيع أن أقول ذلك

هي التي أبدعتِ المُبدع...

ذات ليلةٍ رأيت الاسم في المنام، وكان مكتوبًا على غلافٍ جلديّ «غاوسطين من آرل، القرن الثالث عشر». أتذكَّر أنَّني قلتُ في نفسي وأنا ما زلت نائمًا: «هذا هو الاسم». ثمَّ ظهر غاوسطين نفسه، أعني شخصًا يشبهه، وأطلقت هذا الاسم عليه.

كان ذلك في أواخر الثمانينيَّات. لا بدَّ أنَّني احتفظت بهذه القصَّة في مكانٍ ما.

-5-

غاوسطين. تقديم

أودُّ أن أقدّمه لكم كالتالي. رأيته لأوّل مرّةٍ أثناء إحدى الندوات الأدبيّة التي تجري عادةً في أوائل شهر أيلول على شاطئ البحر الأسود. جلسنا قبيل الغروب في مطعمٍ صغير يطلُّ على البحر، ونحن جميعنا كُتّابٌ لم يُنشر لنا أيُّ كتاب، كلُّنا عُزّاب، في تلك السنِّ الجميلة ما بين 20 و25 عامًا. كان النادل بالكاد يستطيع تلقّي طلباتنا الكثيرة من السلطات والراكيا[1]. في النهاية حين سكتنا، سمعنا صوت الشاب الجالس في آخر الطاولة الطويلة الذي لم يتمكّن من طلب أيِّ طبقٍ بعد.

كريمة، من فضلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) مشروبٌ كحوليٌّ قويّ يُصنع في منطقة البلقان.

قالها بثقةٍ من يطلب البطَّ بالبرتقال أو «بلو كوراساو» على الأقلّ. وفي أثناء الصمت الطويل الذي أعقب ذلك، لم يُسمع إلّا صوت النسيم الآتي من البحر وهو يجرُّ زجاجةً بلاستيكيَّةً فارغة.

العفو؟ بالكاد لفظ النادل حائرًا.

كريمة، من فضلك، كرَّر الشاب بالوقار المتحفِّظ نفسه.

وقد كنَّا في حيرةٍ من أمرنا نحن أيضًا، لكن سرعان ما استعادت الأحاديث على الطاولة صخبها السابق. بعدها اختفى غطاء الطاولة من تحت الأطباق والكؤوس. الشيء الأخير الذي أحضره النادل، كان صحن فنجانٍ من الخزف يُسوِّر حافَّته خطٌّ مذهَّب، وفي وسطه صُبَّتِ الكريمة بأسلوبٍ أنيق، كما بدا لي. ظلَّ غاوسطين يرتشف من الكريمة رشفاتٍ صغيرةً بطيئة طوال المساء.

كان هذا هو لقاؤنا الأوَّل.

في اليوم التالي مباشرة، بذلت قصارى جهدي للتقرُّب منه، وفي الأيَّام المتبقِّية أدرنا ظهرنا للندوة تمامًا. لم يكن أيٌّ منَّا من النوع الثرثار، لذلك قضينا وقتًا ممتعًا في المشي والسباحة، والصمت المشترك. عرفت أنَّه يعيش بمفرده، وقد توفِّي والده منذ زمن، وأمَّا والدته فهاجرت قبل شهرٍ للمرَّة الثالثة إلى أميركا بطريقةٍ غير شرعيَّة، وكان أمله كبيرًا أن تنجح هذه المرَّة.

عرفت أيضًا أنَّه أحيانًا يكتب «قصصًا من أواخر القرن الماضي». هكذا عبَّر بالضبط، وبالكاد سيطرت على فضولي، متظاهرًا أنَّ ذلك أمرٌ طبيعيٌّ تمامًا. كان الماضي يُشغله بشكلٍ خاصّ. كان يتجوَّل في بيوتٍ خاليةٍ قديمة، ويحفر بين الأنقاض، ويُفرغ العلِّيَّات والصناديق جامعًا

كلَّ أنواع الحطام والبقايا من الماضي. ومن حينٍ إلى آخر كان يتمكَّن من بيع شيءٍ إمَّا لتاجر تحفٍ قديمةٍ وإمَّا لأحد معارفه، وهكذا يكسب عيشه. ظننت أنَّ تواضع طلبه في المطعم تلك الأمسية ينمُّ عن أنَّه لا يستطيع الاعتماد على هذا النوع من العمل. لذلك، عندما ذكر بشكلٍ عابرٍ أنَّ لديْه ثلاث علبٍ من سجائر Tomasian من عام 1937، خالية من الغبار، ذات جودةٍ عالية مضاعفة، عرضتُ على الفور شراء الثلاث كوني مدخِّنًا شرهًا. عن جدّ؟ سألني. لطالما حلمت بتذوُّق مثل هذا الـ Tomasian العتيق، أجبته، فاندفع عائدًا إلى غرفته. كان يتأمَّلني بارتياحٍ حقيقيٍّ وأنا أشعل السيجارة من دون مبالاة، بعود ثقابٍ ألمانيٍّ أصليٍّ من عام 1928 (هديَّةٌ منه مع السجائر) وسألني كيف أجد روح عام 1937. حارَّة، أجبته. كانت السجائر فعلًا بطعمٍ حادٍّ جدًّا، ومن دون فلاتر، فتنفث الكثير من الدخان. لا بدَّ أنَّ ذلك بسبب قصف غرنيكا في العام نفسه، قال غاوسطين بصوتٍ خافت، أو ربَّما بسبب منطاد زيبلين 129 هيندينبيرغ، أكبر منطادٍ في العالم، أعتقد أنَّه انفجر في العام نفسه، في السادس من أيَّار، على ارتفاع مئة مترٍ فوق سطح الأرض قبل الهبوط مباشرةً وعلى متنه 97 شخصًا. يومها كان جميع مذيعي الراديو يبكون في البثِّ المباشر. ربَّما تلتصق هذه الأشياء بأوراق التبغ...

كدتُ أختنق. أطفأت السيجارة لكنَّني لم أنطق بكلمة. فقد تحدَّث كشاهد عيانٍ استطاع التغلُّب على ما حدث بعد بذل جهودٍ عظيمة.

قرَّرت أن أغيِّر الموضوع كلِّيًا، ويومها سألته لأوَّل مرَّةٍ عن اسمه. فقال مبتسمًا: سمِّني غاوسطين. تشرَّفت، أنا اسمي إسماعيل أجبته هكذا كي أواصل المزاح، لكن بدا وكأنَّه لم يسمع.

قال إنَّه يحبُّ تلك القصيدة التي تتضمَّن الاقتباس الاستهلاليَّ بقلم غاوسطين من آرل. أعترف بأنَّ كلامه أسرني. إضافةً إلى ذلك، استمرَّ هو بجدِّيَّةٍ تامَّة، فهو يجمع بين اسمي أوغُسطين وغاريبالدي. تَعرف، لم يستطع والداي أبدًا الاتِّفاق على تسميتي. كان والدي من أشدِّ المعجبين بجوزيبي غاريبالدي وأصرَّ على إطلاق اسمه عليّ. ووالدتي امرأةٌ هادئة، ذكيَّة، معجبةٌ بالقدِّيس أوغسطين، درست الفلسفة ثلاثة فصولٍ بالجامعة، وأصرَّت من جانبها على إضافة اسم القدِّيس. وهي ما زالت تدعوني أوغسطين، وأبي كان يناديني باسم غاريبالدي عندما كان على قيد الحياة. هكذا جرى الجمع بين الإلهيَّات المبكِّرة والثوريَّة المتأخِّرة.

تلك هي المعلومات، بشكلٍ عامّ، التي تبادلناها أثناء الأيَّام الخمسة أو الستَّة من الندوة. بالطبع، أتذكَّر أنَّه سادت فترات صمتٍ مهمَّة، لكنَّني لا أجد طريقةً لإعادة سردها.

نعم، أجرينا محادثةً قصيرةً أخرى في اليوم الأخير من الندوة. لحظتها علمت أنَّ غاوسطين يعيش في بيتٍ مهجورٍ ببلدةٍ صغيرةٍ تقع على سفوح جبال البلقان. قال: ليس لديَّ هاتف، لكنَّ الرسائل تصلني. بدا وحيدًا إلى ما لا نهاية و... غير منتم. تلك هي العبارة التي جاءتني وقتها. غير منتمٍ إلى أيِّ شيءٍ في العالم أو بالأحرى إلى العالم الحديث. شاهدنا الغروب السخيَّ صامتين. ارتفعت سحابةٌ من ذباب مايو من وراء الشجيْرات خلفنا. تابعها غاوسطين بعينيْه وقال إنَّه بالنسبة إلينا ليس هذا إلَّا غروب شمسٍ واحد، ولكن بالنِّسبة إلى ذباب مايو، فإنَّه غروب حياته. أو كان كلامه من هذا النوع. تفوَّهت بحماقةٍ أنَّ ذلك مجرَّد تعبيرٍ

مجازيٍّ مهترئ. نظر إليَّ مستغربًا، لكنَّه لم يقل شيئًا. ثمَّ أضاف بعد دقائق قليلة: ذباب مايو يفتقر إلى التعبيرات المجازيَّة.

شهد شهرا تشرين الأوَّل وتشرين الثاني من عام 1989 أحداثًا كثيرة، وقد وصِفت وكُتِب عنها تكرارًا ومرارًا إلى حدِّ التُّخمة منها. كنت عالقًا في ساحات العاصمة، مرتصًّا في صفوف المتظاهرين ولم أكتب رسالةً لِغاوسطين. كذلك واجهتُ مشاكل أخرى، أعددت كتابي الأوَّل للنشر، وكنتُ قد تزوَّجت. كلُّها أعذارٌ واهيةٌ بالطبع. لكنَّني في تلك الفترة كنت أفكِّر في غاوسطين كثيرًا. وهو أيضًا لم يكتب إليّ.

استلمت البطاقة البريديَّة الأولى في الثاني من كانون الثاني 1990. وكانت بطاقة عيد ميلادٍ مفتوحة، عليها صورة بياض الثلج بالأبيض والأسود والتي لوَّنها غاوسطين أيضًا، تستدعي إلى الأذهان صورة الفنَّانة جودي غارلند. كانت بياض الثلج تحمل عصًا سحريَّةً تشير إلى عام 1929 المكتوب بخطٍّ كبير. وعلى ظهر البطاقة كُتِبَ عنوانٌ ورسالةٌ قصيرة بقلم حبرٍ ناشف رُسمت فيها الكلمات والحروف بخطٍّ يعكس طريقة الكتابة في تلك الفترة. وانتهت الرسالة بالعبارة الآتية: «أجرؤ على تسمية نفسي صديقًا مخلصًا لك، غاوسطين». جلست على الفور وكتبت له ردًّا، عبَّرت فيه عن شكري للمفاجأة السارَّة، مضيفًا إلى أنَّني أقدِّر حقًّا غموضه الأنيق.

استلمت الجواب في الأسبوع نفسه. فتحت الظرف بعناية، وكان في داخله ورقتان باللَّون الأخضر الباهت وعليهما علامةٌ مائيَّة. وقد كُتِبَ على وجه واحدٍ من كلِّ ورقةٍ بالخط اليدويِّ الأنيق نفسه والالتزام

الصارم بطريقة الكتابة البلغاريَّة المعدَّلة في عشرينيَّات القرن الماضي. كتب أنَّه لم يخرج من منزله لكنَّه بحالٍ ممتاز. لقد اشترك في صحيفة «زورا» اليوميَّة، التي يكتبها السيِّد كرابشيف «بموضوعيَّةٍ تامَّة» وفي مجلَّة «زلاتوروغ»، ليستطيع أن يتابع اتِّجاهات الأدب في تلك الأيَّام. سألني عن رأيي في تعليق الدستور وحلِّ البرلمان من قبل الملك اليوغوسلافيِّ ألكسندر في السادس من الشهر الجاري، وهو خبرٌ نشرته جريدة «زورا» في اليوم التالي مباشرة. وختم رسالته بملحوظةٍ اعتذر فيها عن عدم فهمه ما قصدتُه بعبارة «الغموض الأنيق».

قرأت الرسالة عدَّة مرَّاتٍ أخرى، قلبتها في يديّ، شممتها على أمل اكتشاف شيءٍ من المفارقة فيها. لكن من دون جدوى. لو كانت هذه لعبة، فإنَّ غاوسطين قد دعاني للعبها من دون أن يشرح لي القواعد. طيِّب. قرَّرت مجاراة هذه اللعبة. ولأنَّني لم أعرف شيئًا عن عام 1929 اللَّعين، كنت مضطرًّا أن أقضي الأيَّام الثلاثة اللَّاحقة في المكتبة، مطَّلعًا على الأعداد القديمة من جريدة «زورا». تمعَّنت في المعلومات عن الأمير ألكسندر. ألقيت أيضًا نظرةً سريعةً على أحداث الساعة: «طرد تروتسكي من الاتِّحاد السوفييتيّ»، «الألمان يوافقون على ميثاق كيلوغ بريبان»، «موسوليني يوقع معاهدةً مع البابا»، «فرنسا ترفض منح اللُّجوء السياسيّ لتروتسكي»، وشهرًا بعد ذلك «ألمانيا ترفض منح اللُّجوء السياسيّ لتروتسكي»، وصلتُ حتَّى إلى «انهيار وول ستريت» في 24 أكتوبر. وبينما كنت في المكتبة كتبتُ لغاوسطين ردًّا قصيرًا وباردًا كما بدا لي، حيث شاركته على عجلٍ رأيي (وهو كان يتطابق بشكلٍ مريبٍ تمامًا مع رأي الناشر السيِّد كرابتشيف) بصدد التطوُّرات

في يوغوسلافيا وطلبت منه إرسال الأوراق التي يعمل عليها، متمنّيًا أن أعرف منها ما يحدث بالضبط.

لم تصلني رسالته التالية إلّا بعد مرور شهرٍ ونصف. حيث اعتذر فيها، قائلًا إنّه كان مصابًا بالإنفلونزا الغادرة، فلم يكن قادرًا على فعل أيِّ شيء. وبالمناسبة، سألني إذا كنت أعتقد أنَّ فرنسا ستقبل تروتسكي. تأرجحت بين إقدامٍ وإحجامٍ لفترةٍ طويلة وأنا أتساءل عمّا إذا كان ينبغي أن أنهي هذه القصّة بكاملها وأكتب له خطابًا يعيده إلى الواقع، لكنّني قرّرت أن أواصل اللُّعبة بعض الوقت. قدّمت له عدَّة نصائح بشأن الإنفلونزا، رغم أنّه قد كان قرأها بنفسه في جريدة «زورا». نصحته بعدم الخروج من البيت ونقع قدميْه في ماءٍ ساخنٍ مشبَّع بالملح كلَّ مساء. كنت أنظر نظرة متشكِّكٍ إلى أنَّ فرنسا ستمنح حقَّ اللُّجوء السياسيِّ لتروتسكي وكذلك ألمانيا أيضًا. وعندما وصلتني رسالته التالية، كانت فرنسا قد رفضت بالفعل قبول تروتسكي، وكتب غاوسطين مُبديًا لي إعجابه بأنّني صاحب «فطنةٍ سياسيَّةٍ هائلة». كانت تلك الرّسالة أطول من غيرها بسبب وجود حدثيْن مثيريْن لإعجابه، أحدهما صدور العدد الرابع من مجلة «زلاتوروغ» وقتها، وفيه مجموعة قصائد جديدةٍ بقلم الشاعرة إليزافيتا باغريانا، بينما كان الآخر عبارةً عن جهاز راديو ماركة Tele-funken كان غاوسطين يحاول إصلاحه هذه الأيّام. حيث طلب منّي إرسال لمبة Valvo من مستودع السيِّد جبّاروف في شارع «أكساكوف» رقم 5. كما وأسهب في وصف بعض العروض في برلين لجهاز الدكتور Reisser المكوَّن من 12 لمبة، والذي يستقبل موجاتٍ قصيرةً مع ضبطٍ تلقائيٍّ للتلاشي. «سيكون من الممكن الاستماع إلى حفلاتٍ موسيقيَّةٍ تُبثُّ من أميركا، هل تصدِّق ذلك؟».

بعدها قرَّرت ألَّا أردَّ عليه. ولم يكتب لي هو الآخر، لا بمناسبة عيد رأس السنة التالي ولا الذي يليه. لقد تلاشت القصَّة رويدًا رويدًا، ولولا الرسائل القليلة التي ما زلت أحتفظ بها، لم أكن لأصدِّق ذلك بنفسي بالتَّأكيد. ولكن ما قُدِّر يكون! بعد سنواتٍ تلقَّيتُ رسالةً من غاوسطين مرَّةً أخرى، فراودتني هواجس مخيفة، لذا لم أكن في عجلةٍ من أمري لفتحها. تساءلت عمَّا إذا كان قد ثاب إلى رشده بعد كلِّ ذلك الوقت أم أنَّ حالته ساءت أكثر. لم أفتح الظرف إلَّا في المساء، ولم تكن في داخله سوى بضعة أسطرٍ أنقلها هنا حرفيًّا:

«اغفر لي إزعاجك مرَّةً أخرى بعد تلك الفترة الطويلة من الزمن. لكنَّك ترى بأمِّ عينيْك ما يحدث حولنا. وتقرأ الصحف وبفضل حسّك السياسيّ، لا بدَّ أنَّه كان لديْك تصوُّرٌ مسبقٌ للمذبحة وشيكة الوقوع. إنَّ الألمان يحشدون القوَّات على الحدود البولنديَّة. لم أُخبرك حتَّى الآن، أنَّ والدتي يهوديَّة (تذكَّرْ ما حدث العام الماضي في النمسا، وماذا عن «ليلة البلّور» في ألمانيا!). هذا الرجل لن يوقفه أيُّ شيء. لقد اتَّخذت قراري، ورتَّبت ما يلزم للمغادرة صباح الغد بالقطار إلى مدريد، ثمَّ لشبونة ومن هناك إلى نيويورك...

وداعًا

صديقك المخلص غاوسطين
14 آب، عام 1939

اليوم هو الأوَّل من أيلول.

-6-

في الأوَّل من أيلول عام 1939 في نيويورك استيقظ ويستن هيو أودن، ثمَّ كتب في يوميَّاته:

«استيقظتُ مع صداعٍ بعد ليلةٍ من الأحلام السيِّئة التي كان فيها تش. يخونني. تقول الصحف إنَّ ألمانيا هاجمت بولندا...».

هاكَ، كلُّ شيءٍ يأتي معًا في بدايةٍ واقعيَّة؛ أحلامٌ سيِّئة، وحرب، وصداع.

كنت في مكتبة نيويورك عندما عثرتُ على هذه النبذة من يوميَّات أودن المحفوظة في لندن، لكن لحسن الحظِّ صادف أن يكون أرشيفه ضيفًا آنذاك في نيويورك.

لا يمكن اللِّقاء بين ما هو شخصيٌّ وما هو تاريخيٌّ إلَّا في اليوميَّات. العالم لم يَعُد كما كان، ألمانيا تهاجم بولندا، تبدأ الحرب، يؤلمني رأسي، وذلك الأبله تش.، بلغت به الوقاحة ليخونني في نومي.

اليوم في نومي، وغدًا في يقظتي. (هل هذا ما يدور في ذهن أودن؟) ولنذكّر أنّه بعد اكتشاف الخيانة الزوجيّة بدأ شهريار مذبحة النساء الكبرى في «ألف ليلةٍ وليلة». هل أدرك أودن كمَّ الحقائق المسجَّلة في تلك الكلمات القليلة، ومدى دقّتها الشخصيّة والمفارقة فيها؟ سطرانِ عن أهمَّ يومٍ في القرن. في اليوم ذاته، عندما هدأ صداعه قليلًا، راح يدوّن بعض الأبيات:

I sit in one of the dives
On Fifty-second Street
Uncertain and afraid[1]...

ثمَّ كلُّ شيءٍ هناك أصبح تاريخًا؛ الحانة في الشارع الثاني والخمسين، والصداع، والخيانة، والكابوس، وغزو بولندا في تلك الجمعة في الأوّل من أيلول. عنوان القصيدة سيكون بالضّبط هكذا: الأوّل من أيلول 1939.

متى تتحوّل الحياة اليوميّة إلى تاريخ؟

لحظة فقط. ذلك البيت في نهاية القصيدة We must love one another or die[2] الذي يُقتبَس كثيرًا، والذي لم يعجِب الشاعر فيما بعد على الإطلاق، إذ كان يحذفه باستمرار، أليس مرتبطًا تمامًا بالخيانة التي رآها في نومه؟ من يرغب في تذكُّر مثل هذه الكوابيس؟

---

(1) وأجلس في إحدى الحانات الرخيصة / في الشارع الثاني والخمسين / مرتبكًا وخائفًا. ترجمة: تمام تلّاوي.

(2) فلْيُحِبَّ أحدُنا الآخرَ أو فلْيَمُتْ

كنت أودُّ أن أعرف كلَّ شيءٍ عن ذلك اليوم، يومٌ من أيَّام خريف 1939، أن أجلس في مطابخ العالم مع كلِّ شخص، أن ألقي نظرةً على الصحيفة التي يقرأها بينما يحتسي قهوته، أن أبتلع كلَّ شيءٍ بشراهة؛ حشد الجيوش على الحدود الألمانيَّة البولنديَّة، الأيَّام الأخيرة من مبيعات الصيف، حانة «سينزانو» الجديدة في مانهاتن السُّفلى...

الخريف على عتبة البيت، والإعلانات المدفوعة مسبقًا في الصحف تقع الآن بجوار البيانات الموجزة من الساعات الأخيرة في أوروبَّا.

-7-

في 1 أيلول غير أيلول 1939، أجلس على العشب في منتزه «براينت»، الحانة في الشارع الثاني والخمسين اختفت منذ زمن، لقد وصلتُ للتوّ من أوروبًا، أتأمّل وجوه الناس وأنا مُتعبٌ (والنَّفس كليلةٌ أيضًا من سفرها الطويل بالطائرة). أخذت معي تلك المجموعة الشعريَّة لِأودن، فيجب أن نؤدِّي طقوس قراءة القصائد، أليس كذلك؟ بعد قضاء يومٍ في المكتبة أجلس «مرتبكًا وخائفًا». لم أنم مرتاحًا، لم أحلم بخيانةٍ زوجيَّة، أو ربَّما حلمت بها ونسيت... العالم لا يزال على الدرجة نفسها من التوجُّس. المأمور المحليٌّ ومأمور إحدى الدول البعيدة يهدِّدان بعضهما البعض عن بُعدٍ بنقر عدَّة حروفٍ فقط على تويتر. فقد انقرضت الخطابة القديمة، وانقرضت البلاغة. حقيبة، وزرّ، و... نهاية يوم العمل للعالم. أبوكاليبس بيروقراطيّ.

نعم، اختفت الحانات القديمة، والرسَّامون القدامى أيضًا. كذلك مضت الحرب التي كانت على وشك أن تندلع حينها، كما مضت حروبٌ أخرى، ولم يبق هناك سوى القلق.

I tell you, I tell you

I tell you we must die

تلك الأغنية لفرقة «دورز» الموسيقيّة كانت تنبعث من مكانٍ قريب، وفجأةً، بدا لي أنَّ هنالك حديثٌ سرِّيّ، وأنَّ موريسون في الواقع يتحدَّث مع أودن. وبالضبط هذه اللَّازمة من الأغنية، هذه الكلمات المتكرِّرة كأنَّها تحلُّ عقدة التردُّد في الشطر الذي لا يحبُّه أودن:

We must love one another or die.

وأمَّا موريسون، فهو لا يتردَّد قطُّ وردُّه قاطع: I tell you we must die.

وبعد مطالعة عدَّة مصادر أكتشفُ أنَّ الأغنية في الواقع قد كُتبت من برتولت بريخت عام 1925، ولحَّنها الموسيقار كورت ويل الذي عزفها بنفسه عام 1930، وكان عزفًا مذهلًا يجعل المرء مترنِّحًا على حافَّة الرعب... ممَّا زاد الأمور تعقيدًا. أخذ أودن هذا البيت من مقطوعة بريخت وقلَبه رأسًا على عقب وبدا وكأنَّه يخاطبه. وبات بريخت من عام 1925 وموريسون من 1969 يلهثان وراء الموت. «أقول لك يجب أن نموت». بالمقارنة معهما بدا أودن كما لو أنَّه يمنحنا الأمل: «فلْيُحِبَّ أحدنا الآخر أو فلْيَمُتْ». لا يميل المرء إلى الأمل سوى قبل الحروب أو عندما تكون على وشك الاندلاع. وربَّما كان من الممكن إنقاذ العالم، في ذلك الأوَّل من أيلول 1939.

أتيت إلى هنا بمهمَّةٍ مُلّحة، كما يأتي المرء عادةً إلى نيويورك، هاربًا من أمرٍ ما، مفتِّشًا عن آخر. كنت أهرب من قارَّة الماضي نحو مكانٍ يدَّعي أنَّه لا ماضي له، على الرَّغم من تراكمه بمرور الوقت. كنت أحمل دفترًا أصفر، وأبحث عن شخص، وأرغب في رواية قصَّة، قبل أن تتلاشى ذاكرتي.

- 8 -

سنواتٌ قبل ذلك أقف في مدينةٍ لم يحدث فيها عام 1939. مدينةٌ يطيب العيش والموت فيها. هادئةٌ كمقبرة. ألا تشعر بملل؟ يسألونني بالهاتف. الملل هو شعار هذه المدينة. ملَّها إلياس كانيتي، جيمس جويس، فريدريش دورينمات، ماكس فريش، وحتَّى توماس مان. فيخجلني أن أقيس مللي بمللهم. لا، لا أشعر بملل، أجيب. مَن أنا حتَّى أملّ؟ على الرَّغم من أنَّني أودُّ خفيةً أن أتذوَّق أُبَّهة الملل.

لقد مرَّ بعض الوقت، وأنا فقدت أثر غاوسطين في فيينا.

كنت في انتظار إشارةٍ منه، كنت أتفحَّص الصحف حتَّى المغمورة منها، لكن بدا أنَّه أصبح أكثر حذرًا. ذات يومٍ تلقَّيْت بطاقةً بريديَّةً مفتوحة لم تحمل اسم المرسِل ولا عنوانه.

«تحيَّةٌ من زيورخ، عندي فكرة، لو حقَّقتها سأكتب لك».

إنَّه هو بالتَّأكيد وليس شخصًا غيره. لم يكتب لي شيئًا في الأشهر التالية، لكنَّني سارعت إلى قبول دعوةٍ لإقامةٍ قصيرةٍ ببيت الأدب في زيورخ.

هكذا قضيت ما يقرب من شهرٍ هنا متسكِّعًا في الشوارع الخالية أيَّام الأحد، ومستمتعًا بأشعَّة الشمس التي ركنت فوق التلِّ مدَّةً طويلة. وهناك عند الغروب يمكنك أن تتأمَّل قمم جبال الألب بعيدًا في عمق الأفق وهي تغيِّر لونها إلى البنفسجيِّ البارد. وأدركت لماذا يأتي الجميع إلى زيورخ في النهاية. فهي مدينةٌ جيِّدةٌ لقضاء الشيخوخة. وللموت أيضًا. إذا كان هناك من جغرافيا أوروبيَّةٍ للعمر، فلا بدَّ من أن يكون ترتيبها هكذا: باريس، وبرلين، وأمستردام للشباب: حياةٌ خاليةٌ من الشكليَّات، رائحة ماريخوانا، احتساء البيرة في حديقة ماور بارك، افتراش العشب، أسواق السلع المستعملة أيَّام الأحد، عبثيَّةٌ جنسيَّة... أمَّا فيينا أو بروكسل، فهما منطقةٌ للراشدين، حيث الإيقاع البطيء، الرفاهية، الترامات، التأمين الصحِّيّ المريح، التعليم الجيِّد، التقدُّم في الحياة المهنيَّة، الوظائف الأوروبيَّة. ومَنْ لا يريد الشعور بالهرم، فَله روما، برشلونة، مدريد... هُناك الطعام الشهيُّ وأوقات الظهيرة الدافئة ستنسيك الازدحام والضوضاء والفوضى. كذلك، أضيف نيويورك إلى قائمة مدن الشباب المتأخِّر، نعم، فأنا أحسبها مدينةً أوروبيَّة وجدتْ نفسها بالصدفة في ما وراء المحيط.

زيورخ مدينةٌ لقضاء سنوات الشيخوخة. حيث يسير العالم بهوادة، ونهر الحياة يستقرُّ في بحيرةٍ ساكنة، وترف الملل، ودفء الشمس فوق التلال يتغلغل في عظامك الهرمة إنَّه الزمن بكلِّ نسبيَّته. وليس محضَ صدفة، أن حدث في سويسرا اكتشافان في القرن الماضي مرتبطان بالزمن؛ نظريَّة أينشتاين للنسبيَّة و«الجبل السحريّ» لتوماس مان.

لكنَّني لم آت إلى زيورخ لأموت، لا، ليس بعد، كنت أسير في الشوارع، وأنا بحاجةٍ إلى هذه الوقفة، محاولًا إكمال روايةٍ هجرتُها نازفةً في منتصف الطريق، متمنِّيًا أن ألتقي غاوسطين أينما كان، في القطار إلى جبل زيوريخ ، أو جالسًا عند المقبرة في تل فلونتيرن قرب تمثال جيمس جويس. قضيتُ هناك بعض أوقات الظهيرة بجوار جويس المدخِّن الذي يضع رِجلًا على رِجلٍ مع كتابٍ مفتوح في يده اليمنى، رافعًا بصره عن الكتاب لإتاحة وقتٍ تختلط فيه الجمل مع دخان السيجارة، عيناه مغمضتان قليلًا خلف النظَّارة، وكأنَّه سينظر إليك للتوِّ وسيقول شيئًا. أجد ذاك التمثال واحدًا من أكثر شواهد القبور حيويَّةً التي رأيتها على الإطلاق. لقد تجوَّلت في مقابر العالم كرجلٍ خائفٍ حتَّى الموت من الموت والاحتضار، (في الحقيقة ما الذي يُخيفنا أكثر الموت أو الاحتضار)، والذي يريد أن يرى مَثْوى خوفه، ليتأكَّد من أنَّ هذا المكان ساكن، هادئ، مخصَّصٌ للناس، للراحة... مكانٌ للاعتياد عليه، رغم استحالة الاعتياد. مرَّةً قال لي غاوسطين: أليس غريبًا أنَّ الآخرين هم من يموتون دائمًا، بينما نبقى نحن أبدًا؟».

-9-

وهكذا، لم ألتق غاوسطين في المقبرة ولا في تلفريك جبل زيورخ. كانت إقامتي تقترب من نهايتها، كنت أجلس مع سيِّدةٍ بلغاريَّة تحت أشعَّة الشمس في مقهى روميرهوف، تجاذبنا أطراف الحديث من دون أن يزعجنا أحد، مستفيدين من مَزيَّة لغةٍ قليلة الانتشار مثل البلغاريَّة، ومن راحة البال أنَّه لا أحد من حولنا يفهم ما كنَّا نَهمِزه ونلمِزه. كنَّا ننتقد العالم حولنا نقدًا لاذعًا من زبائن المقهى وبعض المظاهر السويسريَّة الغريبة إلى الحزن البلغاريِّ المتجذِّر فينا وسوء حظِّنا لكوننا بلغار، وهو موضوعٌ يمكنه ملء أيِّ صمتٍ محرجٍ في الحديث، فالتذمُّر في مكانه دائمًا وبالنسبة إلى البلغار هو مثل الحديث عن الطقس في إنكلترا.

عندها التفت إلينا سيِّدٌ وقورٌ كبير السنِّ لم يَجُرْ عليه الزمان، كان يحتسي قهوته على الطاولة المجاورة وبصوتٍ بلغاريٍّ رقيقٍ («رقيق» و«بلغاريّ» كلمتان لا تربطهما عادةً علاقة ودّ) قال لنا: اعذراني على

تنصُّتي، لكن عند سماعي مثل هذه البلغاريَّة الجميلة، لم أستطع أن أسدَّ أذنيّ.

هنالك أصواتٌ ما إن تسمعها حتَّى تشعر وكأنَّها تسرد لك قصَّة. كان ذلك صوتَ مهاجرٍ من موجة المهاجرين البلغار القديمة. ومن المدهش حقًّا كيف حافظ هؤلاء على لغتهم البلغاريَّة، وما زالوا يتكلَّمونها من دون لكنة. في بعض المقاطع كان لفظ السيِّد للحركات لم يبرح فترة الخمسينيَّات والستينيَّات من عالم اللغة البلغاريَّة ممَّا أضفى عليها ملمحًا عتيقًا.

وسرعان ما تبدَّد قلقنا من القبض علينا متلبِّسين، ففي نهاية المطاف لم نكن قد قلنا أيَّ شيءٍ عن هذا السيِّد.

وبدأت تلك المحادثة بين أبناء وطنٍ التقوا صدفة، حيث لعبتُ دور المُصغي. مرَّت ساعةٌ ولكن ما هي الساعة مقابل سنواتٍ من الغياب. استأذنتنا السيِّدة وغادرت. انتقلتُ إلى طاولة السيِّد. سألني: أيمكنك الصبر قليلًا حتَّى أنهي هذه القصَّة، ثمَّ نخرج؟ طبعًا كنت صبورًا. وحين بدأ الحديث كانت الشمس تغفو على واجهات المقهى وعلى الساعة التي تشير إلى الثالثة بعد الظهر، ووَرَفَتْ بعدها ظلال الكؤوس وظلالنا أيضًا، وبرودة الغسق أخذت تقترب هوينًا هوينًا كي تمنحنا وقتًا رقيقًا لإنهاء قصَّةٍ استغرقت أكثر من خمسين عامًا.

كان رجلًا فَطِنًا للغاية، يسكت من حينٍ إلى آخر ليجد الكلمة الأكثر ملاءمة. «لا، لا... الآن أترجم من الألمانيَّة، لحظة فقط. انتظر...، ستأتي، ها هي الكلمة...» ويستمرُّ في الحديث. أخبرني بأنَّه ابن كاتبٍ وديبلوماسيٍّ بلغاريٍّ منسيّ، عاش طفولته عشيَّة الحرب العالميَّة

الثانية في السّفارات البلغاريَّة في أوروبًا. كنت أعرف قصَّة والده وقد أسعده ذلك، حتَّى لو لم يعبِّر عنه صراحة. وتلا ذلك قَصَّ الحكاية البلغاريَّة التقليديَّة بعد عام 1944... حيث جرى فصل الوالد من عمله، والحكم عليه، وإرساله إلى معسكر الأشغال الشاقَّة، والتعرُّض للضرب، والتَّهديد، والكسر، ومصادرة شقَّتهم، وتسليمها لكاتبٍ موالٍ للسلطة، وإرسال الأسرة إلى مكانٍ ما في ضواحي المدينة.

أبي لم يَنْبِس ببنت شفةٍ عمَّا حدث له في المعسكر. أبدًا، قال السيِّد، (دعنا نسمِه «السيِّد س.»). مرَّةً فقط، عندما طبخت أمِّي البطاطس واعتذرت لأنَّها ربَّما لم تكن مسلوقةً جيِّدًا، قال بصوتٍ خافت: لا تقلقي، لقد أكلتها نيِّئةً أيضًا، وحفرتُ التراب مثل خنزيرٍ بريّ... ثمَّ صمت من جديدٍ كرجلٍ قال أكثر ممَّا يجب قوله.

وكما كان متوقَّعًا سُجِن بعدها السيِّد س. لمدَّة خمسة عشر شهرًا، أوَّلًا كونه ابن ذلك الكاتب، وثانيًا، لا لشيء، وإنَّما من باب الاحتياط، إذ وقع ذلك بُعَيْدَ الأحداث المجريَّة عام 1956 ثمَّ بدا له أنَّ حياته قد استقرَّت بشكلٍ أو بآخر، فقال لنفسه إنَّه لن يفكِّر في السجن ورجال الشرطة الذين استمرُّوا في ملاحقته، لكن ذات ليلة، وهو ينتظر آخر ترام، رأى واجهة محلٍّ فارغةً تمامًا فحدَّق فيها. لم يكن هناك سوى مصباحٍ متدلٍّ بسلكٍ من السقف يلقي ضوءًا خافتًا.

مصباحٌ وسلكٌ وواجهةٌ فارغة.

لم يستطع أن يحيد نظره عن المصباح. وبين الحلم واليقظة ترامى إلى أذنه صرير وصول الترام، وتوقُّفه لبرهة، ثمَّ إغلاق أبوابه ومغادرته. وقف الرجل محدِّقًا في السلك المتوهِّج لهذا المصباح الكهربائيِّ البسيط

المتدلّي من السقف كمشنوق. «عندها لمعت في ذهني فكرة، كنت أخفيها دائمًا حتّى عن نفسي؛ عليَّ أن أغادر»، قالها، ثمَّ كرَّر «لمعت فكرة»، وابتسم. كان ذلك في 17 شباط، عام 1966، وكنت في الثالثة والثلاثين من عمري.

ثمَّ كلُّ شيءٍ أصبح يدور في فلك هذه الفكرة. كانت لديْه خطَّة أن يترك العمل ويجد شركةً تطلب عمَّالًا لألمانيا الشرقيَّة، أن يودِّع أقاربه من دون أن يدركوا ذلك. فودَّع أوَّلًا صديقه المقرَّب، ثمَّ المرأة التي عاش معها. لم يكشف عن خطَّته لأحد، بل حتَّى أنَّه أخفاها عن أهله. وحين هَمَّ بالمغادرة، قال والده: كنْ حذرًا، وعانقه معانقةً دامت أطول من المعتاد. وأتت أمُّه بوعاءٍ مملوءٍ بالماء ورشَّته أمامه على الدرج، (وهي عادةٌ بلغاريَّةٌ قديمة لجلب الحظّ) وهو أمرٌ لم تفعله من قبل. ثمَّ لم يعُد يراهما أبدًا.

نزل من القطار المتَّجه إلى ألمانيا الشرقيَّة في محطَّة بلغراد لتدخين سيجارة، تاركًا حقيبته في القطار، ثمَّ اختفى وسط الحشد. كان والده قبل أعوامٍ سفيرًا في بلغراد، حيث عاش السيِّد س. سنوات طفولته الأولى. وهو ما زال يتذكَّر كيف بدأت الحرب ببرقيَّةٍ عن طريق البريد الدبلوماسيِّ في 1 أيلول، 1939. كنت أعتقد وأنا طفلٌ أنَّ تلك هي الطريقة التي تبدأ بها الحروب، ببرقيَّة، قال السيِّد س. ومنذ ذلك الحين أكره البرقيَّات.

بعد الكثير من التحوُّلات والتقلُّبات التي استمرَّت أشهرًا متواصلة، وصل إلى سويسرا، وهناك استقبله أحد أصدقاء والده في اليوم نفسه وشرب معه قهوته الأولى في زيورخ، في هذا المقهى بالذات. والشمس أيضًا كانت ذاتها. ومنذ ذلك الحين يأتي إلى المقهى في التاريخ نفسه من كلِّ عام.

سألته: ألم تشعر ببعض التردُّد أو الحنين، على الأقلّ في البداية؟

فردَّ بسرعة، وكأنَّ الجواب كان جاهزًا مسبقًا: لا، أبدًا، أبدًا. شعرت بفضولٍ حيال ذلك العالم، فقد عشت فيه أيَّام طفولتي، تكلَّمت لغته وفي نهاية المطاف هربت من مكانٍ قضيت فيه خمسة عشر شهرًا في السجن... يعني كنت هاربًا من السجن.

السرعة التي نطق بها كلامه جعلتني أعتقد بأنَّه لم يتوقَّف عن التفكير في الموضوع.

أخبرني عن لقاء غداءٍ مع صديقه الكاتب المشهور غيورغي ماركوف في لندن قبل ثلاثة أيَّامٍ من مقتله. وبدا أنَّ تلك القصَّة ما زالت تصيبه بالقشعريرة.

لقد أتيت بسيَّارةٍ وأراد جيري (كنَّا ندعوه بهذا الاسم) أن يسافر معي، فكان لديْه بعض الأعمال في ألمانيا، لكنَّه لم يستطع السفر إلَّا بعد ثلاثة أيَّام، بينما كانت تتعيَّن عليَّ العودة إلى مدينتي. لذلك ذهبنا إلى رئيسه في مكتب التَّحرير في بي بي سي ليسأل عمَّا إذا كانوا سيسمحون له بالسفر مبكِّرًا. قالوا إنَّ عليه أن يجد بديلًا له، فرفع يده في إشارةٍ إلى تراجعه عن السفر. غادرت لندن بمفردي، وبقيت عدَّة أيَّامٍ في ألمانيا، ثمَّ قدمت إلى زيورخ. اشتريت صحيفةً من المحطة وفتحتها، فتفاجأت بصورة جيري... الشخص نفسه الذي عانقته قبل أسبوعٍ كان ميِّتًا.

ثمَّ انتقل الحديث إلى مواضيع أخرى وكان قد حلَّ الظلام وتذكَّر السيِّد س. بغتةً أنَّه نسي الاتِّصال بزوجته. حينها، وقبل أن نفترق عند مخرج المقهى التفت إليَّ قائلًا: هل تعرف، يوجد هنا شخصٌ من أبناء بلدنا أصبحت وإيَّاه صديقيْن. إنَّه مثلك تمامًا، له أيضًا ذائقة الإصغاء

لعالم الماضي. أنا أساعده، فقد بدأ العمل على مشروعه الخاصّ، وهو عبارة عن «عيادةٍ صغيرةٍ للماضي»، كما يحب أن يسمِّيها...

وبالكاد صرخت: «غاوسطين؟».

سأل السيِّد س. وكان متفاجئًا بالفعل: هل تعرفه؟

فأجبت: غاوسطين لا أحد يعرفه.

تلك هي الطريقة التي اختارها غاوسطين ليظهر هذه المرَّة في لقاءٍ عابرٍ مع السيِّد س.، مهاجرٍ من بلغاريا، في مقهى ريومرهوف، في زيورخ، في وقتٍ متأخِّرٍ بعد الظهر.

ما زلت أحتفظ بالدفتر الذي سجَّلت فيه ملاحظاتي وكتبت بعجالةٍ بعض القصص التي سمعتها ذاك اليوم بعد لقائي مع السيِّد س. فكَّرت لاحقًا في السرعة التي لفظ فيها الحزن عن ماضيه البلغاريّ، فكتبت الآتي: يبدو أنَّه إذا أردت البقاء على قيد الحياة هناك، في ذلك المكان الجديد، فعليك أن تقطع الماضي كما تقطع اللحم وترميه للكلاب (أنا لا أستطيع فعل ذلك أبدًا).

أن تكون بلا رحمةٍ تجاه الماضي؛ لأنَّ الماضي بدوره لا يرحم.

الماضي... ذلك العضو العاطل الذي يشبه الزائدة الدوديَّة والذي قد يلتهب بمرور الوقت، ويترك ألمًا فظيعًا. لو استطعتَ العيش بدونه، فاقطعْه وغادرْ، وإذا لم تستطع ذلك، فتماسكْ واسعَ في مناكبها. أتساءل عمَّا إذا كان هذا التفكير يدور في رأسه بينما وقف تلك الليلة أمام الواجهة الفارغة ذات المصباح العاري المعلَّق. التَّبصر قد يتجلَّى بطرقٍ مختلفة. وفي أواخر تلك الملاحظات التي كتبتها بخطٍّ غامضٍ خربشتُ ما يلي...

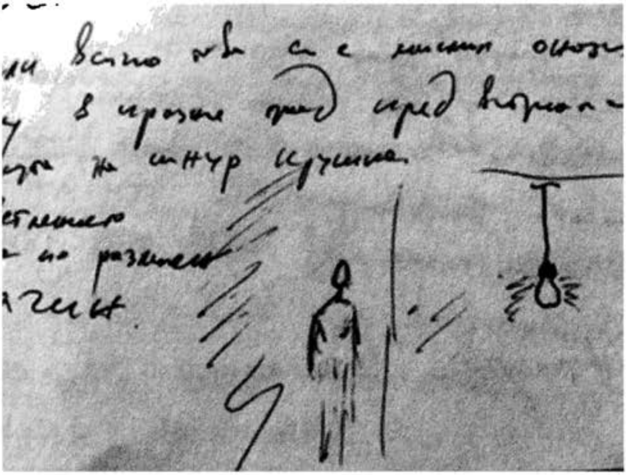

عاش السيِّد س. العجوز وقتًا طويلًا وقضى أيَّامه الأخيرة في مصحَّة الماضي، أي عيادة غاوسطين، التي ساعد بنفسه على إنشائها. ويبدو لي أنَّه رحل من هذا العالم سعيدًا مع إحدى ذكرياته المحبوبة التي رواها في لقائنا الأوَّل. بقينا أنا وغاوسطين إلى جانبه، وأذكر أنَّه طلب شريحة خبزٍ محمَّصٍ لا ليأكلها، بل ليتنعَّم برائحتها، فقد كان يتلقَّى علاجه عن طريق الوريد منذ شهرٍ حينها، لذا لم يكن بمقدوره تناول الطعام.

هو طفلٌ يعود والده إلى البيت وقد تلقَّى أجره مقابل بعض الترجمة، فصرف عند البقَّال كلَّ نقوده على المربَّى والزبدة. وبعد أيَّامٍ من تناول الأسرة للبطاطس، يُحمِّص والده شريحةً كبيرةً من الخبز الأبيض، ويدهنها بكمِّيَّةٍ وافرةٍ من المربَّى والزبدة، فيملآن المكان ضحكًا، ثمَّ يأخذه والده، وهو صارمٌ بطبيعته ولا يحب التدليع، ويضعه على كتفيْه. وهكذا يذرعان الغرفة، يقفان في وسطها والسيِّد س. الصغير يحدِّق عن كثبٍ في السلك المتوهِّج للمصباح الكهربائيِّ الذي بات في مستوى عينيْه.

-10-

في صباح اليوم التالي كنت في شارع «هيليوسشتراسيه»، فقد أخبرني السيِّد س. بالعنوان. وجدت البناية ذات اللون الدَّراقيّ على الشاطئ الغربيّ للبحيرة، وهي منفصلةٌ عن المباني الأخرى الموجودة على التلّ. كانت ضخمةً ومشرقةً في الوقت نفسه، فيها أربعة طوابق، إضافةً إلى علِّيَّة، وشرفةٍ واسعةٍ مشتركة في الدور الثاني، وشرفاتٍ صغيرةٍ في الأدوار الأخرى. كلُّ النوافذ تطلُّ على الجنوب الغربيّ ممَّا يجعل فترات قبيل العصر لامتناهية، حيث تعشِّش ومضات النهار الزرقاء حتَّى حلول الظلام، والشبابيك بأجنحتها الخشبيَّة الزرقاء تتمايز برقَّةٍ مع لون الجدران الدَّراقيّ الخافت.

كان المرج أمام البناية يضجُّ كلُّه بأزهار «لا تنسني»، وتنبت هنا وهناك أزهار الفاوانيا وبعض الخشخاش الأحمر الكبير. وتطفو زهور «لا تنسني» الصغيرة بزرقتها فوق خضرة العشب السويسريَّة، وأنا واثقٌ من وجود لونٍ أخضر سويسريٍّ وأكاد لا أصدِّق أنَّ أحدًا لم يسجِّل بعدُ

براءة اختراعه. يا ترى، هل كانت زراعة نبات النسيان أمام مركز الطبِّ النفسيِّ للمسنِّين مجرَّد مُزاح؟ صعدت إلى الطابق الأخير الذي كانت فيه عيادة غاوسطين، وقد دفع السيِّد س. إيجارها لعدَّة سنواتٍ مقدَّمًا. قرعتُ جرس الباب وفتح غاوسطين نفسه مرتديًا كنزة بقبَّةٍ عاليةٍ ونظارةٍ كبيرة.

ألم تتوجَّه إلى نيويورك عام 1939 بعد لقائنا الأخير ؟حاولت أن يبدو سؤالي عابرًا قدر المستطاع، متى رجعت؟

بعد الحرب، أجاب برزانة.

وماذا سنفعل الآن؟

سنبدأ بإنشاء غرفٍ في أزمنةٍ مختلفة.

غرفٌ للماضي...؟! يشبه عنوانًا.

نعم، غرفٌ للماضي. أو عيادةٌ للماضي. أو مدينة... وأنت، هل ستبقى؟

كنت مطلَّقًا حديثًا، وخطر لي أن أتكسَّب من تأليف القصص. أحببت فترة الستينيَّات، وكنت أغوص بسهولةٍ في كلِّ ما هو ماض، وطبعًا كانت لديَّ سنواتٌ مفضَّلة. إذن لا شيء يمنعني من البقاء عند غاوسطين بعض الوقت... عدَّة أشهرٍ لا أكثر. (تذكَّرتُ هانز كاستروب في رواية «الجبل السحريّ» وعزمه على البقاء فيه ثلاثة أسابيع فقط...)

كان غاوسطين قد استأجر إحدى الشقق الثلاث في الدور العلويّ، والغرفة الأصغر التي بجانب باب مدخل شقَّته أو كما يسمِّيها

«غرفة الخدم»، ومن المحتمل أنَّها استُخدمت في الماضي لهذا الغرض، أصبحت الآن غرفة مكتبه. أمَّا الغرف الثلاث الأخرى في الشقَّة، بما فيها الرَّدهة، فكانت مزيَّنةً بديكور من زمنٍ آخر. وما إن تفتح الباب حتَّى تجد نفسك في القرن العشرين... في منتصف الستينيَّات. في الدهليز مشجب ثيابٍ كلاسيكيٌّ لونه أخضر داكن، مصنوعٌ من جلدٍ اصطناعيّ... كان لدينا مثله في المنزل. ويتعيَّن عليَّ القول إنَّه على الرَّغم من أنّني مولودٌ في نهاية الستينيَّات، إلَّا أنَّني أتذكَّر بوضوحٍ هذا المشجب بكلِّ تفاصيله، فقد كان جزءًا من طفولتي في بلغاريا لا لسببٍ مُلغز (وأنا ما زلت أعتقد أنَّ الذكريات تُوَرَّث مباشرةً من الوالد إلى الطفل، فذكريات والديْك تصبح ذكرياتك)، وما يجعلني أحتفظ بذلك المشجب في ذاكرتي في الواقع هو أمرٌ تافهٌ تمامًا: فالستينيَّات مثل كلِّ شيءٍ في بلادنا، تأخَّرت بعشر سنواتٍ تقريبًا. وعلى الأرجح وصلت إلى بلغاريا في فترة السبعينيَّات.

على المشجب كان هناك معطفٌ قصيرٌ لونه أخضر فاتحٌ به صفَّان من أزرارٍ خشبيَّة... وأذكر عندما دخلتُ الشقَّة لأوَّل مرَّةٍ ذلك الصباح كيف وقفت متسمِّرًا أمامه، فقد كان معطف والدتي. وخُيِّل إليَّ وكأنَّها ستفتح باب الصالون فيتلألأ زجاجه المنقوش البسيط، بينما تقف هي هناك منتصبة القامة: شابَّة، في العشرين من عمرها، أصغر بكثيرٍ ممَّا أنا عليه الآن. مع أنَّه عندما تظهر والدتك في سنِّ العشرين فإنَّك تتحوَّل تلقائيًّا إلى طفل، وفي هذه اللحظة تختلط لديْك مشاعر الحرج والفرح وتكتنفك الحيرة: هل أحتضنها أم أناديها وكأنَّ شيئًا لم يكن... «ماما، لقد عدت، أنا ذاهبٌ إلى غرفتي»... كلُّ ذلك لم يستمرَّ لأكثر من ثانية... أو لنقل دقيقة.

أهلًا وسهلًا بك في الستينيَّات، قال غاوسطين، وهو يراقب صدمتي في مدخل هذا العقد محاولًا كتمان ابتسامته. لم أكن راغبًا بعدُ في الخروج من فترة التحوُّل تلك، فتوجَّهت من دون إبطاءٍ نحو غرفة الأطفال. سريرا زاويةٍ يكسو كلًّا منهما غطاءٌ موبَّرٌ أصفر اللون مصنوعٌ من مادَّةٍ اصطناعيَّة (أطلقنا حينها على هذا الغطاء اسم «ليديكا»، لعلَّه كان نوعًا من الاختصار)؛ وبينهما دولابٌ بنيٌّ يلتقيان معه على نحوٍ متعامد. نظرت إلى غاوسطين، فأدرك ما أبتغيه، وأومأ برأسه موافقًا، فرميت بنفسي محلِّقًا على السرير وكنت على ما كنت عليه بسترتي وحذائي وجسدي ذي الخمسين عامًا، وإذ بي أهبط بجسدي إلى عمر الـ8 سنوات وسط دغدغة أوبار غطاء السرير...

وأوراق الجدران، كيف نسيتها، أوراق الجدران كانت بمثابة تَجَلٍّ حقيقيٍّ... فهذه الموجودة هنا ترتسم فيها قلعةٌ وكرومُ خضراء تشبه كثيرًا تلك التي كانت في غرفتي أثناء طفولتي... مُعيَّناتٌ بلونٍ أخضر باهتٍ ونباتاتٌ متشابكة، لكن بدلًا من القلعة كان هناك كوخٌ خشبيٌّ أمامه بحيرةٌ صغيرة... الأكواخ والبحيرات الخضراء نفسها مطبوعةٌ مئات المرَّات. وفي غمرة غفوتي كنت أرتحل بذاكرتي إلى كوخ ورق الجدران، ثمَّ كان الصباح يُباغتني برنين المنبِّه المزعج، فيُعيدني إلى غرفتي في تلك الشقَّة ذات الألواح الخرسانيَّة. نظرت إلى المكتب، نعم، المنبِّه كان عليه، ليس نفسه تمامًا، كان أكثر... كيف يمكنني وصفه... كان يميل إلى النمط الغربيِّ وألوانه أكثر، وعلى وجهه صورةٌ لِميكي ماوس.

وهنا بدأت تظهر الفروقات... ذلك الفتى الذي لم يكن أنا... كانت لديْه مجموعةٌ كاملةٌ من تلك السيَّارات الصغيرة البرَّاقة لونها

«ميتاليزيه»... هكذا كنَّا نسمِّيه حينها، تمامًا مثل السيَّارات الحقيقيَّة، بأبوابٍ مفتوحة، وإطارات «كاوتشوك» حقيقيَّة. كانت من ماركات مختلفة: فورد موستانغ، وبورشيه، وبوغاتي، وأوبل ومرسيدس، بل كانت بينها سيَّارةٌ معدنيَّةٌ صغيرة ماركة رولز رويس... كنت أحفظ أسماء كلِّ تلك النماذج عن ظهر قلب، وأعرف سرعتها القصوى، وعدد الثواني التي يستغرقها تسارعها من 0 إلى 100 كم في الساعة، وهو كان أهمَّ شيءٍ بالنِّسبة إلينا. كنت أملك المجموعة نفسها من السيَّارات، لكن كصورٍ على أغلفة العِلكة. نهضت من السرير، أخذت إحدى السيَّارات، وأكثر من مرَّةٍ فتحت أبوابها وأغلقتها بسبَّابتي، وحرَّكتها على المكتب. أحد زملائي من المدرسة كانت لديْه سيَّارة كهذه، أحضرها والده الذي كان سائق شاحنةٍ للنقل البريِّ الدوليّ (آه، ما مدى أهمِّيَّة أن يكون أبوك أو عمُّك سائق شاحنة نقلٍ دوليٍّ ذلك الوقت، فيسافر إلى تلك البلاد الغامضة التي نسمِّيها «الخارج»، ويحضر بنطال جينز حقيقيّ من ماركة «ليفيس»، وشوكولاتة «توبليرون» المثلَّثة القاسية التي لم أحبَّها أبدًا، وجندولًا يغنِّي ويضيء، بل ويُستخدم كمصباحٍ ليليّ، ومنافض سجائر على شكل أكروبوليس أثينا... إلخ) إضافةً إلى نسخةٍ قديمةٍ من مجلَّة «نيكرمان»، وهي في الأساس كتالوج ألمانيٍّ لسلعٍ لا تستطيع امتلاكها بكلِّ الأحوال، إذ فقدت تلقائيًّا طابعها التجاريَّ وتحوَّلت إلى جماليَّاتٍ بحتة. وربَّما أضيف هنا الإثارة الجنسيَّة التي كانت تتناسب مع منظوري كطفلٍ في العاشرة من عمره آنذاك، وبالأخصِّ تلك الصفحات التي تعرض نساءً بملابسهنَّ الدّاخليَّة. لن أنسى أبدًا تلك المجلَّة وهي موضوعةٌ على المنضدة المستديرة الرخاميَّة في غرفة الضيوف لأحد زملائي

بجوار الهاتف مباشرة، وقتها كان الهاتف يعتبر من الأثاث أيضًا، لكن لم يكن الهاتف الكنز الحقيقيّ، بل مجلّة «نيكرمان». كنّا على يقينٍ بأنّنا لن نمتلك أبدًا كلّ الأشياء البرّاقة من ذلك الكتالوج، لكنّنا نعلم بوجودها في مكانٍ ما، وكذلك بوجود العالم الذي هي فيه.

وكانت الملصقات على جدران غرفة الأطفال هذه مختلفةً قليلًا أيضًا... صورة فريق «ليفسكي» البلغاريّ لكرة القدم في موسم 1976/77، مقصوصةً من إحدى الصحف لتزيّن غرفتي أيّام الطفولة، جرى استبدالها هنا بملصقٍ لفريق «أياكس» في موسم 1967/68. لقد كان ملصقًا ضخمًا لامعًا عليه...، يا سلام! عليه توقيع يوهان كرويف نفسه، وهو معبود والدي، وبالتالي صار معبودي أيضًا... كنتُ أنا كرويف وأخي بيكنباور.

أمّا ملصق فرقة «البيتلز» الذي زَيّن جدار غرفتي أيّام طفولتي، فكان أثمن ممتلكاتي الغربيّة التي حصلت عليها عن طريق المقايضة مع زميلي في الصفّ، ابن سائق الشاحنة، إذ كلّفني ذلك خمسة عشر دحلًا من نوعٍ نسمّيه «دموع»، وثلاثة دحاحل أخرى من نوع «سوري». وبالمقابل، كان جدار غرفة الفتى من العالم الغربيّ الموازي يعجُّ بملصقاتٍ مرتّبةٍ كما اتّفق، ولو أمعنتَ النظر فيها، لَروتْ لك كيف تكوّنت شخصيّته في فترة مراهقته... ابتداءً بصور باتمان وسوبرمان، وهما بطلان غابا عن طفولتي الشرقيّة (ليحلّ مكانهما الملك ماركو البلغاريّ ووينيتو)... مرورًا بصورة «الرقيب بيبر» لفرقة «البيتلز»، وصورةٍ بالأسود والأبيض لبريجيت باردو في شبابها مترفّلةً في شاطئ البحر بثوب السباحة وبشعرها المهفهف في أحد أفلام روجر فاديم؛ وأيضًا ملصقٌ لثلاث فتياتٍ مثيرات، ربّما ممّن ظهرن على غلاف مجلّة «بلاي

بوي» في الستينيَّات... وصولًا إلى بوب ديلان بغيتاره وسترته الجلديَّة، أمَّا أنا، فكنت أعلِّق ملصقًا لِفلاديمير فيسوتسكي.

قلت: هذه الغرفة للصبيان فقط.

لديْنا أيضًا غرفةٌ للبنات، إن كنت ترغب برؤية باربي وكين.

هيا بنا نواصل جولتنا.

كانت غرفة المعيشة واسعةً ومشرقة، ولفتني منظر شجرة الحبِّ في الزاوية بجوار النافذة ونبتة البوط في المزهريَّة الطويلة الخزفيَّة أمام صورةٍ جداريَّة، فعدتُ مرَّةً أخرى إلى ذلك العقد. تذكَّرت كيف كنَّا نمسح الغبار عن أوراق شجرة الحبّ (يا له من اسم!) ونبتة التيفا بقطعة قماشٍ مبلَّلةٍ بالبيرة، وهو ما كان يوصى به آنذاك، فتفوح من جميع غرف المعيشة رائحة البيرة.

لكنَّ الصورة الجداريَّة كانت بمثابة إلهامٍ حقيقيّ وفنٍّ هابطٍ حقيقيّ في آنٍ واحد. بفضل سائق شاحنة نقلٍ دوليٍّ آخر، وهو صديق والدي، حتَّى نحن صارت لديْنا خلفيَّةٌ جداريَّة في بيتنا... غابةٌ خريفيَّة وشمسٌ تسطع بين الأشجار. كانت على جدار زميلي في المدرسة صورةٌ لشاطئ هاواي ومن أمامه فتاةٌ جميلة. والمنظر هنا يذكِّرني بتلك الصورة، شاطئٌ غير متناهٍ ومشهدُ غروبٍ على المحيط... حسنًا، أيُّ مشهدٍ آخر يجب أن تضيفه على الخلفيَّة الجداريَّة في سويسرا؟ بالتَّأكيد ليس منظر قمَّة ماتارهورن ولا جبال الألب.

وها هو صندوق التلفاز الصغير المربَّع واقفًا بحرجٍ على أربعة أرجلٍ خشبيَّةٍ طويلة، وهو التلفزيون نفسه الذي كان في بيتنا.

هل هو «أوبرا»؟ سألت مستغربًا.

لا، إنَّه «فيليبس». خمِّنْ من هو سارق تصميمه الحقيقيّ؟

وفعلًا كان شكله وكلُّ شيءٍ آخر فيه نسخةً طبق الأصل عن فيليبس. يبدو أنَّ قسم «التجسُّس الصناعيّ» في جمهوريَّة بلغاريا الشعبيَّة كانت عيْنه لا تنام. لكن انظر إلى هذه الكراسي التي لها شكل التوليب... لم أرها إلَّا في الأفلام وكتالوج مجلَّة «نيكرمان»، ولا أدري لِمَ لمْ تسرق جماعتنا تصميمها... أشكالها مطاولة، فضائيَّة، ديناميكيَّة هوائيَّة، لونها أحمر داكن، وبساقٍ واحدةٍ تشبه ساق التوليب. طبعًا، أردت الجلوس عليها فورًا، كما أردت أن أتناول بعضًا ممَّا في طبق سكاكر الشوكولاتة الملفوفة بورق القصدير على الطاولة. مددت يدي لكن تردَّدت.

في الواقع... متى صُنعت هذه السكاكر؟ سألت.

إنَّها طازجة، منذ الستينيَّات، قال غاوسطين مبتسمًا.

هل للماضي مدَّة صلاحيَّة؟

كانت غرفة المعيشة واسعةً جدًّا، وفيها بابٌ منزلقٌ يفصل الطرف الشرقيَّ منها إلى ما يشبه غرفة مكتب. على منضدةٍ طويلة آلةٌ كاتبةٌ صغيرة حمراء من نوع Olivetti Hermes Baby، تبرز من دحروجة أسطوانتها ورقةٌ مطويَّة. فجأةً راودتني الرَّغبة في...، بل أصابعي رغبت في أن أكتب شيئًا ما... أن أشعر بمقاومة المفاتيح، أن أسمع صوت الجرس في نهاية السطر، وأسحب الرافعة المعدنيَّة الصغيرة يدويًّا للسطر التالي. إنَّها رغبةٌ تنتمي إلى الزمن الذي كانت الكتابة فيه جهدًا بدنيًّا.

إنَّ غرفة المكتب هي فكرتي، قال غاوسطين، كنت أحلم دائمًا أن أمتلك غرفةً خاصَّة، غرفة مكتبٍ صغيرةً فيها كتبٌ ومثل هذه الآلة الكاتبة. ديكورها ليس تمامًا على طراز الستينيَّات، فالناس في ذلك العقد وضعوا كتبهم في كلِّ مكانٍ على الأرضيَّة، أو أينما أمكنهم ذلك... ولكن يجب أن أقول لك إنَّ الآلة الكاتبة حقَّقت نجاحًا كبيرًا. يفرح بها الجميع، فيضعون الأوراق في دحروجة الأسطوانة ويضربون بأصابعهم على المفاتيح.

سألته: ماذا يكتبون؟

وقال: أسماءهم في أغلب الأحيان، فالناس يحبُّون رؤية أسمائهم مطبوعة. بالطبع أتحدَّث هنا عمَّن يكونون في المرحلة المبكِّرة من المرض، أمَّا الآخرون فلا يفعلون شيئًا إلَّا الضرب على المفاتيح.

تذكَّرت أنَّ ذلك ما فعلته أنا بالضبط في طفولتي مستخدمًا آلة والدتي، والنصوص الغريبة التي كانت تظهر لي، من قبيل:

Жгмцццрт №№№№кктррпхггфпр11111111....внтгвтгвнтгггг 777ppp...

لعلَّها شيفرة لن نتمكَّن من حلِّها أبدًا.

-11-

لماذا في سويسرا بالضبط، سألتُ غاوسطين ونحن جالسان في غرفة معيشة الستينيَّات.

دعنا نقبل أنَّه بسبب حنيني إلى «الجبل السحريّ»، ردَّ. لقد جرَّبت في أماكن أخرى، لكن في سويسرا وجدت مَنْ صدَّقني واستثمر في مشروعي. فعدد الناس هنا كافٍ وهم على استعدادٍ لدفع المال كي يموتوا سعداء.

من المدهش كم هو ساخرٌ غاوسطين أحيانًا.

قلت: دعنا نتمسَّك بالحنين إلى «الجبل السحريّ».

الحقيقة، كما خطر لي، هي أنَّ سويسرا بلدٌ مثاليٌّ بسبب درجة الزمن الصفريَّة. فالبلد الذي لا زمن له، يمكن أن تسكنه بسهولةٍ كلُّ الأزمنة المحتملة. لقد تمكَّنت سويسرا من التسلُّل، حتَّى إلى القرن العشرين، من دون علاماتٍ خاصَّةٍ قد تجعلك، في أحوال أخرى، حبيس سنواتٍ معيَّنة.

لدينا المزيد من العمل، قال غاوسطين وهو يمسح عدسات نظّارته، إنّك ترى هنا ستينيّات الطبقة الوسطى، فالماضي باهظ الثمن ولا يستطيع الجميع شراءه. لكنّك تدرك أنّه لم يكن كلُّ ماضٍ وكلُّ شبابٍ على هذا النحو. نحن بحاجةٍ إلى ستينيّات العمّال، وغرف الطلبة... إلى ستينيّات سكّان أوروبا الشرقيّة... ستينيّاتنا. ذات يومٍ حين تتوسّع أعمالنا وتتطوّر، تابع غاوسطين، سننشئ مثل هذه العيادات في دولٍ مختلفة. فالماضي هو عملٌ محلّيٌ أيضًا. في كلِّ مكانٍ ستكون هناك منازل من سنواتٍ مختلفة وأحياء صغيرة... ذات يومٍ سنبني أيضًا مدنًا صغيرة، وربّما بلدًا بأكمله للماضي، من أجل المرضى المصابين بفقدان الذاكرة، والزهايمر، والخرف، وما إلى ذلك... من أجل الجميع الذين لم يسكنوا الآن، إلّا حاضر ماضيهم... ومن أجلنا، قال ذلك في النهاية بعد وقفةٍ قصيرة، نفث فيها خيطًا طويلًا من الدخان. إنّ تدفُّق فاقدي الذاكرة اليوم ليس مصادفةً، بل هم هنا ليخبرونا شيئًا. وصدقني، ذات يومٍ وهو ليس ببعيد، سيبدأ الكثيرون بالإقامة في الماضي، وسيكون فقدان الذاكرة إراديًا تمامًا. وسيأتي زمنٌ تجد فيه المزيد والمزيد من الناس يختبئون في غارهِ سعيًا منهم للعودة إلى ما مضى... وبالمناسبة، لا يأتي ذلك من أمرٍ فيه خير. يجب أن نجهّز ملاجئ الماضي، أو سمّها إن شئت «ملاجئ الزمن».

وقتها لم أفهم ما كان يقصده. كما لم أكن متأكّدًا أبدًا ممّا إذا كان يمزح أم لا.

يعتقد غاوسطين أنّ الماضي بالنسبة إلينا مجرّد ماض، وحتّى عندما ندخل هناك، فنحن نعلم أنّ باب الرجوع خلفًا مفتوح، أي نستطيع العودة إليه متى شئنا... لكن ذاك الباب بات مغلقًا أبد الدهر في وجه فاقدي الذاكرة. وليس الماضي، بل الحاضر هو بلد غربتهم...

فالماضي وطنٌ لهم. والشيء الوحيد الذي نستطيعه هنا، هو خلق حيّزٍ يسير فيه الزمن وفق ساعة دواخلهم. إذا كان عام 1965 يجوب داخلي، قال غاوسطين، وأنا كنت في العشرين من عمري مستأجرًا عُلّيّةً في باريس، أو كراكوف، أو في عمارةٍ خلف جامعة صوفيا، فليطف هذا العام خارجًا أيضًا... داخل غرفةٍ واحدةٍ على الأقلّ. لا نعرف ما إذا كان ذلك سيساعد في عمليّة الشفاء، وتعافي الخلايا العصبيّة. لكنّه أمرٌ يمنح هؤلاء الناس الحقّ في السعادة، أو الحقّ في ذكرى سعيدة، لأكون دقيقًا. فنحن نفترض أنّ ذكريات السعادة ذكرياتٌ سعيدة، لكن من يدري... سترى بأمّ عيْنك، تابع غاوسطين، كيف يبدأون في سرد قصصهم، ويتذكّرون الأشياء، بالرّغم من أنّ بعضهم لم ينطقوا بكلمةٍ واحدةٍ منذ شهور. «يا اللّـه...، أتذكّر جيّدًا هذا الأباجور... كان في غرفة الضيوف، ثمّ كسره أخي بِكرة، ثمّ... ومن أين حصلتم على أريكتنا... أليس مكانها هنا، أقرب بقليلٍ من الحائط؟».

طلبت سيجارة، كنت قد أقلعت عن التدخين قبل خمس سنوات، لكن... اللعنة، إنّنا الآن في زمنٍ مختلف، أي قبل إقلاعي عن التدخين، بل حتّى قبل أن أبدأ به، لأكون دقيقًا، لكن لا بأس. توقّفنا عن الكلام مراقبين خيط دخان الستينيّات المتعرّج تحت الأباجور المدوَّر. كانت بعض أعداد Time وNewsweek الصادرة بشهر كانون الثاني عام 1968 موضوعةً كما اتّفق على الطاولة. وكانت الصفحة الأخيرة كلّها مخصّصةً لإعلانٍ عن العلبة نفسها Pall Mall Golds، ذات الفلتر الطويل، وعليها شعار Because it's extra long at both ends[1].

---

(1) لأنّه طويلٌ جدًّا من الطرفيْن.

تذكَّرت لقاءنا الأوَّل قبل سنوات، ونحن ندخِّن سجائر Toma-sian من عام 1937. على الأقلّ كنَّا قد انتقلنا قرابة 30 عامًا إلى الأمام. كنت على وشكِ أن أذكِّره بذلك، لكنَّ شيئًا ما أوقفني. ظننت لوهلةٍ أنَّه سينظر إليَّ مستغربًا، كما لو لم يحدث شيءٌ من هذا القبيل.

انظر، قال وهو يشعل سيجارةً أخرى، ثمَّ سكت قليلًا قبل أن يلفظ الجملة التالية (أتذكَّر هذه الحيلة من أفلام الستينيَّات والسبعينيَّات: تأخذ نفسًا عميقًا، تطبق فمك، تحبس الدخان في رئتيْك، ثمَّ تزفر طويلًا وتضيِّق عينيْك): سأكون في حاجةٍ إليك.

سأقدِّم لك عرضًا لا يمكنك رفضه. كما يُقال في أحد أفلامي المفضَّلة. لكنَّني حتَّى اللحظة كنت أتريَّث في ردِّي متظاهرًا بالزعل.

طيِّب، ولماذا لم تتَّصل بي؟ لقد وجدتك بالمصادفة البحتة.

كيف يمكن ألَّا تعثر عليّ... ألم تكن أنت من خلقني، تمتم غاوسطين محاولًا أن يخفي سخريَّته، ثمَّ أردف يقول: بين الحين والآخر أقرأ بعض كتبك ومقابلاتك هنا وهناك. علاوةً على ذلك، فأنت من أطلقت عليَّ هذا الاسم، وإلَّا لكان اسمي سيبقى أوغسطين غاريبالدي، ألا تتذكَّر؟

غير ربِّك لا يعلم متى يمزح غاوسطين.

قل لي: ماذا كانوا يشربون في الستينيَّات؟ سألت.

كلَّ شيء، أجاب، وأخرج من الخزانة زجاجة بوربون Four Ros-es، ثمَّ سكب منها في كأسيْن من الكريستال الرصاصيّ الثقيل. اسمع، قال، مع هذه الأرائك، والطاولات، والبوربون (صحَّة! قال ورفع كأسه)، والمصابيح المكتبيَّة، والأباجورات، والموسيقى، وفنُّ البوب من

الستينيَّات، كلُّ ذلك يمكننا التعامل معه بشكلٍ جيِّد، لكنَّ الماضي أكثر من مجرَّد ديكور. سنكون في حاجةٍ إلى قصص، إلى الكثير من القصص. أطفأ سيجارته والتقط أخرى على الفور (كنت قد نسيت كيف كانوا يدخِّنون بشراهةٍ في الستينيَّات) سنكون في حاجةٍ إلى تفاصيل الحياة اليوميَّة، إلى أطنان منها... الروائح، الأصوات، لحظات الصمت، ووجوه الناس، أي إلى الأشياء التي تطلق الذاكرة، mixing memory and desire، كما قال... تعرف من قالها. أنت خبيرٌ بكبسولات الزمن تلك المدفونة في القرن الماضي، أليس كذلك؟ يعني سيكون الأمر على هذا النحو. فسافرْ واجمَع الروائح والحكايات، نحن في حاجةٍ إلى قصصٍ من مختلف الأعوام... قصصٍ فيها «هاجس المعجزة» كما جعلتَني أقول في واحدةٍ منها، أضاف ضاحكًا وتابع، كلُّ أنواع القصص: كبيرة، صغيرة، مشرقة. ولتكن القصص هذه المرَّة أكثر إشراقًا. بالنسبة إلى بعض المرضى هنا، ستكون هي آخر الحكايات في حياتهم.

حلَّ الظلام خارجًا، تلبَّدت السماء بالغيوم فوق البحيرة وانهمر المطر مدرارًا كخيوط ماءٍ ممتدَّة، فنهض غاوسطين ليغلق النافذة.

انظرْ، تاريخ اليوم في عام 1968 لقد كان أيضًا الخميس، قال وهو يتأمَّل التقويم الجداريَّ لشركة الطيران Pan Am Airlines الذي كان يضمُّ صورة عارضات أزياء من مختلف القارَّات... كانت السماء تمطر أيضًا ذاك الخميس، إذا كنت تتذكَّر.

هممت بالانصراف. وقبل أن أنزل الدرج، قال شيئًا بدا كلامًا عابرًا: الحديث عن أنَّه لا يمكن للمرء الولوج إلى القصَّة نفسها مرَّتيْن ليس صحيحًا. بالطبع يمكن ذلك. وهذا ما سنفعله.

ـ 12 ـ

وهكذا أسَّسنا أنا وغاوسطين عيادة الماضي الأولى. في الواقع هو من أسَّسها، أمَّا أنا فلم أكن إلَّا مساعدًا، وجامعًا لتفاصيل الماضي. ولم يكن الأمر سهلًا. فلا يمكنك أن تخبر أحدًا وتقول فقط «ها هو ماضيك سنة 1965». عليك أن تعرف حكاياته، وإذا ليس بإمكانك الحصول عليها، فيجب أن تختلقها. أن تعرف كلَّ شيءٍ عن ذلك العام: موضة تسريحات الشعر فيه، ومدى طول رؤوس الأحذية، ورائحة الصابون، ودليلًا كاملًا بالروائح، وما إذا كان الربيع ممطرًا، ودرجات الحرارة في أغسطس، والأغنية التي تصدَّرت قوائم الأغاني، وأهمَّ أحداث السنة، ليست الأخبار فقط بل والشائعات، وأساطير المدينة. وقد تتعقَّد الأمور حسب الماضي الذي تريد تسليمه إليك. فهل المقصود ماضيك الشرقيّ، إذا كنت ممَّن عاشوا في الناحية الشرقيَّة من جدار برلين، أم العكس وإذا كنت من هناك، فإنَّك

ستحرص على عيش تفاصيل ذلك الماضي التي حُرمت منها. بحيث تريد أن تلتهم ماضي شخصٍ آخر، مثل التهامك للموز الذي حلمت به طوال حياتك.

الماضي ليس ما حدث لك فقط... أحيانًا هو ليس شيئًا غير ذلك الذي قد تختلقه.

-13-

مكتبة
t.me/soramnqraa

كما كان الحال مع ميرتشا من مدينة تورنو ماغوريلي في رومانيا؛ وهو يتذكَّر فقط ما لم يحدث له. فقد تلاشت ذكرياته المرتبطة بأيَّام الاشتراكيَّة والكدِّ في المصنع، والاجتماعات الحزبيَّة التي لا نهاية لها، والاحتفالات، والمسيرات بمناسبة عيد العمَّال، والمستودعات الباردة... لقد محاها كلَّها في وقتٍ كان عقله لا يزال يعمل جيِّدًا. ولمَّا بدأت ذاكرته تتلاشى، لم تبق فيها إلَّا الأشياء التي كان يتعطَّش لها (نعم، هذه هي الكلمة المناسبة بالضبط) في شبابه. وحتَّى في تلك الأيَّام كان يعرف كلَّ شيءٍ عن أميركا التي كانت قريبةً من قلبه. شعر نفسه أميركيًّا دائمًا. كان لديْه صديقٌ هرب منذ زمنٍ إلى نيويورك، وقد كانا يتبادلان الرسائل بين الحين والآخر. ذلك الصديق كان دائم التذمُّر والشكوى، وفي النهاية ضاق ميرتشا ذرعًا، فكتب له: «أيُّها الحمار، لماذا بقيت هناك؟ أنت تقضي على تلك الفرصة الذهبيَّة...

تعال ودعنا نتبادل الأماكن. لقد نثر القدر الحظَّ الطيِّب على سكَّان مدينتنا، لكنَّ أبلهًا مثلك من حظي به فقط، أيُّها المتأفِّف».

أوصله ابنه إلى العيادة بعد ظهر أحد الأيَّام، فشعر ميرتشا نفسه كما لو كان في بيته وسط أسطوانات الغرامافون، والأرائك، والكراسي، وملصقات ذلك الماضي الذي لم يكن قد عاشه حقيقةً. كانت مفرداته تحلُّ مكانَ ذلك الماضي الحقيقيّ الذي كتبه له القدر في تورنو ماغوريليه. تلك الأحداث التي لم تحدث معه والتفاصيل التي اختلقها علقت في ذاكرته فترةً أطول ممَّا كان قد حدث فعليًّا. فيواصل يمشي في شوارع لم يرها إلَّا في الأفلام والكتب، ويسهر في النوادي الليليَّة لحيٍّ غرينتش فيليج، ويذكر تفاصيل عن تلك الحفلة الموسيقيَّة لثنائيّ الروك سايمون وغارفنكل عام 1981 في الهواء الطلق بِسنترال بارك، حيث لم تطأ قدمه هناك قطّ، ويتذكَّر النساء اللواتي لم يضاجعهنَّ أبدًا.

لم تختلف شخصيَّته عمَّا كانت عليه في الماضي، فما زال شخصًا «نيقة على الخليقة» هنا أيضًا في العيادة.

كلُّ القصص التي حدثت متشابهة، كلُّ قصَّةٍ لم تحدث هي لم تحدث بطريقتها الخاصَّة.

-14-

تلك هي الوظيفة المثاليَّة بالنِّسبة إليّ. ففي نهاية الأمر هذا ما أفعله دائمًا التجوُّل بين جنبات الماضي. (وخفيةً عن غاوسطين أستطيع القول إنَّنِي اختلقته كي يستحدث لي هذه الوظيفة). فقد أتيحت لي فرصةٌ لأسافر، وأتجوَّل، وأسجِّل أبسط التفاصيل... ومن يرغب في أكثر من هذا؟ أن أجمع أغلفة الرصاص من عام 1942، أو أرى ما تبقَّى بعد «نَتْفِ» سنة 1968 التي ما زالت مهمَّةً بالنسبة إلى الجميع. الأزمنة الماضية تتطاير، تتبخَّر بسهولةٍ كعطر زجاجةٍ مفتوحة، ولكن إذا كانت لديْك حاسَّة شمّ، فإنَّك تستطيع دائمًا أن تلتقط قليلًا من رائحتها. لديْك حاسَّةٌ لتنسُّم الماضي، قدرةٌ على استنشاق رائحة أزمنةٍ أخرى، سأحتاج إلى ذلك، قال لي غاوسطين. هكذا أصبحت رسميًّا صيَّاد الماضي أو ما شابه ذلك.

وبمرور السنين أدركت أنَّ الماضي يختبئ في مكانيْن هما: أوقات ما بعد الظهر (بالنظر إلى الطريقة التي يسقط فيها الضوء) والروائح. وهناك كنت أنصب فخاخي.

ليس ما أفكّر به عرضًا فنّيًا، قال غاوسطين، وبالتّأكيد ليس «عرض ترومان»، ولا «وداعًا يا لينين» ولا «العودة إلى المستقبل»... (رغم أنَّ بعض منتقديه زعموا العكس) وهو ليس للتسجيل على شريط فيديو، ولا للبثّ... حسنًا، في الواقع لا يوجد عرضٌ فنّيّ هناك. ولست مهتمًا بمحاباة البعض الذين يتوهَّمون أنَّ الاشتراكيَّة ما زالت موجودة أيضًا، لا وجود لآلة الزمن، فالإنسان هو آلة الزمن الوحيدة.

ذات يومٍ وأنا أتجوَّل في بروكلين، أدركت لأوّل مرَّةٍ بوضوحٍ أنَّ الضوء يأتي من زمنٍ آخر. كنت أستطيع أن أحدّده بدقَّةٍ تامَّة... لقد كان ضوءًا منبعثًا من الثمانينيَّات، وعلى نحوٍ أدقَّ في بداياتها. أعتقد أنَّه من عام 1982، أواخر الصيف. ضوءٌ مثلما كان في صورة بولارويد، يفتقر إلى التوهُّج، هادئ، باهتٌ بعض الشيء.

يستلقي الماضي في أوقات الظهيرة، وهناك يتثاقل الزمن بشكلٍ واضح، فيغفو في الزوايا، ويحدّق كقطَّةٍ انكمشت عيناها في مواجهة الضوء المنسكب من الستائر الفينيسيَّة الرَّقيقة... الوقت الذي نتذكَّر فيه شيئًا ما هو دائمًا وقت الظهيرة، أو على الأقلّ هكذا هو الأمر بالنِّسبة إليّ. كلُّ شيءٍ يكمن في الضوء. وأعلم من المصوّرين أنَّ ضوء الظهيرة هو الأكثر مناسبةً لالتقاط الصور. ضوء الصباح شابّ، ساطعٌ ومشرقٌ دائمًا، أمَّا ضوء الظهيرة فهو هادئ، وقديم، ومتعب. وهكذا، يمكن وصف واقع العالم وحياة الإنسان من خلال بعض فترات الظهيرة، من خلال ضوء بعض فترات الظهيرة، وهي فترات ظهيرة العالم..

وقد تبيَّن لي أيضًا أنَّه لم أكن لأستطيع إدراك كُنه ذلك الضوء الآتي من عام 1982، لولا ظهوره المتزامن مع رائحةٍ معيَّنة تنبعث من

العقد نفسه ومن طفولتي. أعتقد أنَّ ذاكرتنا للروائح تأتي برمَّتها من الطفولة، فهناك خُزِّنت في ذلك الجزء من الدماغ المسؤول عن ذكرياتنا الأولى... كرائحة الأسفلت الحادَّة، ورائحة الصمغ الذائب بفعل الشمس، ورائحة البترول الدهنيَّة، نعم، دهنيَّة. كانت بروكلين تطلق هذه الرائحة في وجهي، ربَّما بسبب الحرارة، أو ربَّما لأنَّه بمكانٍ قريبٍ جرى إصلاح الطريق، أو بسبب أعمال البناء القريبة، أو الشاحنات الكبيرة التي تقطع شوارع الحيّ. أو ربَّما بسبب كلٍّ ذلك معًا. (سأضيف هنا أيضًا رائحة ورق التغليف البنِّيّ المشبع بالزيت، الذي غُلِّفت به درَّاجتي الجديدة ماركة «البلقان»، وهي هديَّةٌ جلبها لي والداي ذات مساء. رائحة الانتظار بلهفة، رائحة شيءٍ جديد، رائحة مستودعاتٍ ومتاجر، رائحة فرح).

يمكنك استخدام الضوء في محاولةٍ بائسةٍ للحفاظ عليه وتصويره. أو مثل إدوارد مانيه، يمكنك رسم كاتدرائيَّةٍ في ساعاتٍ مختلفة من اليوم. لقد عرف مانيه ما يفعله، لم تكن الكاتدرائيَّة سوى مِحْرق... مجرَّدَ فخٍّ للقبض على أشعَّة الضوء. أمَّا الروائح، فلا يسعنا حتَّى الإتيان بتلك المحاولة المزيَّفة: لا شريط تصوير، ولا جهاز تسجيل، بل لم يجرِ ابتكار ولا حتَّى آلةٍ واحدة على مدى آلاف السنين، أين غفِل البشر؟

أليس من الغريب حقًّا عدم وجود جهاز تسجيلٍ للروائح؟ في الحقيقة يوجد واحدٌ كهذا، إنَّه فريدٌ من نوعه، ويعود تاريخه إلى ما قبل التكنولوجيا. هو جهازٌ تناظريّ، وأظنُّه أقدم جهازٍ على الإطلاق. طبعًا أتحدَّث هنا عن اللغة. ونحن لا نمتلك سواه حتَّى يومنا هذا، لذا فأنا مضطرٌّ لأصطاد الروائح بالكلمات وأضيفها إلى دفتري. نتذكَّر فقط الرائحة التي وصفناها أو قارنَّاها. واللَّافت أنَّه ليس لديْنا حتَّى أسماء للروائح. لم يكمِّل الربُّ أو آدم المهمَّة تمامًا. فليس الأمر كما هو الحال

بالنِّسبة إلى الألوان مثلًا، حيث نقول: أحمر، أزرق، أصفر، بنفسجيّ... وبالمقابل لا يُسمح لنا بتسمية الروائح مباشرة، بل يحدث ذلك في العموم عن طريق المقارنة والوصف: «تفوح رائحة بنفسج، رائحة خبزٍ محمَّص، رائحة أعشابٍ بحريَّة، رائحة المطر، رائحة قطَّةٍ ميّتة»... لكنَّ البنفسج، والخبز المحمَّص، والأعشاب البحريَّة، والمطر، والقطَّة الميّتة ليست أسماء روائح. يا له من ظلم. أو ربَّما يكمن وراء هذه الاستحالة مغزى آخر لا نستطيع تفسيره...

وهكذا سافرت، جمعت روائح ولحظاتٍ من فترات الظهيرة، وسجَّلتها في كاتالوج. كنَّا في حاجةٍ إلى تصنيفٍ دقيقٍ وشامل كي نعرف الذكريات التي تعيدها الرائحة المعيَّنة، وما هو عمر الشخص الذي توقظه الرائحة بأقصى قوَّة، وأيَّ عقدٍ يمكن أن نستدعيه من خلالها. كنت أصفها بالتفاصيل ثمَّ أرسلها إلى غاوسطين. ففي العيادة، يمكنهم دائمًا تحضير أيِّ رائحةٍ عند الحاجة. بل أيضًا أجروا محاولاتٍ لتخزين جزيئات رائحةٍ معيَّنةٍ مطلوبة، مع أنَّ غاوسطين كان يعتقد بأنَّ هذا الأمر ليس ضروريًّا، فتحميص شريحة خبزٍ أو تذويب بعض الإسفلت أكثر سهولةً وواقعيَّة.

-15-

عندما عثرت على غاوسطين والعيادة، كنت قد بدأت للتوّ بكتابة روايةٍ عن الوحش الكامن للماضي وبراءته المخادعة، وعمَّا كان يمكن أن يحدث إذا استدعينا الماضي لأغراضٍ علاجيَّة. كان عملي بالعيادة بالتوازي مع تأليف هذه الرواية يشبه الأواني المستطرقة. فمن حينٍ إلى آخر كنت أفقد إحساسي بما هو حقيقيٌّ وما هو خياليّ، وكانت قطع أحدهما تختلط بجزيئات الآخر.

وبغضّ النظر عمَّا هو واقعيٌّ أو خياليّ، فإنَّ السؤال الجوهريَّ كان: «كيف يمكن تكوين الماضي؟».

هل يا ترى، سيأتي أحدٌ كالمسيح ليبسط رحمته على أطرافه المتجمّدة، ووجهه الشاحب وقلبه المتوقّف، ثمَّ سيصرخ «بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: لِعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجًا!»، فيعيد الماضي له أنفاسه شيئًا فشيئًا، ويجري الدم تحت بشرته الشمعيَّة، فتأخذ أطرافه تتحرَّك ويبدأ يسمع ويبصر.

أو بينما ننتظره، سيأتي أنبياء دجّالون وأبالسةٌ وأطبّاءُ مجانين لِيُجْرُوا تجاربهم على جثَّته، فينتهي بهم الأمر في كلّ مرَّةٍ إلى خلق وحش فرانكشتاين. هل يمكن إحياء الماضي أو تركيبه من جديد؟ وهل يجب فعل ذلك؟

وما مقدار الماضي الذي يمكن أن يتحمَّله الإنسان فعلًا؟

ـ16ـ
السيِّد ن.

يجلس رجلٌ في أواخر أيّامه، سألقّبه بـ«السيد ن.»، بجوار نافذة الغرفة محاولًا إحياء ماضٍ ولّى. لقد تركته الذاكرة كما تركه أصدقاؤه قبل سنواتٍ عندما وقع في ضِيق. ليس لديْه أصدقاء ولا أقارب على قيد الحياة، ولا أحد يمكنه الاتِّصال به. إذا لم يكن لنا وجودٌ في ذاكرة الآخرين، فهل نحن موجودون بالفعل؟

أحيانًا يروي له أشخاصٌ عابرون قصصًا هو أحد شخصيَّاتها، ومع ذلك تجده لا يتذكَّر شيئًا من أحداثها، بل تبدو له من نسج الخيال، كما لو أنَّها حدثت لشخصٍ آخر. يعثر على نصوصٍ مذيَّلةٍ باسمه. على الأرجح كان مشهورًا إلى حدٍّ ما، ثمَّ أبعدوه. ينصحه الأطبَّاء بالاطِّلاع على ملفِّه من زمن الاشتراكيَّة... تبيَّن أنَّه لم يبقَ من الملفِّ شيء. لكن تمكَّن السيِّد ن. من اكتشاف (همسوا إليه) اسم العميل السرّيّ الذي تابعه تلك الأيَّام.

حينها كان مجبرًا على الاتِّصال بذلك العميل نفسه. في البداية كان يرفض مقابلته تمامًا. لم تكن لدى السيِّد ن. أيُّ نيَّةٍ للانتقام، بل حتَّى أنَّه يعتذر منه عن الإزعاج، حيث أراد رؤيته لسببٍ مختلفٍ تمامًا. فقد بدأ يفقد ذاكرته، فسعى إلى لملمة أشلاء نفسه قبل رحيله عن هذا العالم. وكان العميل السرِّيُّ الشخص الوحيد الأقرب من ماضيه.

حضرتك تعرف كلَّ تفاصيل حياتي الماضية أفضل من أيِّ شخصٍ آخر، حتَّى أكثر ممَّا أعرفه أنا عن نفسي. سيِّدي، دعنا نلتقِ.

هكذا بدأت اللقاءات بينهما. كانا يلتقيان ظهيرة كلَّ يومٍ ويتجاذبان أطراف حديثٍ طويلٍ ومتأنٍّ. وقد باتا في تلك اللحظة خارج حدود العالم، أو على الأقلِّ خارج ذلك النظام الذي كانا فيه شابَّيْن وعدوَّيْن... بل أقرب عدوَّيْن.

بعض القصص لم تعنِ شيئًا بالنِّسبة إلى السيِّد ن.، وكأنَّها لا تتَّصل بحياته لا من قريبٍ ولا من بعيد، في حين كان بعضها الآخر يفتح في ذاكرته أبوابًا منسيَّةً منذ زمنٍ طويل.

كانت إحدى النساء تتردَّد على حضرتك كثيرًا كلَّ خميسٍ في الثالثة بعد الظهر، وكانت امرأةً بارعة الجمال. وقتها كنتَ وحيدًا في الشقَّة، لم تكن زوجتك في المنزل، ذكَّره العميل بذلك من دون تكلُّف.

يحاول السيِّد ن. أن يتذكَّر، لكنَّ محاولته ذهبت هباءً. نعم، كانت هناك مثل فترات الظهيرة تلك. كان يستطيع إلى حدٍّ ما أن يستعيد الشعور الطفيف بالذنب والإثارة، التي خَبِرها في ذلك الوقت. ولكن من هي تلك المرأة، ولماذا اختفت فيما بعد؟ يبدو أنَّها كانت جريئةً جدًّا، حتَّى تصمِّم على إقامة علاقةٍ معه. بالتَّأكيد علمت تمام العلم أنَّه كان تحت المراقبة، وهو أمرٌ لا مفرَّ منه بالنِّسبة إلى رجلٍ مثله. سأل

كيف بدت تلك المرأة، فقدَّم العميل وصفًا تفصيليًّا عنها... كيف كانت تمشي على الرصيف، ونظرات جميع المسنِّين في الحيّ تتابعها (كأنَّه مشهدٌ من ملحمة هوميروس)... وتتمايل في مشيتها بدلعٍ من دون ارتباكٍ واستعجال، بخلاف النساء المحلِّيَّات اللواتي يسرعن في مشيهنَّ وفي أيديهنَّ حقائب تسوُّقٍ شبكيَّة،... وشعرها مهفهفٌ يتمايل على ظهرها بنعومة.

ولأوَّل مرَّةٍ، ينسى العميل نفسه، ويتحدَّث بإسهاب، كأنَّه في حالة نشوة، بينما يمشيان تحت الظلِّ المزركش لأشجار الكستناء في المدينة المقفرة التي شحُب لونها بسبب الحرِّ الشديد. وهكذا، صار المطارد والضحيَّة في نهاية الأمر يجتمعان معًا.

بعد عامٍ أو نحو ذلك من لقائي مع غاوسطين في زيورخ، أنشأنا فرعًا بلغاريًّا للعيادة، عبارةً عن فيلَّا واسعة بُنيت في الثلاثينيَّات بالقرب من صوفيا، في ضواحي بلدة كوستينيتس. أحبُّ المجيء إلى هنا، وقد كلَّفتُ نفسي بمهمَّة مراقب، رغم أنَّ الأطبَّاء والموظَّفين يعملون بشكلٍ ممتاز، وبصراحةٍ لا أشعر بأنَّهم يحتاجون إليَّ كثيرًا. أجلس وأتأمَّل ماضيَّ البلغاريّ الذي يتلاشى مع هؤلاء القادمين إلى العيادة في أواخر حياتهم... لطالما اهتممت بالمسنِّين، فأنا قضيت طفولتي بينهم. لقد ترعرعنا في بيوت أجدادنا وجدَّاتنا، وكان الحديث معهم أسهل منه مع والدينا، وهكذا خسرنا التواصل مع جيلٍ بأكمله، جيل آبائنا. والآن، عندما بدأت أنضمُّ بدوري إلى صفوفهم، صار الدافع وراء اهتمامي هذا مختلفًا أيضًا... كيف يهرم الإنسان في مواجهة الموت مبتعدًا أكثر فأكثر عن الحياة... كيف يمكن أن ينقذ ما لا يمكن إنقاذه حتَّى ولو على شكل ذكرى؟ ما مصير كلِّ ذلك الماضي الشخصيّ، أين يذهب؟

التعلُّق بالآخرين في العيادة شعورٌ مؤلم، إذ تعرف حقَّ المعرفة أنّك تعلَّقت بشخصٍ سيهجرك قريبًا. أحسُّ بأنَّ السيِّد ن. (لعلَّه مصابٌ بفقدان ذاكرةٍ رجوعيّ) قريبٌ منّي بشكلٍ خاصّ. لقد دخل العيادة مؤخَّرًا ويلازمه المخبر السابق كظلِّه، ويأتي إليه مرَّتين في الأسبوع. يبدو أنَّ الأخير أيضًا يستمتع بالزيارات، أو يحتاج إليها، فهو يقطع مسافةً طويلة من العاصمة إلى العيادة ويقضي فترة بعد الظهر كلَّها هنا. في البداية كنَّا نرسل إليه سيَّارةً لتقلَّه، لكنَّه رفض ذلك لاحقًا وبدأ يأتي إلى العيادة بسيَّارته الخاصَّة. أعتقد أنَّ الناس في حاجةٍ لرواية قصص، وحتَّى أشخاصٌ مثله. في الماضي لم يكن يستطيعه، والآن عندما أصبح بإمكانه فعل ذلك، لم يعُد أحدٌ يهتمُّ بحكاياته. لكن فجأةً ظهر رجلٌ ينتظر أن يستمع لكلِّ ما يقوله... رجلٌ تحوَّل إلى آذان صاغيةٍ لجميع تلك القصص... رجلٌ على أهبَة الاستعداد لسماع كلِّ شيء. هو الرجل نفسه الذي كان يراقبه... الذي فقد ذاكرته الآن... الذي أُبعِد مرَّتيْن.

قلْ لي من أنا.

يشعر العميل بنفسه كشخصٍ قادرٍ على التلاعب بالآخرين، وكان دائمًا يتمتَّع بمثل هذه السُلطة بحكم مهنته، رغم أنَّها الآن ليست بالمستوى ذاته الذي كانت عليه... السلطة على ابتكار حياة شخصٍ لم يعُد يتذكَّر الكثير منها. طبعًا، بمقدوره أن يدسَّ للسيِّد ن. ذكرياتٍ مزيَّفةً تمامًا، لكن عليه أن يجد نقاط ارتكازٍ في ذاكرته، فلا يعرف أبدًا متى ستطفو بعض التفاصيل المفقودة، ومتى ستبرز بغتةً بعض الوجوه أو العبارات عبر قناة الخلايا العصبية الهشّة. ولكن يبدو أنَّ العميل، دعنا نسمِّه السيد أ. ليست لديه حتَّى الآن مثل هذه النوايا. وهو أيضًا يرغب في الرجوع إلى مغارة الماضي الدافئة.

وفي إحدى المرَّات، يروي العميل للسيِّد ن.،... حضرتك أتيت وجلست على طاولتي في مقهى «اللبلاب» القريب من مدخلك في الشارع نفسه. كان من عادتي أن أجلس هناك وأراقب من يدخل ويخرج من منزلك. وبعد ظهر أحد الأيَّام خرجتَ من البناية، قصدتَ المقهى، نظرت حولك وجلست على طاولتي. كانت هناك طاولاتٌ أخرى شاغرة، والمقهى شبه خال، لكنَّك جلست على طاولتي حتَّى بدون استئذان. انتابني الذهول، ظننت، أنَّه قد كُشِف غطائي. انتظرتُ ما ستقوله، وكانت تدور في ذهني كلُّ أنواع السيناريوهات. حضرتك طلبت فودكا، فنحن جميعًا كنَّا نشرب فودكا آنذاك، وحتَّى فودكا مع كوكا كولا، في تلك الزجاجات الجميلة... أترى، كانت لديْنا كوكا كولا أيَّام الاشتراكيَّة. على كلِّ حال... كنت أشرب الفودكا وأنتظر أن تكشف أوراقك، لكنَّك لم تنطق بكلمة. إنَّها أكثر نصف ساعةٍ عذابًا في حياتي. كنت تنظر إليَّ من حينٍ إلى آخر، ظننتُ أنَّك كشفت غطائي تمامًا... أتساءل حتَّى الآن عمَّا إذا شعرت بتعقُّبي لك. فالناس عادةً يدركون ذلك، أَكنتَ تعلم؟

لا أتذكَّر، أجاب السيِّد ن. وهو يهزُّ كتفيْه لا مباليًا.

ينتظر السيِّد ن. هذه اللِّقاءات بحماسٍ كبير. يبدو لي أنَّه ما زال يعيش فقط ليسمع القصَّة الكاملة عن نفسه. أحبُّ أن أجلس بقربه... نتبادل أحيانًا بعض الكلمات، ثمَّ نصمت. لا أعرف ما يدور في ذهنه، لكن يبدو لي أنَّه يتذكَّر أكثر ممَّا يفصح عنه. ربَّما هو أيضًا يلعب لعبته الخاصَّة... لعبة فاقد الذاكرة... لعبة الضحيَّة التي تسمح للراوي بتوجيهها متظاهرةً بنسيان كلِّ شيء، فتضعف حذر الراوي لتجبره على سرد كلِّ شيءٍ بالتفاصيل التي لم ينو الكشف عنها.

اِحكِ لي، قال السيّد ن.، أيَّ قمصان كنت أرتدي... أيَّ أحذية، هل كنت بشوشًا أم متجهّمًا، أكنت أنظر إلى الأسفل بينما أمشي... هل كنت أسير محدودبًا... وفي النهاية سأل فجأة: هل كنتُ سعيدًا؟ اندهش العميل السرّيُّ من السؤال، فهو يستطيع أن يتحدَّث عن كلّ شيء، القمصان، السترات، المعاطف، السجائر، البيرة، الفودكا، التي طلبها شخصٌ تحت المراقبة، ولكن...

لا أحد يتذكَّر تلك التفاصيل، فبعد مرور الزمن عليها، تنساها حتّى العشيقات والزوجات. ولا يعرفها سوى العميل السرّيّ. دعونا نتصوَّر أنفسنا مكانه: عليه أن يجلس، ويراقب، ويصف كلَّ ما يرى، وهو أمرٌ تافهٌ إلى حدٍّ ما. فماذا يمكن أن يحدث في يوم رجلٍ خمسينيٍّ ذلك الوقت؟ يخرج، يمشي على الرصيف، يتوقَّف، يُخرج علبة كبريت، يكوِّر أصابع يديْه ليشعل سيجارة. أيُّ نوعٍ من السجائر يدخِّن؟ «ستيوارديسا» طبعًا طبعًا. ماذا يرتدي؟ قميصًا رماديًّا بأكمامٍ مشمَّرة، بنطالًا، حذاء، و... يا سلام! حذاءً إيطاليًّا باهظ الثمن، مدبَّب الرأس، هذا ما سيسجِّله. كما ويرتدي قبَّعة بورسالينو... قلائل مَن يرتدونها. وذلك أيضًا يستحقُّ التسجيل. لو كلَّفنا أنفسنا عناء قراءة آلاف الصفحات تلك التي كُتبت في خمسينيّات/ ستينيّات/ سبعينيّات/ ثمانينيّات القرن الماضي بأقلام جميع أولئك العملاء المتنصّتين المسجِّلين، لكنَّا حظينا بروايةٍ بلغاريَّةٍ عظيمة عن زمن الاشتراكيَّة... روايةٍ ركيكةٍ ورتيبة كذلك العصر تمامًا.

- 17 -
حاشية عن الملحمة المستحيلة

في جميع الملاحم القديمة يواجه البطل عدوًّا قويًّا يقاتله الثور السماويّ، وجلجامش، والوحش غريندل ووالدته، والتنين الذي أصاب بيوولف الهرم بجروحٍ قاتلة؛ كلُّ الوحوش والثيران وغيرها في «تحوُّلات» أوفيد، والصقلوب لدى «أوديسيوس» وما إلى ذلك... لقد انقرضت تلك الوحوش في روايات العصر الحديث، فرحل معها الأبطال. اختفاء الوحوش يعني اختفاء الأبطال.

في الحقيقة هنالك وحشٌ... وحشٌ يتربَّص بنا جميعنا. ستقولون إنَّه «الموت». نعم، نعم، هو شقيق الموت. لكنَّ الوحش الحقيقيَّ ليس الموت بل الشيخوخة. إنَّها معركةٌ واقعيَّة (ومحتومة)، لا بريق لها، لا ألعاب ناريَّة، لا سيوف مرصَّعةً بأسنان القديس بطرس، لا دروع سحريَّة، لا أبطال مساعدين يظهرون فجأة، لا أمل في أن «يغنِّي الشعراء أغنياتٍ عنك»...، ولا طقوس...

معركةٌ ملحميَّةٌ من دون ملحمة.

مناوراتٌ طويلةٌ منعزلة، تربُّص، أو بالأحرى حرب خنادق، اختباء، تقهقر، وترصُّدٌ في ساحة المعركة «بين الساعة والسرير»، كما تُسمَّى إحدى الصور الذاتيَّة لمونش الهرم. بين الساعة والسرير... من سيهلِّل لمثل هذا الموت ولمثل هذه الشيخوخة!

- 18 -

السيِّد ن. (تابع ما قبله)

لم ينس السيِّد أ. كم كان صعبًا اختلاق هذا الهراء وكتابته في التقارير. فهو إلى حدٍّ ما اختبر في ذلك معاناة الكُتَّاب. كانت توقُّعاته بالنِّسبة إلى مهنته كبيرة، كما يحدث في الأفلام والروايات: مطاردة سيَّارات، زوَّار سرِّيُون، الشخص المراقَب يقفز من النافذة في منتصف الليل... أي يحتاج السيِّد أ. إلى حبكة قصَّةٍ ما، من دون أن يعرف هذا المصطلح. طبعًا، لا توجد حبكةٌ قصصيَّةٌ هنا، وفي هذا تتجسَّد لغةٌ لاسينمائيَّة عميقة للحياة. لا شيء إلَّا الخروج من البيت والرجوع إليه. وحتَّى أقرب أصدقاء الهدف المراقَب توقَّفوا عن زيارته، كيلا يورِّطوا أنفسهم. طبعًا باستثناء زيارة العشيقة له أيَّام الخميس، فهو أمرٌ يَعِد بشيء، لذا كان العميل يسجِّل تفاصيل علاقتهما في تقاريره. لكن، بدورها لم تكن تلك العلاقة حدثًا نادرًا، بل جزءٌ من الحياة اليوميَّة، فهل هناك منْ لا عشيقة (أو عشيق) له (لها)؟

أحيانًا لم أتمكَّن من العثور على شيءٍ مثيرٍ للاهتمام كي أسجِّله، يعترف السيِّد أ.، لأنَّه بالفعل لم يحدث شيءٌ مثير. يشعر السيِّد ن. بقلقٍ لأنَّه تسبَّب في متاعب، وهو متضايقٌ لكونه عاش مثل هذه الحياة المملَّة التي لا يمكن كتابة أيِّ شيءٍ عنها. ربَّما كان عليه أن يفعل شيئًا عظيمًا، أن يطلق النار على نفسه في حضور العميل، ممَّا سيملأ بسهولةٍ صفحتيْن على الأقلّ. من ناحيةٍ أخرى، فإنَّ السيِّد ن. مهتمٌّ (أو ألصق به صفة الاهتمام، بينما في الواقع أنا المهتمّ) على وجه التَّحديد بذلك اللَّاشيء في الحياة اليوميَّة، الحياة بجميع تفاصيلها. هذا ما يريد أن يتذكَّره بالضبط. لقد محا بشكلٍ ممنهجٍ كلَّ خصوصيَّاته إذا كانت هذه الكلمة صالحةً لوصف الاعتقال، والضرب في القبو في شارع «موسكو» رقم 5، والبؤس، ورائحة البول في الزنزانة المزدحمة بسجن مدينة بازارجيك، وحرمانه من الزيارات، وحظر الرسائل. كلُّ ذلك جرى اقتلاعه من ذاكرته، لكن يبدو أنَّ هناك أشياء أخرى ذهبت معه، وهي الأشياء العاديَّة التي تكوَّنَّا منها. لقد صادروا كلَّ حياته اليوميَّة المسجَّلة أثناء عمليَّات التفتيش، ثمَّ أعادوها له، لكنَّه منذ ذلك الحين لم يمسَّها: صورتان بالأبيض والأسود من طفولته، صورةٌ من أيَّام الثكنة، ألبوم صغيرٌ به صورٌ من حفل زفافه (بقي معه بعد الطلاق)، صورةٌ له وهو يمشي في الشارع، حيث تتماوج أطراف معطفه الطويل، وهو يضحك، ويأتي ببعض الإيماءات بيده تجاه الشخص الذي يلتقط الصورة، وهكذا. بالطبع، لم تكن هناك صورةٌ للمرأة التي كانت تزوره كلَّ خميس.

ذات يومٍ يأتي السيِّد أ. ببعض الرسائل، إنَّها رسائل السيِّد ن. إلى تلك المرأة. ولكن كيف حصلت عليها...، يسأل السيِّد ن. في حين يكتفي العميل برفع حاجبيْه متفاجئًا من سذاجة السؤال. يفتح السيِّد

ن. الرسائل، إنَّها قصيرة... يقرأها فيدرك أنَّه لا يتذكَّر شيئًا منها. يقرأها بفضولٍ حقيقيٍّ كما لو لم يكن هو كاتبها. عليه أن يعترف بأنَّها تعجبه. فهي مكتوبةٌ بشكلٍ رائع، لقد وجد المفردات المناسبة، وكان رومانسيًّا من دون أن يبالغ بذلك. وحازمًا وجريئًا في بعض طلباته. وهذا أمرٌ جديدٌ بالنِّسبة إليه، فهو يظنُّ نفسه خجولًا ومربكًا. في رسالته الأخيرة يطلب من المرأة أن تتوقَّف عن القدوم إليه، لأنَّهم بالتَّأكيد يراقبونه، فهناك شخصٌ ماكرٌ قصير القامة يرتدي قبعة، تجده يجلس طوال اليوم في المقهى المقابل. في هذا المكان يرفع السيِّد ن. عينيْه عن الرسالة وينظر نظرة اعتذارٍ إلى العميل. لا تقلق، يقول السيِّد أ.، لقد تجاوزت ذلك.

يضع السيِّد ن. الرسائل في منتصف الطاولة. ولا يعرف ما إذا كان من الممكن أن يأخذها أم عليه أن يعيدها. يومئ السيِّد أ. برأسه، إنَّها لحضرتك. يستمرَّان في الكلام مستخدمين صيغة الاحترام «حضرتك» على الرَّغم من عدم وجود شخصيْن مقرَّبين من بعضهما البعض كما هما الآن.

بمرور الوقت، بدأت صورة المرأة من أيَّام الخميس تسيطر على أفكار السيِّد ن. لكن لماذا ذلك يخيفه أكثر ممَّا يفرحه... العلم عند اللَّه. تطفو صورتها من العدم، كما كانت تُظَهَّر الصور القديمة بمُحمِّض الأفلام. شعرها مصفَّفٌ مجدول على شكل ذيل حصان، وفي غرَّتها خصلةٌ فضِّيَّة اللَّون. ورغم أنَّ هذا هو بالضبط ما كان يتوق إليه في البداية، إلَّا أنَّ ظهورها الآن بات مخيفًا. وسبب ذلك بسيطٌ جدًّا، فالسيِّد ن. مرتابٌ من قدرة هذه المرأة على صدع جدار السدِّ الذي كان يبنيه بعنايةٍ لسنواتٍ طويلة، فتتسبَّب بإطلاق كل ما لا يريد عودته. وهو يشكُّ في قدرته على تحمُّل ذلك. من ناحيةٍ أخرى، إذا

أحبَّه شخص، فيعني أنَّه أيضًا كان موجودًا، حتَّى لو لم يتذكَّر الشيء الكثير عن نفسه.

وإذا كان هناك شخصٌ أحبَّه، فقد يعتبر ذلك أيضًا دليلًا على وجوده.

لكن يا تُرى ماذا حدث بعد ذلك؟

في زيارته التالية يقدِّم السيِّد أ. مفاجأةً أخرى. يُخرج من حقيبته الجلديَّة صورةً ملفوفةً بعنايةٍ يسلِّمها إلى السيِّد ن. إنَّها بالأبيض والأسود، وكان تباين الضوء ودرجات الظلِّ فيها شديدًا، فيمكنك أن ترى شارعًا خاليًا وعلى الرصيف تحت ظلِّ شجرةٍ يقف السيِّد ن. وامرأةٌ تميل عليه. ربَّما كانت تريد أن تهمس بشيءٍ في أذنه أو تقبِّله، من الصَّعب معرفة ذلك. وأوراق الأشجار ترمي بظلالها على فستانها.

أجمل امرأةٍ في صوفيا، يضيف في النهاية السيِّد أ.، لم يكن مكانها هنا، لا يناسبها لا المكان ولا الزمان. أعرف أنَّ الكثيرين كانوا يموتون حبًّا بها، ولعلَّ جزءًا من مشكلاتك تتعلَّق بهذا الأمر. بالطبع، أوَّلًا وقبل كلِّ شيءٍ بسبب ما كنت تكتبه وتتحدَّث عنه في المقاهي بصدد أحداث عام 1968. ولكن أيضًا بسبب تلك المرأة التي بالمناسبة ابنة أحد الكتَّاب المسنِّين. رحمه اللَّـه، كان لا يطيقك. كان من بين أوفياء الحزب الاشتراكيّ، أمَّا مؤلَّفاته فكانت ركيكة، لذا كان البعض يقولون مازحين إنَّ عملًا واحدًا له ذا قيمةٍ ألا وهو ابنته. علمتْ أنَّه ليس لها أيُّ مستقبلٍ معك، وحضرتك أيضًا لم يكن أيُّ مستقبل أمامك. أظنُّ أنَّها كانت تحبُّك لذلك السبب بالضبط.

المستقبل... من جديد. لو كان بمقدور السيِّد ن. لتذكَّر أنَّ المستقبل لم يكن بين أولويَّاته أبدًا. فالأقوال عن المستقبل أيَّام

الاشتراكيَّة جعلته يدلي بتعليقاتٍ لاذعة أثناء السهرات. وكان مستقبل الكون غامضًا ومريبًا أيضًا بالنسبة إليه؛ النظام الجديد، العالم الجديد، الأشخاص الجُدد: كلٌّ ذلك يبدو له بعيدًا... تخريفًا في تخريف. المستقبل المشرق يصيبني بحرقةٍ في المعدة، قال مرَّةً في حضور الأصدقاء والمعارف (هذا بالطبع جرى تسجيله على الفور). بعدها بقليلٍ سيصوغ برودسكي العبارة نفسها بشكلٍ أكثر ألقًا: لم تكن خلافاتي مع هذا النظام سياسيَّةً بقدر ما كانت جماليَّة. ولكنَّني أفضِّل ما قاله السيِّد ن. فقد كانت خلافاته مع النظام فسيولوجيَّة.

-19-

هنالك أيضًا ماضٍ ميّتٌ ومحنَّط.

بالنسبة إلى أبناء جيلي، فإنَّ الذكرى الأولى عن جثَّةٍ هي ذكرى مشتركة. حيث يبدو وكأنَّ وزارة التربية قد أصدرت أمرًا (لا بدَّ أنَّه كان كذلك) يفرض على جميع طلّاب الابتدائيَّة زيارة ضريح الرفيق غيورغي ديميتروف؛ والانحناء أمام القائد والمعلِّم الذي أحبَّ الأطفال كثيرًا، وخصَّص من وقته لالتقاط الصور معهم، على الرَّغم من يومه المزدحم؛ وتقديم الاحترام لِ«بطل لايبزيغ» الذي «أشعل بشجاعةٍ النار في الرايخستاغ الألمانيّ»، كما قال أحد زملائي الذي خانه التعبير، فأوقعه كلامه في ورطة، ممَّا أدَّى إلى استدعاء والديْه عند مدير المدرسة، وتوبيخه، وما إلى ذلك. لم ينجح غوبلز نفسه في إدانة الرفيق ديميتروف، ولكنَّك سمَّيتَه بمفتعل الحريق، صرخت معلِّمتنا في وجه زميلي المسكين.

لا يهمّ، ولكنَّ اللّقاء الأوَّل مع الموت انطبع في ذاكرتنا ورافقنا طوال الحياة. فكان الضريح يقدِّمه لنا كتجربةٍ حيَّةٍ مع الموت، إذا جاز التعبير. وجميع الوفيَّات المتتالية والرفات بعد ذلك ستكون نسخًا من تلك الجثَّة النموذجيَّة الأولى، وستُقارَن بها. كنَّا نعتقد أنفسنا محظوظين، لأنَّ العالم لم يعجَّ بأضرحةٍ و«رجال محنَّطين»، كما همسنا لبعضنا البعض قبل الدخول. ونحمد اللّـه أنَّ أحدًا لم يسمع كلامنا عن «الرجل المحنَّط» وإلَّا فإنَّنا كنَّا سنعاني أشدَّ المتاعب.

لقد جاؤوا بنا إلى العاصمة من مدينتنا البعيدة. سافرنا ليلةً كاملةً متأرجحين على متن قطارٍ بطيء، وذلك بغية أن توفِّر المدرسة ثمن ليلةٍ بفندقٍ في العاصمة. في الصباح، ونحن ما زلنا متعبين منهكين يغلبنا النعاس، اتَّجهنا من محطَّة القطار إلى الضريح مباشرةً وانتظرنا أمامه غارقين في ضباب تشرين الثاني. وحين جاء دورنا للدخول انتابنا الخوف. مررنا بجانب حرس الشرف عند المدخل الذين كانوا واقفين متجمِّدين. هل هم محنَّطون كذلك؟ الممرَّات في الداخل مظلمةٌ لا تضيئها إلَّا مشاعل كهربائيَّة... ممرَّاتٌ باردة كما لو كنَّا في ثلَّاجة. طبعًا، الضريح عبارةٌ عن ثلَّاجةٍ تشبه ثلَّاجة التجميد في المنزل التي تملأها أمَّهاتنا باللحوم والدجاج حتَّى لا تفسد.

اقتربنا من القاعة، حيث توضع الرفات، وإذ بنا نرى فعلًا غطاء التابوت الزجاجيّ. صديقي ديمبي الذي يجلس بجواري على المقعد الدراسيّ نفسه همس لي في الخارج: إذا حدَّقت عن كثبٍ في جفنَي الجثَّة، ستراهما يرتعشان قليلًا، هكذا قال له أخوه الذي زار الضريح من قبل.

كان المتوفَّى يبدو كأنَّه من البلاستيك، بل سترته وسرواله أكثر حيويَّةً منه؛ طيَّة سترته مغطاةٌ بميداليَّات، وشاربه مثل فرشاة ملابس. في هذه اللحظة وأنا أمرُّ ببطءٍ إلى جانب رأسه، رأيت بوضوحٍ تامٍّ أنَّ جفنه رفَّ لجزءٍ من الثانية... هكذا: تكْ تكْ، مرَّتيْن، رفَّ جفنه الأيسر. بالكاد كظمت صراخي. كأنَّه كان يغمزني بعيْنه من تحت غطاء التابوت الزجاجيّ. «خذوا حذركم؛ لأنَّ الرفيق ديميتروف يرى كلَّ شيء»، كانت معلِّمتنا تقول ذلك دائمًا بشيءٍ من الوعيد، وهي تشير إلى صورته المعلَّقة على الحائط. «صه صه، يرى الرفيق... «هتر هاتر» كنت أقول دائمًا في نفسي، وها هو الآن يغمز بعينيْه ليعاقبني على شكوكي. أَيمكن أن يبقى «حيًّا للأبد»، كما كانوا يكرِّرون على مسامعنا باستمرار؟

أحمد اللَّـه، أنَّ صديقي ديمبي كان بجواري وأنقذني من هذا الخوف الميتافيزيقيِّ المبكِّر. لست متأكِّدًا من أنَّه لاحظ رفَّة الجفن (أو أنَّ الغمز كان إشارةً موجَّهةً إليَّ فقط؟)، لكنَّه بمثابة عالم أحياءٍ هاوٍ قرأ كتب أخيه الأكبر، شرح لي كلَّ شيءٍ من باب التجارب الموصوفة على الضفدع الميِّت. إنَّ الضفدع ولو كان ميِّتًا وأطرافه تتدلَّى متجمِّدة، إذا صدمته بالكهرباء قليلًا، سيبدأ يركل كما لو كان حيًّا. سنجري هذه التجربة في الصفِّ السادس، قال، ثمَّ تابع: يعني هذا أنَّ الرجل هنا ميِّتٌ مثل ضفدعٍ ولن ينهض أبدًا ولكن لديْه عضلاتٌ تتحرَّك.

وأنا ما زلت ألجأ إلى ذلك التَّفسير حين تزداد هواجسي وهْمًا.

-20-

السيِّد ن (نهاية القصَّة)

ولكن كيف أتت إليَّ، سأل السيِّد ن.

كانت زوجة صديقٍ لك ارتكب بعض الجنح، فحشرناه في الزاوية حتَّى أصبح عيْنَنا. في الحقيقة هو لم يتمنَّع كثيرًا. لقد كان مُخبرنا الرئيسيّ، رغم أنَّ حضرتك دائمًا كنت تشتبه في أشخاصٍ آخرين، أو على الأقلّ هذا ما كنت تقوله في المكالمات الهاتفيَّة، أجاب العميل السرّيّ.

تنصَّتوا على هاتفي؟! استغرب السيِّد ن.

لم يجرؤ السيِّد أ. على الإجابة، بل أضاف: في اليوم الذي أصبح صديقك صاحب وظيفةٍ كبيرةٍ في الحزب جاءت السيِّدة إليك وحدها لأوَّل مرَّةٍ بعد ظهر يوم الخميس، وكان هذا أوَّل يوم خميسٍ تزورك فيه.

يصغي السيِّد ن. ويتخيَّل تلك المرأة شيئًا فشيئًا... لها شعرٌ طويل، وخصلةٌ فضّيَّة اللَّون في غرَّتها، تتمايل بتؤدة. وحين تعبر الشارع يلتفت الجميع وراءها. مخرجٌ مسرحيٌّ مشهور هام بها عشقًا، فقدَّم مسرحيَّةً كرَّسها لها، وبدت الممثِّلة هكذا: شعرها مصفَّفٌ على شكل ذيل حصانٍ وفي غرَّتها خصلةٌ فضّيَّة... وقد علم الجميع مَنْ كانت تمثِّل. طردوا المخرج على الفور، وأرسلوه إلى مسرحٍ آخر، ومنعوا المسرحيَّة، وانتهى زواجه.

لم تجلب تلك المرأة إلَّا المتاعب، قال السيِّد أ.

لماذا يواصل العميل السرِّيّ السيِّد أ. المجيء؟ ربَّما بدافع الفضول أو الخوف من التعرُّض للابتزاز. لكنَّه سرعان ما يدرك أنَّه لا وجود لمثل هذا الخطر. وهناك شيءٌ آخر، إذا لم يتذكَّر السيِّد ن. شيئًا، أو لا شيء تقريبًا من ذلك، فإنَّ السيِّد أ. بريءٌ من الذنب، إذا جاز التعبير. ورغم أنَّه يعجز عن صياغة الفكرة بشكلٍ واضح، إلَّا أنَّه يفكِّر: إذا لم يتذكَّر أحد، فكلُّ شيءٍ مباح. «إذا لم يتذكَّر أحد» هي جملةٌ تبدو متطابقةً مع «إذا لم يكن هناك إله»... «إذا لم يكن هناك إله، فكلُّ شيءٍ مُباح»، كما يقول دوستويفسكي. وربَّما سيتَّضح أنَّ الإله ليس سوى ذاكرةٍ مشفَّرة، ذاكرةٍ للذنوب، سحابة تخزينٍ بسعةٍ لا حدود لها. ربَّما نحن في حاجةٍ إلى إلهٍ كثير النسيان، مصابٍ بألزهايمر كي يخلِّصنا من كلِّ الالتزامات: لا ذاكرة، إذن لا جريمة.

ولماذا إذن يأتي السيِّد أ. ويتحدَّث؟ ربَّما لأنَّ المرء لا يستطيع الحفاظ على سرٍّ لفترةٍ طويلة. يبدو أنَّ السرَّ نتاجٌ متأخِّر في مسيرة التطوُّر. لا حيوان يحفظ سرًّا، فلا يكتم السرَّ إلَّا الإنسان. إذا كان علينا أن نصف

ماهيَّة السرّ، فمن المرجَّح أن نعرِّفها كَ «كتلةٍ صلبةٍ خشنة». وفي حالة السيِّد أ. لا نستعمل هذا التعريف بمعناه المجازيّ؛ لأنَّ الكتلة حقيقيَّة، ويحاول السيِّد أن يتجاهلها منذ أشهر، ولكن بعد لقائه مع الطبيب قبل ثلاثة أسابيع أدرك كلَّ شيء. إنَّ إصابته بمرضٍ عضالٍ تخلِّصه من أشياء كثيرة، لكنَّها أيضًا تحثُّه على فعل أخرى. المطارد الآن يطلب من الضحيَّة الاستماع إليه. الشيخوخة تجعل الجميع متساوين. لقد أصبحا أخويْن في السلاح، ووقفا مع الجانب الخاسر في معركةٍ محتومة النهاية. أخيرًا يمكن للسيِّد أ. أن يحكي كلَّ شيء. كما يمكن للسيِّد ن. أخيرًا أن يحصل على القصَّة الكاملة عن نفسه.

ماذا حدث لها؟ أعاد السيِّد ن. سؤاله غير متأكِّدٍ من أنَّه يريد سماع الإجابة.

يمكن أن ينزلق السيِّد أ. بألف جوابٍ وجواب. مثلًا، «لم يَعُد الموضوع هدفًا للملاحقة»، وهو الردُّ الأكثر استخدامًا في دوائر المُخبرين. أو «قد تولَّى عميلٌ سرِّيٌّ آخر التحقيق»، وما إلى ذلك. يصمت السيِّد أ.، ويلتقط سيجارة، وترتجف أصابعه. وكأنَّ السيِّد ن. لم يلاحظ إلَّا الآن مدى الشيخوخة التي أصابت السيِّد أ. في الأشهر الأخيرة، وصفرة بشرته، ونحول وجهه. لقد اتَّصل به قبل أسبوعيْن أو ثلاثة قائلًا إنَّه لن يستطيع الزيارة، وعليه إجراء بعض الفحوصات الطبِّيَّة.

عندها اعترف السيِّد أ. بكلِّ شيءٍ... كيف أخبرت زوجها بعد اعتقال السيِّد ن. بأنَّها ستتركه على الفور، إذا لم يفعل شيئًا من أجل صديقه؛ كيف حزمت حقائبها وهجرته في اليوم التالي؛ كيف كانت تتنقَّل من سجنٍ إلى آخر، وقد طلبت زيارته، لكنَّهم أخبروها بأنَّ السجين

رفض رؤيتها؛ كيف وصلت في النهاية إلى السيِّد أ. نفسه. جاءت إلى منزله ذات مساءٍ وأرادت الحديث عن السيِّد ن.، ثمَّ توسَّلت إليه أن يُخبرها بمكان وجوده، وأن يدبِّر أمر زيارتها له. كانت موافقةً على كلِّ شيء...

فجأةً، أخذ السيِّد ن. يتصوَّر المشهد كلَّه بينهما مع وجود فارقٍ بسيط: في وسط الغرفة جسدها النَّضِر الجميل عاريًا، بينما يقف السيِّد أ. أمامها في عمره الحاليّ كما هو الآن، عجوزٌ مترهِّل، جلدٌ على عظم. وإذ بها تعود تلك الحموضة الحادَّة مع شعورٍ بالاشمئزاز، ولم يكن الأمر في هذه اللحظة من نسج الخيال، بل بالعكس، له بُعْدٌ جسديٌّ وحتَّى فسيولوجيّ، فمعدته تحترق كما لو سكب أحدٌ خلًّا بداخله.

آسف، قال، وهو يقف متجمِّدًا في انتظار كلام السيِّد ن. وبغضّ النظر عمَّا سيقوله، فإنَّه سيكون نهاية القصَّة.

لم ينطق السيِّد ن. بكلمة، بل كان يشعر برغبةٍ شديدةٍ في التقيُّؤ. عادت الحموضة وجسده استعاد الذكرى نفسها، فأحسَّ بالقرف من جديد. أخذ الصورة ونهض ثمَّ مضى. لو كان ذلك فيلمًا، لسمعنا صوت طلقةٍ خلف شاشةٍ فارغة.

إنَّها ظهيرة العالم. يمشي رجلٌ على الرَّصيف في الجانب المظلَّل من الشارع. الشهر هو آب ظهيرة السنة. تسطع الشمس بين الأشجار وتلقي بظلالها على الرَّصيف. لا شيء آخر. تستريح البيوت بجدرانها الدافئة تحت الشمس، وتنبعث من شبَّاكٍ مفتوحٍ موسيقى يبثُّها راديو. المشهد بسيطٌ كأنَّه شريطٌ سينمائيّ. في الطرف الآخر من الشارع تطلُّ امرأة، تقف بجانب الرجل تحت ظلِّ الشجرة (الماضي المطلق يشبه

شيئًا كهذا... ظهيرة العالم... مَخْبأٌ تحت ظلِّ شجرة). بالقرب منهما يقف رجلٌ مخفيٌّ وهو يصوِّر. لقد التقط الصورة بمهارة، حيث تظهر بشكلٍ واضحٍ ظلال الأوراق الممتدَّة على الرَّصيف وعلى الجسديْن، وهيئة المرأة المائلة على الرجل، وخلو الشارع في فترة ما بعد الظهر. ما سيحدث بعد هذه الصورة لم يحدث بعد.

الرجل في الصورة يمسك الآن خياله والمرأة بين ذراعيْه، ولم يبق من الاثنين تحت الشجرة سواه، وكذلك المصوِّر. إنَّه الشخص الوحيد الذي لن ينسى هذا المشهد أبدًا؛ لأنَّ القصَّة التي رواها هي الحكاية الوحيدة في حياته الهامشيَّة. أمَّا المرأة (التي اختفت في ظروفٍ غامضة، وهي وحيدةٌ بدورها) فتطارده منذ ذلك الحين مع الرجل الذي يقف هنا فاقدًا ذكرياته. يسمِّي البعض هذه المطاردة بكلمة «ذنب». لكن مثل معظم الناس، لن يجد السيِّد أ. هذه الكلمة حتَّى النهاية.

-21-
طوابق الماضي

سنةٌ قبل مجيء السيّد ن. إلينا كانت الأمور في عيادة زيورخ قد سارت بشكلٍ جيّدٍ وحتّى أنَّها فاقت توقُّعاتنا. لقد استأجر غاوسطين الطابق العلويَّ من المبنى بأكمله، وهناك كان من المُمكن إنشاء جميع الأشكال الحياتيَّة من الستينيَّات. بعد فترةٍ وجيزةٍ تلقَّينا دعوةً من مركز الطبِّ النفسيِّ للمسنِّين وهو صاحب المبنى، إلى تطبيق علاجنا في أجنحتهم أيضًا. لذا، فإنَّنا عمليًّا كنَّا نتمتَّع بحرِّيَّة استخدام المبنى بأكمله. ثمَّ شرعنا بإنشاء غرفٍ للماضي وعياداتٍ صغيرة في العديد من البلدان الأخرى، بما فيها بلغاريا.

كان مرض اَلزهايمر وفقدان الذاكرة بشكلٍ عامّ يتحوَّل إلى المرض الأسرع انتشارًا، حيث تشير الإحصاءات إلى أنَّ كلَّ ثلاث ثوانٍ في العالم يصاب شخصٌ واحدٌ بالخرف. كانت الحالات المسجَّلة

وحدها تبلغ 50 مليون حالة، وفي غضون 30 عامًا سيتضاعف عددها ثلاث مرّات. ومع زيادة متوسّط العمر المتوقَّع، كان ذلك أمرًا حتميًا، فجميع الناس يشيخون. يأتي رجالٌ مسنُّون برفقة زوجاتهم إلينا متأبِّطين أذرعهنّ، أو بالعكس. امرأةٌ مسنَّةٌ تحمل خاتم ألماس تصطحب شريكها الذي يبتسم في حيرةٍ ويسأل «في أيّ مدينةٍ نحن الآن؟». كان يحدث أن يحضر الأبناء أو البنات إلى العيادة كلا الأبويْن اللذين لم يعودا يتذكّران وجوه أبنائهما. كانوا يأتون لبضع ساعات، لقضاء وقت بعد الظهر في شقَّة شبابهم الماضي، ويدخلون العيادة كأنَّهم في منازلهم؛ «أين فناجين الشاي... هذا هو مكانها، إنَّني أضعها هنا دائمًا...»؛ يجلسون على الكراسي، يتصفَّحون ألبومات الصور بالأبيض والأسود وفجأة «يتعرَّفون» على أنفسهم في البعض منها. أحيانًا كان مرافقوهم يجلبون الألبومات القديمة من بيوتهم، ونحن نضعها على المنضدة قبل مجيئهم. كذلك كان هناك أشخاصٌ لا يتحرَّكون إلَّا بخطوةٍ في أحد الاتِّجاهات، ثمَّ ما يلبثون أن يعودوا إلى وسط الغرفة ويقفوا تحت الثريَّا مرتبكين.

كان هناك رجلٌ مسنٌّ يحضرونه إلينا بانتظام، وهو يحبُّ الاختباء خلف الستارة. يقف هناك مثل صبيٍّ مسنٍّ يلعب الغمَّيْضة، ولكنَّ اللُّعبة طالت، فتخلَّى عنها بقيَّة الأولاد وعادوا إلى بيوتهم وشاخوا. ولا أحد يأتي للبحث عنه. ومع ذلك، فإنَّه كان يقف هناك ويطلُّ من وراء الستارة، كي يرى لماذا يتأخَّرون. إنَّ أفظع أمرٍ في لعبة الغمَّيْضة تلك هو إدراك أنَّه لم يَعُد يبحث عنك أيُّ أحد. يبدو لي أنَّ السيِّد المسنَّ لن يصل إلى هذا الإدراك أبدًا، وحمدًا للَّه.

يتَّضح أنَّ أجسادنا في الواقع رؤوفةٌ بطبيعتها، إذ نحصل في نهاية العمر على فقدان الذاكرة بدلًا من التخدير. والذاكرة التي تهجرنا

تسمح لنا باللعب إلى آخر مرَّةٍ في حقول الطفولة السرمديَّة لبضع دقائق أخرى... لخمس دقائق فقط، كما في طفولتنا بينما كنَّا نلعب في الشارع قبل أن يُنده علينا إلى آخر مرَّة.

وهكذا شيئًا فشيئًا احتلَّ الماضي وغاوسطين الطوابق المتبقِّية من العيادة. كنَّا في حاجةٍ إلى إنشاء أقسامٍ مخصَّصةٍ للأربعينيَّات والخمسينيَّات. لقد بدأنا من الستينيَّات، كما لو كنَّا نحضِّر غرفًا لأنفسنا في اللَّاوعي. لكنَّ أولئك الذين بلغوا التسعين من العمر أرادوا أيضًا طفولتهم وشبابهم. فاستقرَّت الحرب العالميَّة الثانية في الطابق الأرضيّ. وكان ذلك اختيارًا جيِّدًا، أوَّلًا لأنَّه وفَّر على المرضى عناء صعود الدرج؛ وثانيًا لكونه يمنحنا فرصة استخدام القبو تحته كملجأ من القنابل، ممَّا جعل إعادة تصميم العقد الزمنيّ تبدو حقيقيَّةً تمامًا. فمعظم الناس كانت لديْهم ذكرياتٌ مرتبطة على وجه التَّحديد بالاختباء في الملاجئ أثناء الغارات الجوِّيَّة.

هل يجب علينا إيقاظ الخوف، إيقاظ ذاكرة الخوف؟ يصرُّ علاج الذكريات الكلاسيكيّ على استرجاع الذكريات الإيجابيَّة. لكن برأي غاوسطين، فإنَّ كلَّ ذكرى مستيقظةٍ لها أهمِّيَّة. وبقدر ما قد يكون الخوف أقوى زنادٍ للذاكرة، بقدر ما يفرض علينا استخدامه. بالطبع، نادرًا ما ينزل المرضى إلى القبو، لكنَّ نزولهم كان دائمًا مفيدًا، فقد كانوا يعودون من الملجأ مرتجفين، مضطربين، خائفين... وأحياء.

أمَّا الخمسينيَّات، فاحتلَّت الغرف فوق الطابق الأرضيّ. هناك كانت مملكة إلفيس بريسلي، فاتس دومينو، ديزي غيليسبي، مايلز ديفيس، ويمكن سماع ذلك المزيج المدهش من موسيقى الجاز، والروك أند رول، والبوب، وأغاني فرانك سيناترا ذات الطابع السيمفونيّ

القديم. هنا نجد أيضًا فيلم «شمالًا إلى الشمال الغربيّ»، هيتشكوك، كاري غرانت، «ليالي كابيريا»، فيديريكو فلّيني، مارسيلّو ماستروياني، بريجيت باردو، كريستيان ديور... كان العالم قد بدأ يتعافى بعد الحرب والناس يطمحون إلى العيش. وهو ما تيسَّر لجزءٍ منه، أمَّا الجزء الآخر، فخُصِّصت له منطقةٌ في آخر الدهليز مكوَّنةٌ من عدَّة شققٍ لبلدان الكتلة الشرقيَّة: بعضها لخمسينيَّات أوروبَّا الشرقيَّة؛ وأخرى للخمسينيَّات السُّوفييتيَّة (بالمناسبة حصلَت على تمويلٍ جيِّدٍ للغاية)؛ ثمَّ أُنشئت أيضًا شقق الخمسينيَّات الصينيَّة. فالماضي هو أيضًا مشروعٌ ماليّ. لم يحصل فيدل كاسترو والثورة الكوبيَّة على «هاسيندا» منفصلة، ولكن نصف الأشخاص الذين يتجوَّلون في هذا القسم، يلبسون قمصانًا تحمل صورة تشي جيفارا ويقفون أمام بورتريه El Comandante المعلَّق على الحائط. وقد فُصل الدهليز بين الغرب والشرق بواسطة «الستار الحديديّ»، وهو عبارةٌ عن بوَّابةٍ خشبيَّةٍ ضخمة كانت دائمًا مغلقةً لا يسمح الدخول من خلالها إلَّا للموظَّفين. فأنت لا تعرف أبدًا ماذا سيخطر ببال هؤلاء... من قسم أوروبا الشرقيَّة.

فقد كان يكفينا أنَّ شخصًا من الممرِّ الشرقيِّ حاول الفرار قافزًا من فوق البوَّابة (كان بينها وبين السقف فراغٌ مسافته نصف متر)، لكنَّه سقط وكُسرت ساقه. بعد هذا الحادث بدأ أحد مساعدي الخدمات الصحِّيَّة يتجوَّل دائمًا في القسم الشرقيّ، مرتديًا زيًّا عسكريًّا قديمًا.

إنَّ تزايد عدد الشباب المصابين بفقدان الذاكرة أدَّى إلى إنشاء طابق السبعينيَّات، وخصَّصنا الدور الرابع لهذا الغرض. فنزلت الستينيَّات من هنا إلى الطابق الثالث. وأمَّا الثمانينيَّات والتسعينيَّات، فتبقَّت لها العُلِّيَّة، حيث يمكننا إعادة تصميمها ذات يومٍ عند الضرورة.

ـ22ـ
ذاكرة طبيب الأسنان

إنَّه لا يتذكَّر وجوهًا ولا أسماء... «افتح فمك ودعني أرى، آها، تذكَّرتُك الآن، أنت صاحب الْتهاب لبِّ السنِّ السادس في الفكِّ السُّفليِّ على اليسار، اسمك كيرتشو، أليس كذلك؟».

ربَّما نستطيع دراسة آثار الأسنان وتحديد كلِّ عقدٍ غابر بدقَّةٍ متناهية وفقًا لمختلف الأنواع من الحشوات والموادِّ المستخدمة. آه، قال طبيبي، أسنانك تاريخٌ قصيرٌ للتسعينيَّات، بكلِّ ما فيها من الفوضى، والأزمة، والتجارب الأولى مع الخزف المعدنيّ، وتمويت أعصاب الأسنان، وإدخال مسامير الأسنان في شكلٍ سيِّئ... يا له من كابوس، لو كان أطبَّاء الأسنان آثاريِّين...

في عيادة طبِّ الأسنان بالمدينة التي نشأت فيها، في ممرِّها، فوق أبواب الغرف، كانت تعلَّق، ولا أعرف لماذا، صور كلِّ أعضاء المكتب

السياسيّ... كنّا نعرف ونحن صغارٌ مصطلح «المكتب السياسيّ» وهو في حدِّ ذاته أمرٌ مثيرٌ للاشمئزاز. قد عرفتُ بعض الوجوه، فصورهم معلَّقةٌ في الكثير من الأماكن، ومعروضةٌ على شاشة التلفزيون... تجلس مرتجفًا في تلك الرَّدهة الرخاميَّة ذات الأبواب المتماثلة البيضاء، وتُصيخ لسمع طنين آلة حفر الأسنان. يصرخ أحدٌ من داخل الغرف. وفي هذا الممرِّ المعقَّم والمعتَّم تنظر إليك من الأعلى وجوه هؤلاء الرجال. وجوهٌ عديمة الملامح، مسنَّة، قاسية، لا أمل فيها.

كما كانت إلى حدٍّ ما السبعينيَّات نفسها أيضًا، فلم يكن فيها سوى رخامٍ وعُجُز.

انطبعت تلك الوجوه في ذاكرتي إلى الأبد، وكما كان الحال بالنِّسبة إلى كلب بافلوف، ما إن أسمع آلة طبيب الأسنان، حتَّى يظهر أعضاء المكتب السياسيِّ أمام عينيَّ مثل قدِّيسي الألم لا عاطفة لهم، والعكس صحيح، ما إن أرى صورهم في صحيفةٍ قديمة، حتَّى أشعر بألمٍ في أسناني.

-23-

في كلِّ صباحٍ أتصفَّح الجرائد والمجلَّات التي وصلتنا لتوِّها. مجلَّة «تايم» من الأسبوع الثاني لشهر كانون الثاني، عام 1968: في برودواي يجري عرض مسرحيَّة «روزنكرانتس وغيلدنسترن ميتان» للكاتب المسرحيِّ توم ستوبارد. تعرض دور السينما افتتاحيَّة فيلم «الغريب» لِفيسكونتي. وفي كلِّ صفحةٍ تقريبًا أقرأ: «الحرب». سيظنُّ المرء أنَّ الحرب العالميَّة الثانية لم تنته بعد أو اندلعت مرَّةً أخرى. طبعًا، يتعلَّق الأمر هنا بحرب فيتنام. في الزاوية، في مربعٍ صغير، نرى عدد الجنود الأميركيِّين الذين قُتِلوا في عام 1967: 9353. ثمَّ هناك عمودان مكرَّسان للأحداث في تشيكوسلوفاكيا التي في الواقع لم تحدث بعد، بل إنَّها قادمة. وأمَّا عنوان «سببٌ للأمل» المرتبط بتعيين ألكسندر دوبتشيك أمينًا عامًّا للحزب الشيوعيِّ التشيكوسلوفاكيّ، فهو غير مناسب، إذ سينهار هذا الأمل قريبًا أيضًا. لكننا الآن في مطلع عام 1968، ولا شيء واضح. وليس التاريخ سوى خبر.

فجأةً، تظهر بلغاريا في جملةٍ تشير إلى أنَّ قرابة عشرين بالمئة من السيَّارات في الشوارع هي سيَّاراتٌ حكوميَّةٌ يقودها سائقون موظَّفون، أي سائقو البيروقراطيّين وأصحاب المناصب المختلفة. من قبيل الصدفة أم لا، (ومن دون أيِّ علاقةٍ بهذا الخبر، مع أنَّه من يدري ذلك...) تلمع في الصفحة المجاورة بأكملها سيَّارة بونتياك حمراء ضخمة، واسعةٌ مثل الشارع نفسه، إنَّها بونتياك بونفيل من طراز 1968.

في الوقت نفسه، في الأسبوع الثاني من كانون الثاني 1968، سيَّارة جيب خضراء من طرازٍ قديم (سيَّارة التعاونيَّة المحلِّيَّة، مجلَّة «تايم» كانت على حقّ) غطاؤها من القماش بدلًا من المعدن، تقطع الطريق الترابيَّ نحو مستشفى الولادة في البلدة القريبة. في السيَّارة والدتي، وأنا في رحمها، والسَّائق هو والدي. نسافر إلى المستشفى كي أرى النور.

يبدو أنَّ إحصائيَّات مجلَّة «تايم» تخصُّني شخصيًّا: لا توجد سيَّاراتٌ أخرى في قرية عائلتي. وربَّما بسبب الجهود الجهيدة لإيجاد سيَّارةٍ تُنقل معها والدتي إلى المستشفى، سحب والدي كلَّ مدَّخرات الأسرة، وأخذ قرضًا، واشترى سيَّارة «أورسو» مستعملة، ممَّا زادت نسبة السيَّارات الشَّخصيَّة في القرية زيادةً حادَّة. سيَّارة أورسو قويَّة، وضخمة، وصاخبة. إنَّها ليست مثل سيَّارة البونتياك الحمراء، وحسب ما قاله أحد الجيران، فإنَّ كلَّ سيَّارة أورسو تُسجَّل في سجلِّ الجيش، وفي حالة التعبئة يؤمِّمها رجال العسكر ويركِّبون في مقدِّمتها مدفعًا خفيفًا ممَّا يحوِّلها تلقائيًّا إلى دبَّابةٍ صغيرة، وسائقها يصبح سائق دبَّابة. أثار هذا الكلام القلق لدى والدي، لأنَّ الشهر كان أيَّار 1968، وقد حلَّ الربيع في براغ، وقال الجار نفسه (لم نفهم أبدًا ما إذا كان مُخبرًا أو رجلًا يحبُّ

المزاح) إنَّه سيتعيَّن علينا أن نُحرِّر إخواننا التشيكيِّين. وممَّن نحرِّرهم، سأل والدي بسذاجة. يا له من سؤال، سنحرِّرهم من أنفسهم، ردَّ الجار. وفورًا تخيَّل والدي نفسه في براغ يقود دبَّابة «أورسو».

هل استشعرت مجلَّة «تايم» مخاوف أبي وعمليَّة ولادتي (التي حدثت في الطريق إلى المستشفى في سيَّارة الجمعيَّة التعاونيَّة الزراعيَّة) عندما ذكرت في أخبارها موضوع الأمل في براغ وعجز السيَّارات الخاصَّة في بلغاريا؟ وهل كانت لدى والدي أيُّ فكرةٍ عن «تايم»؟ بالكاد. ولكن رغم ذلك، فإنَّ كلَّ شيءٍ مترابط: سيَّارة جيب قديمة، بونتياك ودوبتشيك.

قراءة الصحف والمجلَّات الصادرة منذ أربعين أو خمسين سنة... ما يُقلق البال آنذاك لم يَعُد يقلقه الآن، وقد أصبحت الأخبار تاريخًا.

لم تَعُد الأخبار العاجلة سريعة الوصول، والورق مصفرٌّ قليلًا، وتفوح من الصفحات اللَّامعة رائحة عفنٍ خفيفة. ولكن ماذا عن الإعلانات؟ تلك التي تجاهلناها بضجرٍ في الماضي، باتت تكتسب اليوم قيمةً جديدة. فجأةً، أصبحت الإعلانات الأخبارَ الحقيقيَّة عن ذلك الوقت، والمدخلَ إلى الماضي، وذاكرةَ الحياة اليوميَّة التي تفسد وتتعفَّن بسرعةٍ فائقة. بالطبع، فإنَّ المنتجات التي يُعلَن عنها قد اختفت، الأمر الذي يزيد من قيمتها. إنَّه الشعور بعالمٍ اندثر، بعالمٍ تلاهى، قاد سيَّارة بونتياك، ارتدى بنطالًا أبيض وقبَّعةً عريضة، شرب «سينزانو»، تجوَّل في سان تروبيز. وهو العالم نفسه الذي وقف قبل ثلاثين سنةً في الطابور ليشتري أجهزة الراديو مع خصمٍ خاصّ في عام 1939، «كي تسمعوا في بثٍّ مباشرِ الحرب التي على وشك الاندلاع»، وكأنَّها مباراة بيسبول...

بالمناسبة، في سنة 1938 زاد استهلاك أجهزة الراديو زيادةً حادَّة. تلك الأجهزة التي ستتحوَّل فيما بعد إلى وسيلة إعلام الحرب؛ وإعلانها؛ وبثِّ الحفلات لتحيَّة الجنود في الخطوط الأماميَّة. ستبثُّ كلَّ الدعاية عبر موجاتٍ قصيرةٍ وطويلة، حيث سنسمع هتاف الفرح بعد الانتصارات، والصمت بعد التراجعات والخسائر. سيتحلَّق الجميع حول هذا الصندوق الخشبيّ.

إلى أين ذهب كلُّ ذلك... ما الذي حدث لأجهزة الراديو والناس المتحلِّقين حولها، وكلِّ ملحقات الصحف الملوَّنة. الطفلة الشقراء من إعلان برنامج الأطفال في الإذاعة، لعلَّها الآن عجوزٌ تسكن دار رعاية المسنِّين ولا تتذكَّر اسمها.

-24-

كان من المدهش فعلًا أن أشاهد من الباب نصف المفتوح للغرفة المجاورة، كيف تألَّق محيًّا السيِّدة المسنَّة التي وصلت إلينا بسيماء حجريَّةٍ خاليةٍ من أيِّ عاطفة، ونظرةٍ خاوية، عندما رأت الراديو الخشبيَّ الكبير مع أسماء المدن المكتوبة على مؤشِّره الزجاجيّ؛ وكيف بدأت تقرأ بصوتٍ عال:

لندن، بودابست، وارسو، براغ

تولوز، ميلان، موسكو، باريس

صوفيا، بوخارست...

آه، صوفيا، صوفيا، قالت.

في مثل هذه الحالات، كان عليَّ أن أقترب منها بلطف، وأتبادل أطراف الحديث معها، وأسمع قصَّتها، وأشجِّعها على التذكُّر. لقد اتَّضح أنَّ السيِّدة مهاجرةٌ من بلغاريا. كان والدها ألمانيًّا تزوَّج من امرأةٍ بلغاريَّة. عاشت الأسرة في بيتٍ ريفيٍّ جميل قريبٍ من صوفيا، من الجبل... لم تعُدْ

تتذكَّر الاسم. ابن أخيها الذي رافقها إلى العيادة كان يقف بجانبنا، ولم يصدِّق أنَّ عمَّته تتحدَّث وتتأثَّر. قال: ربَّما تتكلَّم بلغة أمِّها، اللغة البلغاريَّة.

ورغم أنَّها لم تتحدَّث بهذه اللُّغة لسنواتٍ عديدة، إلَّا أنَّها تتكلَّمها الآن بشكلٍ جيِّدٍ جدًّا. بالطبع كان سردها للقصَّة يتقطَّع بسبب بعض الفراغات البيضاء في ذاكرتها ولغتها. ثمَّ استمرَّت الحكاية من مكانٍ آخر، فتذكَّرت كيف كانوا يجتمعون عصرًا حول المذياع في ساعة بثِّ الموسيقى. أمَّا حلقات الأخبار فيسمعها والداها لوحدهما، لكنَّهم دائمًا كانوا يستمعون معًا إلى الحفلات الموسيقيَّة للجنود في الخطِّ الأماميِّ والحفلات الموسيقيَّة الكلاسيكيَّة. تحدَّثتْ عن الضوء الغامز لمصباح الراديو، وكيف كانت تقرأ أسماء المدن كأنَّها أغنية «حَكَرَة بَكَرَة» من لعبة الأطفال «الإقصائيَّة»، وتتخيَّل ما يكمن وراء كلِّ اسم.

لحظتها تذكَّرتُ أنَّني فعلتُ الأمر نفسه وأنا طفل، وكان مؤشِّر الراديو الزجاجيُّ بمثابة أوَّل أوروبَّا بالنِّسبة إليّ. كنت أظنُّ أنَّ كلَّ مدينةٍ لها صوتٌ خاصّ، ولو حرَّكت مقبض الدوَّار، لسمعت ضجيج شوارع باريس أو مشاجرات بعض الناس في ساحةٍ بِلندن. من يدري لماذا، لكنَّني كنت أتخيَّل دائمًا أنَّ هناك في لندن أشخاصٌ يتشاجرون... كان العالم مغلقًا وأسماء المدن تلك هي الدليل الوحيد على أنَّه في مكانٍ ما، وراء وشوشة إشارات الاتِّصال وتردُّدات الراديو، والصخب، والتشويش المتعمَّد، كانت تلك المدن موجودة، وهناك ناسٌ آخرون يجلسون مع أطفالٍ آخرين حول الراديو، ولو أصغيتُ، لسمعت ما يتحدَّثون عنه في المساء.

وأمَّا السيِّدة فتروي وتروي... بعد ذلك... أوعز... الراديو، schnell, schnell، علينا أن نهرب، الروس والقوَّات، أنا kleine Mäd-

chen، في التاسعة، بلوزة زرقاء، أزرار rote... ماما... أرنوب، هنا وهي تشير إلى الجانب الأيمن العلويّ من بلوزتها Kaninchen، ماما تخيط... سنهرب... بابا ألمانيّ... ألمانيّ، سيقتلونه هو... وجدَّتي تصرخ... هنا سيِّئ، سيِّئ، اهربوا... قطارٌ أخير وهيًّا، schnell، طائراتٌ قادمة، تطلق النار، يتوقَّف...، قطار...، على الأرض، نستلقي... عشب، عشب...

عشب...

وقفةٌ طويلةٌ وكأنَّ الفكرة تضيع...

عشب...

وقفةٌ أخرى، ثمَّ تعود الذكريات فجأة، وتنقضُّ على رأسها مثل طائرة...

تتغيَّر ملامح وجهها من الخوف وترفع يديْها...

(أكان ممكنًا، لعلَّني أعرف هذه السيِّدة من مكانٍ ما... فكَّرتُ في نفسي).

ابن أخيها يحتضنها... لستُ متأكِّدًا من أنَّها تلاحظه، إنَّه يغيب عن تلك الذكريات، فهي الآن تحضر عام 1944... كلامها متقطِّع، أصعب فهمًا، يتخلَّله المزيد من المفردات الألمانيَّة... Achtung... ينقل القطار آخر الموظَّفين الألمان، والهاربين، والعائلات... تقذف الطائرات القنابل، فيتوقَّف القطار، عليهم أن يقفزوا منه، ويستلقوا على الأرض. رائحة التراب والرصاص من حولها، جسد والدتها، لا تذْكر والدها... لكن تظهر بقرةٌ تسير نحوها، تركض الفتاة، تنظر من حولها، تنطلق مرَّةً أخرى خائفةً من القنابل وإطلاق النار... اذهبي من هنا، يا بقرة، تصرخ السيِّدة، تصرخ البنت اذهبي...، بقرة...، يقتلونك، ويبدو أنَّ البقرة لا تسمع، مووو، وتتَّجه إلى الفتاة مباشرة... عندها تضرب

شظيَّة (إنَّني أملأ فراغات القصَّة غير الواضحة) مؤخّرة البقرة. إنَّها تنزف وتعرج... موووووو، مووووو، موووو، السيِّدة تخور... يا بقرة، يا بقرة. تنهض وتهرول نحو البقرة، تسحبها أمُّها بشدَّةٍ فتسقط البنت أرضًا... أين، أين... موووو، موووو، يا بقرة، يا بقرة، تموت... لا، أنا أنقذك... أنا.... البقرة مستلقيةٌ أمامها وتهزُّ رأسها... وعينان... عيناها، البقرة تبكي، قالت البنت العجوز، تبكي، تبكي... وهي تبكي...

تانتي، تانتي ناداها ابن أخيها بالألمانيَّة، وشعر بالخجل كَمَنْ شهد مشهدًا محظورًا اهدئي، اهدئي. أرجوك، يا سيِّدي، افعل شيئًا، إنَّها تبكي...

إنَّها تتذكَّر، قلت، لذلك تبكي...

هيلدا! يأتيني اسمها فجأة. هيلدا، قلتُ بصوتٍ سمعته ممسكًا بيد السيِّدة. صُعق ابن أخيها بأنَّني أعرف اسمها: «نحن هنا لأوَّل مرَّة». ترفع السيِّدة رأسها وتحدِّق في وجهي. لن تتذكَّرني. قبل عشرين سنةً تقريبًا كنت أجلس في غرفة معيشتها في فرانكفورت، حيث قضينا مع زوجتي ليلتيْن في منزلها. أعطتنا عنوانها مسبقًا إحدى صديقاتنا. بعدها كتبت قصَّةً عنوانها: «هيلدا، المرأة التي أنقذت ألمانيا.»

إنَّها لا تعرفني. أمسك بيدها وأستمرُّ في الكلام بالبلغاريَّة. قلت لها إنَّني أرى تلك البقرة ترعى الآن من جهة اللّـه اليمنى... على الأقلِّ لم تكن لوحدها في احتضارها، فقد كانت البقرة ترى بنتًا تتحدَّث إليها... إنَّه موتٌ سعيد. بقيَّة الأبقار تموت بائسة، وأمَّا تلك، فاحتضنتها بنتٌ صغيرة، وكلُّ شيءٍ على ما يرام، وهي الآن بأفضل حال. أجد نفسي أتحدَّث ليس مع السيِّدة المسنَّة، بل مع تلك الفتاة البالغة من العمر 10 سنوات... هادئةً وجالسةً على أريكة، ترخي رأسها وتنام.

-25-
هيلدا التي...

قالت لي في الهاتف: سأنتظرك في «الميناء الجوِّي». صوتها مشرق، وحديثها بالبلغاريَّة كأنَّه من أيَّام الأربعينيَّات. هنالك كلماتٌ تفتح فجأةً أبوابًا إلى أزمنةٍ أخرى. تساءلت للحظةٍ عمَّا إذا كان العام الذي سنلتقي فيه في فرانكفورت، عام 1945 أم 2001 (عندما جرت مكالمتنا الهاتفيَّة). لكن في كلِّ الأحوال، سيكون هذا «الميناء الجوّيّ» في ذاكرتي كَبسكويتة «مادلين» (من رواية مارسيل بروست) التي ستربطني بهيلدا، إلى جانب كلمتي «قِدر وخبز» اللتين سيأتي ذكرهما في هذه القصَّة.

بالطبع، تنتظرني هيلدا في المطار في الموعد المحدَّد، وتبدو رائعةً في مطلع السبعين من عمرها. في البلدان الأجنبيَّة يشيخ المرء بشكلٍ أجمل وأبطأ، والشيخوخة هناك أكثر رحمة.

وهنا يجب القول إنَّ هيلدا ولدت في بلغاريا، وتمكَّنت من اللَّحاق بالقطار الأخير، قبل دخول الجيش الأحمر البلاد. لم ترغب الأسرة في مغادرة بلغاريا، كان أبوها جيولوجيًّا ألمانيًّا لا علاقة له بالجيش، لكن حذَّروه أنَّه لا خير ينتظرهم هنا. هربت هيلدا مع والدتها البلغاريَّة وأخيها الأصغر. أمَّا والدها، فبقي لإنهاء بعض الأشغال في المنزل، وكان ينوي المغادرة بالقطار بعد أسبوع. قتلوه في الليلة التالية... كانت هيلدا حينها في العاشرة. واستغرق سفرها ما يقارب الأسبوع. كان القطار يتعرَّض لقصفٍ مستمرّ. تتذكَّر بوضوحٍ رائحة العشب والتراب وهم يفترشون الأرض بجانب القضبان الحديديَّة. أخبرتني كلَّ ذلك ونحن جالسان في غرفتها... الغرفة التي لم تبرح الستينيَّات بمصباحها الأرضيّ، وكراسيها البالية ذات المساند الخشبيَّة.

مكتبة سُر مَن قرأ

آنذاك تذكَّرت أن أُخرج الخبز المنتج في المخابز الآليَّة الذي طلبته منِّي مسبقًا في الهاتف. أعترف بأنَّ طلبها قد فاجأني. ذهبت إلى أكثر من متجرٍ حتَّى أستطيع العثور على هذا الخبز. فمنْ يشتريه اليوم؟ أخذت هيلدا الخبز بعناية، حزنت وخرجت نحو الدهليز كيلا أراها باكية. عادت بعد هنيهةٍ وقالت إنَّها تتذكَّر هذا الطعم من طفولتها. قطعت شريحتيْن، رشَّتهما بالقليل من الملح وأعطتني إحداهما. لم أر في حياتي شخصًا يأكل بمثل هذا التلذُّذ شريحة خبزٍ حاف عليها ملح.

ثمَّ أخذتني إلى المطبخ كي تُريني شيئًا خاصًا جدًّا. فتحتْ الجزء السُّفليَّ من خزانة الأطباق وأخرجت منها قِدرًا. كان كبيرًا وثقيلًا من الحديد. كأنَّهم صهروا الدبَّابات كي يصنعوا هذا القدر، فكَّرت في نفسي حينها، وقلت ذلك بصوتٍ عالٍ سمعته. ابتسمَت هيلدا معلِّقةً أنَّني لا أدرك كم كنت صائبًا. هذا القدر كان أوَّل وأهمَّ شيءٍ وزَّعته

الدولة الألمانيَّة المدمَّرة للعائلات. قدر طهيٍ كبيرٌ لكلٍّ أسرة، مصنوعٌ من أسلحةٍ وذخائر مصهورة. نجونا من الموت بفضله، قالت هيلدا، يمكنك أن تغلي فيه حتَّى الحجارة.

عندها تخيَّلتُ هيلدا الشابَّة وسط دمار الأربعينيَّات والخمسينيَّات في ألمانيا وهي تحفر في الأنقاض مع بقيَّة النساء، تبحث عن الطوب السليم، تبني البيوت المدمَّرة، تخيط ملابس لأخيها، تنتظر في الطابور من أجل القليل من البطاطس، وتجلس في الظلام لتوفير الكهرباء من دون تذمُّر، مثل شخصٍ شارك في إعادة بناء دولةٍ دُمِّرت بكاملها.

كنَّا نجلس في شقَّتها المتواضعة، وقلت لنفسي: ذات يومٍ يجب أن أروي قصَّة هيلدا التي أعادت بناء ألمانيا، من دون أن تدرك ذلك، بواسطة قِدرٍ ثقيلٍ قديم من الحديد وذكريات شريحة الخبز المملَّحة.

ـ 26 ـ

لقد وجدتْ عيادة غاوسطين أتباعها تدريجيًّا، وعلى مدى عدَّة سنواتٍ بدأت تظهر في أماكن مختلفةٍ غرفٌ أو منازل للماضي. ففي مدينة أَرهوس مثلًا كانوا يستخدمون لهذا الهدف بلدةً إثنوغرافيَّة بُنيَت سابقًا. كانت فيها بيوتٌ قديمة الطراز من القرون المختلفة، وهناك يمكن للتلاميذ والسيَّاح رؤية نمط حياة أسلافهم وتربية الإوزّ، والأغنام، والماعز، والخيول، علمًا بأنَّ الأغنام والإوزَّ والماعز والخيول لم تكن من القرن التاسع عشر.

أثارتْ تلك المدينة الإثنوغرافيَّة فضولي، وساقني الحظُّ إلى الدنمارك، حيث كنت مدعوًّا للمشاركة في مهرجانٍ أدبيّ. وصلت قبل عدَّة أيَّامٍ من افتتاحه، وركبت القطار إلى أَرهوس. وقبل سفري طلبت من إحدى الصديقات في الدنمارك أن تتَّصل بإدارة المدينة الإثنوغرافيَّة وتخبرهم بأنَّني مهتمٌّ بهذا المشروع الاجتماعيّ كوني كاتبًا أو صحفيًّا.

وبالفعل، فقد أدُّوا مهمَّتهم على أكمل وجه، فعندما وصلت هناك كانت تنتظرني فتاةٌ لطيفة كي ترافقني في المدينة.

الحقيقة أنَّ هذا المكان لم يشبه كثيرًا عيادة غاوسطين، فقد كان متحفًا كأيِّ متحفٍ آخر، لكنَّهم، مرَّتيْن في الشهر، يغلقون أبوابه أمام الزوَّار أبكر بقليلٍ قبل نهاية الدوام وفي الساعات المتبقِّية يستقبلون مجموعات المسنِّين من منازل الشيخوخة، ومعظمهم يعانون من الخرف. كان بعض الرجال والنساء، بمقدار ما تبقَّى لهم من قوَّةٍ وذكريات، يذهبون إلى المزرعة، ويطعمون البطَّ والماعز، ويسقون صفوف الخضار في الحديقة أو يجلسون في الفناء تحت أشعَّة الشمس. وبعضهم الآخر لم تكن لديْهم ذكرياتٌ عن حياة الريف، فيأخذونهم مباشرةً إلى شقَّةٍ ديكورها محفوظٌ تمامًا كما كان في عام 1974. أعجبني ذلك الأمر المتعلِّق بتحديد العام المقصود، رغم أنَّه لم يكن واضحًا إذا كانت تلك الشقَّة مزيَّنةً بالديكور نفسه من عام 1973، وكذلك من عام 1975. أشكُّ في أنَّ طاولة المطبخ، والثلَّاجة، والأريكة المنجَّدة في غرفة المعيشة تذبل خلال سنةٍ مثل زهور التوليب المقطوفة. قلت ذلك للفتاة وبالطبع كنتُ أستفزُّها.

كانت لطيفة، تتحمَّل شكوكي وأسئلتي ومزاحي الجنوبيّ الصريح بهدوءٍ وبطريقةٍ يمتاز بها أهل الشمال. قالت إنَّ النساء ما إن دخلن الشقَّة حتَّى اتَّجهن إلى المطبخ. كان الأمر كأنَّه جرى تشغيل بوصلةٍ مخفيَّة. أولئك اللواتي يجدن صعوبةً في الاهتداء إلى الغرف بشققهنَّ الخاصَّة، عرفن الطريق إليه بشكلٍ غريزيّ... إنَّه ردُّ فعلٍ تحوَّل إلى غريزة. تجذبهنَّ رائحة التوابل، فيفتحن الجرَّات المملوءة بالريحان، والقرنفل، والنعناع، وإكليل الجبل، فيُدخلن أنوفهنَّ فيها. لم يتذكَّرن أسماء التوابل، لكن ما

زلن يتذكَّرن رائحتها. ينطلقن وراء رائحة البنِّ المطحون الطازج، تابعت الفتاة، لديْنا مخزوناتٌ من أنواع البنِّ المستهلكة في الخمسينيَّات والستينيَّات. فالمسنَّات يحببن طحنه بأنفسهنّ، وغالبًا ما يواصلن تدوير مقبض المطحنة وقتًا طويلًا، رغم أنَّ حبوب البنِّ قد طُحِنت.

تخيَّلتُ ذكريات الروائح وهي آخر ما تهجر جوف الذاكرة الخالية. ربَّما لأنَّ حاسَّة الشمِّ تسبق بقيَّة الحواسِّ في الظهور، ولذلك تغادر أخيرًا، مثل حيوانٍ صغيرٍ يبتعد ويشمُّ الأرض منحني الرأس. تصوَّرتُ بوضوحٍ هؤلاء النساء كيف يدرن مقابض المطاحن القديمة الخشبيَّة أو الفضِّيَّة، في دورانٍ لا نهاية له. ذلك مشهدٌ يشبه لوحات القرن السابع عشر، وهو جديرٌ بفرشاة الهولنديِّين القدامى فيرمير، وهالز، ورامبرانت، بكلِّ ما فيه من الواقعيَّة التفصيليَّة، والحياة اليوميَّة الرفيعة في آنٍ واحد. الدوران اللَّامتناهي لمطحنة القهوة، والرائحة التي «تشربها» بأنفك... بعض الأشياء لا تتغيَّر على مدى القرون. تخيَّلتُ هؤلاء النساء يطحنَّ السنين، والفصول، والأيَّام، والساعات كحبوب البنّ. بينما يدرن مقابض تلك المطاحن، كما قالت «الفَتَاةُ ذَاتُ القِرْطِ اللُّؤْلُؤْيّ» (هكذا سمَّيتها) يبدو الأمر وكأنَّهنَّ يدخلن بالفعل زمنًا آخر. لديْنا أيضًا مكتبةٌ تضمُّ كتبًا من الستينيَّات والسبعينيَّات، لكنَّ الحروف لم تَعُد تعني شيئًا لمعظم المسنَّات. أحيانًا يتصفَّحن كتب الأطفال ليستمتعن بالصور الملوَّنة وهذا كلُّ شيء.

بالمناسبة، اتَّضح أنَّه في مطلع القرن السابع عشر، نقل الهولنديُّ بيتر فان دن برويك بعض بذور البنِّ عبر البحار، وزرع الشتلة الأولى في أوروبَّا. كان لديْه صديق، عالم النبات المشهور كارل لينيوس نفسه الذي أعجبته شجرة البنِّ وبدأ يعتني بها. وحين تقدَّم في السنّ، أخذ لينيوس

يفقد ذاكرته تدريجيًا. هو الذي أطلق على العالم أسماءه، والذي نظَّم وصنَّف ما كان يستحيل تصنيفه. لكنَّه بدأ فجأةً ينسى تلك الأسماء بالضبط. أتخيَّله كيف ينحني على زهرة «لا تنسني» محاولًا أن يتذكَّر اسمها اللَّاتينيّ الذي أطلقه عليها بنفسه.

مرَّرنا بمنازل من عصورٍ مختلفة، ودخلنا مكتب البريد من العشرينيَّات لنرى نهاية صناعة الانتظار بأكملها، صناعة تأجيل الفرح برسائل كانت تسافر لأيَّامٍ طويلة. التقينا في طريقنا نبلاء من القرون الغابرة، وبائعي حليب، ورعاةً بلا قطعان، أومأنا بالرأس مرحِّبين بالإسكافيِّين الجالسين أمام دكاكينهم. كان في أحد الأزقَّة أولادٌ مرتدين سراويل قصيرة، وحمَّالات بنطال، وقبَّعاتٍ مسطَّحةً يلعبون لعبة القفزيَّة. على تقاطع الطريق كان يقف متسوِّلٌ واضعًا قبَّعته الممزَّقة على الأرض برفق. معظمهم متطوِّعون، وهم طلَّابٌ يدرسون التاريخ، أو متقاعدون، أخبرتني الفتاة ذات القرط اللؤلؤيّ... لا يحصلون على رواتب، ومع ذلك فإنَّ عددهم يزداد كلَّ سنة. وأحيانًا يأتي إلينا متشرِّدون أيضًا. سألتها متحمِّسًا: وهل يرتدون ملابس خاصَّةً بأيِّ حرفة؟ أجابت معلِّقة: نمنحهم ملابسَ دافئةً ونظيفة يتميَّز بها عصرٌ معيَّن. لكنَّ معظمهم لا يريدون تغيير ملابسهم. يريدون مجرَّد البقاء كما كانوا. يقولون: ألم يكن هناك متشرِّدون دائمًا؟ وأنتم في أيِّ قرنٍ تحتاجون إلينا؟

إنَّهم على حقّ، بالطبع، قلتُ في نفسي. فالمتشرِّدون لا تاريخ لهم، إنَّهم... كيف أقول... موجودون ما وراء التاريخ، ولا ينتمون إلى أيِّ مكانٍ وزمان، كما كان غاوسطين إلى حدٍّ ما.

جلسنا أخيرًا في أشهر متجرٍ للحلويَّات من السبعينيَّات، حيث يصنعون في المكان نفسه الكعك، والمرنغ، والكرواسان، مستخدمين نوع الدقيق، والفانيليا، وقشر الليمون، والقرفة، وجميع المكوِّنات الأخرى من ذلك الوقت. يخبزونها في المواقد والأفران قديمة الطراز، مستخدمين القوالب والتغطية السُّكَّريَّة المشهورة في السبعينيَّات أكَّدت الفتاة ذات القرط اللؤلؤيّ، وكان اسمها لوتي. جلسنا هناك وشربنا نوعًا من الشكولاتة الساخنة المنتشرة في تلك الأيَّام، في فناجين من الخزف زيِّنت حوافُّها بخطوطٍ ذهبيَّة. كانت النادلات يدرن حولنا مرتدياتٍ ملابس من موضة السبعينيَّات، وكان هناك في طريقة لبسهنَّ شيءٌ مألوفٌ جدًّا يُعيدني إلى الماضي؛ الأحذية التي ينتعلنها، أحذية الكاحل البيضاء العالية كانت مرتبطةً بذكرياتي الإيروتيكيَّة الأولى.

يا لوتي، سألتها من دون مقدِّمة، ما هو العقد الذي تختارينه، الستينيَّات، السبعينيَّات، أو الثمانينيَّات؟».

صمتت هنيهة، ثمَّ أجابت بأفضل إجابةٍ ممكنة: أتمنَّى لو كنتُ في الثانية عشرة من عمري في كلِّ هذه العقود.

كما كنت سأجيب تمامًا.

- 27 -

صحيحٌ أنَّ مشروع آرهوس لقي نجاحًا، لكنَّه كان يترك انطباعًا وكأنَّك في متحف، أو في زيارةٍ لِ «ديزني لاند» يوم الأحد. وأمَّا تجربة غاوسطين فكانت تسعى إلى هدفٍ مختلف.

دعنا ننزل إلى عام 1968، اقترح عليَّ بعد عودتي من الدنمارك.

جميلةٌ هي العبارة «دعنا ننزل إلى عام 1968»، تُذكِّرني بنزول أورفيوس إلى العالم السُّفليّ، رغم أنَّ غاوسطين قالها فقط لأنَّ الستينيَّات كانت في الطابق السُّفليّ. جلسنا على كرسيَّيْن بلونٍ أصفر ليمونيٍّ دفع غاوسطين، برأيي، مبالغ كبيرةً مقابل أن يقتنيهما. وقد عثر عليهما معروضين للبيع عند إفراغ شقَّة أحد الأغنياء المحليِّين، وهما من تصميمٍ مقلَّدٍ للفنان آندي وارهول.

أخرج علبة سجائر من نوع «جيتَّان» وأشعل واحدة. زحف الدخان الحارُّ ببطءٍ في كافَّة أرجاء الغرفة. فتح قنِّينة «جِين» Seagram's Extra

Dry «الجين الجافُّ المثاليّ... منك الزيتونة ومنّا الباقي»، كما يقول الإعلان في الصفحة الأخيرة لِـ«نيوزويك».

والآن أخبرني، هل الدنمارك لا تزال سجنًا، قال غاوسطين.

أجبت أنَّه يشبه متحفًا وأخبرته بالتفاصيل عن المنازل من العصور المختلفة، والشقَّة من عام 1974، وعدَّة غرفٍ أخرى أرتني لوتي إيَّاها محفوظةً و«معلَّبة» تمامًا كما كانت تسكنها عائلاتٌ عاديَّةٌ آنذاك، بكلِّ ما فيها من قصص، وألبومات، وحقائب سفر، وعلَّاقات ملابس، وصناديق خبز، ومزهريَّةٍ فيها زهورٌ اصطناعيَّةٌ موضوعة على الثلَّاجة. كانت إحدى الشقق لمهاجرين أتراك، رجلٌ خمسينيٌّ وأبناؤه كانت أعمارهم بحدود العشرين عامًا أو أكثر، «غاستاربيترز»؛ كانت المنافض في الشقَّة تفيض بأعقاب السجائر ولا تزال تنبعث منها رائحة التبغ، فتساءلت عمَّا إذا كانوا يبدِّلونها من حينٍ إلى آخر.

المشكلة هي...، تابع غاوسطين وهو يلفظ الكلمات ببطء، كأنَّه في تلك اللَّحظة يحاول صياغة ما كان يفكِّر فيه ليلًا. هل قلت لكم إنَّه يعاني من الأرق؟! كنت أسمعه حين أبيت في العيادة وهو يذرع الغرفة ذهابًا ومجيئًا... يقف... يحضِّر الشاي أو يخرج ليدخِّن سيجارة. كان يشبه «فونيس قويّ الذاكرة» من تلك القصَّة لِخورخي لويس بورخيس. أخبرته مرَّة، بأنَّنا لو نجحنا في إعادة تكوين أشكال السَّحب كما كانت في صباح 30 نيسان 1882، لوصلنا إلى ذروة الكمال.

وكذلك إعادة تكوين الصورة الجانبيَّة لشكل الكلب في الساعة 3:14 بعد الظهر، قال غاوسطين بغرض دخول اللعبة.

المشكلة في التجربة الدنماركيَّة، وفقًا لغاوسطين، هي أنَّ الدخول المؤقَّت في نظام الذكريات، وزيارة ماضٍ من الثانية إلى الخامسة بعد الظهر، ثمَّ العودة إلى حاضرٍ مختلف غير مألوفٍ الآن هو أمرٌ مزعجٌ ومؤلمٌ للغاية، يشبه فتح الباب بين موسميْن والدخول المفاجئ من الصيف إلى الشتاء مباشرة؛ أو الانتقال المستمرّ من الظلام إلى النور، أو من الشباب إلى الشيخوخة من دون أيِّ مرحلةٍ انتقاليَّة. إنَّ البقاء لبضع ساعاتٍ فقط يفتح تلك النافذة إلى الماضي لفترةٍ وجيزة جدًّا. سكب غاوسطين مجدَّدًا من زجاجة الجِين من عام 1968، قائلًا إنَّه حان الوقت لنتحرَّك خطوةً إلى الأمام ونذهب أبعد في تجربتنا.

باختصار، كانت الفكرة تتمثَّل في إنشاء مدينةٍ كاملةٍ للماضي. ونقصد هنا مدينةً حقيقيَّة، وليس تلك المحاكاة لشارعٍ واحدٍ وبعض المنازل المصنوعة من الألياف الزجاجيَّة. على سبيل المثال، سننشئها أوَّلًا في عام 1985. سنبدأ من هذه السنة. أجبت أنَّني لا أتذكَّر شيئًا منها يستحقُّ الاهتمام باستثناء أنَّنا تخرَّجنا من الثانويَّة وبعدها حشرونا حشرًا في الجنديَّة. عامٌ كامل في ظلِّ العام الذي يعقبه بكلِّ ما فيه من كارثة تشرنوبل، وصمت، وأمطارٍ مشعَّة، ونقص اليود، الذي كنَّا نزوَّد به خفية...

لسنا في حاجةٍ إلى أحداثٍ استثنائيَّة، علَّق غاوسطين، فالزمن لا يعشِّش فيما هو استثنائيّ، بل يبحث عن مكانٍ هادئٍ ساكن. إذا عثرت على آثار زمنٍ آخر، فإنَّها ستكمن في فترة ظهيرةٍ عاديَّة لم يحدث فيها شيءٌ يُذكر، لا شيء إلَّا الحياة نفسها... من كان صاحب هذه الكلمات؟ سأل غاوسطين ضاحكًا.

أنت، أجبت.

إنَّك تموت رغبةً في أن تنسب إليَّ كلَّ ما يخطر ببالك. لكنَّ تلك الكلمات بالضبط ربَّما سرقتها فعلًا منِّي. وهكذا، سننطلق بتأسيس مدينةٍ تسكن عام 1985، قال غاوسطين متحمِّسًا، وعلينا أن نقلب هذا العام رأسًا على عقب، كما يقال. فيما يخصُّ الساسة من ذلك العام مثل ميخائيل غورباتشوف، ورونالد ريغان، وهلموت كول، فقد تركوا آثارًا واضحة ونعرف ما يكفي عنهم، لذا لنبحث في معنى كلمة cool آنذاك، والعامِّيَّة التي كانت دارجة، وعن الممثِّلين الذين يموت الناس حبًّا فيهم، وملصقات أشهر الفنَّانين، والمجلَّات الموجَّهة لربَّات البيت، وبرامج التلفزيون، والنشرة الجوِّيَّة، وسلسلة مجلَّة «أوغونيوك» الروسيَّة تلك الأيَّام، كم كان سعر البروكلي والبطاطس، وسيَّارة الـ«لادا» في أوروبَّا الشرقيَّة والـ«بيجو» في الغرب؛ ممَّا كان يموت الناس وعمَّا كانت مشاجراتهم ليلًا في غرف نومهم. سنعيدُ طباعة كلِّ الصحف الصادرة في ذلك العام يومًا تلو آخر، ثمَّ الشيء ذاته بالنِّسبة إلى عام 1984...

ألا يليه عام 1986، سألت؟

لا أعرف، ربَّما أوَّلًا سيكون علينا السَّيْر إلى الوراء، ردَّ غاوسطين وتابع: من جانب، عند فقدانهم الذاكرة، سيعود مرضانا أدراجهم إلى الوراء مسترجعين ذكرياتهم المبكِّرة. وبعد عام 1985 سيستقبلون عام 1984، ثمَّ 1983، وما إلى ذلك... أعرف، أنَّك لست من محبِّي الثمانينيَّات، لكن ستحتملها. ستعيدُ ترميمها، وستملأها بالحكايات. لماذا حَزنَ الناس في الثمانينيَّات؟ يمكننا بالطبع إطالة عامٍ معيَّن وإعادتها مرَّةً أخرى. ثمَّ سننشئ فترة السبعينيَّات، لتشكِّل حيًّا آخر.

تدخَّلتُ مُعلِّقاً: لكن سيأتينا أشخاصٌ جُدد فقدوا ذاكرتهم، وبالنِّسبة إليهم ستمثِّل التسعينيَّات فترةً ماضية أيضًا. ربَّما سيتعيَّن علينا أن نوفِّر كلَّ العقود، فالماضي ينمو مثل نبات الأرقطيون.

حسنًا، لقد وصلنا إلى السبعينيَّات، تابع غاوسطين، هناك سيكون الجوُّ أكثر تلوُّنًا وانتشاء، فلديْك خبرةٌ من العيادة. وبالطبع، ستبدو لك العيادة مثل لعبة أطفالٍ مقارنةً بمدن الماضي تلك، التي سيسكنها الناس 24 ساعةً في اليوم... سبعة أيَّامٍ في الأسبوع... 365 يومًا في السنة. وبينهم ستحدث أشياء. لا نعرف كيف ستسير الأمور. ثمَّ حيُّ الستينيَّات، حيث ستُبدع. يمكننا إطالة 1968 مدَّة عاميْن أو ثلاثة لو كنت مصرًّا على ذلك، قال غاوسطين ضاحكًا، فبعض السنوات تدوم فترةً أطول من غيرها. وسنصل أيضًا إلى الخمسينيَّات. هنا سيكون مهمًّا جدًّا بأيِّ جانبٍ من التاريخ ستقف، على الرَّغم من أنَّها كانت سنوات زهدٍ لكلا الجانبيْن.

سألته: وماذا سنفعل مع الأربعينيَّات، مع الحرب؟

نهض غاوسطين، ذهب إلى النافذة وردَّ بعد مرور دقيقةٍ كاملة:

لا أعرف، بصراحةٍ لا أعرف.

إنَّ سماع عبارة «لا أعرف» منه لا يحدث إلَّا مرَّةً كلَّ مئة سنة، فكان غاوسطين يعرف كلَّ شيء، أو على الأقلِّ لا يعترف بعكس ذلك أبدًا.

وقتها، في ظهيرة عام 1968 أو 2020، وهي الظهيرة نفسها في نهاية المطاف، رسم غاوسطين ما حدث لاحقًا تقريبًا. كلُّ ذلك كان يبدو منطقيًّا وفي الوقت ذاته كان يذهب إلى ما وراء أيِّ منطق. كان

بريئًا وخطيرًا في آنٍ واحد، إذ شكَّل خطرًا ذا أبعادٍ تاريخيَّة، إذا جاز التعبير. كان أمامه دفترٌ قديم يرسم فيه خططًا، سنوات، كرونوتوبات، أسماء مدنٍ وبلدان. كان دخان السجائر يتصاعد، ومن حينٍ إلى آخر كان ينسى سيجارته في منتصفها فيُشعل أخرى، عينايَ تدمعان من الدخان، صحيح، من الدخان أو هكذا بدا لي. كانت غيومٌ رماديَّةٌ مهدَّدة تحوم فوق المستقبل أو الماضي، مهما نسمِّيه، الذي يرسمه غاوسطين أمامي. كلُّ ذلك، بالطبع، مجرَّد استعارة، قلت حينها في نفسي، في محاولةٍ لطرد هواجسي.

لماذا انهمك غاوسطين بتلك التجربة، لماذا كان في حاجةٍ إلى توسيع حقل الماضي؟ فقد حقَّق ما لم يحلم به الآخرون. وكان ضمن الروَّاد الذين أنشأوا عيادات الماضي الأولى. ويجري الآن افتتاح مراكز في بلدانٍ مختلفة، بناءً على خبرته. كان أطبَّاء الشيخوخة يبذلون جهدًا جهيدًا للوصول إليه، والعمل معه، ودعوته كمستشارٍ لهم. لم يَظهر شخصيًّا أبدًا، بل أرسلني إلى معظم الأماكن لتسليم رفضه الذي كان دائمًا مهذَّبًا ولكن حازمًا. ورغم أنَّه رفض كلَّ أنواع المقابلات والدعاية، إلَّا أنَّ اسمه كان يُذكر باحترامٍ وإجلال، كما يتحدَّث الناس عن عبقريٍّ وشخصٍ غريب الأطوار لم يره إلَّا القليل من الناس، وهو ما يعزِّز تلك الصورة عنه كشخصيَّةٍ أسطوريَّة.

ـ 28 ـ
الهارب

سمَّيْته «العدَّاء الوحيد للمسافات الطويلة»، وهو عنوان كتابٍ بريطانيّ «غاضب» نُشِر في الستينيَّات، وأعترف بأنَّني لم أقرأه قطّ، لكنَّ العنوان انطبع في ذاكرتي. في الوقت الأخير أتذكَّر الكتب التي لم أقرأها بشكلٍ أوضح من الكتب التي قرأتها. ولا أجد هذا أمرًا استثنائيًّا، فهو مثل الأحداث التي لم تحدث.

على أيِّ حال، فإنَّه بالفعل (أو كان في الماضي فعلًا) عدَّاءٌ لمسافاتٍ طويلة، ويتمتَّع بصحَّةٍ بدنيَّةٍ جيِّدة، قويُّ الجسم، رياضيٌّ سابق، وكأنَّ جسمه لا يريد نسيان هذه المعلومات. كان مفعمًا بالحيويَّة، فضوليًّا للغاية، لكنَّ المرض أكل الأعوام الثلاثين والأربعين الأخيرة من ذاكرته، رغم أنَّه أحيانًا كان يفاجئنا بومضاتٍ مباغتةٍ من ذاكرته. كانت الأدوية تحاول إبطاء المرض المتقدِّم، ونحن نحاول إعادة العدَّاء الوحيد إلى وقتٍ

يتذكَّره... (من الواضح، أنَّ هذه الإصابة غير قابلةٍ للشفاء، لكنَّ المرء له حقُّ السعادة حتَّى في المرض، كما يقول غاوسطين). كانت معركةً من أجل الماضي، من أجل كلِّ واحدةٍ من ذكريات العدَّاء الوحيد.

ربَّما ستخور قواه خلال سنتيْن أو ثلاث، وتضعف ذاكرته العضليَّة، ويضيق مسار ذكرياته كثيرًا أو يختفي تمامًا. لكنَّه الآن في حالةٍ جيِّدة، بل يمكن القول إنَّه في حالةٍ جيِّدةٍ لدرجةٍ تبعث على الريبة. يعيش حياةً سعيدةً عندنا في مستوطنة آلزهايمر، في حيِّ السبعينيَّات. لقد سجَّلناه في «دفعة» عام 1979، كما نحبُّ أن نمزح مع غاوسطين.

كان يذهب كلَّ يومٍ إلى المكتبة الصغيرة لقراءة العدد الجديد من صحيفةٍ صدرت عام 1979. فقد جمعنا كلَّ أعدادها من ذلك العام ونصدرها يوميًّا. ولم يكن هناك اختلافُ إلَّا في توقُّعات الطقس أحيانًا، رغم أنَّه لا أحد يثق كثيرًا بتنبُّؤات الأرصاد الجوِّيَّة. كان العدَّاء يقرأ كثيرًا، متحمِّسًا لكلِّ ما يحدث حوله؛ كان محبًّا للموسيقى ولم يستطع بعد أن يتقبَّل فكرة حلِّ فرقة البيتلز، حيث يقف بجانب جون لينون. كان يتابع كلَّ شيء؛ سقوط نظام البول بوت، وأوَّلُ زيارةٍ للبابا يوحنَّا بولس الثاني إلى المكسيك، يعني أنَّ العام يسير بشكلٍ جيِّد في شهر كانون الثاني الجاري. كنت أراه شاحب الوجه لفترةٍ من الزمن، بعد أن قرأ عن الهجوم الصينيِّ على الحدود الفيتناميَّة. فرح كطفلٍ برؤية الصورة الأولى لحلقات كوكب المشتري التي أرسلها المسبار الفضائيّ «فوياجر». أراد أن نتحدَّث طويلًا عمَّا يمكن العثور عليه في تلك الحلقات وما هو مصدر ألوانها. كان يتساءل عمَّا إذا كان ممكنًا أن يكتشفوا شكلًا من أشكال الحياة هناك... كنت أحاول أن أشارك توقُّعاته و«هاجسه بحدوث معجزة»، كما يقول غاوسطين، أي أن أعيش القلق نفسه.

لكنَّه كان يتحمَّس قبل كلِّ شيءٍ بشأن جون لينون. في ذلك الوقت غزت موسيقى فرقة ABBA والديسكو العالم، وهي علامةٌ بدهيةٌ على الانحلال، ومع ذلك فإنَّه كان يتتبَّع كلَّ خطوات جون لينون في المجلَّات والصحف. حيث تذكَّر أنَّه أصبح زوجًا بيتوتيًّا، يصنع الخبز بالبيت ويدلِّع ابنه شون البالغ من العمر ثلاث سنوات، الأمر الذي لا يرى فيه العدَّاء الوحيد شيئًا سيِّئًا. وعندما نشرت صحيفةٌ أخرى تعليقاتٍ لاذعةً من سينتيا، زوجة لينون السابقة، التي قالت إنَّه في الحقيقة يجلس طوال اليوم أمام التلفزيون، ثار العدَّاء غضبًا. مرَّةً أتى إليَّ بالعدد الجديد من مجلَّة «لايف»، إذا لم تخنِّي الذاكرة، وقال لي إنَّ لينون قد تفرَّغ مؤخَّرًا لتسجيل سيرته الذاتيَّة، وقد سجَّل فعلًا على شريط ذكرياته الأولى من طفولته التي عاشها في بيت شارع «بيني لين». «هذا ما أنتظر قراءته»، كرَّر العدَّاء الوحيد متحمِّسًا.

مرَّةً جاءني في منتصف الليل، أوصد الباب خلفه، لم يرغب في الجلوس. جون لينون... سيقتلونه، قال بسرعة، ثمَّ أضاف: في وقتٍ قريبٍ جدًّا. لقد كان قلقًا حقًّا ولم يستطع شرح ما إذا كان قد رأى ذلك في نومه. سيطلق النار عليه أحد المجانين، قال، ثمَّ تابع: رأيت حتَّى وجه القاتل. أثناء عودة لينون إلى البيت، أمام مدخل مبنى «الداكوتا». يجب إخبار الشرطة على الفور. على لينون أن يغادر المكان حالًا.

لم أعرف كيف أتصرَّف. تساءلت عمَّا إذا كان ذلك ومضةً مفاجئةً من الذاكرة (وبالتالي فإنَّ العلاج ناجح) أو هو تسريبٌ للمعلومات من الخارج؟ لقد وعدتُ بأنَّني سأتَّصل بالشرطة في الصباح التالي. تحدَّثنا قليلًا ثمَّ رافقته إلى غرفته.

في الصباح كان العدَّاء قد اختفى.

تتمتَّع المستوطنة بحراسةٍ أمنيَّةٍ مخفيَّةٍ وجدِّيَّة. فَمَنْ فقد ذاكرته غالبًا ما يفقد طريقه أيضًا، ويصبح هدفًا سهلًا للحوادث في حال وجود نفسه خارج المنطقة المحميَّة. كان العدَّاء لا يزال يتمتَّع بلياقةٍ بدنيَّةٍ عالية، وقال حرَّاس الأمن إنَّهم رأوه في اللحظة الأخيرة يقفز عن السياج ويختفي.

إنَّ هروب أيَّ مريضٍ يعتبر حادثًا طارئًا ومقلقًا لجميع المعنيِّين كونه يمثِّل خطرًا على حياة المريض. أمَّا في هذه الحالة بالذات، فلم يقفز العدَّاء عن السياج فحسب، بل قفز عن ثلاثين أو أربعين سنة. حيث لا نعرف العواقب الناتجة عن هذا الاصطدام بالواقع الخارجيّ. إضافةً إلى أنَّ مثل هذا الحادث قد يؤدِّي إلى التحقيق وإغلاق المستوطنة، ومناقشاتٍ إضافيَّة مع زملائنا الأطبَّاء بصدد مدى فائدة هذا العلاج، وما إذا كان لديْنا الحقُّ في تطبيق ذلك «التطابق» بين الزمن الداخليّ والزمن الواقعيّ، وإلخ.

جرى إبلاغ جميع رجال الشرطة في المنطقة بالحادث، وطلبنا منهم توخِّي الحذر الشديد تجاه مريضٍ يعيش في زمنٍ آخر. أمَّا أنا، فكنتُ أفكِّر بكلِّ أنواع السيناريوهات، بينما أتجوَّل في المدينة المجاورة بحثًا عنه. تخيَّلت كيف يُوقف أوَّل شرطيٍّ رآه ويُخبره بأنَّه يجب إعلام مكتب التحقيقات الفيدراليّ على الفور، وكذلك شرطة نيويورك. لماذا؟ يسأل الشرطيّ، فيردُّ العدَّاء: تلقَّيت رسالةً سرِّيَّة... سيقتلون جون لينون، ربَّما القاتل في طريقه إليه. «عن جدّ؟»، يردُّ الشرطيُّ غير مكترثٍ وبشيءٍ من الدعابة، «ألم تتأخَّر قليلًا، يا أخي؟» «ولكن... كيف...، هل قتلوه؟ لن أغفر لنفسي أبدًا»، يقول العدَّاء بِغصَّة.

هكذا تخيَّلته، ولا أريد أن يعاني من كلِّ ذلك.

وحمدًا للّـه انتهى كلُّ شيءٍ بسرعةٍ وبأفضل طريقةٍ ممكنة. العدَّاء الذي بدأنا نسمِّيه «الهارب» منذ ذلك الحين، تاه بضع ساعاتٍ في المدينة المجاورة (كنت أخشى أنَّه ذهب مباشرةً إلى المطار واستقلَّ طائرةً إلى نيويورك)، ثمَّ وجد مركز الشرطة، حيث كانوا على علمٍ بالحادث. أراد اللقاء مع الرئيس، واستمع الأخير إليه بتأنٍ، بينما يكتب شيئًا في دفتره، وقال إنَّه سيحرّك نظام الشرطة على الفور. وفي حضور العدَّاء اتَّصل مباشرةً بمقرِّ مكتب التحقيقات الفيدراليّ. ثمَّ اقترح عليه أن يرافقوه إلى المستوطنة بأجمل سيَّارةٍ مدنيَّةٍ لدى الشرطة.

لم أعرف كيف أتصرَّف مع الهارب. لقد عاد من العالم «الآخر»، ومزج أوقاتًا مختلفة. في هذه الحالة ربَّما كان علينا أن نتوقَّف عن العلاج وعلى المريض أن يغادر العيادة. أو ربَّما هو بنفسه سيطلب ذلك. تصوَّرته يروي للجميع أنَّ الوقت الحقيقيَّ هو الذي يجري في الخارج، في حين أنَّنا نعرض لهم نوعًا من الماضي المستعمل. عند دخول المستوطنة يكون المرضى (على الأقلِّ أولئك الذين هم في المرحلة المبكِّرة من مرضهم) وأقاربهم على علمٍ بأنَّ هذا هو لبُّ العلاج. ومع ذلك، فمن أجل نقاء التجربة، كان من الأفضل ألَّا يحدث مزجٌ بجزئيَّات واقعٍ آخر. كانت البيئة بحاجةٍ إلى أن تظلَّ معقَّمةً منعًا من تلوُّثها بأوقاتٍ أخرى.

ما فعله الهارب بعد عودته كان غير متوقَّعٍ تمامًا. كنت أسمعه بعد العشاء وهو يخبر الآخرين بأنَّ الجميع خارج المستوطنة يتعرَّضون لتجربة: إنَّهم يلعبون أمامهم نوعًا من المستقبل، لن تصدِّقوا أيُّها الإخوة... يمشي الناس بأسلاكٍ في آذانهم وأجهزة تلفزيون صغيرةٍ بين

أيديهم، وتعلق أبصارهم بها فلا يشيحون بنظرهم. إمَّا أنَّهم يصنعون فيلمًا خياليًّا باهظ الثمن، أو يختبرون ما ستكون عليه الحياة بعد خمسين سنة.

لقد توصَّل الهارب إلى هذا الاستنتاج وأعلنه على الملأ. كان قد قرأ مؤخَّرًا بعض التنبُّؤات في مجلَّة «تايم» ومن المؤكَّد، أنَّهم الآن يطبِّقون التجارب. قال: لكن كلُّ شيءٍ يبدو مزيَّفًا إلى درجة أنَّه لا أحد يمكن أن يصدِّقه. والجميل في الأمر، أنَّهم منفصلون عنَّا بسيَّاج، علَّق في النهاية.

لا تقلق، قال لي بعدها، لم أخبر أحدًا ممَّن يعيش خارج السياج ما هي السنة الجارية، حتَّى لا أُفشِل تجربتهم.

ثمَّ اعتذر أنَّه أوقعني في ورطة، وسألني إذا كنت أعتقد، أنَّهم سيتَّخذون إجراءاتٍ لحماية جون لينون.

فكَّرت قليلًا وأجبت: نعم. كان أمامي عامٌ كامل، حتَّى تدحض الصحف كلامي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-29-
أعداد

ذات صباحٍ قال لي غاوسطين: تَرَى بأمٍّ عينك أنَّ العالم يسير نحو الهاوية، كلُّ ما كنّا نتوقَّع حدوثه في غضون العشرين أو الثلاثين عامًا الماضية لم يحدث. كذلك تعرف أنَّ جزءًا من فشل المستقبل نتج عن فشل الطبّ. يشيخ العالم وكلَّ ثلاث ثوانٍ يفقد شخصٌ ما ذاكرته.

لقد أصبحت الإحصائيّات الهوس الجديد بالنسبة إليه، فكان يُتابعها ويقارنها ويحلِّل المنحنى المتزايد لأمراض الذاكرة المختلفة، والبيانات الواردة من منظَّمة الصحَّة العالميّة واللجنة الأوروبيّة وبعض المراكز الوطنيّة الكبرى.

ففي الولايات المتَّحدة مثلًا، كانت أرقام الإحصائيّات مُرعبةً حقًّا: قرابة 5 ملايين شخصٍ مصابٍ بالخرف، إضافة إلى 5 ملايين ونصف مليون آخرين مصابين بمرض ألزهايمر. يزيد عددهم الآن عالميًّا عن 50

مليونًا، قال غاوسطين... إنَّها الحالات المسجَّلة فقط، وهذا العدد يساوي عدد سكَّان دولةٍ أكبر من إسبانيا، وفي غضون سبع أو ثماني سنواتٍ سيبلغ عددهم 75 مليونًا، وهؤلاء هم الأشخاص الذين جرى تشخيصهم فقط. ففي الهند مثلًا لا تُشخَّص حالات تسعين بالمئة من المصابين بالخرف أبدًا، وفي أوروبًا تقريبًا نصف هذه الحالات لا تُشخَّص أيضًا... نصفهم تقريبًا في أوروبًا! هل تتصوَّر ذلك؟ أي علينا مضاعفة الأعداد التي نعرفها. إنَّ العالم حولنا يعجُّ بأشخاصٍ حَكم عليهم القدر، لكنَّهم لا يعرفون ذلك بعد. أنا... وأنت... يمكننا أن نكون من بينهم... هل زرتَ الطبيب لإجراء الفحوصات اللازمة؟

لا.

وأنا كذلك. يبدو أنَّه ينتظرنا نوعٌ من الخرف العالميّ.

كان غاوسطين يعرف كيفيَّة التسلُّل إلى كلِّ مخاوفي السرِّيَّة. ففي الآونة الأخيرة كنت أشعر بأنَّ أسماءً وقصصًا تهجرني كلَّ يوم، وتغادرني بخطى هادئةٍ مثل ابن عرس.

تابع غاوسطين حديثه: هناك شيءٌ آخر عن الإحصائيَّات، إنَّه واحدٌ من بين الأمراض الثلاثة الأعلى تكلفةً من حيث العلاج في الوقت الحاليّ. فوفق حسابات الأميركان، تصل التكلفة إلى 215 مليون دولار سنويًّا، وذلك قبل خمس سنوات. ويشمل هذا المبلغ الأدوية، والأخصائيِّين الاجتماعيِّين، والأطبَّاء، ومساعدي الصحَّة المنزليَّة. هل يمكنك أن تتخيَّل عدد المساعدين المطلوبين؟ سيستفيد بعض السياسيِّين قريبًا من الوضع، وسيركبون الموجة، وستبدأ الاضطرابات، فلا أحد يريد أن يدفع مبالغ ضخمةً من أجل «أشخاصٍ ذوي اضطراباتٍ

عقليَّة يعانون من أمراضٍ مستعصية، يحتاجون لموتٍ رحيم»، وهم ليسوا الآن سوى عبءٍ على المجتمع، وسوف يطالبون بسياسةٍ صحّيَّةٍ جذريَّة، وبنوعٍ من سياسةٍ واقعيَّة في مجال الطبّ... إنَّه أمرٌ تعرفه، فقد تطوَّر هذا الخطاب وطُبِّق في الثلاثينيَّات.

الجميل هنا، أنَّه لم يكن علينا إعادة إنشاء الثلاثينيَّات أيضًا، قلتُ في نفسي، رغم أنَّني قد ألقيت نظرةً على هذا العقد. تذكَّرتُ غلاف مجلَّة «Neues Volk» من عام 1938 (الإصدار الرسميّ للاشتراكيِّين القوميِّين في ألمانيا النازيَّة) عليه صورة شخص «مريض غير قابل للشفاء»، وينصُّ التعليق تحتها على ما يلي: «60000 رايخ مارك هو المبلغ الذي يكلِّف معالجة الشخص المصاب بمرضٍ وراثيٍّ سنويًّا. يا أبناء الوطن الأعزاء، هذه الأموال هي أموالكم أيضًا».

وأمَّا مرضانا في هذه الحالة، فسيتصدَّرون القائمة السوداء. هكذا بدأ الأمر في الثلاثينيَّات مع مصحَّات الأمراض النفسيَّة وعيادات الشيخوخة.

-30-

ذات يومٍ أوصلوا إلى العيادة سيّدةً مسنَّةً هي السيّدة ش. كانت ترفض دخول الحمَّام، وما إن ترى دشَّ الحمَّام حتَّى تصاب بحالةٍ هيستيريَّةٍ مكتومة. ذلك أمرٌ يحدث أحيانًا في المرحلة الحادَّة من المرض، حيث يتصرَّف الناس تصرُّفًا عدوانيًّا وعنيدًا، كأنَّهم أطفالٌ يرفضون فعل أشياء كانت من قبل معتادةً بالنِّسبة إليهم. في مثل هذه الحالات نقدِّم من العقد المناسب الصابون والشامبو اللذين ما زالا يحتفظان برائحتهما، وأدوات التنظيف، وأغطية حمَّامٍ من ذلك الوقت، ومناشف منقوشًا عليها مونوغرام، ومرايا بمقابض عاجيَّة، وأمشاطًا خشبيَّة... وكلَّ ما من شأنه أن يجعل الحمَّام مكانًا مريحًا ومألوفًا. ولكن في حالة السيِّدة ش. لا شيء يساعدنا. فقد ظلَّت تقاوم، وتبكي، وتتوسَّل إلى الممرِّضات أن يرحمنها. لذلك اطَّلعت مع غاوسطين على الأرشيف، وعثرنا على معلوماتٍ عن أقارب المرأة الأحياء ووثائق قديمة، فاكتشفنا، ويجب الاعتراف بأنَّ غاوسطين قد خمَّن الأمر أوَّلًا، أنَّ السيِّدة

ش. نجت من معسكر أوشفيتز. يبدو أنَّها حاولت أن تنسى ذلك ولا تتحدَّث عنه. لكن الآن، في هذه المرحلة المتأخِّرة من المرض، يبدو أنَّ ما أرادت محوه طوال حياتها تدفَّق فيها كقطارٍ قادمٍ نحوها، ولم تكن أمامها أيُّ وسيلةٍ لإنقاذ نفسها عبر ذكرياتٍ أخرى وزمنٍ آخر. كتب بريمو ليفي في أحد أعماله، أنَّ المعسكر هو ذلك الواقع الذي لا مفرَّ منه والذي تعرف فيه أنَّك ستستيقظ في لحظةٍ ما وسط حلم الحياة. وذلك شعورٌ لا يتضاءل بمرور السنين.

فجأةً أصبح كلُّ شيءٍ منطقيًّا، وأدركنا لماذا تسأل المرأة كلَّ صباحٍ ما إذا كانوا قد عثروا على والدتها، وإذا كان إخوتها ما زالوا على قيد الحياة. كما وفهمنا لماذا تجمع قشور الخبز المجفَّف وبقايا الطعام من المقصف وتخفيها في خزانتها. كان لا بدَّ من تجنُّب كلِّ ما يوقظ ذاكرتها؛ الدشّ، صوت نقر الكعوب العالية لأحذية الممرّضات في الرَّدهة (استبدلناها بنعالٍ ناعمة). عمدنا إلى تعتيم ضوء المصابيح، وتقسيم جزءٍ من المقصف إلى أكشاك صغيرةٍ ومريحةٍ لتجنُّب التواجد في المرافق الكبيرة المشتركة، وقرقعة الأواني، وازدحام الناس. وهكذا، فإنَّك تدرك بشكلٍ لا إراديٍّ كم من الأشياء في العيادة يمكن أن تكون مشحونةً بعنفٍ خفيّ، كما يقول ميشيل فوكو. ومن الآن فصاعدًا لن يكون هناك شيءٌ بريء؛ الحمَّامات، والمقصف، وموقد الغاز، والطبيب الذي يرتدي مريولًا أبيض ويريد إعطاء الحقنة، والمصابيح، ونباح الكلاب في الخارج، والنبرة العالية، وبعض الكلمات الألمانيَّة...

إنَّها إحدى الحالات النادرة التي كان غاوسطين فيها مستعدًّا للامتناع عن إيقاظ الذاكرة فيها.

-31-
الشخصيَّات الجديدة واللَّاحقة

Family collapse disorder

في قريةٍ من القرى السويسريَّة، عاد الوالد إلى بيته ليجد فيه غرباء، امرأةً وشابَّين، يستريحون هناك كما لو كانوا في منزلهم. فحبسهم في الداخل، واتَّصل بالشرطة. جاء رجال الشرطة وحاصروا البيت.

أبي... ماذا بك؟ صرخ ولداه من الداخل.

يقولون إنَّ تدفُّق فقدان الذاكرة الجماعيّ يمكن أن يشبه فيروسًا يصل إلى قرن آمون في الفصّ الصدغيّ الوسطيّ للدماغ، يدمِّر خلايا الدماغ، ويثبِّط الناقلات العصبيَّة. والدماغ، ذلك الإبداع الأسمى للطبيعة، يتحوَّل في غضون سنةٍ أو نحو ذلك إلى كتلةٍ متليِّفة. وقد أشار بعض العلماء المشهورين إلى النحل كمثالٍ وحذَّروا من أنَّ ما يحدث مع اختفائه الغامض، وهو ما يطلق عليه colony collapse disorder، له في الواقع آليَّة مرض ألزهايمر نفسه التي تُطبَّق على الجنس البشريّ.

متلازمة قفز الغرامافون

ذات صباحٍ استيقظا في السرير بعد ليلةٍ من الأحلام المضطربة ليكتشفا، أنَّهما تعرَّضا لعمليَّة تحوُّل...

لقد قفز الزمن، مثلما قفزت أسطوانات الغرامافون في الأمس البعيد.

شابٌّ وشابَّة، يدرسان في الجامعة، ناما في المساء واستيقظا بعد عشرين عامًا. شعرا بوجود شيءٍ معطَّلٍ في جسديْهما؛ شعرا بتصلُّب، ووجع، لم يتحوَّلا إلى مفصليَّات الأرجل تمامًا، ولكنَّهما ليسا بحالٍ أفضل من ذلك. اقتحم الغرفة أولادٌ غرباء وصرخوا:

ماما، بابا، انهضا، نمتما طوال اليوم...

من أنتم، ماذا تفعلون هنا؟ صاح الزوجان من غرفة النوم... انتظروا قليلًا خارج الغرفة!

اللعنة، أين شعري؟ ماذا شربنا ليلة أمس؟ لقد حضرنا حفلة... هل تتذكَّرين ما حلمت به؟

لا، لا أتذكَّر شيئًا.

وأنا كذلك.

امـمـم... انتظر قليلًا...، كان هناك بعض الناس، كانوا يهنِّئوننا على شيء، ثمَّ... لا، لا أتذكَّر أيَّ شيء. حاولْ أن تتذكَّر أنت.

كان عليَّ أن أعود إلى بيت والديّ... كنت قد اجتزت للتوّ امتحاناتي للسنة الثالثة.

كنَّا في الصف نفسه، أليس كذلك؟

كان عليَّ أن أتَّصل بوالديَّ وأخبرهما بأنَّني لن أرجع إلى البيت اليوم. قال ذلك ثمَّ نظر إلى ساعته اليدويَّة. هل أتَّصل بهما الآن؟

ما السنة الحاليَّة؟

اللعنة، أين شعري؟ قال ولمس رأسه الأصلع مرَّةً أخرى.

كنَّا في علاقة حبٍّ منذ عدَّة أشهر. حين ثملنا تلك الليلة، أخبرتني أنَّك تريد أن تتزوَّج منِّي.

عندما يكون المرء ثملًا، يهذي في كلامه.

ولكن يبدو، أنَّنا تزوَّجنا...

لا أتذكَّر شيئًا. هذه ليست شقَّتنا القديمة. ربَّما تزوَّجنا ووجدنا وظائف. بالتأكيد كان لديْنا أصدقاء. لا أتذكَّر شيئًا، أيَّ شيء. لعلَّنا كنَّا نقضي الإجازات على شاطئ البحر. بالتأكيد ذهبنا إلى شاطئ البحر.

هل تعرف أسماء أولادنا؟

لا، أقسم بأنَّني لا أعرف إن كان لديْنا أولاد أو لا.

يجب أن نذهب إلى الطبيب.

إلى الطبيب؟! وماذا سنقول له؟

سنقول... يعني يـ يـ ي... صحونا اليوم واتَّضح، أنَّ عشرين عامًا قد مضت.

هل رأيت التقويم؟

نعم، رأيته، إنَّه عام 2020... ألفيْن وعشرين، يا إلهي، إنَّه القرن التالي!

لحظة...، في أيِّ عامٍ كنَّا في الصف الثالث من الجامعة، متى كانت تلك الحفلة؟

ربَّما في عام 1998.

بالضبط. سكرنا بعد امتحان الـ... أيُّ امتحانٍ كان... نسيت... وأنت بقيت معي في شقَّتي، فعلنا ما فعلناه، ثمَّ نمنا. لكنَّني كنت ذلك الوقت في الثالثة والعشرين، اللعنة، كان لديَّ شعر، تبًّا.

ولم تكن هكذا... كنت نحيفًا.

وأنت أيضًا كنت مختلفة.

إذن، ماذا سنقول للطبيب؟ استيقظنا هذا الصباح، وآخر شيءٍ تذكَّرناه، هو الذهاب إلى الفراش في حزيران من عام 1998. لقد نمنا عشرين عامًا. حسنًا، سيقول الطبيب، لم يجبركما أحدٌ على النوم كلَّ تلك السنوات. ممَّ تشكوان؟ أنا، يعني... تساقط شعري ستقول. أمَّا أنا فقد هرمت، ولا أتذكَّر أيَّ شيءٍ على الإطلاق.

تلحَّفا وهجعا مجدَّدًا، على أمل، أن يناما هذه المرَّة في الاتِّجاه الزمنيِّ الرَّجعي، وأن يستيقظا صباحًا في تلك الشقَّة القديمة.

-32-
الزمن المحميّ

لقد انتقلنا إلى الخطوة التالية عندما قرَّر غاوسطين ألَّا يفتح أبواب العيادات أمام المرضى فحسب، بل وأمام أقاربهم أيضًا. ثمَّ ظهر أشخاصٌ لا علاقة لهم بالمرضى، كانوا يريدون العيش في سنواتٍ معيَّنة؛ لأنَّهم لا يشعرون بالراحة في الحاضر. أظنُّ أنَّ بعضهم، ولعلَّهم الأغلبيَّة، كان يفعلون ذلك حنينًا إلى أسعد سنوات حياتهم، وبعضهم الآخر خوفًا من أنَّ العالم قد سار بلا رجعةٍ إلى الهاوية وأنَّ المستقبل قد انقضى. حام قلقٌ غريب في الهواء حتَّى ليمكن للمرء التقاط رائحته الخفيفة.

لم أعرف إذا كان لديْنا الحقّ، من الناحية الأخلاقيَّة، في قبول أشخاصٍ أصحَّاء في العيادات ودمجهم مع المرضى؟ أو أنَّ حقَّ الماضي مقدَّسٌ ويجب أن ينطبق على الجميع، كما يقول غاوسطين. لكنَّ الناس كانوا يبحثون عن ذلك وإن لم نقدِّمه لهم، لوجدوه في مكانٍ آخر. في الواقع، بدأت تظهر فنادق مختلفةٌ للماضي جرى إنشاؤها على عجل.

أمَّا غاوسطين فلم يكن يشاركني شكوكي، وبدأ في فتح نظام العيادة تدريجيًا وعلى نطاقٍ أوسع. بالنِّسبة إلى شخصٍ مهووسٍ بالماضي، فإنَّ أيَّ خطوةٍ باتِّجاه توسيع هذا المجال مُرحَّبٌ بها، لكنَّه كان يفعل ذلك بحذر. لست متأكِّدًا ممَّا إذا كانت لديْه إستراتيجيَّة أو أنَّه يسعى إلى الربح من ذلك (بالتَّأكيد كان المشروع مناسبًا لهذا الهدف). لكنَّني أظنُّ أنَّه رأى فيه شيئًا أكثر من الربح. لقد أراد الدخول في آليَّة الساعة الزمنيَّة نفسها لدفع بعض التروس، وإبطائها، وتحريك العقارب إلى الوراء.

كانت فكرة غاوسطين تتجاوز ذلك الأمر. فهو لم يقصد أن يأتي الشخص لبضع ساعاتٍ من النهار ثمَّ يغادر وكأنَّه يرتاد نوادي الجيم، وإنَّما أن يبقى هناك لفترةٍ أطول... لم يقل غاوسطين إنَّ الإقامة ستكون دائمة، بل ربَّما لمدَّة أسبوعٍ أو شهرٍ أو سنة. أن يبقى ويعيش في هذا المكان. أقول «مكان» وأفهم على الفور أنَّ هذه الكلمة ليست في مكانها. في الحقيقة أراد غاوسطين أن نفتح أبواب الزمن للجميع. وهذا هو بيت القصيد. وبينما يفكِّر الآخرون بالمساحة بالمتر المربَّع أو الفدَّان، يقيس غاوسطين المساحات بالأعوام.

كانت التجربة تتجسَّد في إنشاء ماضٍ محميّ، أو «زمنٍ محميّ»، ملجأ الزمن. أردنا أن نفتح نافذةً في الزمن ونترك المرضى يعيشون هناك مع أقاربهم. أن نمنح الأزواج المسنِّين الذين كانوا معًا طوال حياتهم فرصةً للبقاء معًا، وكذلك البنات والأبناء، وخاصَّةً البنات اللواتي أردن قضاء شهرٍ أو حتَّى سنةٍ مع الوالدين قبل أن تنهار الأمور تمامًا. لكنَّهم لم يرغبوا في الجلوس بجانب سريرهم في غرفةٍ بيضاء معقَّمة. كان جوهر الفكرة أن يبقوا معًا في العام نفسه، ويلتقوا في «المكان» الوحيد المتاح، أي في العام الذي لا يزال يلمع بضوئه الخافت في ذاكرة الوالدين المتلاشية.

-33-
المباراة الأخيرة

كنت أمشي في المساء الدافئ من شهر حزيران عام 1978، وأغنيةٌ كانت تُسمع في مكانٍ ما في الشارع: such a lovely place, such a lovely place, such a lovely face...، إنّها أغنية «فندق كاليفورنيا» لفرقة «الصقور» الموسيقيّة التي كانت تنبعث من كلّ مكانٍ في تلك السنة... كئيبة، مسكرة، تضيّع المعنى من حينٍ إلى آخر، ثمّ تُعيده مرّةً أخرى، لكنّ كوردات الغيتار كانت تصدح بشكلٍ منوّم. بالفعل، هؤلاء الفتية موسيقيُّون رائعون، وكانت المجلّات تتنبّأ لهم بمستقبلٍ باهر. لكن بعد ثلاثين عامًا من مشوارهم الفنّيّ لم تكن ستبقى من ألبوماتهم إلّا هذه الأغنية.

some dance to remember, some dance to forget......

كانت كلُّ الطاولات أمام المطعم في الشارع الرئيسيّ مكتظّة. على الشاشة البارزة لتلفزيون قديمٍ كانت تُنقل المباراة النهائيّة لكأس

العالم في بثٍّ مباشر من بوينس آيرس. وقفتُ ونظرت إلى الشاشة: هولندا مقابل الأرجنتين... أوروبًا مقابل أميركا اللَّاتينيَّة. كنت أعرف جيِّدًا نتيجة المباراة، وكانت الأولى التي شاهدتُها مع والدي قبل 40 عامًا. وبسبب التحايل القذر المستمرِّ من قبل الأرجنتينيِّين كنَّا نشجِّع هولندا، لكن كان من الواضح، أنَّها ستخسر. في الدقيقة التسعين، حصل روب رينسنبرينك على الكرة بعد تمريراتٍ لا نهاية لها، وسدَّد... سدَّد في القائم. كنَّا نراهن على الفريق الخاسر. كان يجب أن نعتاد على ذلك الآن، فبلغاريا تخسر دائمًا، على الرَّغم من أنَّنا لم نشارك في هذه المباراة. لكنَّ المرء لا يعتاد على ذلك قطّ. وأمَّا هولندا فكانت تلعب بشكلٍ رائع. هذا ليس عدلًا... أليس الأخيار من يفوزون دائمًا؟! قلت ذلك وضغطت بقبضتي الصغيرة على الطاولة، محاولًا أن أكون أكثر غضبًا من والدي. التفت أبي نحوي، وقال: انظر، أيُّها الشيخ (هكذا كان يسمِّيني)، إنَّ الحياة أكثر من خسارة.

هنالك أشياء لا ينساها المرء طوال حياته. ربَّما لأنَّ الآباء في ذلك الوقت، وأبي لم يكن استثناءً، لم يتحدَّثوا معنا كما يتحدَّثون مع الكبار. لذلك كانت تلك العبارة من بين الأحداث الاستثنائيَّة. ولعلَّها جاءت كونها وصيَّةً أبويَّة. لم أفهم أبدًا ما إذا كان يقصد أنَّ الحياة ستكون مليئةً بالخسارات وكانت تلك الأولى منها، أم أنَّ الحياة هي دائمًا أكثر من خسارةٍ واحدة. ربَّما قصد كليْهما.

المطعم مكتظٌّ وصاخب. كلُّ المشاهدين متحمِّسون للمباراة. وهناك على الطاولة الأخيرة يجلس رجلٌ ثمانينيٌّ نحيف، طويل القامة، ذو شعرٍ ناصع البياض وعينيْن فاتحتيْن، يحملق في شاشة التلفزيون، وكأنَّه لا يشارك حماسة الآخرين، أو هكذا يبدو للوهلة الأولى. يقف

متجمِّدًا لا يرمش ولا يتحرَّك. شققت طريقي إليه وجلست بجواره.. لو سمحت، هل يمكنني الجلوس؟ نظر إليَّ من دون أن يدير رأسه وبالكاد ارتجفت شفته السفلى.

اقتربت المباراة من نهايتها، والنتيجة متعادلة... الملعب صاخب. لم يُسدَّد على المرمى بعد، ثمَّ مُدِّد زمن المباراة. هتف الجميع باسم كيمبس. ها هي الآن الدقيقة 90... ضربة عارضةٍ جميلة. اجتاح الشعور بالقشعريرة المتفرّجين... نهض مشجِّعو فريق هولندا من مقاعدهم استعدادًا لهتاف الفرح بعد أن سُدِّدت الكرة مهدِّدةً مرمى الأرجنتين... سقطت على قدم رينسنبرينك فسدَّدها... آه! آآآآه.... ارتطمت بقائم المرمى، فانهارت صيحة الفرح متحوِّلةً إلى تنهيدةٍ طويلة ملؤها الألم.

نظرت إلى الرجل الجالس بجواري. في الحقيقة كنت أحاول طوال الوقت أن أشاهد المباراة من خلال عينيْه. وكلُّ ما فعله عندما سدَّد رينسنبرينك الكرة هو أن قبض بيده اليمنى على الطاولة. لكن هذا يعني، أنَّه رغم كلِّ شيءٍ يتأثَّر بما يجري حوله.

تبقى النتيجة متعادلة... يتصاعد التوتُّر... يبحُّ صوت المُعلِّق الرياضيّ... ثمَّ استراحةٌ تدوم بضع دقائق، حيث يتناول المتفرّجون المزيد من البيرة... أتأمَّل وجوه الناس. تُرى هل يشاهد الجميع المباراة كما لو كان ذلك لأوَّل مرَّةٍ أم أنَّ بعضهم يعرفونها ويتذكَّرونها؟ بالتَّأكيد، يتذكَّرها مرافقو المرضى. رغم أنَّه أمرٌ غير مهمّ، فَوجوه الجميع هناك متوتِّرةٌ ومشرقة. لا نعرف كيف ستنتهي المباراة التي انتهت قبل 40 عامًا. وأنا أيضًا أحاول أن أشاهدها كأنَّني أفعل ذلك لأوَّل مرَّة. ربَّما ستحدث معجزةٌ الآن. كلُّ شيءٍ محتمل، كلُّ شيءٍ على وشك أن يتكرَّر مرَّةً أخرى.

في صباح اليوم التالي، ستباعُ فورًا كلُّ صحف الغد التي ستضمُّ التعليقات الأولى، وصور المباراة. وهي نفسها كما كانت قبل 40 سنة، رغم أنَّنا نعيد طباعتها للتوّ على ورقٍ جديد، لا تزال تنبعث منه رائحة الحبر. تلك المباراة والهدف الذي سجَّله كيمبيس في الوقت الإضافيّ، ورفض الهولنديّين أن يظهروا في حفل توزيع الجوائز، ورفض كرويف أن يلعب في منتخب «التوليب» الوطنيّ والذي يحدِّد سلفًا نتيجة الموندياب، والتحايل القذر من قبل الأرجنتينيّين لتأخير المباراة بسبب معصم اليد المجبَّس لأحد اللاعبين الهولنديّين... كلُّ التفاصيل التي صُنعت منها القصَّة، كلُّها ستكون موضوعًا تلوكه الألسن طيلة الشهر الذي سيعقب المباراة.

ولكنَّني الآن لست مهتمًّا بالتاريخ وإنَّما بالسيرة الذاتيَّة فقط. لم يهمَّ الناس بالمغادرة فورًا، بل بقوا يشربون البيرة معلِّقين وغاضبين ممَّا جرى. حتَّى أولئك الذين كانوا يشجِّعون فريق الأرجنتين لم يجرؤوا على إظهار فرحتهم. كنت أجلس على الطاولة بجانب الرجل. لقد حلَّ الظلام وهبَّت ريحٌ باردة، فنهض الناس وغادروا.

أمسكت بيده، وقلت بصوتٍ خافتٍ بل واضح: «انظر، أيُّها الشَّيخ، الحياة أكثر من خسارة». التفت إليَّ ببطء محدِّقًا في وجهي. لم أفهم ما الذي يراه، وماذا يجري في ذاكرته الخاوية. لقد مضت 40 سنة منذ أن شاهدتُ هذه المباراة معه.

إذا لم أكن موجودًا في ذاكرته، فهل أنا موجودٌ بالفعل؟

مرَّت دقيقة. تمتم وكرَّر بصوتٍ صامتٍ محرِّكًا شفتيْه، لكنَّني فهمت، إنَّها كلمة السرّ: «أيُّها... الشَّيخ...».

كان هو حديثنا الأخير. ثمَّ كلُّ شيءٍ تقدَّم بسرعةٍ رهيبة، وهو لم يعُد يعرفني بعد. فقد استسلم دماغه وتمرَّدت أقاليم جسده. كنت قد أخذته ليكون معي هنا في المستوطنة التي افتتحها غاوسطين للتوّ.

بالطبع، زرتُ قبل ذلك كلَّ العيادات الموجودة في البلاد، لكن العيادة التي ذهبت إليها متظاهرًا أنَّني أريد «زيارة قريب» حتَّى يسمحوا لي بالدخول، ملأتني باليأس. فقد كان معظم المرضى مقيَّدين بأسرتهم لمنعهم من الشغب، وهم يديرون عيونهم بشكلٍ محمومٍ وينوحون نواحًا خافتًا، كأنَّهم حيواناتٌ فقدت أصواتها من الصراخ. أعتقد أنَّه كان الشيء الأكثر رعبًا الذي رأيته في حياتي، وصدِّقوني، فقد رأيت أشياء مخيفةً حقًّا. «ماذا تتوقَّع؟ أنا هنا لوحدي مع 30 شخصًا، لا أستطيع تطويعهم، رغم أنَّ آلامهم لا تدوم طويلًا...». صرخ ممرِّضٌ على عجلٍ وهو يمرُّ بي في الرَّدهة. هرولت إلى الخارج وأغلقت باب المدخل، حيث رأيت إعلانًا مطبوعًا على ورقٍ عاديٍّ من شركة دفن الموتى تحته عددٌ من أرقام الهواتف. لن أنسى اسمها: Memento Mori.

أخذت والدي رغمًا عنه إلى عيادة غاوسطين. كلُّ شخصٍ له الحقُّ في الموت كإنسان. في السنوات الثلاث الأخيرة، عندما كان يعود إلى رشده، يُصرُّ باستمرارٍ على «أن يغادر». وبِلُغَتِهِ الخاصَّة، «أن يغادر» يعني أن نساعده على مغادرة الحياة. لقد كتب ذلك على كلِّ أنواع القصاصات الورقيَّة، حتَّى على ورق الحائط في غرفته. بينما كان لا يزال يستطيع الكتابة.

بعد عشرة أشهرٍ استسلمتُ وقرَّرت الاطِّلاع على إمكانيَّة القتل الرحيم... مجرَّد الاطِّلاع عليها.

-34-
دليلٌ للنهاية

لم نشكَّ من قبل أبدًا في أنَّ فقدان الذاكرة قد يكون قاتلًا، أو على الأقلّ، أنا لم أشكَّ في ذلك مطلقًا، لطالما اعتبرتُه مجرَّد استعارة. فجأةً يُدرك المرء مقدار الذاكرة التي يحملها، ذاكرةٍ طابعها إراديٌّ أو لا إراديّ، على جميع المستويات. الطريقة التي تتكاثر بها الخلايا هي أيضًا عبارةٌ عن ذاكرة... نوعٌ ما من ذاكرة الجسد والخلايا والأنسجة.

ماذا يحدث حين تبدأ الذاكرة بالتلاشي؟ إنَّك تنسى أوَّلًا كلمات، ثمَّ وجوهًا، غُرفًا... تنسى مكان الحمَّام في منزلك الخاصّ، وتنسى ما قد تعلَّمتَه خلال حياتك، وهو ليس كثيرًا وقريبًا سيزول. وقتها، في المرحلة المُظلمة كما يسمِّيها غاوسطين، يحاصرك نسيان كلِّ ما تراكم قبل وجودك، ما عرفه الجسد بطبيعته ولم يعرف أنَّه يعرفه، وهو ما يجعل الأمر مُهلكًا.

في النهاية سوف ينسى العقل كيف يتحدَّث، والفم كيف يمضغ، والحلق كيف يبلع.

سوف تنسى الأرجل كيف تمشي، اللعنة... كيف فعلتُ ذلك؟ كان هناك شخصٌ آخر يعرف كيف نرفع القدم، ونثني الركبة، ونرسم بها نِصْف قوسٍ ثمَّ نضعها أمام القدم الأخرى؛ ثمَّ نرفع الأخرى، أي القدم الخلفيَّة، ونرسم بها نِصْف قوسٍ مرَّةً أخرى، ثمَّ نضعها أمام الأخرى. الكعب أوَّلًا، ثمَّ القدم، وأخيرًا أصابع القدم. بعدها، ترفع الساق الأخرى التي في الخلف من جديد، وتثني الركبة، وهكذا دواليك...

هنالك من يطفئ الكهرباء في غرف جسمك.

إنَّ المرحلة الأخيرة من المرض لم تكن في نطاق مسؤوليَّة عياداتنا، لكنَّ المرضى كانوا يموتون عندنا أيضًا. كان معظمهم يتوجَّهون إلى دور رعاية المسنِّين، حيث يعيشون وقتًا أطول بقليلٍ بفضل أنظمة دعم الحياة، بالرَّغم من العلامات التي تشير إلى أنَّ الجسم يرفض دعم الحياة، وينتحر تدريجيًّا عضوًا عضوًا وخليَّةً خليَّة. فالأجساد أيضًا تملُّ، وتتعب، وتحتاج للراحة.

وحاجة الجسم هذه لا يمكن سماعها إلَّا في عدَّة أماكن من العالم. سويسرا، مثلًا، لم تكن جنَّةً للأحياء فحسب، بل وجنَّةً للموتى أيضًا. فعلى مدى عدَّة سنواتٍ متتالية، تحتلُّ زيورخ المركز الثاني في قائمة أفضل المدن للعيش في العالم. ولعلَّها صاحبة المركز الأوَّل في قائمة أفضل المدن للموت. غريبٌ أنَّ مثل هذه التصنيفات لا تُجرى، على أقلِّ تقديرٍ بشكلٍ رسميّ... تصنيف أفضل المدن للوفاة، بالطبع، الأفضل بالنِّسبة إلى الأغنياء. فالموت أصبح باهظ الثمن. وهل كان مجَّانيًّا

في زمنٍ ما؟ لعلَّ سعره مرتفعٌ قليلًا، لو ابتلعت بعض الحبوب، والأمر أصعب باستخدام المسدَّس، حيث يصعب الحصول عليه. لكن هناك طرقٌ بسيطةٌ جدًّا ومجَّانيَّةٌ كالغرق أو إلقاء النفس من مكانٍ ما، أو الشنق. قالت لي إحدى معارفي: تنتابني الرَّغبة في القفز من السطح، ولكن حين أتخيَّل كيف سيشعَّث شعري بينما أسقط، وتتجعَّد تنُّورتي...، بقع الدم، وكلُّ هذه الأشياء، فأشعر بالخجل وأتخلَّى عن الفكرة. تعرف، يلتقطون صورًا لك في مثل هذه الحالة، أليس كذلك، والناس يتفرَّجون...

إنَّها علاماتٌ على الصحَّة: يحسُّ الجسد بالخجل، ويتنبَّأ بما قد يحدث، ويفكِّر في المستقبل حتَّى بعد وفاته، ويشعر بالزهوّ. أمَّا الجسد الذي يطلب الموت حقًّا فهو لم يَعُد يكترث بكلِّ ذلك.

بكلماتٍ أخرى، إذا كنتَ قادرًا على أن تخدم نفسك بنفسك، فإنَّ الموت لن يكلِّفك شيئًا. ولكن ماذا يحدث حين لا تملك قوَّةً كافية للإقدام على الانتحار؟ وليس قوَّةً فقط، بل ولم تَعُد لديْك ذاكرةٌ عن كيفيَّة فعل ذلك. كيف أغادر هذه الحياة، اللعنة! أين أخفيتم الباب؟ ليست لديْك خبرةٌ شخصيَّة تتعلَّق بالانتحار، أو ربَّما حاولت مرَّةً أو مرَّتيْن، لكنَّ محاولاتك كانت فاشلة. (في الواقع، إنَّ محاولة الانتحار الفاشلة هي مأساةٌ حقيقيَّة، وأمَّا المحاولة الناجحة فهي مجرَّد إجراء).

اللعنة! كيف فعلوا ذلك... كيف كان المرء يقدم على الانتحار؟... يتساءل الدماغ الهامد. كيف شرحوا ذلك في الكتب؟ كان هناك شيء... مرتبطٌ بالحلق، بالهواء... نعم... يتوقَّف دخول الهواء، أو يدخل الماء ويملؤك مثل زجاجة... أو شيءٌ حادٌّ يجرحك، ربَّما كان هناك حبل، ولكن ماذا عليَّ أن أفعل بهذا الحبل...

طيّب، عليك طلب المساعدة الطبّيّة لتقدم على الانتحار. يا له من تعبير... لقد ساء الوضع إلى درجةٍ أنّك لا يمكن أن تفعل أيَّ شيءٍ بدون مساعد، حتّى لو أردت أن تموت.

وهكذا، عندما تصبح غير قادرٍ على فعل شيءٍ بهذا الشأن، لا يبقى أمامك سوى البحث عن الخدمة المطلوبة لتحقيق رغبتك. إذا كنت قادرًا على طلبها وسدّ مصاريفها بنفسك، فإنّك محظوظ، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فأنت تورّط أقاربك في تكبُّد المصاريف والتفكير. والسؤال هو كيف يستطيعون الفرار من الشعور بأنّهم قتلةٌ يدفعون ثمن قتلك. آه، لا تهتمُّوا بذلك، فالحضارة الإنسانيّة متقدّمةٌ جدًّا لو كانت في حاجةٍ لتبرير جريمة القتل. لا تُقلّلوا من شأن الحضارة في هذا الصدد، فهي دائمًا قادرةٌ على ابتكار كلمةٍ رائعة مثل Eu-than-a-sia. تشبه اسم إلهةٍ يونانيّةٍ قديمة، إلهة الموت الرحيم الجميل. أتخيّلها تُمسك بيدها حقنةً رفيعة بدلًا من صولجان. «الموت الرحيم هو قتلٌ عن عَمْد بهدف تخفيف آلام المقتول ومعاناته». هذه هي أزمة اللغة، إذ يجب أن تختلق ما يبرّر الجريمة، لذا تجدها تتضوّر وتتلوّى قاضمةً في النهاية ذيلها. أقتلك كي أخفّف من ألمك ومعاناتك، ستَرى (لا طريقة أخرى)، ستتحسَّن حالتك، وستتلاشى الآلام.

لعلَّ ممارسة هذا النوع من القتل في سويسرا لم تتوقَّف منذ الحرب العالميّة الثانية، فالموت الرَّحيم يناسبها. كانوا يمارسونه في البداية بشكلٍ غير قانونيّ، ثمَّ صار شبه قانونيّ، حيث تعامى الجميع عن ذلك، بل وفعلوه مرّاتٍ عديدة، ومنحوا العيادات الخاصّة فرصةً لاستقبال المحتضرين من أوروبّا، ولنكن دقيقين هنا، فنحن نقصد أحد جزئي أوروبّا... فيما يتّصل بالناس من الجزء الآخر، أي الجزء الذي أنتمي إليه، وهذا أمرٌ كان محظورًا أيضًا. لقد كانت بلادنا تفتقر لعقاقير

التخدير، فما بالك بالقتل الرحيم. فالموت في عصر الاشتراكيَّة ليس ترفًا، حيث تُدلَّل بشراشف الحرير. إلى جانب ذلك، لن يمنحك أحدٌ جواز سفرٍ وتأشيرةً لمغادرة البلاد بتذكرةٍ للذهاب فقط، من دون ضمان عودتك. فما إن تغادر إلى الغرب، وترحل عن هذا العالم، حتَّى تصبح خائنًا للوطن، ويُحكم عليك بالإعدام غيابيًّا حتَّى بعد وفاتك.

Switzerland as eutanasiland تعالوا إلى سويسرا... إنَّها بلد الموت الرحيم. يمكننا مساعدتكم إذا كنتم تبحثون عن وجهةٍ سياحيَّةٍ رائعة للموت. غريب، أنَّ هذا النوع من أعمال الموت التجاريَّة لم يُدرَج رسميًّا في أدلَّة السياحة والسفر. كُتب كلُّ دليلٍ بوهمِ أنَّ المرء كائنٌ حيٌّ يسافر. وهي حقيقةٌ وُضِعت أمام قوسيْن، لا بينهما. الموت غير موجودٍ في دليل العالم السياحيّ. كيف أُغفِلَ ذلك؟!

وماذا عن لحظة اقتراب الإنسان من رحيله عن هذا العالم، حين يصبح مسافرًا في المعنى المجازيِّ للكلمة. لماذا يؤجِّلون إصدار دليلٍ لهؤلاء المسافرين؟ أو من يدري، ربَّما قد صدر.

Sterbetourismus لعلَّها كلمة اجتُرحت في سويسرا أوَّلًا. تشير البيانات إلى وجود قرابة 1000 أجنبيٍّ سنويًّا، معظمهم من الألمان، إلى جانب عددٍ كبيرٍ من البريطانيِّين أيضًا. وهم ليسوا فقط المرضى الذين يستعصي شفاؤهم. من بين هؤلاء أيضًا أزواجٌ مسنُّون قرَّروا مسبقًا أن يرحلوا عن الحياة معًا، إن كان أحدهما مصابًا بمرضٍ عضال. أتصوَّرهم قادمين معًا، لطفاء، مرتبكين بعض الشيء، يمسك الواحد بيد الآخر أثناء مغادرتهما الحياة حتَّى لا يُضيِّع أحدهما الآخر في حقول الإليزية مترامية الأطراف، فلا يستطيعان ترتيب موعد اللقاء ومكانه.

التكلفة. ما هي التكلفة؟ أدقّق في مواقع الإنترنت، فأجدها تصل إلى ما يقارب 7000 فرانك بالنِّسبة إلى المرحلة التمهيديَّة فقط. ويكلِّف ترتيب مراسيم الدفن وكافَّة الإجراءات المطلوبة لذلك 10000 فرانك. بالتأكيد، إذا استأجرت قاتلًا محترفًا سيكلِّفك الأمر أكثر، ناهيك عن حرمانك من الراحة.

قد يحصل الأزواج على خصم، رغم أنَّ 7000 فرانك ليست مبلغًا كبيرًا بالنِّسبة إلى مثل هذا البلد. هذا يعني أنَّ الأعمال هناك مربحةٌ جدًّا. ولو أخذنا بعيْن الاعتبار تكلفة الأشياء مؤخَّرًا... سنجد أنَّ ثمن الحياة منخفض، في حين يبدو أيُّ شيءٍ آخر أكثر تكلفة، مع أنَّ الموت عبر تاريخ البشريَّة لم يكن أبدًا باهظ الثمن، بل وكان سعره منخفضًا جدًّا في القرن العشرين. نعم، في الواقع، ربَّما يعتمدون على إجماليِّ الخدمات التي يبيعونها.

من جانبٍ آخر، ليس الثمن غاليًا إلى هذا الحدّ، فما هي تكلفة 15 جرامًا من مسحوق بنتوباربيتال؟ يمكنك شراؤه في المكسيك من أيِّ طبيبٍ بيطريّ، لو أخبرته أنَّك ستقتل كلبك المسنَّ قتلًا رحيمًا.

أستطلع بإمعانٍ موقع الويب لإحدى المنظَّمات التي تصنَّف كمنظَّمةٍ غير ربحيَّة. الموقع بسيطٌ للغاية، ومصمَّم باللون الأخضر. لم أتصوَّر أبدًا أنَّ الأخضر يمكن أن يكون بمثابة لون الموت. ينصُّ شعارها على ما يلي: To live with dignity, to die with dignity (عِشْ بكرامةٍ ومُتْ بكرامة) هذه الكلمات تبدو أكثر ملاءمةً لتنظيم الساموراي، وأظنُّها لا تخلو من المعنى. إنَّ الصورة المتواضعة للفريق تثير رعبًا مكنونًا: يقف الجميع وأذرعهم مفتوحة، مبتسمين ابتسامةً عريضةً تكشف عن أسنانٍ بيضاء جميلة. كم عدد أفراد الفريق؟ اثنا عشر شخصًا، مثل

رسل المسيح الاثني عشر. أتساءل عمّا إذا كان متعمّدًا... لا... أشكُّ في ذلك. ولكن في عام 2005، لعب أحدهم دور يهوذا وقدّم معلوماتٍ داخليّةً واصفًا المنظّمة بأنّها «آلةٌ للموت باهظة الثمن».

لا يمكن الاتّصال بمستهلكي الخدمة، ممّا يعني أنّه لا تعويض عن سوء الخدمة.

This process is absolutely risk-free and painless (هذه العمليّة خاليةٌ تمامًا من المخاطر وهي غير مؤلمة). هذا ما يقوله الكتيّب الطبّيُّ الذي قدّموه لي. أليست هذه العمليّة خطيرةً على الحياة؟ تبًّا لهم، ماذا يقصدون بأنّها لا تسبّب مشاكل في المعدة، ولا الإمساك، ولا الإدمان، ولا هبوط ضغط الدم؟

هناك أيضًا خصمٌ يمنحونه في أشهر الصيف. يبدو أنَّ الناس يفضّلون الموت في الشتاء بالتّحديد. هل الخصومات تجعل المزيد من الناس يقرّرون الذهاب إلى هذه المنظّمة؟ إذا حان حينك، فلا تكن بخيلًا، بل اسمحْ لنفسك ببعض الرفاهية. أعتقد أنَّ وسطاء الموت ومدراءه المتخفّين (بالتّأكيد هم موجودون متنكّرين في وكالاتٍ سياحيّة) يستغلّون ذلك. سيّارة ليموزين سوداء طويلةٌ تتّسع للنقّالة في حال لم تكن قادرًا على الجلوس، وهي تمنحك رحلةً عبر طرق أوروبّا. وحسب رغبة المريض وحالته يمكننا التوقّف لإقامة ليلةٍ في النمسا، ثمّ نقضي فترة بعد الظهر في منطقة بحيرة زيورغ. وفي طريق العودة تتحوّل سيّارة الليموزين إلى عربة الموتى ناقلةً جرّة رماد الميّت مباشرةً ومن دون توقّف.

Sterbetourismus هو نوعٌ من السياحة مخصّصٌ للأثرياء فقط، أمّا الفقراء فهم غير قادرين على اللجوء إلى خدمة القتل الرحيم.

بعد مجزرة الحرب العالميَّة الثانية وصناعة الموت في معسكرات الاعتقال، تجد أوروبًا صعوباتٍ أكبر في عرض الموت بصورةٍ محسَّنة. لذا، فإنَّ الحياد جعل من سويسرا محتكرًا خفيًّا. وكما يقول غاوسطين، بغضِّ النظر عن الطريق الذي تسلكه من أوروبًا، فإنَّه سيؤدِّي دائمًا إلى الحرب العالميَّة الثانية. وبعد عام 1939، لن يبقى أيُّ شيءٍ على حالته السَّابقة.

ذهبت لرؤية المبنى حيثُ تقام المراسم أو العمليَّة، فوجدته عاديًّا جدًّا. كان يشبه كوخًا كبيرًا مكوَّنًا من طابقيْن بغطاءٍ خارجيٍّ من البلاستيك. والديكور في الداخل متواضعٌ أيضًا كما تعكسه الصور الموجودة على الموقع... سرير، وطاولةٌ جانبيَّة، ولوحةٌ على الحائط، وكرسيَّان، وبعض النوافذ المطلَّة على البحيرة.

حاولت أن أقرأ كلَّ شيءٍ ببرودٍ وبشكلٍ تقنيّ، حتَّى لا أفكِّر في الموضوع الأساسيّ. غريبٌ أنَّني طوال الوقت كنت أتصوَّر نفسي هناك مكان والدي. كانت العمليَّة واضحةً تمامًا من حيث التقنيَّة، ولكن كيف لي أن أتحمَّل هذا الذنب. ووالدي، كما لو أنَّه أحسَّ ذلك، فقد أنقذني برفق، مثلما يُضحِّي الآباء طوال الحياة من أجل أولادهم، ومات قبل ذلك موتةً طبيعيَّة. كنت معه في ساعاته الأخيرة أمسك بيده، وأتساءل عمَّا يريد أن يشعر به مجدَّدًا عبر ما بقي من خلايا ذاكرته، إن استطاع ذلك. أشعلت سيجارة «ستيوارديسا» من مخزون السبعينيَّات، من «المدخَّرات الشرقيَّة». كان والدي أجمل مدخِّنٍ عرفته. تذكَّرت كيف كنت أحاول تقليده عندما بدأت بالتدخين وأشعلت سرًّا سجائري الأولى. سحبت دخان السيجارة بدلًا منه، ولاحظت كيف تحرَّك منخاراه حركةً خفيفةً واهتزَّ جفناه. ثمَّ همد.

رحل الرجل الأخير الذي كان يتذكَّرني صغيرًا، ثمَّ انفجرتُ في البكاء كطفل.

-35-

من أين ينبع ولعي بالماضي؟ لماذا يجرُّني إلى الوراء كبئرٍ أنحني عليها؟ لماذا يغريني بوجوهٍ أعرف أنَّها لم تعُد موجودة؟ ما الذي بقي هناك ولم أستطع أخذه؟ ما الذي ينتظرني في كهف ذلك الماضي؟ هل يمكنني التوسُّل للعودة مرَّةً أخرى، رغم أنَّني لا أمتلك موهبة أورفيوس، بل رغبته فقط؟ وأتساءل عمَّا إذا كنت أقتل الأشياء والأشخاص الذين سأُخرجهم من هنا لو نظرت ورائي في طريق العودة؟

في الآونة الأخيرة، أفكِّر في الأوديسة كثيرًا. كنَّا نقرأها دائمًا كرواية مغامرات، ثمَّ نكتشف لاحقًا أنَّها كتابٌ للبحث عن الأب أيضًا. بالطبع، إنَّه كتاب العودة إلى الماضي... إيثاكا هي الماضي... بينيلوبي هي الماضي، والمنزل الذي تركتَه هو الماضي. الحنين هو الريح التي تنفخ أشرعة سفينة أوديسيوس. الماضي ليس أمرًا مُجرَّدًا على الإطلاق، فهو مصنوعٌ من أشياء صغيرةٍ ملموسة تمامًا. بعد سبع سنواتٍ من الحياة السعيدة ستقدِّم الحوريَّة كاليبسو لأوديسيوس الخلود لو بقي معها إلى الأبد، لكنَّه

رفض. لقد فكَّرتُ في الموضوع. دعونا نكن صادقين ونقول بصراحةٍ من منَّا سيرفض مثل هذا العرض... في إحدى كفَّتَي الميزان الخلود والمرأة الشابَّة الخالدة وكلُّ ملذَّات الدنيا، وفي كفَّته الأخرى العودة إلى مكانٍ لا يكاد يتذكَّرك فيه أحد، والشيخوخة المنتظرة، ومنزلٌ محاصرٌ من اللصوص، وزوجةٌ مسنَّة. أيُّ كفَّةٍ ستختار؟ اختارَ أوديسيوس الثانية. نعم، فعل ذلك من أجل بينيلوبي وتليماخوس، لكنَّه ذكر أيضًا سببًا محدَّدًا وتافهًا أطلق عليه «دخان المدخنة»، أي بسبب ذكريات الدخان المتصاعد من مدخنة بيت العائلة. إنَّها الرَّغبة في رؤية هذا الدخان مرَّةً أخرى (أو يموت في بيته ويتلاشى مثل الدخان المنبعث من المدخنة). وكلُّ القوَّة الدافعة لعودته تركَّزت في هذا التفصيل. لا يمكن لجسم كاليبسو ولا للخلود أن يفوقا وزن الدخان المنبعث من المدخنة. لقد مالت الكفَّة نحو الدخان الذي لا وزن له، فعاد أوديسيوس أدراجه إلى الوطن.

بعد عام 1989 مباشرة، عاد مهاجرٌ سياسيّ، محكومٌ عليه بالإعدام غيابيًّا، إلى مسقط رأسه الذي غاب عنه 40 عامًا. وبالطبع، فإنَّ ما يريد رؤيته أوَّلًا، هو بيت عائلته الذي بناه جدُّه. بيتٌ جميلٌ واسع في قلب العاصمة صوفيا جرى تأميمه منذ أعوام، فأصبح فيما بعد مقرًّا للسفارة الصينيَّة، ثمَّ أُخلي... وبينما كانوا يتجوَّلون في طوابق المنزل، أخذ يتذكَّر الغرف واحدةً تلو الأخرى، ولكن لم يتحرَّك فيه شيء. في اليوم التالي كان يتحدَّث: هذه الغرف لم تقل لي شيئًا. أردت النزول إلى القبو، حيث كان «الجليد» كما سمَّيناه تلك الأيَّام، أي المكان البارد حيث خُزِّنت مختلف المنتجات الغذائيَّة. أخذت نفسًا عميقًا وجاءتني كلُّ روائح ذاك الوقت، ولم يأخذني البكاء إلَّا الآن، وعندها أدركت أنَّني في البيت، لقد عدت. من أجل «الجليد»، لا شيء غيره. ذلك الجليد أذاب قلبي.

سوف أضحّي بكلّ شيءٍ من أجل معرفة قصّة أوديسيوس بعد عودته بشهر، أو سنة، أو سنتيْن، عندما تلاشت الفرحة بعودته. ومات كلبه المحبوبِ وهو الكائن الوحيد الذي تعرَّف عليه فورًا من دون الحاجة إلى التثبُّت من ذلك (إنَّه حبٌّ غير مشروط... ذاكرةٌ غير مشروطة). تُرى، هل بدأ يندم ندم آدم على نهد كاليبسو، والليالي في تلك الجزيرة، والعجائب والمغامرات التي واجهها في رحلته الطويلة؟ أتخيَّله وهو ينهض من سرير الزوجيَّة الذي صنعه بنفسه، ويخرج خفيةً حتَّى لا يوقظ بينلوبي، ثمَّ يجلس على عتبة البيت فيتذكَّر كلَّ شيء. لقد تحوَّلت رحلته الكاملة التي استغرقت عشرين عامًا إلى ماضٍ، ويجذبه قمر ذاك الماضي وتزداد قوَّة جذبه، كما يحدث في مرحلة المدّ... مدّ الماضي.

أقصر روايةٍ عن أوديسيوس بعد عودته

لقد شاخ أوديسويس، وترهَّل، وبدأ يفقد ذاكرته. وفي ليلةٍ من الليالي بعد أن ملَّ من كلِّ شيء، غادر منزله سرًّا، وانطلق في رحلةٍ ليرى لآخر مرَّةٍ الأماكن، والنساء، والوحوش التي التقاها من قبل ليسترجع في ذاكرته المفرغة ذكرياتٍ عمَّا كان يحدث في الماضي، وعَمَّنْ كان هو بالذات. فَمِنْ سخريَّة القدر أنَّ الشيخوخة بدأت تحوّله إلى ذلك «اللاأحد»، وهو اسمٌ استخدمه بذكاءٍ لتقديم نفسه أمام «صقلوب».

وجده تليماخوس في المساء مغشيًّا عليه بجوار القارب على بعد مئة مترٍ من البيت، لا يتذكَّر ما كان يفعله هناك ولا إلى أين كان متَّجهًا.

فمضوا به إلى منزل، عند امرأة، لا يتذكَّرها.

-36-

العمر (والزمن) يا له من سارق، أليس كذلك؟ يا له من قاطع طريق... أسوأ من أسوأ قطّاع الطرق الذين يترصّدون القافلة الآمنة ويُغيرون عليها. ولكن هؤلاء لا يهتمُّون إلَّا بذهبك الذي تخفيه، ولو أنَّك سلَّمته طوعًا من دون مقاومةٍ لتركوا لك الباقي، أي حياتك، ذاكرتك، قلبك وفحولتك. وأمَّا ذلك السارق (العمر أو الزمن) فيأتي ويسرق كلَّ شيء... الذاكرة، والقلب، والسمع والفحولة. بل حتَّى إنَّه لا يميِّز في سرقته، فينهب الأخضر واليابس. ولا يكفيه ذلك، إذ يسخر منك، فيجعل ثدييك مترهِّلين، ومؤخِّرتك ناحلة، وظهرك محدودبًا، وشعرك متهالكًا يغزوه الشيب، وأذنيْك يملأهما الشعر، والشامات مرشوشةً على جسمك، وبقع الشيخوخة على كفَّيْك ووجهك... يجعلك تتمتم هراءً أو تصمت كأبله، لا ذاكرة لك؛ لأنَّه قد سرق كلَّ كلماتك. هذا السافل الحياة، أو الزمن، أو الشيخوخة سمِّه ما شئت، فكلُّها القذارة ذاتها، والعصابة نفسها. في البداية يحاول أن يكون مهذَّبًا على الأقلّ، فيسرق القليل مثل نشَّالٍ

ماهر، من دون أن تلاحظ، وينشل أشياء صغيرةً مثل الأزرار، والجوارب،... ألمٌ خفيفٌ في الصدر، ويقصر نظرك درجتيْن... ثلاث صورٍ من الألبوم، الوجوه... الأسماء... اسم تلك المرأة.... كيف كان اسمها...

وها أنت تغلق باب بيتك، وتتوقّف عن اللّقاء بالآخرين، وتفرط في تناول الفيتامينات، وتكتشف سحر الطحالب مُثبَتَة الفعاليَّة تمامًا والموجودة في المياه العميقة لتلك البحيرة... كيف كان اسمها... التي تُعيد الشباب، وكالسيوم السرطانات الصغيرة من البحار الشماليَّة النظيفة، والفوائد الرائعة للّبَن البلغاريّ أو زيت الورد، كما تغلي نخاع عظام البقر على نارٍ خفيفةٍ وهو مصدرُ الكولّاجين للنسيج الضامّ، وتتبع الدورة القمريَّة كي تتمكّن من اتّباع حمية القمح التي ابتكرها المعلّم الروحيُّ بيتر دونوف، ثمَّ تتعمَّق في أغوار الروح: كارلوس كاستانيدا، بيتر دونوف، هيلينا بلافاتسكا، وتغوص في صوفيَّة المذاهب القديمة مع المتصوّف الهنديّ أوشو، وتجري محاولاتٍ (فاشلة) لتتناسخ، «الصرخة البدائيَّة» لعالم النفس آرثر جانوف، والعدّ التنازليّ، وتتنفَّس في صالةٍ رياضيَّةٍ مدرسيَّة وأنت تحدِّق في القضبان المتوازية، والجدران السويديَّة، وحصان القفز، بينما يتحدَّثون إليك عن وهم الجسد المادّيّ، ويُدخلونك إلى صالة الأجساد النجميَّة، وأنت تستمرُّ في رؤية أجهزة الصالة الرياضيَّة، تلك التي كانت تعذّبك أيّام المدرسة، فتقول في نفسك: «ها هو فرح الشيخوخة الصغير، لن أتسلَّق مرَّةً أخرى عارضة التوازن والجدار السويديّ، فالهيئة النجميَّة لا يهمُّها هذا الأمر. وبينما تنهض من مكانك بصعوبة، سرعان ما تدرك أنَّ جميع الأجساد الأخرى قد هجرتك ولم يبق إلَّا جسدك الفيزيائيّ، ذلك الحمار العجوز الأعرج الذي تغرق معه في الظلام، وأنت لم تعُد خائفًا من قطّاع الطرق.

-37-

إنَّنا ننتج الماضي باستمرار. نحن مصانع للماضي... آلاتٌ حيَّةٌ للماضي لا أكثر. نأكل الزمن ونصنع الماضي. وحتَّى الموت ليس حلًّا. لقد رحل المرء وبقي ماضيه. إلى أين يذهب كلُّ ذلك الماضي الشخصيّ لاحقًا؟ هل يشتريه أحد؟ هل يجمعه، أو هل يرميه؟ أم أنَّه يتدحرج مثل صحيفةٍ قديمة تقذفها الريح في الشارع؟ إلى أين تذهب كلُّ تلك الحكايات التي بدأت لكنَّها لم تكتمل؟ وتلك العلاقات المقطوعة التي ظلَّت تنزف... وكلُّ العشَّاق المهجورين الذين قُطعت العلاقة بينهم؟ «قطعت» هي ليست كلمةً عارضة، بل قاتلة.

تُرى، هل يتحلَّل الماضي أم يبقى على حاله مثل الأكياس البلاستيكيَّة التي لا يمكن أن تتفسَّخ موادُّها، فتُسَمِّمُ ببطءٍ وعمقٍ كلَّ شيءٍ حولها؟ ألا يجب بناء مصانع لإعادة تدوير الماضي؟ هل يمكن صنع شيءٍ آخر من الماضي غير الماضي؟ هل يمكن إعادة تدوير

الماضي واستخدام موادّه لإنتاج مستقبل، وإن كان مستقبلًا مستعملًا؟ هذه أسئلةٌ تُطرح.

إنَّ الطبيعة تمتصُّ الزمن التاريخيَّ أو تحوِّله تمامًا، كما تحوِّل الأشجار ثاني أكسيد الكربون. لم تتأثر الأنهار الجليديَّة في القطب الشماليّ كثيرًا بحرب الثلاثين عامًا، لكن سُجِّل كلُّ شيءٍ فيها... في الجليد والأرض المجمَّدة. يذوب الجليد ويعري جثَّة الماضي، وينهض ماموث الماضي. وسوف تختلط الأزمنة والعصور. في مكانٍ ما في سيبيريا بدأت تنمو بذورٌ غفت في الجليد 30 ألف عام. ستفتح الأرض أرشيفها، حتَّى لو لم يكن واضحًا ما إذا كان هناك من يقرأه.

والآن، في ظلِّ عصر الأنثروبوسين، لأوَّل مرَّةٍ وبمثل هذه القوَّة، تشعر الجليديَّات، والسلحفاة، وذبابة النبيذ، وشجرة الجنكا بيلوبا، ودودة الأرض، بأنَّ شيئًا ما قد تغيَّر في الزمن البشريّ. فنحن نهاية العالم، وبهذا المعنى نمثِّل أيضًا نهايتنا الخاصَّة. يا لها من مفارقة، فالأنثروبوسين هو أوَّل عصرٍ سُمِّيَ على اسم الإنسان، وربَّما سيكون الأخير بالنِّسبة إليه.

(غاوسطين، «عن نهاية الزمن»)

-38-

بدأ غاوسطين يتغيَّر تدريجيًا. فقد تحوَّل الماضي بالنِّسبة إليه إلى ذلك الحوت الأبيض الذي كان يطارده بشغفِ القبطان آهاب. وشيئًا فشيئًا أخذ يتخلَّى عن بعض المبادئ والمحظورات، حيث اتَّضح أنَّها مجرَّد عقباتٍ أمام هدفه الأكبر. ولكن عليَّ أن أعترف بأنَّه أوَّلًا، أدرك كلَّ ذلك وحاول السيطرة عليه، وثانيًا، لم يغالِ في طموحه، بل كانت فكرته قديمة الطراز ورومانسيَّةً إلى حدٍّ ما (في حال اعتبرنا الثورات أمورًا رومانسيَّةً وقديمة الطراز)... فكرةٌ تتعلَّق بنقطة التحوُّل في الزمن، وبعض الانقلاب فيه، والبحث عن نقطة ضعفٍ يمكن من خلالها «تدجين» الماضي... كان يستخدم هذه الكلمة بالضبط.

بعد لقائنا الأوَّل واختفائه لاحقًا عام 1939 (حسب تقويمه الشخصيّ)، تخصَّص غاوسطين في الطبِّ النَّفسيِّ واضطرابات الذاكرة، وكأنَّه أراد أن يجد تفسيرًا منطقيًّا لهوسه الذاتيّ. وبالفعل، فإنَّ غاوسطين الذي قابلته مجدَّدًا، كان بإمكانه أن يبدو كشخصٍ عاديٍّ تمامًا. وأحيانًا،

كانت تلمع لوهلةٍ في عينيْه بعض العبارات والإيماءات من أزمنةٍ أخرى. لكن بدا لي في الأشهر الأخيرة أنَّه قد وجد طريقةً للتغلُّب على نفسه وعلى العلم الذي كان يحتمي به. كنت أراه كيف يقاوم ذلك، ويحاول (بصعوبةٍ أكبر من أيِّ وقتٍ مضى) الحفاظ على هدوء شخصٍ يعيش هنا والآن، وبالنسبة إليه، فإنَّ الماضي ليس سوى مشروع، نوع من أنواع العلاج بالذكريات الذي طوَّره إلى حدودٍ غير متوقَّعة.

وفي مرَّةٍ أو مرَّتيْن حين حاولتُ أن أذكِّره بلقائنا الأوَّل على شاطئ البحر أثناء تلك الندوة، وبرسالته التي كتبها عشيَّة الأوَّل من أيلول عام 1939، تغيَّرت ملامح وجهه فجأةً فغيَّر الموضوع. كأنَّ ذلك الشاب الذي التقيته في الندوة كان شخصًا آخر، أو كان مُصابًا بفقدان العقل المؤقَّت الذي استطاع التغلُّب عليه الآن ولا يريد أن يذكِّره به أحد. تصوَّرته للحظةٍ كيف يستيقظ كلَّ صباح: الرجل نفسه الذي حيك من نسيج أزمنةٍ عديدة، وقبل احتساء قهوته الصباحيَّة، وهو ما زال في السرير، يطلق العنان لخياله كي يبني عالم اليوم وهو موجودٌ فيه... العام كذا وكذا، المكان كذا وكذا، أنا معالجٌ نفسيّ، متخصِّصٌ في اضطرابات الذاكرة في عيادات الماضي التي أنشأتها بنفسي، اليوم هو السبت، عليَّ ألَّا أنسى العام.

كلُّ هوسٍ يحوِّلنا إلى وحوش. وبهذا المعنى كان غاوسطين وحشًا، ربَّما أكثر تكتُّمًا، لكنَّه مع ذلك وحش. لم تعُد تكفيه العيادة بكلِّ غرفها وأدوارها، ولا أجنحة العقود المختلفة التي تتَّسع وتتكاثر. تصوَّرت كيف ذات يومٍ سوف تُغيِّر مدنٌ كاملةٌ تقويمها وتعود عدَّة عقودٍ إلى الوراء. وماذا سيحدث إذا قرَّرت فجأةً دولةٌ بأكملها فعل ذلك؟ أو عدَّة دول؟ كتبت هذا في أحد دفاتري، وقلت لنفسي إنَّه ربما سينفعني، وقد تتشكَّل منه روايةٌ قصيرة.

- 11 -
القرار

ماذا كان هذا، إذاً، ذاك الذي في الجوّ؟ انفعالٌ متصاعد.نزقٌ حاذّ. حقدٌ متعذِّر وصفه. ميلٌ شامل لتبادلٍ مسمَّم للكلمات، ميلٌ لهيجانات الغيظ، نعم، حتَّى ميلٌ للتلاكمات. جدالاتٌ منغِّصة، نوباتٌ من الزعيق المتعذِّر ضبطه، بهيئة أزواجٍ أو جماعات...

توماس مان، «عاطفةٌ هيستيريَّة»،
من كتاب «الجبل السحريّ»
ترجمة: علي عبد الأمير صالح

-1-

عندما اندفع الماضي ليغزو العالم...

لقد كان ينتقل من شخصٍ لآخر مثل وباء، مثل طاعون جستنيان أو الإنفلونزا الإسبانيَّة. هل تتذكَّر الإنفلونزا الإسبانيَّة عام 1918؟ سألني غاوسطين. لا، أجبت، لا أتذكَّرها شخصيًّا. كانت الحالة فظيعة. كان الناس يتساقطون في الشوارع. كان يمكن أن تنتقل إليك العدوى من كلِّ شيء، يكفي أن يقول لك شخص «مرحبًا» وفي اليوم التالي عليك السلام.

نعم، الماضي معدٍ. لقد انتشرت العدوى به في كلِّ مكان. لكنَّ السيِّئ في الأمر كان ظهور بعض السلالات سريعة التحوُّر التي دمَّرت كلَّ مناعة. وأوروبَّا التي اعتقدت، أنَّها بعد عدَّة نوباتٍ شديدة من فقدان العقل تعرَّضت لها في القرن العشرين، طوَّرت مقاومةً كاملة لأنواعٍ معيَّنة من الهوس، والجنون الوطنيّ، وما إلى ذلك... كانت في الواقع منتشرةً بين الدول الأولى التي استسلمت.

طبعًا، لم يكن يموت أحد (في البداية على الأقلّ)، لكنَّ الفيروس ظلَّ ينتشر. ولم يكن واضحًا ما إذا كان ينتقل عن طريق القطرات المتطايرة في الجوّ، بحيث، لو كان يصرخ شخصٌ ما «ألمانيا، ألمانيا...أو فرنسا، أو بولندا... فوق كلِّ شيء... فوق كلِّ شيءٍ في العالم»، أو «المجر للمجريِّين»، أو «بلغاريا على البحار الثلاثة»، فهل يمكن نقل الفيروس في هذه الحال عن طريق رذاذ البصاق الذي تحتويه العبارات السابقة.

أسرعُ طريقةٍ لانتقال فيروس الماضي كان عبر الأذن والعين.

في البداية، عندما ظهر في شوارع بعض البلدان الأوروبيَّة أشخاصٌ مرتدين أزياءً وطنيَّة، كان ذلك يبدو كنوعٍ من الإسراف، أو بقعةٍ ملوَّنة وسط الحشد، أو ربَّما نوعٍ من الاحتفال، أو انطلاق موسم الكرنفال، أو موضة سريعةٍ مؤقَّتة. كان الجميع يبتسمون لهم أثناء مرورهم، ويعلِّق البعض على أزيائهم أو يتهامسون فيما بينهم عنهم.

ومن دون أن يدرك أحدٌ بدأ هؤلاء في التغلُّب على المدن، فصار أمرًا محرجًا أن تتنزَّه مرتديًا الجينز أو السترة أو البدلة. لم يحظر أحدٌ رسميًا ارتداء البنطال أو الملابس الأوروبيَّة، لكن إذا كنت تريد تجنُّب نظرة الشكّ والريبة والازدراء من قبل الآخرين، أو سماع بعض التعليقات اللَّاذعة أو تلقِّي بعض اللكمات، فإنَّه من الأفضل لك أن ترتدي سترة صوفٍ وطنيَّةً فوق ملابسك، أو سروالًا جلديًا خاصًّا بمنطقة تيرول، أو ملابس أخرى حسب المنطقة التي تصادف وجودك فيها. إنَّه الطغيان المهذَّب للحشد.

ذات يوم، ذهب رئيس إحدى دول أوروبًا الوسطى إلى العمل مرتديًا زيًّا وطنيًّا: جزمةً جلديَّة، وبنطالًا ضيِّقًا، وصدريَّةً مزيَّنة مطرَّزة،

وببيونة سوداء عتيقةً بياقة القميص الأبيض، وبرنيطة فلكلوريَّة سوداء عليها زهرة إبرة الراعي الحمراء. كان يشبه راقص الفلكلور المجريِّ الذي تهدَّل كرشه، لكنَّه دائمًا مستعدٌّ ليقفز برشاقةٍ مدهشة، ويبدأ بالرقص حالما يسمع موسيقى في حفل زفاف. وذلك أمرٌ أعجب الناس والقنوات التلفزيونيَّة، فصار الرئيس يرتدي كلّ يومٍ مثل هذه الأزياء.

وما إن دخل النواب الأوروبيُّون عصر الموضة الرائجة الجديدة، حتَّى سرعان ما «شبَّه البرلمان الأوروبيُّ ببرنامج التلفزيون الألمانيِّ الذي بُثَّ بمناسبة عيد رأس السنة أيَّام الثمانينيَّات»، كما قال أحد الصحفيِّين من قناة «يورونيوز» التلفزيونيَّة مذكِّرًا ببرنامج «المرجل الملوَّن» لتلفزيون الجمهوريَّة الألمانيَّة الديموقراطيَّة، حيث مثَّل ذلك البرنامج ذكرياتٍ مشتركةً وموحَّدةً بالنسبة إلى عدَّة أجيالٍ في أوروبَّا الشرقيَّة.

كذلك ارتدى نائب رئيس الوزراء لأحد البلدان الجنوبيَّة الشرقيَّة الزيَّ الوطنيّ: سروالًا فضفاضًا مطرَّزًا بزخرفة جديلةٍ سوداء، وحزامًا أحمر عريضًا، وقبَّعة «قلباق» من صوفٍ أشعث مزيَّنٍ بعقدٍ من الفشار، كما كان أيَّام زمان. ولبست وزيرة السياحة فستانًا أحمر من قماشٍ سميك وقفطانًا مطرَّزًا بأكمامٍ واسعة. وكانت ترتدي قلادةً تلمع فيها عملاتٌ معدنيَّة كذهبٍ حقيقيّ، وقد انتشرت شائعةٌ مفادها أنَّ تلك القلادة جزءٌ من الكنز الذهبيِّ التراقيِّ المحفوظ في خزائن الدولة. وشرع جميع الوزراء تدريجيًا بارتداء أزياء وطنيَّة، وفي النهاية كانت دورات انعقاد البرلمان أشبه بسهراتٍ قرويَّة... كان رئيس الوزراء يقول «نرفع السهرة» بدلًا من «نرفع الجلسة». وقد تحرَّج الجميع قليلًا في البداية عندما ظهر وزير الدفاع راكبًا على ظهر الخيل مرتديًا أزيَّاء ثوَّارٍ من الحقبة العثمانيَّة، وسيفًا طويلًا معلَّقًا على خصره، ومسدَّس «ناجان» ذا

مقبضٍ فضّيٍّ في جراب. كان الحصان طوال اليوم مربوطًا بجوار سيّارات المرسيدس السَّوداء أمام بناية مجلس الوزراء، حيث كان أحد الحرس يطعمه الشوفان وينظّف الروث بخجل.

حاولت بعض المواقع الإلكترونيَّة أن تسخر منه، لكن في ظلّ النشوة العامَّة، كانت أصواتها ضعيفةً ومزعجة إلى درجة أنَّها سرعان ما خفتت.

كانت حياةٌ جديدة قد بدأت... حياةٌ في ظلّ إعادة تمثيلٍ تاريخيّ.

-2-

ذات مساءٍ، أمام العيادة في شارع «هيليوسشتراسه»، توقَّفت بهدوءٍ سيَّارتان من طراز «تسلا»، ونزل منهما ثلاثة رجالٍ مرتدين بدلاتٍ كحليَّة اللون، ودخلوا غرفة غاوسطين. كان أحدهم يقود الآخرين، فقد جاء عندنا من قبل لزيارة والدته، ثمَّ أتى إلينا عدَّة مرَّاتٍ بمفرده، واندمج في أحاديث طويلةٍ مع غاوسطين. كانت زياراته السابقة سرِّيَّةً كونه أحد «الثلاثة الكبار» في الاتِّحاد الأوروبيّ.

ذلك المساء جاء الرجال الثلاثة، ودعاهم غاوسطين إلى غرفته المفضَّلة في الستينيَّات. لقد بقوا طوال الليلة يتجاذبون أطراف الحديث، ويصرخون، ثمَّ يسكتون.

كان الماضي ينتشر في كلِّ مكان... يمتلئ جسده بالدم فيعود إلى الحياة. كنَّا نحتاج إلى خطوةٍ جذريَّةٍ مفاجئةٍ واستباقيَّة، من شأنها أن تُوقف قوَّة الطرد المركزيِّ التي لا يمكن كبحها. لقد انتهى وقت الحبِّ

وحان وقت الكراهية. لو كانت الكراهية ناتجًا محلِّيًا إجماليًّا، لارتفع مستوى ازدهار بعض البلدان ارتفاعًا غير مسبوق. بدا لي أنَّ الرجال الثلاثة في بدلاتهم الداكنة جاؤوا ذاك المساء باحثين عن فرصةٍ لتأخير العمليَّة، وكسب المزيد من الوقت، أو شيءٍ من هذا القبيل.

عندما نتحدَّث عن مرض ألزهايمر، والنسيان، وفقدان الذاكرة ننسى أمرًا مهمًّا، ألَّا وهو أنَّ المرضى لا ينسون الأحداث الماضية فحسب، بل وإنَّهم عاجزون عن تخطيط المستقبل القريب. في الواقع أوَّل ما يتلاشى مع فقدان الذاكرة هو تصوُّر المستقبل بذاته.

وهنا يطلُّ السُّؤال: كيف يمكن كسب بعض الوقت لما هو قادم، بينما نواجه عجزًا حادًّا في المستقبل؟ الجواب بسيط: يمكن ذلك من خلال العودة إلى الوراء قليلًا. فالماضي هو الشيء الوحيد المضمون. خمسون عامًا إلى الوراء أكثر أمانًا من خمسين عامًا إلى الأمام. لو عدت إلى الوراء لمدَّة عقديْن، أو ثلاثة، أو حتَّى خمسة عقود، لكسبت هذا القدر نفسه تمامًا ما يأتي مستقبلًا. نعم، ربَّما قد عشتَ هذا المستقبل بالفعل، ولعلَّه مستقبلٌ «مستعمل»، لكنَّه مع ذلك مستقبل، وما زال أفضل من اللَّاشيء الذي يتثاءب أمامنا الآن. بما أنَّ أوروبًّا المستقبل لم تعُد ممكنة، فلنختر أوروبًّا الماضي... الأمر بسيط، لو لم يكن لديْك مستقبل، فإنَّك ستصوِّت للماضي.

هل كان بإمكان غاوسطين المساعدة؟

كان قادرًا على إنشاء عيادة، وشارع، ومنطقة، وحتَّى مدينةٍ صغيرة للماضي. ولكن إعادة دولةٍ كاملة أو قارَّةٍ برمَّتها إلى زمنٍ آخر... إنَّها النقطة التي يتحوَّل فيها الطبُّ إلى سياسة، وربَّما حان الوقت لذلك.

هل يمكن أن يوقف غاوسطين هؤلاء الثلاثة؟

وهل يرغب في ذلك؟

لست متأكِّدًا. أظنُّ أنَّه كان يحلم سرًّا بأن تسير الأمور على هذا النحو بالتَّحديد، ولعلَّه اقترح ببراءةٍ هذه الفكرة على أحد معارفه الثلاثة ذوي البدل الكحليَّة. لا أستطيع أن أعرف، أو أستطيع، لكنَّني لا أريد. في الواقع، طلب الثلاثة نصيحة، استشارة، بعض الإرشادات، لكن كان واضحًا أنَّ القرار قد اتُّخِذ بالفعل. علاوةً على ذلك، فإنَّ غاوسطين لم يمتلك الحقوق الحصريَّة للماضي، وخاصَّةً بالنِّسبة إلى قارَّةٍ كاملة.

في الواقع، كانت الفكرة جيِّدة، إذ يمكننا أن نرى حتَّى بالعين المجرَّدة أنَّه لا يوجد مخرجٌ آخر. كان الماضي ينفجر متدفِّقًا عبر كلِّ الثقوب في هيكل الحاضر وكان من الصعب إيقافه. كنَّا في حاجةٍ إلى خطوةٍ استباقيَّةٍ للسيطرة على الوضع، وإعطائه بعض الشَّكل والنظام. طيِّب، لو تعطَّشتم للماضي، فإليكم الماضي، ولكن دعونا نصوِّت ونختاره معًا.

وليكن استفتاءً على الماضي.

كان هذا موضوع نقاشاتهم في ذلك المساء. أو هكذا تصوَّرته، في الممرِّ أمام الغرفة، ومعي دفتر ملاحظاتي.

-3-

«لديَّ حلم... لديَّ حلمٌ بأنَّ أبناء المنتصرين السابقين في استفتاء الماضي يستطيعون في يومٍ ما الجلوس مع أبناء المهزومين السَّابقين معًا على مائدةٍ واحدة... لديَّ حلمٌ بأن يعيش كلُّ واحدٍ في دولةِ أوقاته الأكثر سعادة...»

كنت أشاهد غاوسطين وهو يتحمَّس في العمل من دون أن يغادر غرفته من الستينيَّات. بالطبع لم يلق خطابًا واحدًا في الأماكن العامَّة. ولكن في كلِّ ما يتكلَّمه الرجال الثلاثة في الكحليّ، كان بإمكانك سماع صوته، ونغماته، وكلماته المستعارة بدءًا بسقراط وانتهاءً بمارتن لوثر كينغ.

يبدو لي أنَّه كان مشروعًا يستثمر فيه الجميع أحلامًا مختلفة.

لذلك سيكون ناجحًا في النهاية.

ولذلك سيفشل فشلًا ذريعًا.

-4-

إنَّ كلَّ الانتخابات حتَّى الآن كانت لاختيار مستقبلٍ ما. أمَّا الانتخاب المقبل، فسيكون مختلفًا بصفته أوَّل استفتاءٍ على الماضي.

«Total Recall»... «أوروبَّا تختار ماضيها»... «أوروبَّا اليوتوبيا الجديدة»... «أوروتوبيا»... «الاتِّحاد الأوروبيُّ للماضي المشترك».

تلك كانت عناوين الصحف الأوروبيَّة. وعلينا الاعتراف بأنَّ أوروبَّا كانت مُوَفَّقةً في إنشاء اليوتوبيات. نعم، كانت القارَّة ملغومةً بالماضي الذي يقسمها، منه حربان عالميَّتان، ومئات الحروب الأخرى، وحروب البلقان، وحروب الثلاثين عامًا، وحروب المئة عام... لكنَّها تتمتَّع أيضًا بما يكفي من الذاكرة لإقامة أحلاف، وعلاقات حسن الجوار، ولها ذاكرةٌ لإمبراطوريَّاتٍ جمعت بين شعوبٍ لم تُجمَع لقرونٍ متتالية. لم يكن يدرك الناس أنَّ الأمَّة في الواقع رضيعُ تاريخٍ لا يتوقَّف عن البكاء لكنَّه يتقمَّص في جسد عجوزٍ توراتيّ.

كان من الواضح أنَّ عقد الاتفاقيَّة على ماضٍ قارِّيٍّ موحَّد هو أمرٌ مستحيلٌ في هذه المرحلة. لذلك، كما كان متوقَّعًا، وفقًا للتقاليد الليبراليَّة القديمة (على الرَّغم من أنَّ انتخابات الماضي عملٌ محافظ)، فقد اتُّخِذ القرار بأن تجري كلُّ دولةٍ استفتاءً خاصًّا بها. ونظرًا للطبيعة الاستثنائيَّة لهذا الإجراء، وحتَّى لا يضيع الوقت، كان على المنتخبين الذين يؤيِّدون العودة إلى الماضي، أن يشيروا أيضًا إلى العقد المحدَّد أو السنة المعيَّنة، اللذين يختارونهما. بعدها سيجري تشكيل تحالفات الزمن، ثمَّ يمكن التصويت على زمنٍ أوروبيٍّ موحَّد. لقد تمَّ التصديق على مذكَّرة الماضي القريب، وهي تحدِّد طريقة إجراء الاستفتاء في دول الاتِّحاد الأوروبيّ. بدا أنَّ كلَّ شيءٍ قد تحقَّق بطريقةٍ أسهل وأسرع ممَّا كان متوقَّعًا.

وبعد ذلك سيحدث الاتِّفاق على مختلف... «المواضي».

(اممم...، انظرْ، هذه الكلمة ليست لها صيغة جمع، فالماضي له صيغةٌ للمفرد فقط.)

-5-

تتكاثر العلامات على تدفُّق الماضي بينما أكتب هذا الكتاب. إنَّ الوقت قريب.

في كوبا يحظرون إزالة السيَّارات القديمة من الأرصفة؛ لأنَّ السيَّاح يقصدون البلاد من أجلها بالضبط. نعم، بعض الدول مجهَّزةٌ جيِّدًا بالماضي. سيَّارات موسكوفيتش سوفيِّتيَّة وسيَّارات بويك أميركيَّة تقف هناك متهالكة، بجنوط معوجَّة، وطلاءٍ متقشِّر، وهياكلها الصدئة متآكلة، بينما تغسلها مياه الأمطار، وتجفِّفها أشعَّة الشمس فوق البحر الكاريبيّ (مثل سمكة المارلين من رواية «الشيخ والبحر» التي لم يتبقَّ منها سوى هيكلها).

هل في يومٍ ما، عندما تحلُّ نهاية الزمن، ستُبْعَثُ السيَّارات القديمة من الموت أيضًا؟

تذكر الصحيفة اليوم، أنَّ ألمانيا أعادت استخدام الآلات الكاتبة إلى الأقسام الأكثر سرّيَّةً من الإدارة الحكوميَّة، وذلك للحماية من تسريب المعلومات بعد فضيحة التجسُّس التي انفجرت قبل عدَّة سنوات. فلا يمكن اختراق الآلة الكاتبة وسرقة معلوماتها. أظنُّ هذا الخبر إشارةً جميلة للعودة إلى العالم التناظريِّ الرائع.

يشهد منتجو الألبان في المملكة المتَّحدة ارتفاعًا في المبيعات، ويتزايد عدد الأشخاص الذين يطلبون شراء الحليب في زجاجاتٍ يجري توصيلها أمام أبواب بيوتهم في الصباح.

أصدرت مجلَّة نيويوركر عددها الجديد حيث أعادت (لأوَّل مرَّة) طباعة أحد أغلفتها القديمة من عام 1927. ماذا سيحدث لو قرَّرت جميع الصحف والمجلَّات في اليوم نفسه إعادة طباعة إصداراتها القديمة المؤرَّخة في يومٍ معيَّن قبل خمسين أو ستّين عامًا؟ تُرى، هل ستُصدِر عجلة الزمن صريرًا؟

ظهرت محطَّةٌ إذاعيَّة تبثُّ برامجها بثًّا مباشرًا من عقودٍ مختلفة بكلِّ ما فيها من نشرات أخبار، وأحاديث، وبرامج عن تاريخٍ معيَّن.

-6-

لقد تبيَّن أنَّ تعريف «الماضي القريب» ذاته أصبح موضوعًا لأكثر من نقاش، لذلك تمَّ التوصُّل إلى حلٍّ وسط تُركت بموجبه الحدود مرنة، بشرط أن تظلَّ الدول داخل حدود القرن العشرين.

كان هناك شيءٌ محكومٌ عليه بالفشل رومانسيًّا بشأن إجراء هذا الاستفتاء، لا سيَّما بعد خروج بريطانيا من الاتِّحاد الأوروبيّ، ولكن في نهاية المطاف، كان ينبغي على الناس أن يقرِّروا بأنفسهم أين يريدون العيش، أليس كذلك؟ فالقرارات المفروضة من فوق لم تنجح أبدًا ولا تثير سوى الضجر. كان الاستفتاء أسوأ فكرة، لكنَّنا لم نعرف طريقةً أخرى.

«ستكون هذه محاولتنا الأخيرة ونحن نواجه مستقبلًا مستحيلًا»، قال الرئيس ذو البدلة الكحليَّة. إنَّنا أمام خياريْن لا ثالث لهما: إمَّا أن نعيش معًا في ماضٍ مشترك، وهو ما فعلناه من قبل، وإمَّا أن نتفكَّك ونبدأ

بقتل بعضنا البعض، كما فعلناه أيضًا. كلا الخيارَيْن رسميّان. تذكَّروا ذلك البيت العظيم من قصيدة أودن:

We must love one another or die

صمتَ لوهلة، ثمّ كرّره متعمِّدًا بصوتٍ خافت: We must love one another or die، فقد علم تمام العلم أنّه يرفع شعارًا ستروِّجه وسائل الإعلام في اليوم التالي.

كنت أسمع صوت غاوسطين وراء كلِّ كلمة. لقد تعلَّم هؤلاء الأشخاص أخيرًا أن يتحدَّثوا، أو على الأقلِّ أن ينصتوا.

-7-

في بعض الأحيان تكون الأسماء فعلًا صحيحةً بطبيعتها، كما يؤكّد أفلاطون في حواريَّته «كراتيلوس». هناك شيءٌ رمزيٌّ في أصل كلمة «استفتاء» referendum، وهو مرتبطٌ بالأصل اللّاتينيّ لفعل re-fero الذي يعني «أعيد إلى الوراء»، «أنقل إلى الوراء».

العودة إلى الوراء كانت تكمن في الكلمة نفسها، ولم يلاحظها أحد... استفتاء على الماضي. أتساءل ما إذا كانت الألعاب اللغويَّة بحشوها اللغويِّ وأصالتها تقول لنا أكثر ممَّا نخمّن. وما إذا كانت أبواق الحشو تبشِّر بنهاية العالم الجديدة؟

-8-

مكتبة
t.me/soramnqraa

البلد الذي لطالما تساءل عمّا إذا كان جزءًا من القارة الأوروبيّة أم لا، كان الأوّل الذي انسحب من الاتّحاد الأوروبيّ قبل سنوات. فقد أطلقنا عليه اسم بريكسيتانيا العظمى.

الأدب له ذنبٌ في كلّ شيء، قلت لغاوسطين مرّة.

كما هو دائمًا، أجاب ضاحكًا.

وخاصّةً «روبنسون كروزو». الثقة بأنَّ الجزيرة تمنحك كلَّ ما تحتاج إليه للعيش والبقاء على قيد الحياة، وما إلى ذلك، هي فكرةٌ تأتي مباشرةً من دانييل ديفو. سأكون بخيرٍ لوحدي، يقول روبنسون، واللّه معي. سنكون بخيرٍ لوحدنا، يقول ورثته، ليحفظ اللّه الملكة (ولكن حتّى بدونها سنكون بخير).

نعم، وافق غاوسطين، كان من الأفضل لو قرأوا جون دون بدلًا من دانييل ديفو.

وفجأةً، بدأ ينشد بصوتٍ قادم من القرن السابع عشر (أقسم أنَّه كان باللغة الإنكليزيَّة من ذلك الزمن) قصيدةً نعرفها بفضل إحدى روايات همنغواي:

No man is an Iland, intire of it selfe; every man is a peece of the Continent, a part of the maine; if a Clod bee washed away by the Sea, Europe is the lesse, as well as if a Promontorie were, as well as if a Mannor of thy friends or of thine owne were; any mans death diminishes me, because I am involved in Mankinde... [1]

المشكلة هي أنَّ دانييل ديفو هزم جون دون، قال غاوسطين حينها بحزنٍ يمكنه أن يغرق الأسطول البريطانيَّ كلَّه.

صمتنا بعض الوقت، ثمَّ كرَّر بصوته القادم من القرن السابع عشر: موتُ أيِّ كائنٍ ينتقص منِّي، فأنا معنيٌّ بالبشريَّة...

من الغريب، أنَّنا تجاهلنا دائمًا عنوان ذلك الكتاب لجون دون: «صلواتٌ بمناسباتٍ طارئة». وأمَّا المناسبة هنا فكانت طارئة.

والآن كانت لديْنا مشكلةٌ مع بريطانيا العظمى من جديد. ففي ظلِّ خروجها من الاتِّحاد الأوروبيِّ عليها ألَّا تشارك في الاستفتاء. لكن نشأت على الفور حركةٌ مؤيِّدة لأوروبَّا، وهي تصرُّ على أنَّ المملكة المتَّحدة يجب إدراجها في الاستفتاء على الماضي المشترك، لأنَّها كانت جزءًا

(1) لسنا جزرًا مستقلَّة بذاتها/ كلُّنا جزءٌ من القارة، جزءٌ من كلّ. / فإنَّ جرف البحر حفنةً من التراب نقصت أوروبَّا، / وكذلك إن كان نتوء أو قصر صديقك أو قصرك؛ / موت أيِّ كائنٍ ينتقص منِّي، فأنا معنيٌّ بالبشريَّة، / ولذا لا تراسلني أبدًا لتسألني لمن تُقرَع الأجراس؛ / إنَّها تُقرَع من أجلك. ترجمة: خيري حمَّاد.

من أوروبّا والاتّحاد في ذلك الماضي نفسه. وأكّدت الحركة أنَّ «كلّ أمّةٍ كما وكلّ شخصٍ لديْهم لحظاتٌ من الجنون المؤقّت، فلنمنحهم فرصةً ثانيةً تاريخيّة للخروج من هذه الحالة».

حيث كانت عبارة « فرصة ثانية تاريخيّة» اقتباسًا دقيقًا من ديباجة المذكّرة. ولكنّ بروكسل سئمت من مداورة البريطانيّين وحيلهم في السنوات الأخيرة، وفضّلت اتّخاذ موقفٍ حازمٍ وسليم. فرفضت الطلب.

-9-

ولكن بينما جرت هذه المحادثات، وقعت معجزةٌ أخرى. سويسرا التي كانت دائمًا تشبه جزيرةً مخفيَّة داخل أوروبًا، أرادت فجأةً المشاركة في الاستفتاء على الماضي. كانت هذه مفاجأةً كبيرة، ولم يعرف المقرُّ الرئيسيُّ في بروكسل كيف يردّ. فقد ظهرت تعليقاتٌ عديدة بصدد الأسباب التي جعلت سويسرا تنتهك تقاليدها بهذه السهولة. هل عثرت على فجوةٍ أو نقطة ضعفٍ في المشروع يمكنها أن تستفيد منها بشكلٍ معقول؟ في نهاية المطاف، سُمح لها المشاركة بعد التوقيع على اتّفاقٍ يتضمَّن عدَّة بنودٍ إضافيَّة. صحيحٌ أنَّ سويسرا جزيرة، لكنَّها تمثِّل أيضًا أوروبًا في صورةٍ مصغَّرة. ففي أيِّ دولةٍ غيرها يمكنك رؤية ألمانيا وإيطاليا وفرنسا تجتمع في آنٍ واحدٍ ومكانٍ واحد؟ لذلك، بغضِّ النظر عن الشكوك إزاء مشاركتها، كان هناك شيءٌ طبيعيٌّ في رغبتها أن تُدرَج في الاستفتاء مع الاحتفاظ ببعض الاستقلاليَّة.

- 10 -

عجزٌ حادٌّ في المعنى

تتَّصف المرحلة الحادَّة من المرض بألمٍ شديدٍ وضيقٍ حادٍّ في نقاطٍ مختلفةٍ من الجسم، وذلك أمرٌ يعيق التشخيص الدقيق. والكثير من المرضى يعانون من النوبات في وقت الظهيرة ما بين الساعتين الثالثة والسادسة عصرًا.

صعوبة التنفُّس هي واحدةٌ من الأعراض الأكثر شيوعًا... الشعور بالاختناق. «ليست لديَّ قوَّةٌ ولا رغبةٌ في التنفُّس... أشهق ولا أعرف ما معنى أن أستنشق الهواء مرَّةً أخرى... توقَّفتُ عن شراء تقويم العام الجديد (ن. ر. 53 عامًا، ربَّة بيت).

ومن أدقِّ التعاريف التي قدَّمها مريضٌ كان كالتالي: التدفُّق المفاجئُ للامعنى بينما أجلس على الأريكة. أحاول أن أتذكَّر مصادر الفرح وإذ بفراغاتٍ وثقوب في الذاكرة. «في هذه الفراغات بالضبط

أُضيء شريط التصوير»، قال بعض المرضى. «في هذه الفراغات بالضبط انقطعت الكهرباء»، قال آخرون.

خارج التشخيصات الفرديَّة، يُلاحظ ميلٌ إلى الخوف الجماعيِّ أو التخلِّي عن المستقبل، أو رهاب المستقبل.

عواقب المتلازمة: الكآبة، اللَّامبالاة بالماضي أو التشبُّث الشديد به، وإضفاء المثاليَّة على أحداثٍ وقعت بطريقةٍ مختلفة أو في أغلب الأحيان لم تحدث على الإطلاق. بالمقارنة مع الماضي فإنَّ الحاضر يفقد بغتةً ألوانه. يدَّعي المرضى أنَّهم يرونه حرفيًّا بالأبيض والأسود، بينما تبقى ذكرياتهم ملوَّنةً دومًا وإن كانت بألوان بولارويد هادئة، إضافةً إلى البقاء المتكرِّر في حياةٍ يوميَّةٍ خياليَّةٍ بديلة.

(غاوسطين، «التشخيصات الجديدة واللَّاحقة»)

-11-

نعم، الاستفتاء على الماضي كان فكرةً راديكاليَّة وقد علَّق الجميع آمالهم الخفيَّة عليها. بالنسبة إلى غاوسطين، كان ذلك شغفًا بالطبع. لقد بدا الأمر بسيطًا جدًّا. ما كان صالحًا للفرد في العيادة، أصبح الآن صالحًا للجميع، لكلِّ المجتمع، إنْ كان ما زال ممكنًا أن نستعمل هذا المفهوم. بالنِّسبة إلى الرجال الثلاثة في الكحليّ، كانت تلك هي الثانية الأخيرة قبل بدء التفاعل التسلسليّ لتفكُّك أوروبَّا.

وماذا عن بقيَّة العالم؟ لو لقي الاستفتاء نجاحًا وسارت الأمور على ما يرام، لحدثت الاستفادة من التجربة، وإلَّا... فهذا ما يستحقُّه الأوروبيُّون الذين كانوا متكبِّرين للغاية في العشرين قرنًا الأخيرة...

لم تعُد أوروبَّا قلب العالم، وكان لدى الأوروبيِّين ذكاءٌ كافٍ لإدراك ذلك. هناك دائمًا شيءٌ مأساويٌّ في مثل هذا الإدراك، سواءٌ أكان الأمر يتعلَّق بشخصٍ أو أمَّةٍ أو قارَّة. علاوةً على ذلك، فإنَّنا نصل إلى هذا الإدراك في سنٍّ متقدِّمة، عندما لن يكون في وسعنا أن نغيِّر الأشياء. لكن على الأقلِّ يمكننا المحاولة.

- 12 -

ذات يومٍ اتَّصل بي غاوسطين وطلب منّي أن أذهب إلى العيادة.

كنت أسير باتِّجاه شارع «هيليوسشتراسه». كانت شمس نيسان تشرق بضوءٍ هادئٍ بارد.. بدأت الأشجار تتفتَّح هنا وهناك. وهواء المدينة مشبعٌ برائحةٍ خفيفة لترابٍ وحظيرة مواشٍ. الرائحة نفسها التي كنت أشمُّها أيَّام طفولتي في القرية بينما يجرف جدِّي السماد من الحظيرة ويضعه في الحديقة أمام المنزل. بعد ذلك لم أشمَّ تلك الرائحة أبدًا، فالجميع يستخدمون الآن الأسمدة الاصطناعيَّة وتفوح من التربة رائحة البنسلين. وها هو عبق السماد الطبيعيِّ أعادني هنا وهناك أربعين سنةً إلى الوراء... ألفي كيلومتر شرقًا. كانت سويسرا بمثابة القرية البلغاريَّة المثاليَّة كما تخيَّلناها في الطفولة... القرية التي لم تكن موجودةً أبدًا.

في المرج أمام العيادة، كانت الزنابق تتلألأ في ألوان ورديَّةٍ وزرقاء، وأزهار النرجس تتمايل بِدلالٍ في النسيم الآتي من البحيرة.

أحبُّ هذا السكون قبل حلول أيَّار، قبل أن يجنَّ كلُّ شيءٍ وينفجر في التلوُّن والزغردة والطنين.

لكنَّ زهور «لا تنسني» المتناثرة في كلِّ أنحاء المرج أمام العيادة، كانت رائعة. زهور «لا تنسني»... في هذا المكان بالضبط. (كنت متفاجئًا واكتشفت بشيءٍ من المرارة، أنَّ اسمها اللَّاتينيّ Miosotis لم يكن رومانسيًّا على الإطلاق ويعني حرفيًّا أذن الفأر). أفضِّلُ الأسطورة التي تقول إنَّ إلهة الزهور فلورا كانت تسير بين الأزهار، وتطلق الأسماء على النبتات المختلفة، لكنَّها لم تلاحظ هذه الزهرة الزرقاء المتواضعة، وما إن مرَّت بها حتَّى سمعت وراء ظهرها صوتًا خافتًا: «لا تنسيني! لا تنسيني!». استدارت فلورا ونظرت إليها وأسمتها «لا تنسني»، ومنحتها القدرة على استدعاء الذكريات لدى الناس. مرَّةً قرأت أنَّ لون هذه الزهرة يعالج الحزن، أو بعبارةٍ أكاديميَّة لها تأثيرٌ مضادٌّ للاكتئاب. فوق كلِّ ذلك، فإنَّ بذورها يمكن أن تبقى في التربة ثلاثين عامًا ولا تنبت إلَّا عندما تحدث ظروفٌ مؤاتيةٌ لذلك. يعني، تتذكَّر تلك الزهرة نفسها على مدى ثلاثين عامًا.

دخلت العيادة، فقد دعاني غاوسطين إلى الأربعينيَّات في الطابق الأوَّل. كان يشرب كالفادوس ويدخِّن نوعًا من السجائر الألمانيَّة المصادرة. على الحائط خريطةٌ قديمة للجبهة الحربيَّة وأعلامٌ صغيرةٌ مسمَّرة تشير إلى محاور تقدُّم الجيوش المختلفة. على طاولةٍ كبيرة من خشب الكرز المصقول، وُضع العديد من النماذج الأوليَّة التفصيليَّة لسوبرمارين سبتفاير، تلك الطائرة السريعة القويَّة ذات المقعد الواحد التي استُخدمت في الأربعينيَّات والتي تفضِّلها القوَّة الجوِّيَّة الملكيَّة البريطانيَّة. وإلى جانبها وُضعت طائرتان مقاتلتان من طراز «مسرشميت»

و«هوكر هوريكان». كانت منتصبةً بأناقةٍ على المنصَّة كأنَّها قد عادت لتوِّها من المعركة. ارتدى غاوسطين قميصًا عسكريًّا أخضر بأكمامٍ مطويَّة، على غرار ضابطٍ إنجليزيٍّ مسؤولٍ عن عمليَّة إنزال النورماندي الذي علم للتوِّ بأنَّ الظروف الجوِّيَّة المتوقَّعة قد تغيَّرت فجأة. حينها رأيته لأوَّل مرَّةٍ وهو يرتدي زيًّا عسكريًّا. لعلَّه فعل ذلك كيلا يعكِّر صفو أجواء الأربعينيَّات.

بدا لي وكأنَّه يبذل جهودًا هائلة في التركيز، كشخصٍ يحاول الخروج من نهر الزمن المختلف (لقد لاحظت مثل هذه الجهود مرَّاتٍ عديدةً من قبل). لم يبقَ لإجراء الاستفتاء سوى أسبوع. لقد علم بأنَّني سأسافر إلى بلغاريا، بل هو نفسه أصرَّ على ذلك. وقد عبَّر أمامي عن رغبته في أن يكون وحيدًا أثناء فترة غيابي، حيث سيراقب التطوُّرات من بعيد. وفجأةً بدا لي شبيه ذلك الشابِّ الذي قابلته قبل ثلاثين عامًا، وانتابني الشعور نفسه بزمنٍ آخر وعدم الانتماء. بدا لي أنَّه يسير ببطءٍ نحو عامه عام 1939، الذي اختفى فيه قبل سنوات. تحدَّثنا قليلًا واتَّفقنا على اللِّقاء بعد انتهاء كلِّ شيء. في السادسة قبل الحرب، صحيح، قلت مازحًا. (لا أعرف لماذا قلت «قبل»، في رواية «الجندي الصالح شفيك» أُستخدمت كلمة «بعد»). استدار نحوي بحدَّة، وأسَفَّ النظر إليَّ على مدى دقيقةٍ كاملة. حاضر، يا سيِّدي، في السادسة قبل الحرب... قال، مشدِّدًا على «قبل».

لست متأكِّدًا من أنَّها كانت فكرةً جيِّدة أن...، تمتمت بتردُّد.

إنَّك لست متأكِّدًا أبدًا، لذلك تحتاج إليّ، قاطعني غاوسطين في عصبيَّة، تحتاج إلى شخصٍ يأتي بما لا تجرؤ على فعله أنت.

من السَّهل عليك دائمًا، فما إن تأجَّجت الأمور حتَّى بدَّلتَ الأزمنة، أما أنا فأبقى...

لكنَّني أقاتل في كلِّ زمنٍ كما لو كان وقتي الوحيد، بينما تتصرَّف في زمنك كما لو كان لديْك مئة زمنٍ ممكن.

(إنَّه على حقّ، اللعنة، إنَّه على حقّ!).

وأمَّا أنت، فأنت... إسقاط نفسي، ولست مهووسًا أحاديًّا فحسب، وإنَّما مهووسٌ تسلسليّ، لا يتذكَّر نوبات هوسه السابقة. لا يمكنك أن تلعب بالماضي، حرامٌ عليك. ألا تتذكَّر كلَّ تلك المشاريع الأخرى من رواياتي الأخيرة... السينما للفقراء، حيث كان من المفترض أن نعيد سرد الأفلام قبل عرضها بنصف السعر من دون أن نشاهدها بأنفسنا، وكدنا نتعرَّض للضرب. وماذا عن العرض على شاشة الغيوم في السماء مباشرة، أو مصنع الصفعات... كلُّها إخفاقاتٌ تامَّة، أنت أمير الإخفاقات...

اسكت، قال ببرودة، فكرة الاستفتاءات ليست فكرتنا نحن.

لكنَّنا أيضًا لم نمنع تحقيقها.

وهل كان ينبغي؟ قال بعجل، قبل أن أنصرف.

لا أعرف، يا سيِّدي، أجبت بتحفُّظ، محاولًا البقاء في سياق الأربعينيَّات وقميصه الأخضر. لم يضحك. تصافحنا ببرودةٍ ومضيت. بدا لي أنَّني سأضيعه مرَّةً أخرى...

- III -

دولةٌ أوروبيَّة

في هذه الأيَّام، تبدو اليوتوبيا مسألةً ممكنةَ التحقُّق على نحوٍ أكثر سهولةً مقارنةً بما كان عليه الأمر في الماضي. في الحقيقة، هذا يعني أنَّنا سنكون أمام مشكلةٍ من نوعٍ آخر، ألا وهي: كيف نتجنَّب تحقُّقها كأمرٍ واقعٍ نهائيّ؟

نيكولاي بيرديايف، «العصور الوسطى الجديدة»

-1-

العودة

على متن الطائرة تصدح موسيقى فولكلوريَّة هادئة. تتحرَّك المضيفات قبل الإقلاع مرتدياتٍ أزياء وطنيَّةً منمنمة، وشعرهنَّ مضفَّر، وفساتينهنَّ قصيرة. ويبدو المضيف الوحيد بينهنَّ مضحكًا بعض الشيء بسترته التقليديَّة وسرواله الفضفاض. يخرج صوت قائد الطائرة عبر المكبِّر:

نفتخر بالتَّرحيب بكم على متن الخطوط الجوِّيَّة الوطنيَّة البلغاريَّة...

هذا ما يُسمَّى بالاستبدالات اللغويَّة الصغيرة. قبل أيَّامٍ كانوا يقولون: «يسعدنا أن نرحّب بكم». من أين جاء هذا الافتخار الآن؟ لا شكَّ في أنَّ هذا الناقل الجوِّيَّ ليس من بين شركات الطيران الرائدة، وليس سرًّا أنَّه سيدخل القائمة السوداء قريبًا. تستعدُّ الطائرة للإقلاع وتبدأ تعليمات السلامة التي سئمنا منها. أضع سدَّادات الأذن وأكتفي

بمراقبة حركات المضيفات التي بِدون صوت، بل هي تشبه إيماءات كاهناتٍ يؤدِّين طقوس تعويذةٍ غامضة. غريبٌ أنَّ شركات الطيران تستمرُّ في فعل ذلك. فليس هناك دليلٌ على نجاة أيِّ راكبٍ أثناء تحطُّم طائرةٍ بفضل ارتداء قناع الأوكسجين الذي يسقط تلقائيًا من الأعلى أو عن طريق سحب «سترة النجاة تحت المقعد» وإطلاق صافرة الطوارئ. لعلَّ الدُّعاء سينفعنا أكثر من ذلك.

تشبه هذه الطائرة حافلةً صغيرة. ولن أتفاجأ إذا سمحوا قريبًا بنقل ركَّابٍ واقفين أثناء الرحلة.

كما حدث لي قبل سنوات، حين سافرت على متن طائرةٍ من بلغراد إلى الجبل الأسود، وكنت طوال الرحلة واقفًا ممسكًا بقضيبٍ معدنيّ، كأنَّني أسافر في الباص. وكان السائق، عفوًا، أقصد الطيَّار، على بعد ذراعٍ منِّي. لم يكن هناك باب، بل ستارةٌ رثَّةٌ متدلية في أحد جانبيْها، بحيث كنَّا نتبادل بعض الكلمات. في لحظةٍ من اللَّحظات أشعل الطيَّار سيجارة، وكنت أدعو الربَّ ألَّا يفتح النافذة وينفض رمادها، فيتسبَّب في إحداث مشكلةٍ في ضغط المقصورة.

إنَّ الخوف من الطيران يزداد مع التقدُّم في السنّ، لعلَّه يتراكم مع الساعات والأميال التي نطير فيها، ومن المؤسف أنَّنا لا نستطيع إنفاقها. أظنُّ أنَّ إطلاق بطاقة ائتمان Fears and More ستكون فكرةً جيِّدة.

بعد تأدية طقوس السلامة تقلع الطائرة بسلاسةٍ نسبيًّا، فربَّما نفعتنا تعويذة المضيفات. أُلاحظ أنَّ نسيج المقاعد رثّ، وجيوبها ممزَّقة، وأوراق المجلَّة الموضوعة فيها جعَّدتها الأصابع المتوتِّرة لعشرات الركَّاب. ينبعث من هيكل الطائرة صريرٌ خافت. ويذكِّرنا ملصق «ممنوع

التدخين» بعمر هذه الطائرة التي أُنتجت حين كان التدخين أثناء الرحلات الجوِّيَّة لا يزال مسموحًا.

فجأةً، تحطُّ ذبابةٌ بجانب زرِّ الاتِّصال فوق رأسي... ذبابةٌ على متن الطائرة؟! (مرَّةً أرسل لي أحد أصدقائي قصيدةً بهذا العنوان، فكان يعرف شغفي بالذباب، وانظرِ الآن كيف تصبح تلك القصيدة واقعًا). لقد أسعدني وجود هذا المخلوق هنا، الذي تربطني به علاقةٌ خاصَّة، رغم أنَّ معظم الناس يعتبرونه كائنًا ثقيل الدم. أتساءل عمَّا إذا كانت الذبابة بلغاريَّةً (لقد وصلت الطائرة من صوفيا ذلك اليوم، وهي الآن بصدد رحلة العودة)، أو سويسريَّةً تائهة (هل يُسمح للذباب بدخول سويسرا؟) استقلَّت طائرةً خاطئة، وبالتالي ستبقى أجنبيَّةً طوال حياتها في بلدٍ غامض من البلقان، أطلق على نفسه اسم «سويسرا البلقان».

هل للذباب أمَّة؟ ما خصائص الذبابة الوطنيَّة... هل تشعر بالمحبَّة والحنين إلى وطنها... هل يمكنها تطوير شكلٍ بدائيٍّ للقوميَّة؟ وماذا يحصل إذا وضعنا هذه القوميَّة تحت مجهر التاريخ الطبيعيّ؟

إليكم الموضوع الجادَّ التالي: «الذبابة والأمَّة». إنَّ الأمَّة في إطار الزمن التاريخيّ أو الطبيعيّ ليست سوى ذرَّة غبار، بل هي جزءٌ مجهريٌّ من ساعة التطوُّر أكثر زوالًا من الذباب. على كلِّ حال، فإنَّ الذباب يسبق ظهور الأمَّة بمئات بل وآلاف المرَّات. كيف يبدو الإنسان القوميّ Homo nationalisticus، إذا كان يمكن إدراجه في تصنيف الكائنات الحيَّة؟

الجنس: Homo...Sapiens... أخشى أنَّ القوميَّ ما إن يقرأ ذلك حتَّى يهاجمني: أيُّها الغبي... لماذا تناديني Homo، أيُّها اللوطيّ، أين تصنفني؟

من أين انطلقنا؟ من الذبابة. وإلى أين وصلنا؟ إلى فِيل القوميَّة.

ذبابة! تصرخ جارتي في هذه اللحظة مشيرةً إلى ما هو بديهيّ، وتقطع سلسلة التطوُّر المبنيَّة حديثًا في رأسي...

تندفع المضيفة إلينا: هل يمكنني المساعدة؟

لا، هناك راكبٌ غير مسجَّلٍ على متن الرحلة طار للتوّ، أقول مازحًا.

لكنَّ الذبابة تصنع دائرةً وتهبط بسذاجةٍ في المكان نفسه. اذهبي من هنا. وفجأةً، تقبض المضيفة عليها بحركةٍ ماهرة. تُرى، هل تتلقّى المضيفات تدريبًا خاصًّا على ذلك؟

اتركيها، من فضلك! ذلك ما قالته فجأةً المرأة نفسها التي صرخت قبل قليلٍ لتغدر بالذبابة.

نعم، اتركيها من فضلك، قلت بدوري، فهي لا تزعج أحدًا.

يجري كلُّ الحوار على الحدِّ بين الهزل والجدّ.

نظرت المضيفة إليّ نظرةً حازمة: هل الذبابة تسافر معك؟ هكذا سألتني كي تواصل المزاح. يا إلهي، إذا كانت المضيفات، تلك المخلوقات قاسية القلب يتمتَّعن بروح الدعابة، فهذا يعني أنَّ العالم ما زال بخير.

إنَّها بمثابة حيوانٍ أليفٍ بالنِّسبة إليّ، هل هذه مشكلة؟

لا، لكن يجب أن تكون في قفصٍ أو في حضن صاحبها، قالت المضيفة ذلك وفتحت أناملها بأناقة.

شكرًا لك على تدخُّلك، التفتت جارتي بعد قليلٍ إليّ، وهي امرأةٌ لم أستطع تحديد عمرها بالضبط. لعلَّها كانت في الخمسين؟! لها عينان زرقاوان صغيرتان، ووجهٌ منمَّش.

اَه، أنا صديقٌ حميمٌ للذباب، نعم، يمكنني القول إنَّني مؤرِّخ الذباب أو شيءٌ من هذا القبيل.

ابتسمت المرأة وسكتت قليلًا كي تقرِّر ما إذا كنت شخصًا مهووسًا أو مجرَّد رجلٍ يتمتَّع بروحِ دعابةٍ غريبة. في النهاية يبدو أنَّها مالت إلى الاحتمال الثاني.

لم أعرف، أنَّ للذباب تاريخًا.

تاريخه أطول من تاريخنا بكثير، فقد ظهر الذباب قبل ظهور الإنسان بملايين السنين.

لكن رؤية ذبابةٍ على هذا الارتفاع أمرٌ غريب.

في الواقع لا ينبغي أن يكون الأمر غريبًا، فأوَّل كائنٍ حيٍّ أُرسِل إلى الفضاء كان ذبابةً بالضبط، Drosophila melanogaster أو ذبابة فاكهةٍ سوداء البطن. اسمها أطول منها بالذات. حدث ذلك بعد نهاية الحرب، فقد طارت على متن صاروخ «فاو V-2».

كنت أعتقد أنَّها كانت الكلبة لايكا.

نعم، هذا ما يعتقده الجميع. لكن ذلك ليس عادلًا. فقد خرج إلى الفضاء قبل الكلبة لايكا عددٌ لا بأس به من الكلاب الأخرى، والقرود، والحلزونات... ظلَّت كلُّها مجهولة. مثل الذبابة المسكينة، وهي الأولى التي ضحَّت بنفسها. لكن ليست للذباب أسماء، وهنا تكمن المشكلة برمَّتها. إذا لم يكن لديْك اسم، فإنَّك تبقى خارج التاريخ.

لكن لماذا الذباب بالضبط؟ سألت المرأة.

جميلٌ هذا السؤال، نعم، لأنَّ الذباب قصير العمر، أي أنَّه يعيش لفترةٍ قصيرةٍ جدًّا. كان الصاروخ يحلِّق في الهواء عدَّة ساعاتٍ على ارتفاع 100 كيلومتر، وهو ارتفاعٌ على الحدِّ بين الأرض والفضاء. لذلك فإنَّهم كانوا في حاجةٍ إلى مخلوقٍ له دورة حياةٍ سريعة، وقدرةٌ على أن يُولد، ويتطوَّر، ويبلغ النضج الجنسيّ، ويحمل، ويلد، ويموت... كلُّ هذه الصفات تمتلكها ذبابة الفاكهة البسيطة. إضافةً إلى أنَّ موت بعض الذباب أكثر قبولًا من موت كلبٍ أو قردٍ أو بقرة، ألا تعتقدين ذلك؟ فالحجم مهمٌّ جدًّا بالنسبة إلى الناس.

نظرتُ من حولي، ولاحظتُ أن موضوع حديثنا قد اختفى بِذكاءٍ في مكانٍ ما.

عندها تبدأ المضيفات بتوزيع مناديل «الورد البلغاريّ» المرطَّبة المنعشة. هذا الأمر لم يتغيَّر منذ رحلتي الجوِّيَّة الأولى قبل سنوات. تنبعث رائحة زيت الورد وسط الغيوم. تستعدُّ الطائرة للهبوط، وأرى من مكاني جبل فيتوشا، ومعالم مدينة صوفيا، والأحياء ببناياتها الخرسانيَّة، ثمَّ كاتدرائيَّة «ألكسندر نيفسكي»، والمستطيل الأخضر الذي تشكِّله حديقة «بوريسوفا غرادينا»، وطريق «تساريغراد» السريع. هناكَ في الجانب الأيمن من الشارع، في حيٍّ يسمَّى «ملادوست»، عشتُ حياةً أخرى. وإذ بجارتي التي لم أتعرَّف عليها بعدُ، ولا أعلم اسمها، بدأت تبكي بصوتٍ خافتٍ مخنوق، من دون أيِّ فعلٍ هستيريّ، وهي تدير رأسها نحو النافذة.

آسفة، لم أرجع إلى وطني منذ سبعة عشر عامًا.

تهبط الطائرة على المدرَّج هبوطًا سلسًا، فيبدأ الركَّاب بالتصفيق، كما هي العادة هنا. مع أنَّ بعض الأجانب ليسوا مُعتادين على هذه الطقوس، ودائمًا ينظرون من حولهم في ارتباك. ثمَّ تشرع المرأة بجانبي في التصفيق أيضًا.

انتبهي، قلتُ مازحًا، يمكن أن يأخذ الطيَّار ذلك على أنَّه نداءً للعودة ويقلع مرَّةً أخرى.

سمعنا الصوت عبر المكبِّر الذي رحَّب بنا «بكلِّ فخرٍ» في الأراضي البلغاريَّة، وأخبرنا بدرجة الحرارة، ثمَّ بُثَّت أغنية «وردة بلغاريَّة» بصوت الفنانة باشا خريستوفا التي توفِّيت في حادث تحطُّم طائرةٍ لشركة الطيران نفسها في المطار نفسه.

-2-

يمكننا القول إنَّ الازدحام والتدافع في الطوابير أمام شبابيك الجوازات في مطار صوفيا، هما بمثابة علامةٍ تجاريَّةٍ لهذا المكان، حيث يستغرق تسليم الحقائب وقتًا طويلًا. وبعد أن تخرج تجد سائق التاكسي بوجهٍ عبوس لا يردُّ التحيَّة، وحين يدرك أنَّ عنوانك المطلوب ليس بعيدًا يشتعل غضبًا، فيقود السيَّارة بسرعةٍ جنونيَّة، ويرفع صوت الموسيقى مشعلًا سيجارة.

ومع ذلك، فإنَّ هذه المرَّة حدث شيءٌ لم أتوقَّعه. لقد وضع السَّائق الذي قصدته حزامًا عريضًا أحمر حول خصره، وارتدى قميصًا أبيض فوقه سترة (وهي أزياء وطنيَّةٌ تتناقض تمامًا مع شورت البرمودا الذي يلبسه) ويظهر من حزامه مقبض خنجر. هنا تساءلت ما إذا كانت هذه الحالة تعكس حقًّا سير الأمور إلى الأمام أم تراجعها إلى الوراء. إنَّ مثل هذا الزيِّ التقليديِّ يتناسب مع سياقة عربةٍ أو فايتون يجرُّها حصانان، وليس 90 حصانًا، كما هو الحال بالنِّسبة إلى سيَّارة «دايو» الكوريَّة

القديمة التي كان يقودها. في اللحظة الأخيرة قرَّرتُ ألَّا أركب هذه السيَّارة (فأنا لست من معجبي حاملي الخناجر من السائقين) فانعطفتُ نحو موقف سيَّارات الأجرة المجاور. هناك، على الأقلّ، كان السائقون يرتدون ملابس عاديَّة. فتحتُ باب أوَّل سيَّارةٍ وسألتُ: هل هي «حرَّة»؟ـ أقصد ما إذا كانت متاحة ـ ضحك السائق وردّ: نعم، «حرَّة». وبينما كنت آخذ مكاني في المقعد، أضاف: هل تعرف تلك النكتة القديمة، حيث كان قبل سنواتٍ في صوفيا طالبٌ من كوبا يُوقف سيَّارات التاكسي، ويسأل إذا كانت حرَّة، وبعد أن يجيبوه أنَّها حرَّة، كان يهتف «عاشت الحرِّيَّة» ويمضي. كنت أعرف تلك النكتة، ومع ذلك فقد ضحكت.

كان هناك شيءٌ غريب في هذه السيَّارة أيضًا، لكنَّني لاحظته فقط عندما انطلقنا. وبينما كنَّا نبتعد ببطءٍ عن المطار، رأيت أنَّ جميع السيَّارات حولنا من زمن الاشتراكيَّة.

«موسكوفيتش!!!»، صرخت بصوتٍ يمزج ما بين السؤال والشكّ والمفاجأة الفعليَّة والارتباك.

نعم، سيَّارة موسكوفيتش 412، أكَّد السَّائق بفخر. عمرها 40 سنة، مثل عمري، يعني قديمةٌ ولكن يا لها من سيَّارةٍ متينة. تعرف، لا يصنعون مثل هذه السيَّارات اليوم. وانطلقت السيَّارة بعد محاولته لتشغيلها مرَّةً ثانية، لكنَّ انطلاقها رائع (وآليَّة بدء التشغيل رائعةٌ أيضًا) بالنِّسبة إلى هذه الآلة الطاعنة في السنّ. كانت تفوح منها رائحة البنزين بشكلٍ رهيب. ومن الواضح أنَّ عزل السيَّارة لم يكن بوضعه الصحيح منذ زمن.

تذكَّرت أنَّه كانت لدى عمِّي مثل هذه السيَّارة، وكان دائمًا يلفظ كلمة «موسكوفيتش» مشدِّدًا على المقطع الأوَّل، مؤكِّدًا على أنَّها هكذا تُنطق ككلمةٍ سوفييتيَّة. إذا كانت أجسادنا تتمتَّع فعلًا بذاكرة، فإنَّ جسدي

من عام 1978 يتذكَّر الآن المقعد القاتل ورائحة البنزين والتقيُّؤ في سيَّارة عمِّي، حيث كنت مجهَّزًا دائمًا بكيسٍ بلاستيكيّ وأشعر بالغثيان بمجرَّد التفكير في الأمر. رأيتُ صورةً صغيرةً لِستالين فوق مرآة الرؤية الخلفيَّة.

لاحظ السَّائق نظري إليها، فقال: إنَّها لزميلي، العمّ دينكو، هو لا يزال يعيش في الخمسينيَّات.

تذكَّرت كيف كانت صورة ستالين تعلَّق في كابينة كلّ سائق حافلةٍ قبل عصر عبادة الشخصيَّة وبعدها. وحتَّى في وقتٍ لاحق، في الثمانينيَّات، كانت تلك الشوارب الجورجيَّة تطلُّ من وراء نهد Samantha Fox وSandra.

هل تتذكَّر سامانثا؟ سألتُ فجأة.

طبعًا، أنا هاوٍ لجمع الأشياء، أكيدٌ أنَّ لديَّ ولَّاعةً عليها صورةٌ لِسامانثا فوكس، في مكانٍ ما هنا، ثمَّ مدَّ يده وفتح صندوق القفَّازات، الذي كانت تتدحرج فيه عشر ولَّاعاتٍ مختلفة على الأقلّ، والعدد نفسه من علب كبريت. أُفضِّل هذه، قال، وأخرجَ ولَّاعة Zippo، نُقِشت عليها صورة تشي جيفارا. وتلك الفتيات جميلاتٌ أيضًا، أضاف، وفتح حاجب الشمس، فلمعت صورة «الفتيات الذهبيَّات البلغاريَّات» (كما أطلقنا على لاعبات الجمباز الإيقاعيّ في السبعينيَّات) اللواتي كنَّ جزءًا من ثورتنا الجنسيَّة التي استمرَّت واستمرَّ قمعها أيضًا أيَّام المراهقة.

آخر شيءٍ لاحظته بينما كنَّا نبتعد عن منطقة المطار بالسيَّارة البطيئة، كانت لوحةً إعلانيَّةً كبيرة للشركة الرائدة للاتِّصالات الخلويَّة التي تقدِّم «حزمة وطنيَّة» تضمُّ 1300 دقيقةٍ مجانيَّة مع إمكانيَّة مشاهدة كلِّ الأفلام التاريخيَّة البلغاريَّة، وعَلَمًا صغيرًا بمقبضٍ قابل للطيّ يمكن حمله بسهولةٍ في حقيبة أدوات النظافة الشخصيَّة.

-3-

عندما أعود إلى البلاد، يلفُّني دائمًا حزنٌ لا مفرَّ منه. كان قبل سنواتٍ خفيفًا، مثل المشي وسط الغابة الرقيقة التي تلمع فيها خيوط عنكبوتٍ غير مرئيَّة. كنتُ أحبُّ أن أمشي في ممرَّات الحديقة، في جزئها العلويّ، وأن أمرَّ بجانب بحيرة الزنبق. الوقت الذي قضيته هناك قبل سنواتٍ عديدة في عالمٍ آخر تلاشى من دون أثر. هل الضوء هو نفسه على الأقلّ؟ أوراق الأشجار التي كنت أغرق فيها في أواخر تشرين الأوَّل مع تلك الفتاة (غريبٌ أنَّني أتذكَّر فقط الخريف) قد تغيَّرت ثلاثين مرَّةً على الأقلِّ منذ ذلك الحين. لو تذكَّرتنا الأشياء لكان الألم أهون وأخفّ. هل البحيرة بكلِّ ضفدعةٍ وزنبقةٍ فيها تحتفظ بخيالاتنا؟ ألم يتحوَّل الماضي نفسه ونحن أنفسنا إلى ضفادع وزنابق؟

لم أجد جوابًا في تلك الظهيرة... لم أجد سوى حزنٍ متثاقلٍ خفيف، وجوٍّ نيسان البارد. أردت للحظةٍ أن أتَّصل بتلك الفتاة، ثمَّ تخيَّلتها متزوِّجة، لديْها طفلان، أخفت حكايتنا منذ زمنٍ في مكانٍ ما

على الرفّ العلويّ بين مرطبانات التوابل الفارغة ودفتر والدتها لوصفات الطبخ. في الواقع، ماذا سأطلب منها: إعادة بناء حبّنا، إعادة تمثيله أو تذكُّره؟ تذكُّر ماذا؟ لون عينيْها المتغيّر؟ أم هي رغبةٌ أنانيّة أريد عبرها أن أتأكّد من وجودي في الماضي... بأن تروي تلك الفتاة ما حدث بيننا، وأن تسترجع بعض الذكريات، اثنتيْن أو ثلاثًا لا أكثر. أن تعيد إلى ذاكرتي بعض الجولات، بعض الكلمات، بعض اللحظات التي جعلتنا نضحك. إنَّها تذكارات الماضي، المداخل المظلمة التي اختبأنا فيها... تلك المرّة وراء تمثال... تمثال من كان، نسيت اسمه... وقتها كانت المدينة قد بدأت تتغيّر فجأةً مقدّمةً طوبوغرافيا أخرى للعشّاق... اختلقنا شقّةً لم تكن موجودة، وتخيّلنا ما كان يحدث لنا هناك، وكيف نعود إليها. مررتُ أمس بالشقّة، كتبتْ لي في رسالةٍ نصّيّة تلقيتُها على هاتفي نوكيا القديم، لقد نسيتُ سترتي. دعها تبقى هناك لتُذكِّركَ بي. هل سقيتَ زهرة الأوركيد؟ إنَّها صعبة الإرضاء. أنا والقطّة لوحدنا، ننتظرك...

هل يمكن للمرء أن يستجمع نفسه قطعةً قطعة بهذه الطريقة عبر ذكريات الآخرين؟ وكيف ستبدو صورته في النهاية، هل سيظهر على شكل وحش الماضي الفرانكنشتاينيّ؟ الذي أُلصق من صور ذكريات الكثير من الأشخاص وتصوُّراتهم المتناقضة.

...أنت كنتَ تضحك باستمرار... كنتَ كتومًا، غير اجتماعيٍّ تمامًا، وأحيانًا لم تنطق بكلمةٍ على مدى أيّام (هذه زوجتي، أعرف صوتها)... كنتَ لطيفًا للغاية، كيف أصفك، كنتَ... رومانسيًّا، كنّا نستلقي على المقاعد في الحديقة، ونتخيَّل كيف بلغنا من العمر مئة عامٍ مثل السلاحف، ونعيش معًا في بيتٍ به دفّات نوافذ زرقاء على شاطئ البحر... يا إلهي، كيف كنتَ تشتم حين تغضب، لم أكن أجرؤ

على الاقتراب منك... كنتَ نحيفًا، نحيفًا... لقد زاد وزنك كثيرًا... كنتُ أطلب منكَ دائمًا ألَّا تمشي بهذه السرعة... كنتَ تعرج... طويل القامة... منحني الكتفيْن... وعندما كنتُ أرى عينيْك الزرقاويْن، أو العسليَّتيْن أو الخضراويْن، كانت ألوانها تتغيَّر حسب الموسم... وأنت ترتدي ذلك الجاكيت الأحمر... وأنت ترتدي ذلك الجاكيت الجلديَّ الأخضر... كنتَ تنسى الأسماء باستمرارٍ وذات مرَّة... كانت دائمًا بين أصابعك سيجارةٌ مشتعلة... لا أستطيع أن أتصوَّر أنَّك دَخَّنْتَ في الماضي... كانت هناك بعض الكلمات التي تنساها باستمرار، وحين تروي شيئًا وتتلعثم، كنت أعيد هذه الكلمات عليك دائمًا... مشتَّت الذهن، مشتَّتًا للغاية... كنتَ رجلًا لا يضيع وقته... لحظتها رأيتَ كتابًا على سريري، كانت ليلتنا الأولى ونحن نخلع ملابسنا، فاستدرتَ إليَّ وقلتَ: لا، يا إلهي، لا، سأغادر، لا أستطيع أن أنام مع امرأةٍ تقرأ باولو كويلو، لكنَّه كان مؤلِّفًا مختلفًا تمامًا، كاتبًا برتغاليًّا يحمل اسمًا مشابهًا وضحكنا كثيرًا بعدها... كنتَ رجلًا رقيقًا... لكنَّك لم تكن كذلك في السرير... كنَّا نتحدَّث بعدها بلطفٍ شديد...

هل هذا أنا؟

-4-

هنالك شيء، هنالك حزن... شوقٌ وحنينٌ لا يضعف بمرور السنين، بل يزداد قوَّة. لعلَّه أمرٌ مرتبطٌ بالسرعة التي تفرغ بها غرف ذاكرتي. هنالك من يفتح بابًا تلو آخر، ويدخل غرفةً تلو أخرى راجيًا... وخائفًا من أن يرى نفسه في إحداها، حيث ما زالت شخصيَّته هي.. هي.

أليس هذا الحنين إلى الماضي مجرَّد محاولةٍ للوصول إلى ذاك المكان السَّليم مهما كان بعيدًا، حيث ما زالت الأشياء كما كانت، تفوح منها رائحة العشب، وأنتَ تتأمَّل وردةً ومتاهتها عن قرب؟ أقول «مكان» لكنَّه زمان. مكانٌ في الزمان. إليكم هذه النصيحة: لا ترجعوا أبدًا بعد غيابٍ طويل إلى مكانٍ هجرتموه في الطفولة؛ لأنَّه لن يكون كما كان، بل خالٍ من الزمن، ومهجور، وشبحيّ.

لا. يوجد. هناك. شيء.

قرَّر أحد الرجال أن يلمَّ شتات نفسه عائدًا إلى الأماكن التي نشأ فيها. لقد جمع عناوين كلِّ الفتيات والنساء اللواتي أحبهنَّ منذ الطفولة

حتَّى الآن. لن يطلب منهنَّ شيئًا. أراد فقط أن يَراهُنّ، كي يقول لكلِّ واحدةٍ إنَّه طوال حياته كان يحملها في ذاكرته (أراد أن يقول ذلك «في قلبه»، لكن بدا له عاطفيًّا للغاية) وذكريات هؤلاء النساء هي الشيء الوحيد الذي بقي لديْه في النهاية. لقد أخبره الأطبَّاء أنَّه لم يتبقَّ من حياته إلَّا شهران أو ثلاثة على الأكثر. فقسَّمها مثل بخيلٍ إلى أيَّامٍ وساعات، كما يصرف المرء أوراقًا نقديَّةً كبيرة إلى قطعٍ نقديَّةٍ صغيرة. وبدا له أنَّ عددها قد تزايد بهذه الطريقة. وهكذا، كانت أمامه ثلاثة أشهرٍ وهي تساوي 91 فترة ظهيرةٍ على الأقلّ، فهو يحبُّ الأوقات بعد الظهر و... مضروبًا في 24، يعني لديْه قرابة 2184 ساعة. لكن كان ذلك يبدو له ضئيلًا، لذا ضربه في 60، فحصل على أكثر من 130000 دقيقة. وصار بإمكانه الآن أن يتنفَّس الصعداء؛ لأنَّه لم يكن أبدًا غنِّيًا إلى هذا الحدّ، بحيث يستطيع إنفاق كنزه حتَّى آخر دقيقةٍ منه.

سافر طوال اليوم بالحافلة إلى بلدته. البيت الذي عاش فيه لم يعُد موجودًا. وغيَّرت معظم الفتيات عناوينها. لقد تحوَّلن إلى نساءٍ منذ زمن، يا للهول، لقد تزوَّجن من رجالٍ آخرين. من يدري لماذا، لكنَّه كان يظنُّ أنَّ كلَّ واحدةٍ منهنَّ ما زالت تذرف الدموع وتشتاق إليه مثل بطلةٍ من بطلات قصص تشيخوف. لكنَّه في النهاية تمكَّن من اللِّقاء في المدينة مع إحدى حبيباته. تعود قصَّتهما إلى فترة المراهقة عندما كانا في الرابعة عشرة. حينها لعبا دور متزوِّجين، فقد سرق لها خاتمًا من خواتم أمِّه (التي قلبت البيت رأسًا على عقبٍ بحثًا عنه). كانت حبيبته فتاةً حالمة، طويلة القامة، تشبه رومي شنايدر في شبابها... هكذا كان يتذكَّرها. حين اقترب من بيتها رأى في الفناء سيِّدةً مسنَّةً ذات شعرٍ متعب، مربوطٍ من الخلف، تحمل حوض غسيل. لا، ليست هي، قال في نفسه، ربَّما انتقلت مع أسرتها. ومع ذلك قرَّر أن يسأل، فلعل هذه السيِّدة تعرف شيئًا.

إنَّها هي.

لم يبق شيءٌ من تلك الفتاة. لم يعرف ماذا يقول. قدَّم نفسه قائلًا: أنا هذا وذاك... في البداية لم تتذكَّره، فقد مضت حيواتٌ عديدة منذ ذلك الحين. حاولَت أن تتذكَّر اسمه، لكنَّها ذكرت اسمًا مختلفًا. ثمَّ لمع شيءٌ ما في ذاكرتها. عندها خرج زوجها، رجلٌ مسنٌّ مرتديًا قميصًا داخليًّا بلا أكمام. ماذا يحدث هنا، صرخ ممسكًا بعصاه، حين رأى زوجته تتحدَّث مع رجلٍ غريب وراء السياج. ماذا تريد؟

لم يستطع الغريب أن يقول ما الذي يريده ولماذا أتى.

والمرأة كانت صامتةً أيضًا.

لا أريد شيئًا، لا شيء. أشتري أغراضًا قديمة، صورًا، ساعات، لوحاتٍ مُطرّزة، أجهزة راديو، يعنيـ يـ ي أشياءً قديمة.

هيَّا، اذهب في طريقك، هيَّاا، لا قديم عندنا ولا جديد...

كانت السيِّدة تقف متجمِّدة، وكأنَّها تمثال، ولا تزال تمسك بالحوض. مضى الرجل واختفى في الظلّ على الرصيف المقابل للشارع. من مكانٍ ما انبعث صوت إذاعةٍ تبثُّ نشرة أخبارٍ عن مستوى نهر الدانوب بالسنتيمتر، وكان يستمع إليها دائمًا مثل تعويذةٍ سحريَّةٍ في طفولته. إذن، إنَّها الثالثة بعد الظهر، قال لنفسه، من دون أن ينظر إلى الساعة. انطلق ببطءٍ في الشارع، وكان نعل حذائه يلتصق بالإسفلت الذائب بفعل الحرارة، ثمَّ ذاب ظلُّه رويدًا رويدًا. وفي أثناء ابتعاده عن المكان، كانت تلك الدقائق المتبقِّية كلُّها (التي لم يعُد يحتاج إليها) تسقط من جيوب بنطاله على الطريق، وتصدر رنينًا خفيفًا، وتلمع كقطعٍ نقديَّةٍ معدنيَّة.

الأشياء التي لن أجرؤ على فعلها تتحوَّل إلى حكايات.

-5-

زرت مسقط رأسي كي أقضي هناك فترة ما بعد الظهر. كنت أعود إليه دائمًا، رغم معرفتي بأنَّه لم يبق شيءٌ منذ ذاك الوقت؛ فلم تعُد الحديقة، ولا الساحة الصغيرة بجوار السوق، ولا الحارة التي ترعرعت فيها، تتذكَّر خطاي.

على جذع شجرة كستناء، بالقرب من مكتب البريد، رأيت ورقةً مثبَّتةً بأربعة مسامير، مكتوبًا عليها بأحرفٍ كبيرةٍ ما يلي (أنسخه هُنا حرفيًّا):

أُبادل:

تلفزيون كبير L-C-D

32 بوصة يعمل بشكلٍ جيِّد عمره 8 سنوات

بـ 30 لترًا من الراكيا

مدينة يامبول، هاتف: 046...

15 شباط

وقفتُ أمام هذه الرسالة، وهي حاشيةٌ حقيقيَّةٌ مأخوذة من شجرة الحياة، أو بكلامٍ أدقَّ مثبَّتةٌ بمسامير عليها... إنَّها جزءٌ من الملحمة البلغاريَّة... قطعةٌ منها... لغز الصوت البلغاريِّ الهادئ، الغامض الذي انفجر فجأةً بأرقى أحلامه: جهاز تلفزيون مقابل راكيا.

هنا حلمٌ ورعب... حلمٌ ورعب... في الأسفل مكتوب: شباط. هذه الصرخة لا تعلو بكلِّ ما تحمله من أسى إلَّا في شهر شباط... لقد انتهت الراكيا، لكنَّ الشتاء لم ينته بعد. هذه هي الرواية الوجوديَّة لشعبنا باختصار. «جيب» حياتك... تلك السيَّارة القديمة المتهالكة بسقفٍ من قماشٍ مشمَّع... أو لا، إنَّها موسكوفيتش حياتك توقَّفت في أواخر الشتاء، حيث حلَّ الظلام وملأ عواء ابن آوى المكان، لكنَّ البنزين نفد تمامًا. اللعنة على هذه الحياة، فتصرخ وتركل بغضب. تبًّا لها... تبًّا لكم... حتَّى الراكيا أخذتموها منِّي. (لم يأخذها أحدٌ منك، أنتَ شربتها بنفسك. لكنَّ الناس هناك يتحدَّثون هكذا منذ زمن، ودائمًا يأخذ أحدٌ شيئًا منهم أو يمنحهم شيئًا).

وها أنت تجلس في العراء، في سيَّارة «جيب» حياتك، أو في الموسكوفيتش. وسواءٌ أكان الأمر مخجلًا أم لا، تقرِّر أن تكتب إعلانًا، فقد أصبحت الحالة لا تُطاق. تأخذ ورقةً وهي في الحقيقة رسالة البنك تلك التي يحذِّرونك فيها من أنَّك إذا لم تسدِّد الفائدة عن طريق... ليس لديْك راكيا وهم يريدون الفائدة. تقلبها على ظهرها وتبحث عن قلم. يخطر ببالك أن تطلب كتابة الإعلان من ابنك، فسيكون أجمل ومن دون أخطاء، لكنَّك تشعر بالخجل. ما زال هذا الأمر يجعلك تخجل. في النهاية تجلس وتكتبه بنفسك مع كلِّ الأخطاء الإملائيَّة والفواصل التي أسقطتها. تأخذ حفنةً من المسامير، وتذهب إلى الحيِّ المجاور والشعور

بالخجل باديًا عليك من جديد. ما الذي تقدِّمه مقابل الراكيا؟... تقدِّم طبعًا أثمن ما تملكه... مقدارٌ مقابل مقدار، وقيمةٌ مقابل قيمة. التلفاز أم الراكيا؟ هذا هو السُّؤال. التلفاز عبارةٌ عن تعالٍ... تعالٍ مزيَّف بالطبع، لكنَّه يبقى حلمك الأخير بشيءٍ مختلف. كانت جدَّتك تمتلك أيقونة؛ ولدى والدتك صورةٌ صغيرة لِفلاديمير لينين؛ أمَّا أنت، فعندك تلفاز. لكن ما الفائدة من التلفاز إذا لم يكن لديْك راكيا؟ التلفزيون يخفِّف الحياة كما لو أنَّك تسكب الماء في كأسٍ مليء بالراكيا... لقد بدأوا يبيعون سجائر إلكترونيَّة. من يدري، ربَّما سيبيعون لي غدًا راكيا إلكترونيَّة، فليذهبوا إلى الجحيم الإلكترونيّ... نعم، الأمر نفسه بالنِّسبة إلى التلفزيون، فهو راكيا إلكترونيَّة لا أكثر... إذن، لا أريده هذا التلفاز... خذوه من وجهي. شاشة 32 بوصةً مقابل 30 ليترًا من الراكيا، يعني ليترًا للبوصة، أبيعه لكم بسعرٍ رخيص. ثلاثون ليترًا من الراكيا تساوي شهرًا إضافيًّا من الحياة، وربَّما شهرًا ونصف الشهر، إذا كنتَ مقتصدًا في ذلك. اللعنة، الراكيا وحدها صادقة، فهي لا تكذب عليك مثل التلفزيون، ولا تذر التراب في عينيْك، ولا تثرثر بالفاضي والمليان. إنَّها تضربك في الأنف، ثمَّ تحرق حلقك، فتنزل في أحشائك وتدفِّئ كلَّ ما بَرَدَ في داخلك منذ زمن. الراكيا هي كلُّ راقٍ وسامٍ في الواقع البلغاريّ، وفي نهاية الأمر هي التلفزيون البلغاريّ.

تساءلت عمَّا حدث لذلك الرجل وأنا أشتم في نفسي. ألا يجب أن أتَّصل به وأساله ما إذا كان كلُّ شيءٍ على ما يرام؟ ليست هذه الرسالة مجرَّد إعلانٍ وإنَّما هي نداء استغاثة. إنَّنا الآن في نهاية نيسان، ولم يأخذ أحدٌ أيًّا من تلك القصاصات الموجودة في أسفل الإعلان التي تحتوي على رقم هاتفه.

عدت إلى صوفيا في اليوم نفسه.

-6-

ليس لديَّ صديقٌ يمكنني الاتِّصال به، لذلك أتسكَّع في شوارع صوفيا العاصفة إلى أن أتوقَّف أمام متجرٍ للحيوانات الأليفة.

قبل سنواتٍ وأنا طالبٌ في السنة الأولى من الجامعة، اشتريت مع أحد أصدقائي زوجًا من الببَّغاوات كهديةٍ لإحدى زميلاتنا بمناسبة عيد ميلادها. قلت له: لكنَّ الببَّغاوات ستصرخ وتزغرد طوال اليوم! فردَّ: ما الذي يهمُّك، فأنت لن تعيش معها، أليس كذلك؟ كانت حفلة عيد ميلادها في تلك الليلة مروِّعة، إذ وقع هناك شجار، ووصل الأمر إلى تبادل اللكمات، وكان صديقها السابق يصفق الباب، وقد حدث ذلك في التسعينيَّات... أتذكَّر بوضوحٍ أنَّني بينما كنت أغادر شقَّة زميلتي قلت لنفسي: لن أعيش مع مثل هذه المرأة أبدًا. وبعد عام، كنت أقف في الغرفة نفسها، وأغيِّر الماء للببَّغاوات التي كانت تصرخ صراخًا مزعجًا. كلَّ صباحٍ كنَّا نغطي القفص بمنشفةٍ قديمةٍ كي تظنَّ الببَّغاوات أنَّ الوقت ليل، ونحصل على ساعةٍ من الراحة على الأقلّ. أطلقنا على

أنثى الببَّغاء اسم إيما بوفاري، في ذلك الوقت كنَّا نقرأ في الجامعة روايات فلوبير، وأمَّا الذكر فلا أعرف لماذا أسميناه «بيتشورين» على اسم «بطل من هذا الزمان» لميخائيل ليرمونتوف. كانت إيما تهاجمه باستمرار، وبيتشورين المسكين الذي كان من المفترض أن يجعلها خاتمًا في إصبعه، كما فعل مع الأميرات كالأميرة ماري، كان يقف هناك جريحًا، شجيًّا، محشورًا في قضبان القفص الرقيقة.

الآن أدرك أنَّه لم يكن لديَّ أبدًا مثل هذا العدد الكبير من الأصدقاء كما كان في ذلك الوقت. كانت شقَّة الأستوديو التي سكنتها مكتظَّةً بالناس دائمًا. أتذكَّر ليلةً من الليالي، كان الجوع يأكلنا، ونحن سهرنا حتَّى الرابعة صباحًا وانتهى كلُّ ما يُشرب ويُدخَّن. لم يكن هناك أيُّ شيءٍ في الثلَّاجة، فقد كان الجوع في تلك الأيَّام (في التسعينيَّات) قاسيًا جدًّا. خرجت مع صديقيْن لي للبحث عن طعام، كما لو أنَّنا نستطيع قتل أرنبٍ أو ظبيةٍ في المدينة المقفرة. كانت الشوارع مظلمة، فارغةً وقذرة، ولم تكن هناك إلَّا مجموعةٌ من الكلاب الضالَّة. لحظتها، يا للعجب! مرَّت بنا سيَّارة «نيسان» ببطء، وتوقَّفت في مكانٍ قريب، ووضع السَّائق أمام متجر الحيِّ ثلاثة صناديق من اللبن ومضى. كان جيلنا يكره (في الأساس) اللبن، لأنَّنا كنَّا نتناوله للفطور كلّ صباحٍ في طفولتنا. التفتنا يُمنةً ويُسرة، لم يكن هناك أحد، فأخذ كلُّ واحدٍ منَّا علبتيْن من اللبن، وأخرجنا كلَّ النقود من جيوبنا وتركناها هناك، ثمَّ عدنا إلى البيت.

كان الجميع ينتظروننا وقد اشتدَّ بهم الجوع. لن أنسى أبدًا ذلك المشهد: الزجاجات والأكواب الفارغة على الطاولة... عشرة أكوابٍ متشابهة من فضَّة النيكل أمامنا، جميعنا في العشرين من العمر تقريبًا،

وكنَّا نلتهم اللبن بصخبٍ كالملائكة. لا أعرف ما إذا كانت الملائكة تأكل اللبن، لكنَّني أتذكَّر كيف كانت ترتسم شوارب بيضاء من اللبن على وجوهنا... ونحن سعداء وأبرياء...

ثمَّ تفرَّقنا، ونسينا بعضنا البعض. المتمرِّدون منَّا أصبحوا أكثر رزانةً وصاروا أساتذة جامعة. كان العزَّاب ومحبُّو الحفلات في السَّابق يدفعون عربات الأطفال، ويجلسون أمام التلفزيون؛ أمَّا الذين كانوا هيبيِّين، فتراهم يزورون بانتظامٍ صالونات الحلاقة لقصِّ شعرهم. ذات صباحٍ مات الببَّغاء بيتشورين، وبدأت إيما بوفاري تصرخ بعلوِّ صوتها وترمي نفسها على قضبان القفص حزينةً. لم تتحمَّل وفاته وماتت بعده ببضعة أيَّام. أمَّا أنا وإيما الأخرى (كان هذا اسمها، نعم) فقد افترقنا بعد عدَّة أشهر. لم يمت أيُّنا من الحزن. أخذت أكتب روايتي الأولى كي يكون لديَّ مكانٌ أعود إليه حين يصيبني الجنون... إنَّها روايةٌ عن المتشرِّدين.

الحقيقة هي أنَّني لا أستطيع الاتِّصال بأيٍّ من تلك الملائكة السَّابقة، ولا حتَّى بإيما، وخصوصًا بها. والأسوأ أنَّني لا أستطيع نسيانهم (لن أعترف لهم بهذا أبدًا) وأفتقدهم، حتَّى أنَّني أفتقد الشخص الذي كنتُه في ذلك الوقت.

-7-

من المقرَّر أن تنظِّم الحركتان الرائدتان في البلاد مظاهرتيْهما يوم الأحد الأخير قبل الاستفتاء. تعجُّ بلغاريا الآن بكلٍّ أنواع الحركات المؤيِّدة لمختلف العقود الماضية، حيث يتمنَّى مؤيِّدوها إعادة الرعاية الطبِّيَّة المجانيَّة، وطعم الطماطم، ويخنة الدجاج كما كانت جدَّتك تطبخها أيَّام الطفولة. ورغم أنَّني أشكُّ في أنَّ الاستفتاء سيعيد طعم اليخنة، لكن ذلك غير مهمّ. يعتقد بعض الناس أنَّ إعادة الماضي القريب سيعيدهم تلقائيًّا إلى العمر الذي كانوا عليه في ذلك الوقت. تضغط الزرَّ وها أنت تجد نفسك في الخامسة عشرة أو السابعة والعشرين من العمر.

طبعًا، يدخل كلُّ ذلك في الحملة الانتخابيَّة. وفي النهاية تشير معظم استطلاعات الرأي إلى حركتيْن رئيسيَّتيْن تتفوَّقان على البقيَّة بفارقٍ كبير. إحداهما «الحركة من أجل الاشتراكيَّة» (واختصارا ДС بالبلغاريَّة، تمامًا كما كان اختصار جهاز أمن الدولة السَّابق في البلاد) ودرج الناس على تسميتها بـ«سوتسا» بالبلغاريَّة، وكانت تسعى إلى إعادة عصر الاشتراكيَّة المزدهر، لا سيَّما في ستينيَّات وسبعينيَّات

القرن الماضي. ورغم أنَّ الحزب الاشتراكيَّ هو الذي كان يقف وراء هذه الحركة الجديدة، إلَّا أنَّها كانت قد فاقت الحزب من حيث عدد الأعضاء بمرَّاتٍ كثيرة. وبهذا المعنى فإنَّ الحزب الاشتراكيَّ كان يحاول الحصول على دماءٍ جديدة من هذه الحركة.

أمَّا الحركة الثانية، فمن المتوقَّع أن تكون نتائجها متساويةً تقريبًا مع «سوتسا»، وقد أُطلق عليها رسميًّا اسم « البلغار الأبطال»، في حين درج الناس على تسميتها بحركة «الأبطال» فقط. رغم أنَّ أعضاءها لم يكونوا أبطالًا البتَّة، كانوا مجرَّد قومجيّين. ولم يكن سهلًا على هؤلاء أن يشيروا إلى فترةٍ بعيْنها، أو عقدٍ زمنيٍّ محدَّد يعيدون الأمَّة إليه، إذ لا يمكن تقسيم الأسطورة البلغاريَّة إلى سنوات، لذا كانت بلغاريا الكبرى في كتاباتهم تتراوح دائمًا بين الحلم والواقع. ورغم أنَّ تعليمات الاستفتاء حدَّدت بداية القرن العشرين كأقرب إطارٍ زمنيٍّ ممكن، إلَّا أنَّ القومجيّين خرقوا هذه الحدود الزمنيَّة، واختاروا فترة النهضة البلغاريَّة المثاليَّة التي كانت ذروتها انتفاضة نيسان عام 1876.

هل يمكن لانتفاضةٍ لم تصل مبتغاها أن تتحوَّل إلى رمزٍ سامٍ؟ في الواقع، ما الذي يمكن أن يصبح ساميًا ورمزيًّا أكثر من انتفاضةٍ لم تحدث أصلًا؟ أليست هي الوحيدة القادرة على أن تحدث كما نتمنَّاها بعيدًا عن قيود الحقائق التاريخيَّة؟ أن تخلق نفسها من باب الذاكرة والخيال؟ نحن في بلغاريا نمتلك جميعنا خبرةً (تورّث منذ الولادة) تتعلَّق بأحداثٍ لم تحصل أبدًا.

تُرى، هل ذاك الرجل من قصَّة الراكيا، «رجل الراكيا»، سيتشبَّث بقشَّة «سوتسا»، أم بقشَّة القومجيّين؟ إنَّه اختيارٌ يشبه اختيار أوديسيوس بين الوحشيْن سيلا وكاريبديس، الذي تقف أمامه وبقيَّة الحركات البلغاريَّة الصغيرة كالمستجير من الرمضاء بالنار.

-8-

لقاءٌ مع ك.

خلافًا لزياراتي السابقة شبه السرِّيَّة المتعلِّقة في الغالب بالعيادة، أردت هذه المرَّة أن أناقش الأوضاع مع شخصٍ ما. فاتَّصلت بصديقٍ من أيَّام الجامعة، أصبح فيما بعد أستاذًا جامعيًّا. لم أسمعه منذ سنواتٍ ولا أعرف إذا كان قد غيَّر رقم هاتفه. هممتُ بإغلاق السمَّاعة حين سمعت صوته الناعس يقول: «ألو...».

لقد بدا لي أنَّه لم يتفاجأ فحسب، بل وفرح بسماعي. والتعبير عن فرحٍ بمجرَّد سماع صوت أحدٍ لم تقابله منذ زمنٍ أو رؤيته، هو أمرٌ يحدث هنا نادرًا. أتذكَّر زياراتي الأولى إلى بلغاريا، فعندما كنت أرى صديقًا أو أحد معارفي في الشارع، كنت أهرول إليه لأحتضنه، بينما ينظر هو حائرًا مهمهمًا «أأأ، «مرحبًا»، «ماذا تفعل هنا». أمَّا صديقي ك. فاقترح بنفسه أن نلتقي هذا المساء في المقهى على سطح دار أرشيف الدولة. إذن، هنا لا يزال ممكنًا أن يحدِّد المرء موعدًا مع شخصٍ في اليوم نفسه.

كان ك. في أواخر الثمانينيَّات، مدرِّسًا مساعدًا شابًا بالجامعة. لقد أحببناه؛ لأنَّه كان مختلفًا عن بقيَّة الأساتذة، ولقَّبناه بـ«كافكا»، «المدرِّس المساعد كافكا». كان على درايةٍ بذلك، وأظنُّ أنَّه لم يكن لديْه مانع. لقد كان (وما زال) صارمًا ومنهجيًّا، الأمر الذي أفاد عقولنا المشوَّشة المليئة بكتبٍ مقروءة بطريقةٍ فوضويَّة. كانت أحاديثنا تؤدِّي دائمًا إلى خلافاتٍ شديدة تتجاوز حدود الكياسة، حيث كان يقاطعني، ويشتعل غضبًا، ويصبح لاذعًا... كان مقاتلًا جامعيًّا، وكان هذا رائعًا. لم يكن صديقي الأفضل، ومع ذلك كنَّا نشرب ونتحاور في البارات والندوات اللامتناهية للتسعينيَّات، التي لم تتكرَّر أبدًا فيما بعد. كانت كلُّ لقاءاتنا تبدأ بنيَّته الحسنة تجاهي، ثمَّ تتحوَّل إلى أحاديث مطوّلة، لتنتهي بشجار. وبعد أسبوعٍ يتَّصل بي ويسأل بدهشةٍ صادقة: لماذا لا تتَّصل بي، يا أخي؟ كنت أردّ: هل نسيتَ أنَّك زعلان منِّي؟ آه، نعم، نعم، يعني... إنَّها مناسبةٌ جميلة للتصالح، إذن، تعال لنتناول بعض المشروبات.

كانت مشاجراتنا مجرَّد مناسبةٍ للتصالح، ممَّا يؤدِّي إلى مشاجرةٍ جديدة تؤدِّي بدورها إلى مناسبةٍ جديدة للتصالح وإلخ. هكذا كان يعيش الجميع في هدير الزمن الرائع للتسعينيَّات.

ربَّما لذلك أتَّصل به الآن راجيًا أنَّه لم يتغيَّر، بل بقي الشخص نفسه الذي يتكلَّم بقطعيَّة كاهنٍ بروتستانتيّ. ولأنَّني لم أحبَّ ولم أستخدم مثل هذه القطعيَّة، لذلك أحتاج دائمًا لرجلٍ مثله. وربَّما لذلك لا يحبُّونه. أمَّا أنا، فأحبُّ الناس غير المحبوبين. (في الواقع، كان أوَّل لقاءٍ لي مع ك. في الندوة نفسها على شاطئ البحر في أواخر الثمانينيَّات، التي قابلت فيها غاوسطين. ويجب القول ما هو في صالح ك.، أنَّه، إلى

جانبي، كان الشخص الوحيد المهتمّ بغاوسطين، وكان يدعوه بعدها إلى اجتماعاته الخاصّة، رغم أنَّ غاوسطين، بالطبع، لم يحضر أيًّا منها).

وها نحن نجلس في المقهى على سطح دار الأرشيف في غسق الليل... «في ساعة الضباب الأزرق»، قلت مقتبسًا من الشاعر البلغاريِّ يافوروف، وأنا أتأمَّل قمم جبل فيتوشا البنفسجيَّة بعيدًا في عمق الأفق. «مثل جزيرة البنفسج في مياه القمر الفضّيَّة»، أضاف ك. شطرًا من قصيدة شاعرٍ بلغاريٍّ آخر كي يواصل لعبتي. الآن أدرك أنَّ هذه المدينة صارت بالنِّسبة إليَّ مجرَّد أدبٍ لا أكثر، فأنا لا أعرفها إلَّا من خلال الكتب، وهي لا تجذبني إلَّا لكونها أدبًا. الثلاثينيَّات وأوائل الأربعينيَّات... لعلَّها أفضل أعوام المدينة. هنا، في عام 1931، في مكانٍ قريبٍ من هذا المقهى ظهرت أوَّل لافتة نيون إعلانيَّةٍ مقابل مكتب الخطوط الجوِّيَّة الفرنسيَّة. ومباشرةً أصبحت مصابيح النيون جزءًا من قصائد شعراء المدينة. كنت أتخيَّل تلك الحروف المضيئة، وكيف تراها لأوَّل مرَّةٍ عينٌ اعتادت على تأمُّل النجوم والقمر. لا بدَّ أنَّ سطوع النيون وسط الأضواء الخافتة لمصابيح الشوارع كان في البداية أمرًا صادمًا ومثيرًا، لكنَّه ما لبث أن تحوَّل إلى منظرٍ عاديّ. قبل سنواتٍ عديدة، كأنَّها كانت في حياةٍ أخرى، عملت على موضوعٍ مرتبط بالإعلان، والسينما، والإذاعة في الثلاثينيَّات والأربعينيَّات. وقد اطَّلعت على الصحف الأسبوعيَّة المصوَّرة والأوراق والمجلَّات السينمائيَّة، بل حتَّى على الأدلَّة التي كانت تحتوي على إرشاداتٍ بصدد كيفيَّة صنع جهاز راديو. حينها لاحظت أنَّ الشعر البلغاريَّ كلَّه في تلك الأعوام يعجُّ بالمكثِّفات الكهربائيَّة والهوائيَّات وأضواء النيون واللَّافتات الإعلانيَّة وأسماء العلامات التجاريَّة من Bayer and Philips, Lucky Strike,

White Horse، كذلك عناوين الأفلام، إلى جانب صورة الأسد في شعار Metro-Goldwyn-Mayer. بدأت بالحديث مع ك. عن هذا الموضوع، رغم أنَّني لم آت لذلك، فوجد الحماس طريقه إلينا، حيث أخذت الاقتباسات الشعريَّة تتطاير... هل تتذكَّر هذا... هل تتذكَّر ذاك... وماذا تقول عن تلك القصيدة التي جاء فيها: «إعلانات «باير» و«فيليبس» / ازدهرت / كما لو كانت في الجنَّة»؟ امـمـم...، أمعن ك. تفكيره في آخر عبارة. وكنت أشعر بالسعادة حقًّا عندما أفاجئه باقتباسٍ لا يعرفه. في النهاية، سأل: من هو المؤلِّف؟ إنَّه بوغوميل راينوف في شبابه، أجبت، قبل أن يتحوَّل إلى شاعرٍ للسلطة.

لو اشتركت في الاستفتاء على الماضي هنا، لاخترت الثلاثينيَّات (على الرَّغم من الأحداث التي أعقبتها). أو ربَّما سأتردَّد بين الثلاثينيَّات بسبب نهضتها الأدبيَّة والستينيَّات بسبب ذلك الشعور الغامض لديَّ بأنَّني أتذكَّر هذا العقد بتفاصيله.

سألت ك. عن العقد الذي سيختاره، لكنَّه تريَّث في ردِّه، وكأنَّه ملزمٌ باختياره في هذه اللحظة. طلبنا الراكيا مرَّةً أخرى، وبينما كان النادل يبتعد، قال ك. ببطء: أتردَّد بين العشرينيَّات والخمسينيَّات، على الرَّغم من أنَّ استطلاعات الرأي تظهر أنَّها تتمتَّع بدعمٍ قليل.

فقلتُ: من الطبيعيّ ألَّا يُفضِّلها أحد، فهي سنواتٌ دامية بما يكفي.

أعرف دراسة ك. في شعر العشرينيَّات. هنالك بعض الشعراء البلغار العباقرة في ذلك العقد. وقد دفع أفضلهم أعزَّ ما عنده ثمنًا، حيث حطَّمت الشظايا في الجبهة رأسه، فخيط وركِّبت له عينٌ زجاجيَّة في برلين، ثمَّ اختفى هذا الرأس بعد ستِّ سنواتٍ إلى أن عثروا عليه

في مقبرةٍ جماعيَّة، وتعرَّفوا عليه لاحقًا بفضل هذه العين الزجاجيَّة. من المعروف أنَّ عمل الشرطة والمخابرات البلغاريَّة في جميع الأزمنة اتَّسم بأسلوبٍ مختلفٍ في التعامل مع الشُّعراء والكتاب، إذ كانت هذه الأجهزة تعمد دائمًا إلى قتل الأكثر موهبةً بينهم، في حين تترك الأدباء الضعفاء منهم أحياء.

أفهم لماذا سيختار ك. العشرينيَّات، فالمؤرِّخ الأدبيُّ يريد العودة إلى موضوعه. ولكن لماذا الخمسينيَّات أيضًا؟ إنَّها مظلمة، غليظةٌ وقاسية، ولا رحمة فيها... زمن الرعب ومعسكرات الاعتقال، بل حتَّى فلسفة الجمال فيها كانت باهتةً تمامًا كأسلوب ذلك العقائديِّ الفوضويِّ تودور بافلوف.

وبدأ ك. يتكلَّم: في الخمسينيَّات أرسلوا والدي في معسكر الاعتقال بمدينة بيلينيه، وعندما خرج منه، كان رجلًا مختلفًا، ولم ينطق بكلمةٍ عن المعسكر. وفي المدرسة صُنِّفت مباشرة كـ«شخص غير موثوق». وعند حديثهم عن أعداء الشعب، كان معلِّمونا يوجِّهون أصابع الاتِّهام إليَّ كوني ابن العدو. كنت قمَّة المثاليَّة في التسامح مع سلطة الشعب التي سمحت حتَّى للأطفال مثلي العيش والدراسة مع الآخرين.

ذات يومٍ دقَّ جرس بابنا، وكانت عمري سبع سنوات. نظرت من خلف ثقب الباب، فرأيت رجلًا مخيفًا، ملتحيًا، منحني الكتفيْن، وأدرت المفتاح في القفل مرَّةً أخرى. سقط قلبي بين قدميّ. هيَّا، يا بني، افتح، قال الرجل أمام الباب. نحن لا نفتح الباب للغرباء، صرخت من الداخل. ألا تعرفني، أنا والدك، قال بصوتٍ خافت، وكأنَّه يخشى

أن يسمعه الجيران. نظرت من ثقب الباب وبدا لي أنَّه يبكي... فقلت في نفسي: ليس والدي، لكنَّه يبكي، إذن، ليس لِصًا أو مُجْرمًا. ومع ذلك فإنَّني لم أفتح الباب. كانت والدتي في المصنع، وستعود إلى المنزل بعد ساعتيْن أو ثلاث. ظلَّ الرجل ينتظر على الدرج الوسخ أمام شقَّتنا، حيث كان لون ملابسه يندمج بلون الجدران البيج الباهت. سألته كيف سيثبت أنَّه والدي... أعتقد أنَّ سؤالي أخرجه عن طوره. قال إنَّ لديَّ ندبةً على حاجبي الأيسر منذ أن سقطت مرَّةً في الشتاء.. طلب منِّي أن أفتح خزانة الملابس وأرى المعطف العسكريَّ ذا الأزرار المعدنيَّة الذي تركه ليلة اعتقاله. قال إنَّني كنت دائمًا أحبُّ حديثه عن الجبهة. كلُّ ذلك كان صحيحًا، لكنَّ والدي كان رجلًا مختلفًا، وأكثر وسامةً وأصغر سنًّا منه، وللأسف، أخبرته بذلك. فجلس على الدرج، بحيث لم أكن أرى سوى قبَّعته القذرة. ولم أدرك إلَّا الآن مدى غباوتي وقسوتي في تلك اللحظة. وقتها قلت في نفسي مرَّةً أخرى: ليس بوالدي، ولكن إذا كان يبكي، فإنَّه رجلٌ طيِّب ويمرُّ بمرحلةٍ صعبة، ولو عرفت أمِّي أنَّني جعلته ينتظر في الخارج... وفتحتُ الباب، فدخل، أدرك أنَّني لا أصدِّقه كثيرًا، وهو لم يعانقني، ولم يحاول ذلك حتَّى، ربَّما كيلا يخيفني، وقال إنَّه يريد الذهاب إلى الحمَّام. كان يعرف مكانه. سمعت صوت الماء الجاري. وأحمد اللّـه أنَّ والدتي رجعت في تلك اللحظة. فقد عرفت بأنَّهم أطلقوا سراح سجناء بعد عفو، وطلبت أن تخرج من العمل مبكِّرًا.

سكت ك. هنيهةً ثمَّ تابع: إذن، يمكنني أن أختار الخمسينيَّات من أجل والدي. لقد توفِّي بعد سنةٍ من عودته. لم يكن لديْنا وقتٌ كي نتحدَّث، ولم أستطع أن أنتزع منه كلمةً بشأن ذاك الموضوع.

بينما كان ك. يروي هذه القصّة، بدا لي أنّه أصبح شخصًا مختلفًا، فقد شاخ فجأة، إذ لم يبق شيءٌ من برودته وسخريّته السابقة، حتّى أنّ قسماته الحادّة بدت وديعة. فقد تحوّل إلى والده الذي حدّثني عنه، كما سنتحوّل جميعنا إلى آبائنا لاحقًا.

ثمّ سكت فجأةً مدركًا أنّه أصبح عاطفيًّا. استدعى النادل، وطلبنا وجبةً ثانية من سلطة «شوبسكا»، ذلك المنتج البلغاريُّ الذي ابتكرته شركة Balkantourist في أواخر الستينيّات، ويتكوّن من جبنٍ أبيض، وخيارٍ وطماطم. إنّه يضمُّ الألوان الثلاثة للعلم البلغاريّ: أبيض وأخضر وأحمر. قلت كي أغيّر الموضوع: إنّها فكرةٌ رائعة أن يقدّموا للسُّيّاح سلطةً لها شكل العلم البلغاريّ.

-9-

لقد حلَّ الظلام خارجًا. لو كنَّا في فترة ما قبل 30 عامًا، لسطعت الآن النجمة الخماسيَّة الحمراء فوق مبنى الحزب الاشتراكيِّ على يميننا. أشاهد الطراز المعماريَّ للمباني في الجهة المقابلة، حيث ترى النزعة الكلاسيكيَّة الجديدة في بناء البنك الوطنيِّ البلغاريِّ من الثلاثينيَّات، وبجانبه تتلمَّس الأسلوب المعماريَّ الشيوعيَّ في مبنى فندق «البلقان» السابق وبناء مجلس الوزراء. وقد كان بعض العمَّال يتحرَّكون في المكان الفارغ الذي كان سابقًا ضريحًا للرفيق غيورغي ديميتروف.

ماذا يعملون هناك، لا تقلْ لي إنَّهم يقومون بإعادة بناء الضريح؟

نعم، بمعنى ما، قال ك.، تعرف، غدًا تُنظَّم مظاهرةٌ لحركة «سوتسا»، فلن أتفاجأ لو أُعيد بناؤه فعلًا.

أعتقد أنَّه سيكون بدون رفاته في الداخل؟

من يدري، ابتسم كـ. بمرارة.

لقد طلبت الوجبة التقليديَّة المكوَّنة من ثلاث قطعٍ من الكباب مع المقبِّلات، وأعرفها باسم «ثلاث مع مقبِّلات» منذ طفولتي. طلبتها بسبب اسمها، فهو يستحضر ذكريات العطل الصيفيَّة التي كنَّا نقضيها على شاطئ البحر. كان والدي يطلب بكلِّ تباهٍ تلك القطع الثلاث الدائمة مع المقبِّلات كوجبةٍ مشتركةٍ لي ولأخي. وكان ذلك يعني أن نكون «مثل الكبار».

قدَّم النادل الطبق، قائلًا: إنَّه تمامًا كما كان في الماضي.

آمل أنَّه طازج، وليس منذ ذلك الوقت، أجبت مازحًا.

نظر كـ. إلى وجبتي بسخريَّة: أليس هذا الطبق اشتراكيًّا بعض الشيء؟

في الواقع، أجده مالحًا جدًّا، أجبت بذلك وأنا أتذوَّق الكباب من اللحم المفروم الخشن، وهو بالضبط كما كانوا يعدُّونه في ذلك الوقت... عظامٌ صغيرة هنا وهناك يمكن أن تكسر بعض حشوات الأسنان. صلصة طماطم بلغاريَّة «ليوتينيتسا»، فاصوليا مسلوقةٌ وبطاطا مقليَّة... إنَّه ثالوث المقبِّلات البلغاريَّة المقدَّس.

أمَّا كـ. فطلب طبقًا من الكباب بالنبيذ. لم يكن الطعام لذيذًا، لكنَّ كميَّته كبيرة.

قال كـ.: لقد علمتَ أنَّ الاختيار سيكون بين القوميَّة والاشتراكيَّة. انظر إلى أين وصلنا. إذا سألتني أيُّهما أهْونُ الشرين، فلن أستطيع الإجابة. لكن ذلك لا يعني بأنَّ القوميَّة لم تكن موجودةً في أواخر عصر الاشتراكيَّة.

ثمَّ بدأ يلعب دوره المفضَّل كأستاذٍ وتحوَّلت الطاولة إلى منبر. وانضمَّت الوجبتان إلى المسرحيَّة، حيث تمثِّل وجبتي حركة «سوتسا»، أمَّا وجبته فتمثِّل الحركة القومجيَّة.

قال إنَّنا أضعنا فرصة الحديث مع الشباب عن الشيوعيَّة بكلِّ أهوالها ومعسكرات العمل، لذلك لا يقبل الجيل الجديد الاشتراكيَّة إلَّا كنمط حياة.

دعنا لا نتحدَّث أكثر في هذا الموضوع، وإلَّا فإنَّنا سنصل في النهاية إلى تلك العبارة الأزليَّة: «كيف كنَّا في شبابنا، وكيف هم الشباب اليوم...». ينتفض الشباب في كلِّ العالم ضدَّ الكبار، بينما يحاول هنا الكبار سحق الصغار. مثلما جاء في حكاية تاراس بولبا «كما منحتُك الحياة، سآخذها منك».

لعلَّك على صواب، قال، فنحن لم نفعل شيئًا، لا شيء... هنا حيث نجلس الآن، في شارع «موسكو»، تعرف، أنَّه كان من قَبْلُ مقرًّا لمخابرات الدولة، وهنا تحت أقدامنا في القبو المطلِّ على شارع «مالكو تارنوفو» كانت هناك زنازين خُصِّصت لتعذيب المعتقلين. كانوا يضربون شبابًا هزيلي الجسم ضربًا مبرحًا... هيَّا، اخلع سروالك، لكن من دون أن تخلع حذائك. وإذا كان من الصَّعب أن تخلعه، يعني هو أضيق ممَّا هو مسموحٌ به، إذن، اذهب إلى «موسكو 5»، للاستجواب... يضربونك على الكلى من دون أن يكون هناك آثارٌ واضحة للضرب، وإذا انتهت الأمور عند هذا الحدّ، فأنت محظوظ. تبًا لكم، كيف يزعجكم بنطالي، هاه؟... لماذا تضربون كالخنازير؟ وما هي المشكلة إذا كان سروالي ضيِّقًا، أو إذا كانت سترتي ليمونيَّة اللون، أو معطفي بأزرارٍ خشبيَّة، أيُّها الأوغاد الأغبياء... اشتعل ك. غضبًا، فبدأ زوَّار المقهى يلتفتون إلينا.

أحاول أن أقاطعه، أنظر...

انتظر... تابع ك.، لحظةً فقط...، ألم تكن من أولئك الذين أرادوا إقامة متحفٍ لأجهزة الأمن هنا، في المكان نفسه... في الطابق السفليّ تحت أقدامنا بالضبط؟ أين هو متحفكم؟

نعم، أجبت بإيجاز. لقد قالوا إنَّهم موافقون على الفكرة، فكتبنا 50 صفحةً لنقدِّم مشروعنا بالتَّفصيل. ونشرت جميع الصحف الخبر عن ذلك المشروع، ثمَّ لا شيء... قالوا، كي يمنعونا من تحقيق الفكرة، إنَّه لا يوجد مكانٌ لتحقيق هذا الهدف. لو أنَّ مبنى الضريح ما زال قائمًا، لكان بالإمكان استخدامه من أجل المتحف. ولكن الآن... يعني، تبيَّن فجأةً أنَّه ليس هناك مكانٌ خالٍ في صوفيا. وقتها تذكَّرنا الأقبية في شارع «موسكو 5» ووجدناها مناسبةً لهذا الغرض. أتعرف كيف يملأ الصدى المكان هناك؟... ربَّما لديْها نوعٌ من الذاكرة الصوتيَّة، وهي تحفظ أصوات كلِّ الناس الذين صرخوا في ذاك القبو. إذن، كنَّا على وشك إقامة المتحف، ولكن في اللحظة الأخيرة تراجع الجميع عن الفكرة، «لا نريد تقسيم الشعب، ليست اللحظة مناسبةً لذلك...». بعبارةٍ أخرى، لا شيء حدث. لا يمكنك إقامة متحفٍ يعرض أشياء لم تمض بعد.

سكتنا لوهلة، وبدأت الطاولات تخلو من زوَّارها، فقد برد الجوُّ قليلًا. ثمَّ واصل ك. يتحدَّث، فقال إنَّ الناس تعبوا من الأحزاب، وملُّوا من العولمة واللباقة السياسيَّة...

حاولت أن أتدخَّل، وقلت: وكيف تَهُمُّهُم العولمة... وهل يمكننا التكلُّم عن أيِّ صوابٍ سياسيٍّ في هذا المكان، حيث من عادتنا أن نَشْتُمَ بعضنا البعض كأنَّنا نتبادل التحيَّة؟

انظر، قال ك. وهو لا يحب أن أقاطعه أبدًا، هناك شيءٌ غير عادل، هناك ظلمٌ والناس يشعرون به. وأمَّا نحن فنصمت... لا نريد المخاطرة بالحديث معهم.

إنَّ المخاطرة هي الكلمة الدقيقة، أجبت. لكنَّك تتحدَّث كشخصٍ لا يجب عليه إلَّا مساعدة الضعيف، في حين أنَّ الضعفاء هم أنا وأنت. لقد تغيَّرت الأمور، متى ستدرك ذلك؟ أولئك الرجال ذوو الرؤوس الحليقة لا يهمُّهم أنَّ أغبياء مثلنا يرتدون نظَّارات، تنازلوا بالحديث معهم.

أنت لا تعود إلى بلغاريا، إلَّا من حينٍ لآخر، وليس لديْك الحقُّ في أن تتكلَّم هكذا، قال ك. غاضبًا.

نحا الحديث إلى الشجار، كما كان دائمًا في تلك السنوات.

لحظةً فقط... إذا لم يريدوا سماع صوتنا، فماذا سنفعل؟... اذهب وحاول أن تتحدَّث معهم عن الخطاب الليبراليّ... هاه، فَهُمْ في أحسن حال، لن يفعلوا شيئًا إلَّا الضحك عليك... سيخلعون نظَّارتك، وسيدوسونها بالأقدام، وسيدفعونك إلى الخارج كي تذهب إلى طريقك وحيدًا في الظلام. أو سيضربونك على رأسك بخطابك الليبراليّ بينما تبحث عن نظَّارتك. أعرف أنَّني أبالغ. سكت ك. ورفع يده بشكل لا إراديٍّ نحو رأسه، وكأنَّه يريد التأكُّد من أنَّ نظَّارته ما زالت في مكانها. لا يعرف ك. هذا الجانب من شخصيَّتي، لكنَّني راكمت المزيد من الصمت وشربت المزيد من الراكيا، فتابعتُ: ماذا تمنحك الدولة القوميَّة؟ تمنحك الأمان بأنَّك تعرف أصولك، وأنَّك تعيش بين آخرين مثلك يتحدَّثون اللغة نفسها، ويتذكَّرون الأشياء نفسها... من الحاكم

الأوَّل لبلغاريا الخان أسباروخ إلى طعم ذلك البسكويت المعروف باسم «الخريف الذهبيّ»، وفي الوقت نفسه يعانون من خرفٍ مشتركٍ مرتبط بأشياء أخرى. لا أتذكَّر مَنْ قال إنَّ الأمَّة مجموعةٌ من الناس الذين اتَّفقوا على أن يتذكَّروا وينسوا الأشياء نفسها معًا.

قالها إرنست رينان في القرن التاسع عشر، علَّقَ ك.، لقد ألقيتُ محاضراتٍ بصدد أعماله في الجامعة، أَلَمْ تتذكَّر؟

حسنًا، ولكن ماذا سيحدث الآن، حين تنقسم أوروبًا إلى أزمنةٍ مختلفة؟ مسألة القوميَّة هي مسألة الأرض، حيث تعتبر الأرض أمرًا مقدَّسًا. وماذا سيحدث لو سحبنا هذا البساط من تحت أقدام القوميِّين؟ فنبدل الأراضي المشتركة بزمنٍ مشترك؟

السؤال هو: هل في مقدورنا أن نلجأ إلى هذا الاختيار، هل نحن مستعدُّون له؟ تمتم ك. ثمَّ نظر إليَّ تلك النظرة الصارمة من فوق نظَّارته وسأل: بالمناسبة، ما رأيك في الاستفتاء؟

هبَّت الريح فتطايرت المناديل الورقيَّة. كانت الطاولة تعجُّ بأكواب وأطباق فارغة. فجأةً، من يدري لماذا، لكنَّني تذكَّرت ذلك المساء في أواخر الثمانينيَّات، أثناء الندوة على شاطئ البحر، وكأنَّها كانت في حياةٍ مختلفة (كان ك. أيضًا على تلك الطاولة)، والصحن الخزفيُّ الصغير الذي يطفو بأناقةٍ فوق رؤوسنا وفي وسطه الكريمة التي طلبها غاوسطين.

لا أعرف، أجبتُ، لم أعُد أعرف.

وأنا أيضًا لا أفهم شيئًا، قال ك.

لم أسمعه يقول هذه الكلمات أبدًا. وإذا كان الشخص الأكثر حسمًا يهزُّ رأسه متردِّدًا، فإنَّ الأمور ليست على ما يرام.

دَوَت طلقاتٌ في مكانٍ غير بعيد... ثمَّ انفجرت ألعابٌ ناريَّة بألوان بيضاء وخضراء وحمراء، وعلقت لِثوانٍ مثل زهرةٍ في السماء فوقنا.

يتدرَّبون من أجل المظاهرة، قال ك. فلنذهب من هنا.

إنَّه صديقي من الجامعة، الدكتور كافكا، والآن البروفيسور كافكا. أشعر بأنَّني أقرب إليه من أيِّ وقتٍ مضى، كما يشعر المرء بالقرب من شخصٍ وجد نفسه إلى جانبه أثناء كارثةٍ ما. تلمع النجوم فوقنا ببرودة فلسفة إيمانويل كانط، بينما تتدحرج «الضرورة الحتميَّة» في الشوارع. يستمرُّ العمَّال في الأسفل في إعادة بناء ضريح غيورغي ديميتروف ببعض الموادِّ الخفيفة، وبالتأكيد سينجزون العمل بحلول الصباح. (فلنتذكَّر، أنَّه في عام 1949، بنوه من أسمنتٍ حقيقيّ مضادٍّ للرصاص في ستَّة أيَّامٍ فقط. وفي عام 1999 استغرق تدميره سبعة أيَّام).

مررنا بجانب العمَّال، فلم يضبط ك. نفسه وصاح: يا شباب، رفات مَنْ ستضعون في الداخل؟

التفت بعض العمال، نظروا إلينا نظرةً سيِّئة، لكنَّهم لم يقولوا شيئًا. وما إن مضينا حتَّى سمعنا صوتًا وراءنا يقول: كن حذرًا حتَّى لا نضع رفاتك أنت.

-10-
المظاهرة

في صباح اليوم التالي، استيقظت مصابًا بصداع ويستن هيو أودن من 1 أيلول عام 1939. كان يوم الأحد، 1 أيَّار. وهو يومٌ مثاليّ، حيث تحتفل حركة «سوتسا» بعيد العمَّال العالميّ، أمَّا «الأبطال»، فيحتفلون بذكرى اندلاع انتفاضة نيسان (التي وقعت في 1 أيَّار وفقًا للتقويم الغريغوريّ). ومن المتوقَّع تنظيم مظاهرتيْهما قبل الاستفتاء بأسبوع.

قرَّرت أن أشارك في كلتيْهما... أن أعمل متخفِّيًا كمؤيِّدٍ ومشاركٍ كي أكتسب خبرةً حقيقيَّة، ويكون لديَّ ما أتحدَّث عنه إلى غاوسطين لاحقًا. لم أجد صعوبةً في الحصول على الأزياء الملائمة. فالزيُّ هو كلمة السرِّ أو جواز السفر أو بطاقة العضويَّة، إذ كانت الحركتان قد فتحتا أكشاكها الخاصَّة، التي تبيع فيها الأزياء بخصمٍ خاصّ. لقد أصبحت خياطة الزيِّ الرَّسميّ من أكثر الأعمال التجاريَّة ربحًا في البلاد.

كان الخيَّاطون يتمتَّعون دائمًا بامتيازاتٍ خاصَّة، وأتذكَّر أنَّه في فترة الاشتراكيَّة، عندما تقرَّر حظر ممارسة المهن الخاصَّة، كان في حَيِّنا عددٌ لا بأس به من ورشات الخياطة في الطابق الأرضيّ. وكانت أمَّهاتنا يأخذننا إلى هناك لخياطة بدلاتنا الجديدة. كان الخيَّاط (وهو دائمًا رجلٌ أصلع، لديْه شعرٌ خفيفٌ في مؤخَّرة العنق، له شوارب، ويرتدي نظَّارةً صغيرة، وأكمام العمل اللَّامعة على ذراعيْه، برجوازيٌّ حقيقيّ) يلفُّ جسمي بالقماش، ويضع عليه بعض العلامات بالطباشير هنا وهناك. ثمَّ، في زيارتنا الثانية أو الثالثة، كنت أرى كيف تأخذ قطعة القماش شكل السيقان والأكمام التي تتدلَّى من جسدي الهزيل مثبَّتةً بِدبابيس. كنت أخاف من تلك الدبابيس. يا بني، أنت مثل يسوع الصغير على الصليب، كان يضحك الخيَّاط وهو يتراجع خطوةً إلى الوراء مغمِّضًا عينيْه قليلًا... تعال الآن، قفْ، ما شاء اللَّـه، يا لك من أعزب أنيق!

وهكذا، كنَّا نكبر بين المسيحيَّة والعزوبيَّة، مرورًا من حينٍ لآخر بِـ«مصنع الصفعات». لكنَّ شكوكي في الخياطين، ببرجوازيَّتهم، وتقواهم ودبابيسهم، ما زالت قائمةً حتَّى يومنا هذا.

لقد حُدثتُ عن الموضوع مرَّةً أخرى، فَسامحوني، لكنَّ الماضي مليءٌ بأزِّقة، بغرفٍ في الطوابق الأرضيَّة، بتفصيل الأنماط وخياطتها، بممرَّات... وحواشٍ عن أشياء بدت لنا غير مهمَّة، ثمَّ نكتشف فجأةً أنَّ إوزَّة الماضي عشَّشت ووضعت بيضها في تلك الأشياء الهامشيَّة.

على أيِّ حال، وجدت كلتا البدلتيْن بسهولةٍ واشتريتهما بسعرٍ رخيص. ارتديت أوَّلًا الزيَّ الاشتراكيّ؛ لأنَّ مظاهرة حركة «سوتسا» ستبدأ قبل تجمُّع «الأبطال» بساعة. فالاشتراكيَّة كانت تشجِّع الأشخاص

الذين يصحون باكرًا. وليست صدفةً أنَّ كلَّ الثورات والانقلابات والاغتيالات كانت تحدث في الصباح الباكر، قبل طلوع الشمس. وهو الوقت الذي كنَّا نستيقظ فيه في الماضي، رغم أنَّنا لم نفعل ذلك من أجل الثورات، بل من أجل المدرسة؛ كنَّا نستمع، وما زال يغلبنا النوم، تلك الشارة المزعجة (بسبب الوقت المبكِّر) للبرنامج الإذاعيّ «بلغاريا شؤون ووثائق»، ثمَّ أغنية الأطفال المشهورة «تدقُّ الساعة في البيت، فاستيقظوا يا أولاد»... التي كانت آذاننا النائمة تسمعها متَّصلة الحروف «تَدُقُّالسَّا عَةُفيالْ بَيْت» لسنواتٍ متتالية.

وها أنا ذا في السابعة والنصف صباحًا عند نفق المشاة أمام مقرّ الحزب الاشتراكيّ السابق، حيث كان موعد التجمُّع. لقد ارتديت ربطة عنقٍ حمراء تصل إلى سرَّتي، عريضة في أسفلها، وأبدو مضحكًا في بدلتي الرماديَّة ذات الخطوط الباهتة والجيوب المنسدلة. فوق كلّ ذلك، فإنَّني حصلت كمكافأةٍ مجَّانيَّة على منديلٍ رجاليّ من القماش بحوافّ زرقاء ومشطٍ صغير لوضعه في الجيب الداخليّ للسترة. إذن، يجب الاعتراف بأنَّهم فكَّروا في كلّ شيءٍ حتَّى أدقّ التفاصيل. فقلت في نفسي: إذا فاز هؤلاء، فسنضطرُّ إلى إعادة إنتاج المناديل والأمشاط الصغيرة... وكذلك خردوات تلك الحقبة كلِّها. أقول خردوات، وأتذكَّر أنَّني لم أستعمل هذه الكلمة منذ زمن، لعلَّ اللغة تعود إلينا بعودة الأشياء.

وها أنا مستعدٌّ للانضمام إلى مظاهرة الاشتراكيّين مرتديًا حذاء لامعًا، وجوارب لونها أخضر غامق، لعلَّها مأخوذةٌ من مستودعٍ عسكريّ. أحضرت أيضًا، تحسُّبًا لذلك، قبَّعتي من موديل كان واسع الانتشار زمن الاشتراكيَّة.

على الرَّغم من الساعة المبكِّرة، فإنَّ الساحة قد بدأت تمتلئ بمناصري حركة «سوتسا»، ويُسمع في كلِّ مكانٍ ذلك النداء «أيُّها الرفيق، أيَّتها الرفيقة»... الذي نسيته أذناي منذ زمن. في البداية ظَنَنْتُهُ نوعًا من المزاح، لكنَّني كنت مخطئًا. تذكَّرت كيف في أيَّام الاشتراكيَّة كانت كلمة «السيِّد» تُعَدُّ كلمةً برجوازيَّة. لكن أبي يُدعى «غوسبودين»، وهو اسمٌ يعني بالبلغاريَّة «سيِّد»، ناهيك عن أنَّ لقبه «غوسبودينوف»، وما إن ناداه أحد معارفه في الشارع «أيُّها السيِّد، أيُّها السيِّد»، حتَّى يتجمَّد الجميع في أماكنهم، إلى أن يتدخَّل في الحال مواطنٌ من المواطنين اليقظين صارخًا «لماذا تنده عليه بسيِّدك، يا رفيق!» ومع ذلك، فإنَّ «الرفيق سيِّد» كان مضحكًا بالقدر نفسه.

كان رجلٌ عجوز أبيض اللحية جالسًا على الأحجار أمام المتحف الأثريِّ كي يستريح، وعبثًا يحاول أن ينهض. كان يمسك عَلَمَه الصغير بيده، وعصاه باليد الأخرى، ولم يخطر بباله أن يترك العلم كي يَتَّكِئ بيده على الأرض. ذهبت لمساعدته.

يا جدِّي، هل أنت هنا من أجل المظاهرة؟

من أجلها، يا بنيّ، أنا من جبهة الوطن، وعضوٌ فيها طوال حياتي. لقد ضربوني مرَّاتٍ كثيرةً في ذلك الوقت؛ لأنَّني لم أستطع مسك لساني، لكنَّني ما زلت أرغب في العودة إلى تلك السنين إذا كان الأمر يقتضي ذلك. ربَّما كانت الاشتراكيَّة مليئةً بالهراء، لكنَّني أعرف مناوراتها، وإذا كذبت عليَّ مرَّة، فسأكذب عليها مرَّتيْن، ويمكنني دائمًا أن أتفاهم معها. أمَّا الزمن الجديد هذا، فما إن يلمحك حتَّى يسرقك، ويدهسك مثل قطارٍ سريع، فيووووو... والسلام... فتصبح على الحديدة... لا تساوي قشرة بصلة.

نفض الغبار عن سرواله، ونظر إليَّ مغمضًا عينيْه، ثمَّ سأل: إذا عدنا بالزمن إلى الوراء، فهل سيعود شبابنا أيضًا؟ فلا مانع لديَّ أن يضربوني كما يحلو لهم، طالما أكون في العشرين من عمري مرَّةً أخرى.

ضحكت، وربَّتُّ على كتفه. أمَّا الجدُّ ماتيكو (هكذا أسميتُه) فشكرني على المساعدة واتَّجه نحو منطقته.

يا رفيق... اقتربت منِّي امرأةٌ مسنَّةٌ تحمل ربطة ذراعٍ كُتِب عليها «الطليعة الحزبيَّة» ودفترًا أحمرَ من إصدارات دار النشر الحزبيَّة. أنت من أيِّ منظَّمةٍ حزبيَّة؟

تجمَّدت في مكاني... أيمكن أن أفشل منذ البداية من دون أن أؤدِّي مهمَّتي.

يا رفيق، سألتك من أيِّ منطقةٍ أنت.

من منطقة «لينين»، أجبت تلقائيًا، متوقِّعًا أن تطلب من شرطيِّ الميليشيا (نعم، لقد وزَّعوا الأزياء القديمة لِـ«الميليشيا الشعبيَّة» على حرس الأمن) بإخراجي من الساحة.

وعلى عكس توقُّعاتي، أشرق وجهها، وهزَّت رأسها بتفهُّم.

لقد نَسِي الناس الأسماء الحقيقيَّة للمناطق كما كانت في الماضي. أنا من حيّ «كيركوفسكي». ما اسمك؟ يجب أن أسجِّلك في الدفتر.

تمتمتُ: «غاوسطينوف»، فكتبته المرأة في الدفتر بعناية.

يمكنك أن تأخذ عَلَمًا أحمر وأزهار قرنفل مجَّانًا من تلك الطاولات هناك، قالت قبل أن تمضي.

لقد رأيت هذا المشهد مئات المرّات، كنت قد حبسته في قبو ذاكرتي، وها هو الآن يقفز أمامي كَشبحٍ من تلك الأشباح التي تدرك أنّها من لحمٍ ودم، وأنّها لن تتلاشى عندما تلمسها. وإذا كانت حقيقيّة، فيعني أنَّ الشَّبح هو أنت بذاتك.

رجال، نساء، جمهور، حشود... رجالٌ في أزياء متطابقةٍ تشبه زيّي الرماديّ، ويمكن هنا وهناك رؤية ستراتٍ كحليّةٍ أو سوداء. بحرٌ من معاطف الترنش النسائيّة ذات اللّون البيج من موديلات أواخر السبعينيّات، إن لم أكن مخطئًا. كما لو أنَّ دار أزياء «فالنتينا» أو شركة «يانيتسا» للمنتوجات والأزياء الحديثة قد بدأت خطوط إنتاجها مرّةً أخرى. في الواقع، لن أتفاجأ لو فعلوا ذلك. ألاحظ أيضًا بعض النساء في أزياء أكثر تميّزًا ذات أنماطٍ مختلفة، ومن الواضح أنّهنَّ رفيقات كبار المسؤولين في الحزب، حيث يُرى في خطِّ هذه الأزياء أسلوب حفيدة الأمين العامّ للحزب التي كانت مصمّمةً و«ديكتاتور أزياء حقيقيّة»، كما كتبت الصحف اليساريّة مرارًا وتكرارًا. كانت النساء بتسريحات شعرٍ منفوشةٍ جرى تصفيفها في الصباح المبكّر مع الكثير من مثبّتات الشعر، وهي شبيهةٌ تمامًا بتسريحة فالينتينا تيريشكوفا، أوّل امرأةٍ تصعد إلى الفضاء. بالمناسبة، كانت خُوذ تجفيف الشعر في الصالونات تشبه شبهًا مذهلًا خوذ روّاد الفضاء السوفيّيت الأوائل. فلن أتفاجأ إذا طارت النساء بتلك الخوذ إلى الخارج، في حالة حدوث إنذار. كان الحشد يتحرّك، وتتبادل النساء القبلات، ثمّ يقضين وقتًا طويلاً في مسح أحمر الشفاه عن وجوه بعضهنَّ البعض. كان الرجال يدخّنون، حليقي الذقن، تفوح منهم رائحة الكولونيا الحادّة، ويسترقون النظر إلى زميلاتهم.

يجب أن أعترف بأنَّ الجوَّ كانت تسوده روح البهجة والنشاط.

كنت أقف حائرًا ووحيدًا، لا علم أو أزهار قرنفل في يدي، فاتَّجهت إلى الكشك لشرائها. انتهت، أيُّها الرفيق، هزَّت البائعة كتفيْها لا مبالية، لكن ننتظر توفيرها قريبًا... يا إلهي، كم كان ما سمعته مألوفًا وعزيزًا. لعلَّني كنت أبدو يائسًا جدًّا؛ لأنَّ رجلًا من الطابور قدَّم إليَّ علبة سجائر: تفضَّل، هل تريد سيجارة؟

«ستيوارديسا!!»، صرخت بإخلاص.

إنَّها ذكرى أوَّل سيجارةٍ أشعلتها في التاسعة من عمري، وبالتالي فهي ذكرى أوَّل سرقة (من سجائر والدي)، أوَّل كذبة، أوَّل شعورٍ بأنَّني رجل، وأوَّل ثورة... كم من الذكريات ترقد في رائحة السيجارة.

لكن بدا أنَّ الرجل أخطأ في تفسير ردِّ فعلي، فأخرج من جيبه الداخليِّ علبةً أخرى: لديَّ أيضًا سجائر HB، اشتريتها من متجر السوق الحرَّة.

ضحكت، لكنَّني الآن فقط بدأت أتأمَّله... كان يرتدي ربطة عنقٍ صفراء فاقعة، وبدلته أيضًا غريبةٌ بعض الشيء، وتختلف عن بدلات الآخرين من حولنا. فجأةً بدا وجهه مألوفًا، فتذكَّرته وتذكَّرني. كلُّ ذلك تلاه المشهد المألوف عند لقاء معارف لم يروا بعضهم البعض وقتًا طويلًا، وما يرافقه من حوارٍ عفا عليه الزمن من أيَّام أوديسيوس: هل هذا أنت... لكنَّك... كنت أظنُّ أنَّك في الخارج. هاه، الخارج ليس العالم السفليّ، الناس يعودون منه.

إنَّه ديمبي، زميلي من المدرسة، وأصبح لاحقًا زميلًا في الجامعة لفترةٍ قصيرة، فأدرك في حينه أنَّ الأدب لا مستقبل له، واختفى في عالم التسعينيَّات الموازي.

لم نكن نرى بعضنا البعض منذ ثلاثين عامًا. آخر ما سمعته أنَّه كان يبيع العقارات وقطع غيار الطائرات، ثمَّ افتتح سلسلة محلَّاتٍ للحلويَّات باسم «Rosa Bella». لقد مارس كلَّ هذه الأعمال بالترتيب المذكور سابقًا.

أتذكَّر، أنَّه قبل سنواتٍ اتَّصل بي، وطلب منِّي أن أكتب شعارًا إعلانيًا لمحلَّات الحلويَّات. قال: هيًا، ألست شاعرًا؟ لم أكن شاعرًا البتَّة، كنتُ مجرَّد طالبٍ في السنة الثانية بكلِّيَّة اللغات والآداب، فقيرٍ مثل كلِّ الطلَّاب في هذا التخصُّص، لذلك قبلت عرضه فورًا وكتبت شيئًا من هذا القبيل: «منَّا الحلوى ومنكم الجوى»، فأعجبه كثيرًا، وتلقيت أتعابي الأولى بقيمة 60 ليفا بلغاريَّة، أي ثلاثون ورقةً نقديَّةً من فئة 2 ليفا. بدا لي أنَّها مأخوذةٌ للتوِّ من صندوق متجر الحلويَّات، وما زالت لَزجةً من كريمة الزبدة.

كان ديمبي الذي عشت معه كلَّ حماقات المراهقة، أكبر مخادعٍ في مدرستنا، وأحد أكثر المحتالين المحبوبين الذين قابلتهم في حياتي. لقد تفاجأنا ببعضنا البعض هنا. بدأت الأبواق من حولنا تعزف، وأخذ الناس يصطفُّون. تذكَّر ديمبي فجأةً أنَّه كان في عجلةٍ من أمره، ودسَّ بطاقة عمله في يدي: آسف، لكنَّني هنا من أجل العمل، دعنا نلتق في هدوءٍ مرَّةً أخرى، ثمَّ اختفى وسط الحشد. ألقيت نظرةً سريعة على البطاقة قبل أن أضعها في جيبي. لم يكن عليها سوى اسمٍ ورقم هاتف: ديان ديمبيلييف، هاتف... لا يمكن أن يمتلك مثل هذه البطاقة إلَّا الأشخاص الأكثر شهرةً أو الأكثر تواضعًا. ولم يكن ديمبي من المتواضعين.

وإذ بها تغيَّرت الساحة وبدأ الحشد الصاخب يصطفُّ ويتشكَّل، كما لو أعطى أحدٌ إشارة. ثمَّ اتَّضح أنَّ هناك مشكلةً بمكبِّر الصوت، فقد تناهت إلى مسمعي كلمة «تبًّا»، حيث كان أحد العمَّال يشتم غاضبًا، وتردَّد صدى صوته في كلِّ أرجاء الساحة. بعدها، وكي يغطُّوا على الفضيحة، دوى الميدان بنشيد الأمميَّة «هبُّوا يا ضحايا الاضطهاد، يا ضحايا جوع القهر»...

في المقدِّمة، على منصَّةٍ تحملها سيَّاراتٌ كهربائيَّة، كان يقف لاعبو جمباز يرتدون سراويل قصيرةً ويستعدُّون لتشكيل هرمٍ بعد إعطاء الإشارة. كانت الفتيات بجانبي يلوِّحن بمناديل شفَّافةٍ وأعلام، ويتدرَّبن على سيناريو ما، فيجلسن القرفصاء عند إشارةٍ معيَّنة ويشكِّلن بأجسادهنَّ وأعلامهنَّ وجهًا غامضًا تمامًا، ليشبه غيورغي ديميتروف ولينين في آنٍ واحد. تذكَّرت أنَّ إحدى عماتي كانت تروي دائمًا بفخرٍ ونحن نجلس حول المائدة كيف كانت في أيَّام الجامعة عام 1968 جزءًا من شارب الرفيق لينين في الملعب الوطنيِّ بمناسبة افتتاح مهرجان الشباب، «أمام 40 ألف متفرِّج... لا يمكنكم أن تتصوَّروا كم كان هذا الأمر مثيرًا. وكلَّما سمعت تلك القصَّة، كنت أهمُّ بالضحك فأهرول إلى غرفتي كيلا تصفعني والدتي. كانت عمَّتي المسكينة تحلم طوال حياتها أن تصبح ممثِّلة، في حين أنَّ الدور الأهمَّ في حياتها كان بمثابة شعرةٍ من شارب لينين.

إنَّ الفكرة بشأن إجراء التجمُّع على شكل مظاهرةٍ من عهد الاشتراكيَّة لم تكن سيِّئة، لكن كان لها بعض العيوب، بسبب المساحة المحدودة، حيث لن يستغرق السير سوى 200 أو 250 مترًا حتَّى يقف الجميع بين الضريح ومبنى المتحف الوطنيِّ للفنون الذي كان من قبل

قصر المَلِك البلغاريّ، وقبله قصر الحاكم العثمانيّ. كان صوت المذيع الذي يُسمع من المكبّرات ترافقه ضجَّةٌ وخشخشة. تُرى، هل بذلوا جهودًا في العثور على مكبّراتٍ قديمةٍ حتَّى نسمع تلك الخشخشة كما حدثت في الماضي؟ إذا كان الأمر كذلك، فيعني أنَّ وراء الحركة من أجل الاشتراكيَّة يقف صاحب عقلٍ تجاريّ. لم يكن سرًّا أنَّ الأموال تأتي من روسيا التي كانت تتحوَّل تدريجيًّا وصراحةً إلى الاتِّحاد السوفييتيّ السابق، وتعيد عن طريق الاستفتاءات (إذا كان ممكنًا أن نستخدم هذه الكلمة)، أراضيها المفقودة في الماضي.

انبعث صوت المذيع فوق الساحة عميقًا ومثيرًا. لقد وجدوا ممثِّلًا قديمًا يتكلَّم بحماسةِ عصر الاشتراكيَّة، يجعلك تشعر بالقشعريرة بينما تسمعه. إنَّها الكلمات نفسها عن دماء الآلاف من الأبطال... عن الطريق المزروع بالأشواك... الطريق الوحيد والرشيد إلى المستقبل المشرق، والبهجة والجرأة... الجرأة والبهجة...

أشكُّ في أنَّ الناس من حولي يفهمون كلام المذيع، تمامًا كما كان في الماضي، ولم يكن ذلك ممكنًا، لكن سحر المفردات، والنبرة والحماسة كانت كافيةً لإفراز العصارة المعديَّة للماضي. كنت أقف في الصفِّ الأخير من كتلة جبهة الوطن، حين رأيت الجدَّ ماتيكو فأومأنا لبعضنا البعض.

لقد انطلقت الحشود. كانت تسير في المقدِّمة فرقةٌ نحاسيَّة، يتبعها فريقٌ صغيرٌ من المشجِّعات. لم أعرف أبدًا متى سمحت الاشتراكيَّة بمثل هذه الإيروسيَّة. يبدو أنَّ أعضاء المكتب السياسيّ، هؤلاء العجائز المصابون بالخرف، قد وافقوا على ذلك في وقتٍ ما من الثمانينيَّات. هم

الذين كانوا يأمرون الشرطة بختم أفخاذ الفتيات المرتديات تنانير قصيرةً بوشمٍ دائم، ويرسلونهنَّ إلى شارع «موسكو 5»، لكنَّهم فجأةً وافقوا على أن تلبس الفتيات في عمر لوليتا هذه الأزياء المثيرة.

كانت خلف فريق المشجّعات تسير منصَّةٌ متحرِّكة، وقد شكَّل عليها لاعبو الجمباز نجمةً خماسيَّة حيَّة بأجسادهم، ووراءهم تمشي تلك الفتيات اللواتي سيشكِّلن بالأعلام وجه لينين/ ديميتروف. كلُّ ذلك كان يتبعه العديد من السيَّارات الكهربائيَّة التي تسحب عوَّاماتٍ ضخمةً مع لوحات الستايروفوم وصور. أمَّا الصفُّ الأخير، فنمشي فيه نحن، العمَّال العاديُّون، حاملين أزهار قرنفل وأعلامًا صغيرةً حمراء (لم أتمكَّن من تزويد نفسي بعلمٍ ولا بقرنفل). كانت كتلة العمَّال تحتلُّ المكان الموجود في الجزء الخلفيِّ من الساحة بجوار المتحف الوطنيِّ للفنون، أي قصر الملك البلغاريّ، أي قصر الحاكم العثمانيّ. لكنَّه مكانٌ يمكننا رؤية كلِّ شيءٍ منه، لا سيَّما الضريح، نعم، الضريح بكلِّ جلاله. لقد أنجزوا إعادة بنائه، وكانت تلك ذروة الحدث. كان يمكن للمرء أن يشعر بتلك الإثارة التي عبرت صفوفنا عندما وقفنا مقابل مبنى الضريح. يبدو أنَّ هؤلاء العمَّال في ليلة الأمس أدُّوا مهمَّتهم جيِّدًا. كان الضريح يتألَّق وكأنَّه حقيقيّ... أكثر بياضًا من أيِّ وقتٍ مضى. لقد أدَّى حرس الشرف أمامه طقوس تغيير الحرس. وعند الإشارة بدأ المتظاهرون يهتفون: «المجد، المجد، المجد»... تُرى، متى تدرَّبوا؛ لأنَّ الهُتاف المتزامن كهذا لا يحدث صدفة. من الواضح أنَّ التدريب فاتني، فانضممت إلى الهتاف متأخِّرًا قليلًا. لكن لا يهمّ، فنحن من جبهة الوطن، ولا يعبِّرنا أحد. لحظتها بدأ أعضاء المكتب السياسيّ بالصعود إلى المنصَّة ملوِّحين بأيديهم للتَّرحيب، كما فعلوا في الماضي. فقلت في نفسي:

أكيدٌ أنَّ هناك تصميمًا للرقصات، وقد تدرَّبوا عليها، وأنَّ كلَّ ذلك أُعِدَّ مسبقًا. أودُّ أن أعرف من هو كاتب السيناريو.

فجأةً، كما لو كان هناك مَنْ أعطى إشارة، تلاشت الهتافات وسمعنا صوت المذيع فوق الساحة: لنرحِّب بقائدنا ومعلِّمنا، الرفيق غيورغي ديميتروف...

ظننت أنَّه لا بدَّ من وجود خطأٍ في السيناريو. ربَّما كان يقصد تكريم ذكراه لا استقباله بالتَّرحيب... عندها، توغَّل في الصمت المطبق صوت الأبواق، وانفتح سطح المبنى، وانزلقت لوحتان مسطَّحتان جانبيًّا، ومن الداخل بدأ يرتفع ببطءٍ نعش الرفيق ديميتروف وهو يبدو تمامًا كما رأيته في طفولتي مع كفنٍ مخمليٍّ أحمر، والأزهار حول الجسم الشمعيّ و... الجسم الشمعيّ نفسه. كان التابوت قد عُلِّق فوق المنصَّة، فسارعت امرأةٌ إلى رسم إشارة الصليب على صدرها من هول الحدث، وتجمَّد الميدان. انتابني الخوف من أنَّ المومياء ستتدحرج عن قاعدتها وستسقط على رؤوس المسؤولين. أظنُّ أنَّهم خافوا أيضًا من الأمر نفسه. ثمَّ انغلقت اللَّوحتان بلا صوت. عندها تسرَّبت رعشة رعبٍ خفيفةٌ عبر صفوف الناس الجالسين القرفصاء؛ لأنَّ...، يا للهول! رفعت المومياءُ كفَّ يدها... كفَّ اليد فقط، ولوَّحت تلويحًا لطيفًا بالكاد يمكن ملاحظته. رأيت بعض المسنَّات يمسكن صدورهنَّ من الألم وتمَّ إخراجهنَّ بسرعة. دوى الميدان على الفور بصوت القائد ديميتروف، الآتي من التسجيلات القديمة، وهو يقول إنَّ الطريق الذي نسير عليه، ليس سلسًا ومستويًا كحجر الرصيف أمام بناية البرلمان، بل هو طريقٌ مزروع بـِ«الأوشاك»... كان يقصد «الأشواك»، يا إلهي، هؤلاء لم يتعلَّموا أن يتكلَّموا بشكلٍ صحيح.

كان المشهد مرعبًا، وعليَّ الاعتراف بأنَّ قلبي أيضًا انقبض ألمًا.
عندما انتهى التسجيل، تقدَّمت زعيمة الحركة إلى الأمام... شعرها أحمر، في الخمسين من عمرها، مرتديةً بدلةً من موديل شائع، ضيِّقةً قليلًا ومشدودةً عند الخصر، ومنديل رقبةٍ أحمر اللون، وزهرة قرنفل حمراء في جيب سترتها. أعطت إشارةً للحشد، فساد الصمت، ثمَّ بدأت كلمتها بالعبارة المفتاحيَّة «أيُّها الرِّفاق والرَّفيقات المحترمون...» حيث كان حرف «الراء» يتكرَّر ثلاث مرَّاتٍ في ثلاث كلمات. يبدو أنَّها الشيفرة السرِّيَّة للاشتراكيَّة. كلَّما يتكرَّر حرف «الراء» في العبارات، يكون ذلك أفضل. لذا ليس صدفةً أن يُنصح بتضمين أسماء الكلاب حرف «ر»، وذلك لكي تحترمك عندما تُعطيها الأوامر.

- 11 -

فقدان الذاكرة الجماعيّ
وفائق إنتاج الذاكرة

كلّما ازداد النسيان في المجتمع، ازداد إنتاج بضائع الذاكرة البديلة، وبيعها، وملء المنافذ الفارغة بها. إنَّها صناعة الذاكرة الخفيفة. ماضٍ مصنوعٌ من موادّ خفيفة... ذاكرةٌ بلاستيكيَّة كأنَّها خرجت من طابعةٍ ثلاثيَّة الأبعاد... ذاكرةٌ حسب الاحتياجات والطلب... لعبة ليغو جديدةٌ تتكوَّن من وحداتٍ مختلفة من الماضي تلائم تمامًا المساحة الفارغة.

مكتبة سُر مَن قرأ

ولا نعرف حتَّى الآن إذا كان ما وصفناه يمثِّل تشخيصًا طبّيًا أو آليَّةً اقتصاديَّة.

(غاوسطين، «التشخيصات الجديدة واللّاحقة»)

- 12 -
الانتفاضة

لم أنتظر نهاية الخطاب أمام الضريح. كان الوقت يجري، وكان عليَّ أن أنضمَّ إلى مظاهرة «الأبطال» التي تبدأ الآن على بعد 500 مترٍ من الشارع في حديقة «بوريسوفا غرادينا». غادرت الساحة متسلِّلًا من الحديقة وراء المتحف الوطنيِّ للفنون. كنتُ قد استأجرت شقَّةً بالقربِ من المنطقة، حيث غيَّرت بدلتي بزيٍّ وطنيٍّ بلغاريّ، فلبست سترةً مطرَّزةً بزخارف شعبيَّة، وسروالًا فضفاضًا مطرَّزًا. لم أخلع القميص الأبيض، فالقمصان البيضاء تنسجم مع كلِّ أنواع الأزياء، ووضعت على خصري حزامًا عريضًا أحمر، واستبدلت قبَّعتي الاشتراكيَّة بقبَّعة «قلباق» التقليديَّة. وهكذا تقمَّصت دور بطلٍ من «الأبطال». نعم، واجهتُ صعوبةً عند لبس الحذاء التقليديِّ ولفِّ قطع تدفئة الساقيْن، لكنَّني شعرت بالراحة بعد خلع الحذاء الرَّسميِّ الصَّلب. مررتُ بالقرب من جامعة صوفيا، واتَّجهت نحو حديقة «كنياجيفسكا غرادينا» التي ينتصب

فيها تمثال الجيش السوفييتيّ، فوجدته محاطًا بطوْقٍ من المتطوّعين اليساريِّين. كانوا يحرسونه ليل نهار بسبب الاعتداءات المتكرِّرة في الأيَّام الأخيرة، وهناك لا يحتاج المعتدون لأكثر من نصف ساعةٍ في جوف اللَّيل يستخدمون خلالها رذاذ الطلاء، ليستيقظ الجنود الروس من التمثال في صباح اليوم التالي بملابس «باتمان» و«سوبرمان». وهو أمرٌ أظنُّه أفضل شيءٍ يمكن أن يحدث مع هذا النصب التذكاريّ. مررت بجانب الملعب ودخلت حديقة «بوريسوفا غرادينا» التي كانت تسمَّى سابقًا «حديقة الحرِّيَّة»، وقبلها «حديقة الملك بوريس»، وقبل ذلك «بيبينييرا» أو «مشتل النبات».

هنا كلُّ مكانٍ يمثِّل مكانًا سابقًا.

كنت أسير في ممرَّات الحديقة. لو قرأ أحد «الوطنيِّين» المجتمعين هنا أنَّها كانت قبل تحرير البلاد موقع الحامية العسكريَّة التركيَّة، ثمَّ أصبحت مقبرةً تركيَّة، لَحدَّد مكانًا مختلفًا للتجمُّع. لكنَّ الطبيعة لا ذاكرة لها، والناس كذلك، بحيث كانت الحديقة تدوي بالأغاني البطوليَّة، وكان الوقت ظهرًا تقريبًا، أو كما قالوا في الماضي «الساعة الثانية عشرة بالتوقيت الرَّسميِّ العثمانيّ». وبينما كنتُ أسير بجانب بحيرة «أريانا»، انفكَّ رباط حذائي، فتعثَّرت فيه وسقطت على الأرض.

باتشو... هل أنت بخير، هل تحتاج إلى المساعدة؟ سألني شابٌّ وهو ينحني فوقي.

أحمد اللَّه، بخير باتشو، أجبت، محاولًا أن «أستدمج» لغته.

فأنا أجد استخدام الكلمات البلغاريَّة القديمة تمرينًا لغويًّا جميلًا، وأستمتع بمثل هذه الأشياء. في النهاية، كلُّ الدروب تقودنا إلى اللغة.

هناك يلقّبونك بـ «رفيق»، هنا يخاطبونك بـ «باتشو»، واللغة لا تتمرَّد، بل تتحمَّل كلَّ شيءٍ صابرةً صبر الجمال؛ لأنَّ لديْها ذاكرةً تسبق وجودنا، أو لأنَّ اللغة بلا ذاكرة.

تسير بجانبي وتضحك جميلاتٌ مرتديات ملابس تقليديَّةً رائعة مع زهورٍ خلف آذانهنّ. تلمع القطع المعدنيَّة المذهَّبة التي تزيّن أزيائهنَّ في الشمس، وتتألَّق أبازيم أحزمتهنَّ الفضّيَّة المزخرفة. تختلف أزياؤهنَّ عن بعضها البعض حسب المنطقة الفلكلوريَّة التي أتين منها. فالفتيات من منطقة تراقيا، مثلًا، يرتدين ستراتٍ حمراء ومآزر مطرَّزةً سوداء، والفتيات من منطقة «شوبسكا» الفلكلوريَّة بالقرب من صوفيا يلبسن فساتين سوداء، أمَّا الصدريَّات الجميلة المصنوعة من الأطلس فتحملها الفتيات من منطقة جبال رودوبي... إنَّ الكثير من شركات الملابس الرجاليَّة والنسائيَّة التي غيَّرت أسماءها الحديثة، وأطلقت على نفسها اسم «دكَّان الخياطة»، كما كان في عصر النهضة البلغاريَّة، بدأت في الآونة الأخيرة بخياطة أزياء فلكلوريَّة منها سراويل عريضة، وسترات، وفساتين، وأزياء رسميَّة للمتمرّدين من موديلات الملابس التي كانت منتشرةً في عهد العثمانيّين، بما في ذلك ملابس للأطفال. وكان عمل هذه «الدكاكين» يجري على قدمٍ وساق، كما لو كنَّا نستعدُّ لانتفاضة نيسان جديدة.

كان اليوم جميلًا، تشرق فيه شمس أيَّار بهدوء، وتبدو الأشجار مكسوَّةً أيضًا بأزيائها الوطنيَّة كيلا تتخلف عن ركب الحدث. كان الناس جالسين في مجموعاتٍ صغيرة على عشب المروج الأخضر في حديقة «بوريسوفا غرادينا». وبدأ بعضهم يفرشون أغطية الطاولة على الأرض، ويضعون عليها لحم الدجاج، والبيض المسلوق، والليوتينيتسا، وكلَّ ما جلبوه معهم.

كان هناك رجالٌ من جميع الأعمار... كبارٌ وصغار، صبيان، أعمام في منتصف العمر غير واضح المعالم (ذوو كروشٍ بارزة المعالم)، وشيوخٌ بلِحىً بيضاء، وهم الأكثر تعاطفًا، فكان بعضهم طاعنًا في السنّ، وكأنَّه لم يبرح القرن الماضي، ولم يرتدِ في حياته ملابس أوروبيَّة. كان كلُّ رجلٍ يحمل سيفًا أو خنجرًا قديمًا أو سكِّين جيب.

لقد ارتدى معظمهم سراويل تقليديَّةً فضفاضةً مزيَّنة بضفائر سوداء، وكان يطلُّ من الأحزمة مسدَّسٌ قديم وخنجرٌ بمقبضٍ عظميّ. كلُّ شخصٍ تقريبًا كان يمسك ببندقيَّةٍ قديمة، بحيث يمكن رؤية بنادق «بيردان»، و«الطبنجة»، و«كرنكا» من الحرب الروسيَّة التركيَّة، وبعض البنادق من طراز «الشَّسْبُوّة» من العهد نفسه. أمَّا الأقلُّ خبرةً بينهم الذين لا يمتلكون أسلحةً قديمة، فقد جاؤوا ببنادق «فلوبيرت» الهوائيَّة ذات الأعقاب المطليَّة بألوان راية المتمرِّدين البلغار. (انظر كيف تجعلك اللغة تنزلق، ومن كلمةٍ إلى أخرى، تلبس اللغة سروالها التقليديَّ بسرعة).

إلى الجانب الأيمن من الملعب، كانت تقف فرقةٌ صغيرة من سلاح الفرسان، تبدو كما لو خرجت مباشرةً من كتاب زاكاري ستويانوف «ملاحظات عن الانتفاضات البلغاريَّة 1870 ـ 1876. رواية شاهد عيان» أو بكلامٍ أدقّ، من النسخة السينمائيَّة لذلك الكتاب. كانت الفرقة مكوَّنةً من ثلاثين فارسًا تقريبًا، ارتدى كلُّ واحدٍ منهم قبَّعة «قلباق» عليها شارة أسدٍ وريش ديكٍ روميّ. كان أحدهم، وهو متقمِّص دور البطل البلغاريِّ غيورغي بنكوفسكي، قد قيَّد حصانه وبدأ يغازل بشكلٍ صريحٍ فتاةً تحمل راية المتمرِّدين الخضراء.

كنت أريد أن أتوغَّل بمجموعةٍ ما، وأن أسمع عمَّ يتكلَّم الناس، فكنتُ أشعر بفضولٍ وبدأت سخريَّتي تتبخَّر شيئًا فشيئًا. إنَّه وطني «الذي

سرقته القوميَّة منَّا»، كما قال «ك. ». تذكَّرت أيَّام الابتدائيَّة وكيف كنتُ أتصبَّب عرقًا من تحت قبَّعة قلباق الأستراخانيَّة، وهي تسحقُ أذنيّ، وسترة الصوف تخدش رقبتي إلى درجة أنَّ والديَّ كانا يدهنانها بشحمٍ حيوانيّ لمدَّة أسبوع. وفي كلِّ صباح، بدلًا من ممارسة التمارين الرياضيَّة العاديَّة، كان علينا أن نرقص رقصاتٍ فلكلوريَّة في ساحة المدرسة. كان المعلِّمون يضعونني دائمًا في آخر الصفّ، ومع ذلك، فقد كنتُ أتمكَّن من إرباك خطوات من يرقص بجانبي وهو يُمسك بيدي في الدبكة.

هكذا كان، لكنَّني الآن... يا تُرى، ألا أريد في سرِّي أن أكون واحدًا من هؤلاء الناس لمدَّة ساعةٍ على الأقلّ... أن أضحك بصوتٍ عالٍ على النكات... أن أشعر بحضور أجسادٍ أخرى، حيث يُفترض أنَّنا نمتلك ذاكرةً وحكاياتٍ مشتركة... تُرى، ألم يأتِ هؤلاء للسَّبب نفسه كي يكونوا مع شخصٍ مثلهم، حائرًا لكنَّه فخور، ويكره الأتراك والغجر بالشغف نفسه الذي يحب به işkembe çorbası, İmambayıldı، وجلال خانات بلغاريا، والقهوة التركيَّة، والأغنية الوطنيَّة «انهض، انهض أيُّها البطل البلقانيّ»، وكذلك أغنية البوب الشعبيَّة «وردة بيضاء»، كما يحبُّ أن يغفو في قيلولته، أن يجلس عصرًا على مائدةٍ يزيِّنها كأس الراكيا، وأن يشاهد التلفاز، وأن يشتم، وأن يصيح لزوجته وهي في المطبخ: «يا امرأة، أين حشرت المملحة؟»، إنَّه يحبُّ أن يكون كلُّ شيءٍ في منزله مرتَّبًا ونظيفًا، لذلك يرمي رماد المنفضة في كيسٍ بلاستيكيّ، ثمَّ يرمي الكيس في الخارج، من فوق الشرفة، كي يمكنه غدًا عندما يسير في الشارع وترفع الريح الكيس وتلصقه على جبينه، أو عندما يخطو فوق فضلات الكلاب، أن يصرخ: «تبًا، يا له من بلد، وكأنَّنا نعيش في حظيرة خنازير»، ثمَّ يكرِّر شتمه مرَّةً أخرى. لا أتذكَّر الآن مَنْ قال إنَّ الشتم

حالة satori البلغاريَّة... حالة zen البلغاريَّة... حالة التجلِّي المفاجئ، و shortcut نحو ما هو سامٍ...

أحمد اللّـه، أنَّ مزامير القربة بدأت تعزف وأخرجتني من الأفكار المُظلمة... قفز الناس كي ينضمُّوا إلى رقصة الهورو الفلكلوريَّة. ابتعدتُ ولاحظتُ تحت شجرةٍ رجلًا عجوزًا يشبه الجدَّ ماتيكو الذي التقيته صباحًا في مظاهرة الاشتراكيِّين، فاتَّجهت إليه. كان يشبهه تمامًا، وتساءلت عمَّا إذا لم يكن الجدَّ نفسه. كان يحاول إشعال غليونه الصغير بالقدَّاحة، فيضربها بالصُّوانة ليقتدح الشرارة. وكانت حركته تلك تحمل شيئًا من الأدب البلغاريِّ والحكايات الفلكلوريَّة.

كيف حالك، يا جدِّي، هل يمكنني الجلوس قليلًا معك في الفيء؟

جزاك اللّـه خيرًا، يا بني، اجلسْ، اجلسْ، فالظلُّ لنا جميعًا، أجابني من دون أن يرفع عينيْه.

هل يرقص قلبك حين تسمع صوت مزمار القربة؟ سألته مازحًا.

أجل، أجل، يرقص القلب، لكنَّ الساقيْن لا ترقصان. قلبي يصيح «هيَّا أيَّتها الساقان، اقفزا»، لكنَّ الساقيْن لا تسمعان. لا تسمع أذناي، ولا تبصر عيناي. أنا مثل بلقانجي إيوفو[1]، ضحك العجوز. السنين مثل العثمانيِّين... أخذت منِّي كلَّ شيءٍ... من دون سؤالٍ أو تساؤل. كنت أعزف على «غادولكا»، لكنَّها احترقت، والآن أعزف فقط على ورقة الكمَّثرى، رغم أنَّه في يومنا هذا لا يمكننا العثور حتَّى على شجرة

(1) إشارةً إلى القصيدة الشهيرة للشاعر البلغاريِّ بينتشو سلافيكوف (1866-1912) المبنيَّة على أغنيةٍ بلغاريَّة فلكلوريَّة، طلب فيها العثمانيُّون مرارًا وتكرارًا من بلقانجي إيوفو أن يتخلَّى عن أخته الجميلة يانا كي تصبح مُسلمة، وعندما رفض، قطَّعوا أوَّلًا ذراعيْه، ثمَّ ساقيْه وأخيرًا فقؤا عينيْه.

كمَّثرى في أيِّ مكان. أستطيع أن أغنِّي لك قصائد خريستو بوتيف وإيفان فازوف من الألف إلى الياء. أنا من قرية بالديفو، هل سمعت عن بالديفو؟

كنت أعرف قصَّة المتسوِّلين من قرية بالديفو. كانوا من نسل جنود الملك البلغاريِّ صموئيل الذين أعماهم الإمبراطور باسيل الثاني. لقد انتشروا في جميع أرجاء الأرض إثر أحلك الهزائم البلغاريَّة عام 1014، وأصبحوا فيما بعد عازفين منعزلين ومغنِّيين متجوِّلين على الجسور وفي الأسواق، كانوا يكسبون لقمة عيشهم من خلال أغانٍ تتحدَّث عن مصائب تلك الفترة وعن الجنود العميان. كان الرجل يبدو مسرورًا بأنَّ شخصًا ما يعرف هذه القصَّة.

صحيح، أنا من أحفادهم، انظر... مع مرور السنين بتُّ أعمى مثل جنود الملك صموئيل.

هل هناك من يساعدك؟

نعم، أخذني حفيدي إلى هنا، ربَّما يرقص مع الآخرين، وسنغادر، عندما يتعب. جميلٌ هذا المكان، لكن لا تعجبني الدندنة التي يثيرونها وضوضاء طلقات البنادق.

هو رجلٌ لطيف، يشبه جدِّي. جميلٌ أنَّ ما زال هناك شيوخٌ مثله، نجوا بأعجوبة.

كان راقصو الهورو يثيرون ضوضاء كبيرةً فعلًا، وكان صفُّهم يكبر ويطول، إذ يبدأ من الممرَّات العلويَّة للحديقة، ثمَّ ينعطف حول بركة الزنبق، وبعدها يتَّجه نحو بحيرة «أريانا» ومدخل الحديقة، وسرعان ما يصل إلى جسر النسور على طريق «تساريغراد» السريع. لا أعرف إذا كان لديْهم تصريحٌ بعرقلة حركة المرور في الطريق، ولكن مَن سيجرؤ على إيقافهم؟! لعلَّه في إفراغ هذا الطريق السريع إشارةً ربَّانيَّة تقود إلى

ذلك الحلم البلغاريّ المستحيل كما نعرفه في الماضي. كنّا نعلم من أغنية «يجلجل البوسفور بالضوضاء، وتلمع السيوف والدروع» عن الملك سيميون الأكبر الذي وصل أسوار مدينة تساريغراد (وقد أطلق عليها اليونانيُّون اسم القسطنطينيَّة) ووقف أمام هذه المدينة التي لم يستولِ عليها أبدًا، رغم أنَّ شطر البيت «وارتعد رومانوس خوفًا» كان كافيًا لإلهاب الروح البلغاريَّة التي طالت معاناتها. فوق كلّ ذلك، فإنَّ الحافلات البلغاريَّة كانت تنقل كلَّ يومٍ مئات المشترين من ورثة الملك سيميون إلى البازار الكبير داخل أسوار القسطنطينيَّة. لماذا إذن عليك أن تستولي على مدينة، حين يمكنك أن تمتلكها من خلال شراء كلِّ ما فيها؟

كان عدد الراقصين الممسكين يدًا بيدٍ في سلسلة الهورو يتزايد مع مرور كلّ دقيقة، وكانت تلك السلسلة الراقصة تلتوي فوق حواجز حمايةٍ للطريق وتدخل متعرّجةً عبر جسر النسور باتّجاه الحديقة مرَّةً أخرى.

إيهوووو... إيهوووو... هوووووو... تعلو زغاريد الراقصين... والآن، لو أعطى أحدُ أمرًا «إلى الأمام! إلى تساريغراد!»، لاتَّجه صفُّ الراقصين إلى هناك نحو الشرق مثل التنِّين ملتويًا على الطريق... مستمرًّا على الطريق... ، حتَّى يتوقَّف أخيرًا أمام قصر تساريغراد، ويحيط بجدرانه من كلِّ الجوانب، ويقطع مضيق البوسفور. وحين تُشدَّد حلقة الحصار حول المدينة، وتعلو أصوات مزامير القربة، حصارٌ وهورو في الوقت نفسه، ألن تسقط المدينة حينها؟ لن تسقط فحسب، بل وترقص الهورو أيضًا. فالهورو هو الجيش البلغاريُّ السرِّيّ، بل هو حصان طروادة البلغاريّ. تنكُّر «أبطالٍ» شباب في أزياء الراقصين المرحين، لكن في أحزمتهم مسدَّساتٌ مخفيَّة... إنَّه مكر أوديسيوس... فكاهة «بيتر الداهية».[1] وظرافة أوديسيوس في آنٍ واحد.

(1) شخصيَّةٌ فلكلوريَّة بلغاريَّة تشبه شخصيَّة جحا من التراث العربيّ الشعبيّ.

وإذ به دوّى شيءٌ في السماء فوق «بوريسوفا غرادينا»، ومرّ ظلٌّ بطيء على الأشجار، رغم أنَّ السماء كانت صافيةً لا غيمة فيها. رفع الجميع رؤوسهم، فرأوا العلم البلغاريَّ يطير فوق الحديقة مرفرفًا تحمله 300 طائرةٍ مسيَّرة، كما ذكرت الصحف فيما بعد، أطول علمٍ بلغاريّ مرشَّحٍ لدخول موسوعة غينيس للأرقام القياسيَّة (كان من المناسب أن نسمع في هذه اللحظة أغنية «فالكيري» لريتشارد فاغنر، لكنَّ المنظِّمين اختاروا بدلًا من ذلك الأغنية الفلكلوريَّة البلغاريَّة «خرج المناضل ديليو» التي جرى إطلاقها إلى الفضاء على متن سفينة فوياجر).

كان هناك شيءٌ غريبٌ في هذا المشهد وكأنَّه فيلم ما بعد نهاية العالم امتزجت فيه كلُّ الأوقات. كانت المسيَّرات تصدر طنينًا مهيبًا وهي تجرُّ أطراف العلم الذي لم نر نهايته في الأفق. بعض الناس المرتدين سراويل وبنادق تعود للقرن التاسع عشر بدأوا يرمون قبَّعاتهم في الهواء ويهتفون هتافات التهليل. . غطَّت المسيَّرات السماء ببراعةٍ مذهلة، ثمَّ توقَّفت معلَّقةً في الهواء فوق رؤوس الناس المذهولين.

«كأنَّ السماء من حرير/ هذا هو وطني الجميل»... بدأ أحدٌ يغنِّي أغنية الأطفال المشهورة على مسرحٍ مرتجل، لكن لم تنضمَّ إليه أصواتٌ أخرى، فخجل وصمت. لحظتها أخذ أحد قادة الحركة مكبِّر الصوت، وهتف بكلمة السرّ: «البلغار الأبطال، الْ بُلْ غاااار الْ أبْ طاااال!». كرَّر الجمهور على الفور. تردَّد صدى الهتاف في التلال والوديان، واصطدم بالمباني على الجانب الآخر من الشارع، ثمَّ عاد من بين أشجار الحديقة. ال بل غاااار ال أب طاااال!... كان الناس يصرخون محدِّقين في المسيَّرات، كما لو كانوا يرحِّبون بها.

فتى قويُّ القلب بجانبي لم يضبط نفسه، فرفع بندقيَّته من طراز «مانليشر» وأطلق طلقةً ابتهاجًا نحو السماء، كما شاهد ذلك في الأفلام. يكفي أيُّها الوغد، ستثقب العلم... وبَّخه على الفور أحد رفقائه، ربَّما كان زعيم الفرقة المتمرِّدة. خجل الفتى وأنزل بندقيَّته، لكنَّ الإشارة قد أعطيت وصدحت من حولنا طلقات البنادق والريفولفيرات (في الماضي كانوا يكتبونها «ليفولفيرات» وكم هي جميلةٌ هذه الكلمة). لقد أصيبت بعض المسيَّرات، فقرقعت وسقطت فوق الحشد. حمدًا للّـه أنَّه لم تقع ضحايا. كان من الغريب أن تشاهد إسقاط طائرةٍ مسيَّرة؛ كأنَّك تطلق النار على إوزَّةٍ تطير من دون أن يتساقط ريشها، لكنَّه الشعور نفسه بسقوط طيرٍ مقتول.

في هذه اللحظة، كما لو كان هناك من أعطى إشارة (لم يعرف أحدٌ ما إذا كان هذا جزءًا من السيناريو أو بسبب إطلاق النار المفاجئ)، فتحت الطائرات المسيَّرة بالتزامن كمَّاشاتها، ثمَّ اختفت باتِّجاه الغرب. أمَّا العلم، فبقي وحيدًا متدلِّيًا في الهواء، وكأنَّه تردَّد للحظةٍ قبل أن يهبط رويدًا رويدًا مثل قطعة حرير، وأن يغطِّي الأشجار، وزلَّاقات الأطفال، والفيل الحجريَّ في ساحة الأطفال، وبحيرة الزنابق، والمقاعد، وشرفات المراقبة، وتماثيل الشعراء والجنرالات، وفرقة الفرسان بقيادة البطل بنكوفسكي، والناس مع أسلحتهم الناريَّة. لقد استطاع الأشخاص الذين كانوا على أطراف الحديقة أن يبتعدوا، وهربت بعض النساء والأطفال الخائفين، لكنَّ معظم الناس ظلُّوا واقفين تحت العلم الساقط. وفي الأماكن التي كانت فيها أشجار صنوبر وكستناء عالية، تشكَّل شيءٌ يشبه خيمةً ضخمة أو قبَّة سيرك. أمَّا المنحدرات والمروج، فَقد غطَّاها الحرير بشكلٍ مُحكم، إذ كان من الممكن رؤية أجسادٍ تتحرَّك تحته،

ويُسمع هنا وهناك كيف يصرخ بعض الناس أنَّهم يختنقون تحت العلم، فاضطرَّ أحدهم إلى تقطيع القماش المقدَّس بسكِّين. كانت حديقة «بوريسوفا غرادينا» مغطَّاةً بأطول علم بلغاريّ، بمساحةٍ تزيد عن ثلاثة فدادين، وكأنَّ الفنَّان كريستو غلَّفها، على الرَّغم من أنَّ «الأبطال» الشباب كانوا يحتجُّون ضدَّه.

أحمد الربَّ أنَّني وجدت نفسي بالقرب من شجرة الكستناء العالية التي كان يجلس تحتها الجدُّ ماتيكو، فكان هناك ما يكفي من الأوكسجين كي يمكننا التنفُّس. كان الجوُّ لطيفًا، باستثناء الرائحة القويَّة للقماش والمناديل المبلَّلة؛ لأنَّ العلم كان مرشوشًا بماء الورد. إذن، تحوَّلت الحديقة الآن إلى وادي الورود البلغاريّ، ممَّا أثار رعب أولئك الذين يعانون من الاختناق والسُّعال تحت العلم. وأخيرًا بدأ استخدام الخناجر والسيوف من أجل تحرير الشعب الرَّازح تحت وطأة المعاناة. . وامتلأ الهواء بالصياح والسعال والشتائم، وكان الناس يصرخون بأسماء أقاربهم. كلُّ ذلك أحبط بلوغ الذروة المحدَّدة لاندلاع انتفاضة نيسان. لم يطلق مدفع خشب الكرز قذيفته... وبالأصل كان المنتفضون في الماضي يواجهون صعوبةً في إطلاق النار منه، والآن، تحت قماش العلم كان المدفع سيتسبَّب في اختناق الناس. ووسط فرقة الفرسان، كانت بعض الخيول الخائفة تدور حول نفسها بجنونٍ معرِّضةً فرسانها الذين قد سقطوا أرضًا للدهس. أمَّا التلُّ الذي كان ينبغي أن يمثِّل دور قمَّة «شيبكا» الجبليَّة، وأن تُرمى منها حجارةٌ وحطب، (وفقًا لحقائق التاريخ البلغاريّ) فلم تسمع من هناك سوى آهاتٍ مكتومة، وصوت القارئ الوحيد الآتي من مكبِّرات الصوت.

كانت الانتفاضة تسير في طريقها إلى الفشل، كما حدث تاريخيًّا. وهو أمرٌ جعل المسرحيَّة واقعيَّةً تمامًا.

-13-

كان غسق أيَّار يحاول تغطية ما بقِي بعد مظاهرة «الأبطال» من قصاصات العلم المعلَّقة على أشجار الكستناء في الحديقة، والزجاجات الفارغة، والصحف، والأغلفة... لا أعرف مَنْ يُنظِّف مخلَّفات كلِّ ثورة.

كنت أمشي في شارع «كراكرا» باتِّجاه حديقة «دوكتورسكا غرادينا». لم أرغب في العودة إلى البيت، فقصدت المقهى في مبنى اتِّحاد المهندسين المعماريِّين، حيث فضَّلت قضاء الوقت في الماضي... أمام المقهى فناءٌ مريحٌ وحديقة، وهو المكان المثاليُّ للقراءة والتأمُّل، إذا لم تجد نفسك بجوار صديقٍ ثرثار، بالطبع. اتَّصلت بغاوسطين في العيادة. أردت أن أخبره بما حدث. لم يرفع أحدُ السمَّاعة فترةً طويلة، فأغلقت الخطّ. قلت في نفسي إنَّه من الأفضل أن أكتب له، فهو لا يحبُّ المكالمات الهاتفيَّة.

قرَّرت أن أتَّصل بديمبي. أخرجت بطاقة عمله واتَّصلت، لكنَّه لم يردّ. كتبت له رسالةً اقترحت فيها أن نلتقي. بعد دقيقةٍ وصلني ردُّه

بالاعتذار. كان يمرُّ بيومٍ عصيب، وقد دعاني لشرب القهوة غدًا بمكتبه في مبنى الحمَّام المركزيّ.

كان فناء المقهى في مبنى المهندسين المعماريِّين يلفُّه السكون. بعد يومٍ من المظاهرات والانتفاضات، بدا المكان هنا وكأنَّه لم يحدث شيءٌ خارجًا. كان بعض الأزواج المسنِّين ذوي المظهر الأرستقراطيِّ جالسين على طاولةٍ كبيرة في الزاوية وهم يحتفلون في هدوءٍ بِعيدٍ ما، حفلة ذكرى سنويَّة، أو ذكرى ماسيَّة، أو في الواقع، ربَّما يحتفلون بأنَّهم ما زالوا أحياء. بالقرب منِّي يتبادل فتى وفتاة القبلات. هذه الأشياء لا تتغيَّر، قلت لنفسي، محاولًا ألَّا أنظر إليهما. تخيَّلت المقهى وفناءه في حالة فوز حركة «الأبطال». تُرى، هل سوف يحضرون مدفع خشب الكرز كي يضعوه عند مدخل المقهى؟ هل سيستبدلون الأكواب الزجاجيَّة بأكوابٍ فخاريَّة من طراز تلك الخزفيَّة البلغاريَّة التقليديَّة؟ هل سيغطُّون الطاولات بأغطيةٍ مطرَّزةٍ حمراء؟ هل ستكون هذه النادلة اللطيفة ومشتَّتة الذهن مجبرةً على ارتداء فستانٍ مزخرفٍ تقليديّ، وقلادة القطع المعدنيَّة المذهَّبة، وغطاء رأسٍ ملوَّن؟ هل سيستبدلون موسيقى الجاز الهادئة بالأغاني الفلكلوريَّة؟ هل سيبقى مكانٌ محايد، أو مكانان على الأقلّ، للمواطنين المتعبين من التاريخ؟

لعلَّهم في مكان كلِّ هذه الأزهار الرائعة ذات الأسماء الأجنبيَّة التي تنمو هنا كما اتَّفق، سيزرعون التوليب من الصنف الجديد الذي أطلقوا عليه اسم «ناسيونال»، وله كؤوس أزهارٍ تتدرج بسلاسةٍ من الأبيض إلى الأخضر ثمَّ الأحمر. فقد نجح أحد البستانيِّين بعد محاولاتٍ كثيرة في عزل هذا الصنف من التوليب. أجد إدخال اللون الأخضر في كأس زهرة التوليب من أعمال العنف ضدَّ الطبيعة التي خصَّصت الأخضر لساق النباتات وأوراقها لا لأزهارها.

يعتقد المرء، أنَّه مهما حدث، فإنَّ الطبيعة ستظلُّ تعزِّيه عزاءً مقدَّسًا. سيجيء الربيع وخلفه الصيف، ثمَّ الخريف، والشتاء ثمَّ الربيع مرَّةً أخرى. رغم أنَّه أمرٌ غير مضمونٍ في يومنا هذا. بالمناسبة، يعدُّ أهل قبائل «القلط» اختلاطَ الفصول أوَّل علامةٍ تشير إلى نهاية العالم.

لحظتها، سُمع بوضوحٍ صوت طلقاتٍ ناريَّة من مكانٍ غير بعيد. لم يزعجني هذا الأمر، بعد يومٍ كلُّه ضجيجٌ وضوضاء، لكن بدا لي أنَّني سمعت أيضًا دويَّ إطلاق نارٍ من مدافع رشَّاشة، وكان زعيق صفَّارات سيَّارات الإسعاف والشرطة يدلُّ على حدوث شيءٍ ما فعلًا. لم تكن عمليَّات القتل الشهيرة في مركز مدينة صوفيا علامةً حصريَّةً خاصَّة بفترة العشرينيَّات والتسعينيَّات فقط، بل أيضًا بأواخر القرن التاسع عشر. حيث قُتِل أحد رؤساء الوزراء هنا في شارع «الملك المحرِّر»، ثمَّ اغتيل رئيس وزراء آخر في شارع «راكوفسكي». أذكر ذلك كي يُعرف أين تحدث الاغتيالات.

دفعت حسابي وغادرت المقهى. لقد عشت ما يكفي من الانفعالات في هذا اليوم. رجعت إلى البيت، وشغَّلت التلفاز، ورأيت تقريرًا تلفزيونيًّا عن الاشتباك بين مشاركي المظاهرتيْن أمام تمثال الجيش السوفييتيّ. كان اثنان من «الأبطال» مصابين بجروحٍ خطيرة، وحدث ذلك على الأرجح، برصاصة مسدَّسٍ رشاش PPSH-41، كما أكَّد المراسل. وقد صادف أن يكون تمثال الجيش السوفييتيّ في المنطقة الحدوديَّة بين المظاهرتَيْن. كان الجريحان ينزفان ببطءٍ أثناء بثِّ التقرير، وكانت طواقم التلفزيون قد وصلت إلى المكان قبل سيَّارات الإسعاف.

-14-

عند ديمبي

في اليوم التالي، اتَّجهتُ إلى الحمَّام المركزيّ مبكِّرًا في الصباح. لقد هطل المطر طوال الليل، وكانت المدينة في صباح أيَّار البارد تبدو مختلفةً تمامًا عن يوم البارحة. كانت الأرصفة تشبه حقول ألغامٍ يغوص فيها البلاط ويبصق الطين على ساقيك، الأمر الذي حوَّل المشي إلى تمرينٍ غريب فيه التَّحسُّب والقفز والتمهُّل والبحث عن طرقٍ جانبيَّة. لم يكن مشيًا بل مناورة. وهكذا، من دون أن أدرك، بين الشتم والقفز، وصلت إلى المبنى.

بالطبع، لم يكن الحمَّام المركزيّ حمَّامًا منذ زمن، لكنَّه ما زال واحدًا من أجمل مباني صوفيا، واجهته مزيَّنةٌ بزخارف رائعةٍ وأشكالٍ بيزنطيَّةٍ دائريَّة. يقع فيه الآن متحف صوفيا، رغم أنَّ الجميع ما زالوا يستخدمون اسمه القديم «الحمَّام»، وكانت تظهر من وقتٍ إلى آخر منظَّماتٌ غير ربحيَّةٍ تطالب باستعادته مرَّةً أخرى كحمَّامٍ للمدينة مع المسبح الكبير في

قسم الرجال والصغير في قسم النساء. مررت بغرف المتحف، وتسلّلت بجانب العربة الذهبيّة للملك لويس السادس عشر، والمكتب الضخم الذي قدّمه أوتو فون بسمارك نفسه كهديّةٍ للملك فرديناند...

كانت غرفة ديمبي في نهاية ممرّ الطابق العلويّ واسعةً ومليئة بأشياءٍ من مختلف الأنماط والأزمنة، وكأنّها امتدادٌ طبيعيٌّ للمتحف.

ماذا ستشرب؟ سألني بمجرّد أن فتحت الباب.

ماذا يوجد لديْك؟

كلُّ شيء، من القهوة إلى «الكوميس».

كوميس؟! لديْك حليب الفرس؟

نعم، وكذلك وجبة فطورٍ تقليديٌّ للبلغار القدامى، وعصيدة الدخن، والبرغل المسلوق، وشرائح رقيقة من البسطرمة. هي بضاعةٌ رائجة مؤخّرًا. يجب أن تجرّبها، قال ذلك ثمَّ أزاح الغطاء عن المائدة بجانبه، حيث كانت الأطباق التي ذكرها.

قطعُ البسطرمة هذه مجفّفةٌ تحت سرج الحصان، قلتُ مازحًا وأنا أمدُّ يدي لتناولها.

نعم، هكذا مكتوبٌ على الملصق، لكن لا يمكنني ضمان ذلك... بالمناسبة، في السنوات الأخيرة، فاق عدد الخيول عدد الأغنام، بل بات يساوي عددَ الأبقار التي تُربّى في بلغاريا. إذن، تحوَّلت الوطنيَّة إلى قوَّة إنتاج.

مضغت قطعة البسطرمة ببطءٍ والشكُّ يساورني، فقد كان اللحم أكثر قسوةً ممَّا توقَّعت، وله طعمٌ حلوٌ غريب وغير مستساغ.

نسيت أن أخبرك بأنّها مصنوعةٌ من لحم الحصان، قال وهو يراقب تعابير وجهي.

كدتُ أن أبصقها على المنديل الورقيّ...

نعم، البلغار القدامى لم يربُّوا خنازير وأبقارًا، بل استخدموا الخيول في كلِّ الأعمال. في الواقع، بسطرمة الحصان صحّيَّةٌ جدًّا، وتحتوي على القليل من الكوليسترول والدهون، والكثير من الزنك. بدا ديمبي، وكأنَّه يقرأ إعلانًا تجاريًّا في الراديو... لقد ظهرت في السوق مؤخَّرًا وتحمل العلامة التجاريَّة «الخان أسباروخ».

ثمَّ أشار إلى تقويمٍ معلَّق على الحائط، وهو هديَّةٌ من الشركة المنتجة للبسطرمة نفسها، يظهر فيه الخان أسباروخ، مؤسّس المملكة البلغاريَّة الأولى عام 681م، راكبًا حصانه بشكلٍ مهيبٍ وهو يمضغ قطعةً كبيرة من البسطرمة، كما لو تمَّ قطعها للتوِّ من الحصان نفسه. وتحت الصورة كان مكتوبًا: «طعم بلغاريا العظمى»، ثمَّ بأحرفٍ صغيرة: «مصنوعٌ من لحومٍ بلغاريَّة». وقد بدت هذه الأخيرة كَجملةٍ قالها آكل لحوم البشر.

فنجان قهوةٍ من فضلك، بدون حليب فرس، لو سمحت.

شربتها دفعةً واحدةً تقريبًا كي أزيل أثر الطعم المتبقِّي من لحم الحصان. عرض عليَّ ديمبي عصير الكرفس والبنجر، فقبلت، وبينما كان الخلَّاط يطنّ، أمعنتُ النظر في الغرفة. على يمين الباب كانت معلَّقةً خريطةٌ كبيرة لبلغاريا العظمى، وأنا لا أتذكَّرها بهذه الحدود الجغرافيَّة، فقد شملت أراضي كلِّ أوروبًا تقريبًا، إلى جانب قطعتَيْن، تمَّ تقطيعهما من قارَّة آسيا مثل شريحتي بسطرمة. خلف المكتب في

الخزانة الزجاجيَّة الصغيرة، يوجد أربعة كؤوسٍ غريبة للغاية. اقتربت ورأيت أنَّها في الواقع جماجم منحوتةٌ بتأنٍ على شكل كؤوس نبيذ.

إنَّها مجموعة كؤوس «رأس نقفور»[1]، صاح ديمبي من زاوية الغرفة.

كانت بعض البنادق القديمة معلَّقةً على الحائط بأناقة. لا أعرف لماذا، لكنَّني كلَّما رأيتُ بندقيَّةً معلَّقة، أتذكَّر تلقائيًّا تشيخوف. بجوار البنادق جهاز راديو خشبيّ قديم عليه مفرشٌ صغير مطرَّز، ومزهريَّةٌ قُصَّت يدويًّا من قنّينة سائل غسيل الصحون من البلاستيك، تتبهرج فيها زهورٌ اصطناعيَّة. لا شيء يعيد الماضي مثلما يعيده الفنُّ الهابط.

انظر، أعرف ما الذي يدور في رأسك، قال فجأةً، لكنَّ الزبائن يفضِّلون مثل هذه الأشياء.

أومأت برأسي كإشارةٍ على الفهم، وواصلت جولتي في الغرفة.

وفي زجاجةٍ على غطائها نجمةٌ خماسيَّة حمراء، رأيت دماغًا مغطًّى بالفورمالين، وكأنَّه مسروقٌ من غرفة علم الأحياء في المدرسة. إنَّه دماغ الرفيق غيورغي ديميتروف، قال ديمبي على عجل، وهو يجلب العصير. حفظوه فيها عندما حنَّطوه.

وفي آخر جدار العرض ذلك، كان هناك نموذجٌ مصغَّرٌ لضريح الرفيق ديميتروف مركَّبٌ من أعواد الكبريت مع مراعاة جميع التفاصيل.

لم أتمالك نفسي، فقلت: إنَّه سهل الاشتعال.

---

(1) قُتِل الإمبراطور البيزنطيُّ نقفور الأوَّل في معركة عام ٨١١ على يد الملك البلغاريّ كروم الذي، كما روى عنه المؤرِّخون، صنع من جمجمة نقفور كأسًا لشرب النبيذ.

بالإشارة إلى الضريح... ما رأيك في مظاهرة الأمس؟ سأل، ثمَّ أضاف بتواضع: في الواقع... شركتي هي التي نظَّمت... العرض أمس...

إذن، هذا هو شغل صديقي القديم ديمبي، قلت في نفسي.

يعني، تريد القول إنَّك... المخرج. لم أكن أعرف ما إذا كانت هذه الكلمة دقيقة.

هكذا أكسب لقمة عيشي. أمتلك شركةً لتنظيم عروضٍ مسرحيَّة للأحداث التاريخيَّة، هذا هو عملي الرَّئيسي. تعرف أنَّني كنت أحبُّ المسرح دائمًا، ناهيك عن أنَّهم لم يقبلوني في أكاديميَّة الفنون المسرحيَّة آنذاك.

تذكَّرت أنَّ المظاهرة كانت تحتوي على بعض التفاصيل الدقيقة للغاية، فأخبرته بذلك، وبدا أنَّ كلامي أسعده كثيرًا.

ذلك المقطع الذي تضمَّن خشخشةً في مكبِّرات الصوت كان جيِّدًا، فعلتَه عن قصد، أليس كذلك؟

وأنت ماذا تعتقد؟ والفضيحة... وشتائم ذلك العامل التي سُمِعت في مكبِّرات الصوت... الناس يتذكَّرون أشياء من هذا القبيل. كنْ متأكِّدًا من أنَّهم لا يتذكَّرون من كلِّ تلك المظاهرات النمطيَّة في أيَّام الاشتراكيَّة سوى بعض الأخطاء والفضائح. وحين تعيد عرضها لهم الآن، فستعيدهم تلك الأخطاء مباشرةً إلى ذلك الزمن. وما رأيك في ظهور الرفيق ديميتروف؟ Deus ex machina. نزلتُ قبلها إلى قبو الضريح. لا يمكنك أن تتصوَّر كيف يبدو الآن. قبل سنوات، عندما

بدأوا في تدمير المبنى، فجَّروا فقط الجزء العلويَّ منها، أمَّا الطابق الأرضيّ، فبقي على حاله. كانت جدرانه متصدِّعةً وتتدلَّى منها الهياكل المعدنيَّة، لكنَّ الغرف ما زالت موجودة. وقاعة المومياء، أو كما أسمِّيها «غرفة المكياج»، فظلَّت على ما هي، والمصعد أيضًا، وكذلك القاعدة التي وضعوا الرفات عليها، إنَّها صدئةٌ قليلًا، لكنَّها سليمةٌ وصالحة للعمل. كانوا ينقلونه إلى الطابق السُّفليِّ كلَّ مساء، إلى الثلَّاجة... تلك القاعة الواسعة المزوَّدة بالأنابيب. تعرف، إنَّها في الواقع أوَّل مكيِّف هواءٍ في بلغاريا منذ أواخر الأربعينيَّات. ثمَّ كانوا ينقلونه إلى غرفة المكياج حيث يجدِّدون مكياجه، ويدهنونه بهذا وذاك، وبعدها يعيدونه مرَّةً أخرى إلى العالم العلويِّ بالمصعد. لم يكن من السَّهل على ذلك المسكين الصعود والهبوط بين العالمَيْن العلويِّ والسفليّ. يعني، سفرٌ طويل ذهابًا وإيابًا على مدى سنوات.

ذلك المشهد الذي تضمَّن التلويح باليد في نهاية العرض كان مسرحيًّا إلى حدٍّ كبير، قلت وأنا أرتشف العصير.

ماذا كان علينا أن نفعل؟ فأنا لا أصنع ثورات، بل مسرح، أجاب ممتعضًا. لا تهمُّني حركاتهم السياسيَّة الغبيَّة. يدفعون لي وأفعل ما أستطيعه. إنَّه المسرح الجديد في الهواء الطلق، حيث لا يدرك المشاركون فيه أنَّهم يشاركون في عرضٍ مسرحيّ. تراجيكوميا مرتجلة. في الحقيقة، بعضهم على علمٍ بذلك، فهم يعملون تحت الطلب. إذن، يمكنني القول إنَّني أقدِّم ممثلين كومبارس للمظاهرات والثورات.

كومبارس؟ هذا أمرٌ جديٌّ فعلًا. انتظر... لا تقلْ لي إنَّك مخرج انتفاضة «الأبطال» أيضًا.

أووف... ، قال ديمبي مرتبكًا، أفضّل ألّا أتحدَّث عن ذلك. يعنيييي... اتَّصلوا بي في اللحظة الأخيرة، وكان عليَّ أن أنقذهم. لكنَّ الذنب ذنبهم، أتعرف، لقد وزَّعوا البنادق على الهواة، وعطَّلوا الطائرات المسيَّرة، وأفسدوا كلَّ شيء...

لحظتها رنَّ هاتفه وأدهشني أنَّ الصوت جاء من صندوقٍ ظننته مجرَّد جزءٍ من الديكور. كان يشبه لوحة مفاتيح هاتفٍ صغيرة؛ لوحةٌ خشبيَّةٌ مستطيلة الشَّكل منحوتة الحوافّ، مع سمَّاعةٍ سوداء ثقيلةٍ وصفَّيْن من الأزرار، وقرصٍ دوَّارٍ دائريّ مثبَّتٍ في الزاوية العلويَّة. يبحثون عنّي عبر «النجمة الخماسيَّة»، قال غامزًا وكأنَّه يدبِّر شيئًا ما، ثمَّ رفع السمَّاعة. النجمة الخماسيَّة هي تلك الشبكة السرِّيَّة الأسطوريَّة التي تمتَّعت بها طبقة النخبة الاشتراكيَّة. شبكةٌ فيها هواتف موازية، وأماكن طعامٍ موازية، وفيلَّات موازية، ومطاعم، وحلَّاقون، وسائقون، ومستشفيات، ومدلِّكات، وطبعًا، فتياتٌ موازيات للمتعة. يبدو أنَّه كانت هناك دائمًا دولتان موازيتان.

آسف، يجب أن أجري المكالمة، أعطني عشر دقائق، ثمَّ نخرج لنستنشق بعض الهواء النقيّ.

-15-

ها هم باعة الماضي، قلت في نفسي. لقد أصبح ديمبي واحدًا منهم، تاجرًا من أفضل التجّار في السوق السّوداء، حسب ما أخبرني لاحقًا. في الواقع، لم تكن السوق سوداء؛ لأنَّ أعماله التجاريَّة كانت قانونيَّةً تمامًا. كان يتلقَّى طلباتٍ متنوّعةً ولم يكن لدَيْه أيُّ تحيُّزاتٍ سياسيَّة. قال إنَّ أهل الستينيَّات والسبعينيَّات يدفعون جيِّدًا، علاوةً على ذلك فإنَّه كان يشعر نفسه مرتاحًا هناك، ويضيف دائمًا لمسةً من السخريَّة في العروض. لقد تبوَّلتُ عليهم مرَّاتٍ عديدة، قال. أظنُّ أنَّ هذه «التبوُّلات» كانت بمثابة تبريرٍ يقدِّمه أمام ضميره، ولا أحد سواه يفهم معنى هذه الكلمة.

كان لدى ديمبي كرشٌ صغيرٌ «يهتمُّ به جيِّدًا»، كما يقول الناس في تلك المناطق، وكان، في الواقع، ممتلئ الجسم منذ الطفولة. كان ينجح في كلِّ شيءٍ بسهولةٍ منذ أيَّام المدرسة. كان يرسم سرًّا نساءً عارياتٍ في الصفحات الخلفيَّة من دفاتره، وهذا كان يزيد من إثارته، فيذهب

للاستمناء في المرحاض. في ذلك الوقت، كانت جميع الكتب المتعلّقة بالجنس التي عثرنا عليها، وهي إجمالًا اثنان: «العاطفة والجنس بين الرجل والمرأة» و«الأمراض والاضطرابات الجنسيَّة والتناسليَّة»، تلعن العادة السرِّيَّة باعتبارها ممارسةً خطرةً وخيمة العواقب، وتؤدِّي إلى أمراضٍ مُهلكة (أتذكَّر فقط أنَّها تؤدِّي إلى العمى). وكان ديمبي يبيع رسوماته لنا مقابل عشرة قروش، بحيث كنَّا نسير من دون تبصُّرٍ نحو العمى، إذا جاز التعبير، فزادت درجات قصر النظر لديْنا. ناهيك عن أنَّ رسوم الجماع بين الزوجَيْن في كتاب «العاطفة والجنس بين الرجل والمرأة» كانت أقرب إلى مقطعٍ عرضيٍّ لمحرِّك السيَّارة، بكلِّ المكابس الموجودة هناك.

في السنوات الأخيرة من الثانويَّة، كان ديمبي قد حوَّل عُلِّيَّة منزله إلى أستوديو فوتوغرافيّ. أتذكَّر بوضوحٍ الستارة السميكة على الشبَّاك الصَّغير، والمصباح الأحمر، وصواني محاليل التثبيت الفوتوغرافيّ وتحميض الصور. في ذلك الوقت، كان تحميض صورةٍ بمثابة عمليَّة، وجهد... دعنا نقول إنَّه كان معجزةً صغيرة. (هنا، حيث يكون الظلام تغفو دائمًا معجزة)... تغمس ورق الصور الفوتوغرافيَّة في صينيَّة، ثمَّ في صينيَّةٍ أخرى، وإذا تركته وقتًا أطول ستحترق الصور الظلِّيَّة مثل شرائح الخبز المحمَّصة، وإذا لم تتركه وقتًا كافيًا تصبح باهتةً ومطموسة.

كنت مساعده ومصمِّم الإضاءة، وأعدِّل تمركز مظلَّة جدَّته البيضاء مُمسكًا بالمصباح اليدويِّ الذي يعمل بالبطاريَّة. لقد زارت الأستوديو بعض زميلاتنا من المدرسة كي يصوِّرهن ديمبي. أتذكَّر أنَّه في فترةٍ ما من الجلسة، كان يطلب منِّي الخروج حتَّى لا تخجل «العارضة» من حضوري، فكانا يبقيان وحدَيْهما في الغرفة المُظلمة. أحيانًا، كانت تزورنا أجمل بنتٍ في منطقتنا اسمها لينا، وكانت أكبر سنًّا

منّا بكثير. كان ديمبي يقضي معها في الأستوديو وقتًا طويلًا. ومن حينٍ إلى آخر كان يؤجّره مدّة ساعةٍ لفتى ما من الحيّ لينفرد فيه بصديقته. تذكّرت الآن كلّ ذلك، لأنَّه في الواقع، كان مصوّرًا رائعًا، ويعرف كيف يقيس الضوء والظلام بدقّة الصيدليّ، وكيف يلعب بالظلال، ويُخرج الأجساد من وضعيّاتها المتجمّدة المملّة، حيث كان خجل العارضات الطبيعيّ يُضفي المزيد من الإثارة الجنسيّة على الصور. وهكذا، عندما احتاج ديمبي للمال، كان يستطيع بيع بعض الصور لأعضاء منظمة الكومسمول من مدرستنا ومنطقتنا المتعطّشين لأجسادٍ عارية، فقد كانوا ضمن زبائنه المنتظمين.

العجز الجنسيّ في أواخر أيّام الاشتراكيّة، وفساد الشباب المبكّر، والتراكم البدائيّ لرأس المال... هذه موضوعاتٌ يمكن أن تُدرّسها كلّيّات الاقتصاد.

يمكننا اتّهام ديمبي بكلّ شيء، باستثناء موهبته، إذ كانت تتدفّق منه بعفويّةٍ مدرارة. لم يرغب أبدًا في تطوير هذه الموهبة، وإشهار أعماله، ودخول دوائر المصوّرين. ليس عندي اهتمامٌ بكلّ ذلك، كان يقول محاكيًا صوت رجل مافيا إيطاليّة، فأنا أفعل ما أريده، وأكسب ما يكفي من المال، وأمتلك الفتيات الأجمل في حيّنا. وأعتقد بأنّه ما زال يحافظ على المستوى المعيشيّ نفسه حتّى الآن. تساءلت عمّا إذا كان يحلم في سرّه أن يتوقّف عن عمله ويدخل عالم الفنّ. سألته، فأجاب إجابةً توقّعتُها. قال إنّني ما زلت أعيش خارج حدود العالم الحقيقيّ. . وذات يوم، عندما يجمع المال سيركّز على صناعة الفنّ فقط، وهو يسجّل كلّ ما يتبادر إلى ذهنه من أفكارٍ في دفتر. لم أكن متأكّدًا ممّا إذا كان يسخر منّي أم أنّه يخطّط لذلك فعلًا.

-16-

ممثِّلون كومبارس في عروض الثورات

قطعنا شارع «دوندوكوف»، ثمَّ الساحة أمام بناء الرئاسة، ورأينا العمَّال يفكِّكون مبنى الضريح المؤقَّت. على أحجار الرصيف الصفراء كانت تتدحرج رؤوس زهور قرنفل، وبالوناتٌ مفرقعة، وعبواتٌ فارغة من بذور دوَّار الشمس... انقطع المطر وبدأت السماء تنقشع. مررنا بالقرب من كنيسة «القدِّيسة نيديليا»، فتذكَّرت ذلك الهجوم الإرهابيّ... خمسة وعشرون كيلوغرامًا من المتفجِّرات تحت قبَّتها الرئيسيَّة، وزجاجةٌ من حامض الكبريتيك لخنق مَن نجا من التفجير. وفي الساعة 3:20 بعد ظهر يوم 16 نيسان عام 1925، أصبحت بلغاريا صاحبة الرَّقم القياسيّ العالميّ المطلق للهجوم الإرهابيّ الأكثر دمويَّةً الذي وقع في كنيسة، حيث لقي 150 شخصًا مصرعهم، منهم رجالٌ ونساءٌ وأطفال. كان قد نفَّذ الهجوم الجناح الراديكاليُّ للحزب نفسه الذي يرأس الآن الحركة

من أجل الاشتراكيَّة. قلت في نفسي إنَّه إذا رغب أحدٌ في العودة إلى العشرينيَّات، فستتعيَّن عليه معالجة هذه القضيَّة أيضًا.

كان ديمبي يحدِّثني طوال الوقت عن الكيفيَّة التي غيَّرت بها أيديولوجيَّات الماضي صورة السوق، وهناك أعادت المهن المنسيَّة مثل الخيَّاطين الذين يعملون بالبيت، وصانعي الأسلحة، وظهرت أيضًا مهنٌ جديدة، لعلَّه كان يقصد كومبارس للثورات. فقد كان السوق يقدِّم لهم فرصًا كثيرة حقًّا. وفجأةً عاش جيش الممثِّلين العاطلين عن العمل الذين كانوا يقبعون في عقر المسارح الريفيَّة، لحظة النجوميَّة. كلُّ العروض المسرحيَّة كانت تعتمد أساسًا على الممثِّلين المحترفين، إذ كانت هناك دائمًا حاجةٌ إلى ممثِّلين يلعبون دور ملكٍ تراقيّ، أو إلهة الخصوبة، أو أحد الخانات البلغار القدامى، وأمَّا الشقراوات، فكنَّ يتقمَّصن دور جوارٍ سلافيَّات في ثيابٍ بيضاء طويلة. كانت هناك أدوارٌ للجميع: العثمانيُّون، والجيش الإنكشاريّ، وقطَّاع الطرق أيَّام العثمانيِّين... وفجأةً اختفت البطالة في قطاع المسرح. لم تَعُد المسارح في حاجةٍ إلى عرض المسرحيَّات، بل أصبحت تعيش على إيجار التجهيزات، والأسلحة القديمة، والعباءات المطرَّزة بالذهب، والسيوف الدمشقيَّة...

ثمَّ فجأةً تحوَّل جميع الشباب والشيوخ العاطلين الذين كانوا يتسكَّعون في مقاهي المدن والقرى إلى «ممثِّلين مستقبليِّين». أي ظلُّوا يجلسون في البارات، لكن الآن لديْهم آمالٌ وأحلام، فربَّما يقدِّمون لهم فرصة لعب دور متمرِّد، أو عثمانيّ، أو فدائيّ. صحيح، قال ديمبي، إنَّ أهل القرى توقَّفوا عن زراعة الأرض. فلماذا عليك أن تعمل في الحقول وتتعرَّض لأشعَّة الشمس المحرقة، حين يمكنك أن تكسب بهذه الطريقة السَّهلة 20 أو 30، أو حتَّى 50 ليفًا في اليوم الواحد. لو

كانت البلديَّة تموِّل العروض المسرحيَّة، فإنَّ الأجر سيكون ضئيلًا، لكن تلك العشرين ليفًا هي نعمةٌ أيضًا. وإذا أقام أحد الإقطاعيِّين حفلًا خاصًّا له موضوعٌ محدَّد، على سبيل المثال «معركة كلوكوتنيتسا» أو «كرالي ماركو يحرِّر مجموعات العبيد الثلاث المكبَّلين بالسلاسل»، فإنَّ الأجرة ستكون أفضل، والمهمَّة أسهل، لا سيَّما إذا لعبتَ دور عبدٍ مقيَّدٍ بسلاسل.

انتظر، دعني أريك شيئًا، قال فجأةً وتوقَّف.

كنَّا قد وصلنا إلى تقاطع شارع «أنجيل كانتشيف» و«البطريرك إيفتيمي»، مقابل المقهى السابق «كرافاي»، ذلك المكان الرمزيّ، «مكان العبادة»، كما أسميناه في الثمانينيَّات، الذي سمعنا فيه أولى صيحات موسيقى البانك في بلغاريا، بالصوت الساحر الأجشّ للمغنِّية ميلينا... لعلَّهم إذا اختاروا الثمانينيَّات، ستتعيَّن عليهم إعادة إحياء ذلك المقهى وشهرته الأسطوريَّة.

نتَّجه إلى القصر الوطنيّ للثقافة.

ألا يمكننا الذهاب إلى مكانٍ أجمل؟ سألته متذمِّرًا.

كان قصر الثقافة ينتصب بيننا وبين جبل فيتوشا كَسلحفاةٍ خرسانيَّة عملاقة. لقد بنوها على عجل، مثل كلِّ شيءٍ في الثمانينيَّات، بمناسبة الذكرى الـ 1300 للدولة البلغاريَّة. وهو يتمتَّع بقاعةٍ ضخمةٍ مخصَّصة لإجراء مؤتمرات الحزب وعشرات القاعات الأخرى المنتشرة في مختلف الطوابق. غير أنَّه، وبغضِّ النظر عن الحدث الثقافيِّ الذي يجري تنظيمه هناك، سواءٌ أكان حفلةً موسيقيَّة أم أمسيةً أدبيَّة، فهو بطريقةٍ غريبة، كان تقليدًا باهتًا لجلسةٍ من جلسات الحزب. وكان التصفيق في

النهاية يصدح كَ «تصفيقٍ صاخبٍ متواصل، وهتافات «المجد لـ... »
كما كان يُكتب في نصوص المؤتمرات الحزبيَّة التي تنشرها صحيفة «شؤون العمَّال» باستمرارٍ في ذلك الوقت.

دخلنا المبنى من المدخل الجانبيّ الذي تقع بجواره ساريات الأعلام، وأومأ لنا البوَّاب برأسه بتملُّق. فتح ديمبي بعض الأبواب ببطاقةٍ ممغنطة ونزلنا إلى القبو، حيث لم تطأ قدماي هناك قطّ. كنَّا نسير في ممرَّاتٍ باردة تشبه ملاجئ القنابل. لن أتفاجأ لو كانت مصمَّمةً في الماضي لهذا الغرض بالضبط. فجأةً، توقَّفنا أمام بابٍ زجاجيٍّ كبير يؤدِّي إلى قاعةٍ بدون نوافذ، ذات سقفٍ منخفض. ما رأيته في الداخل كان مزيجًا من تمارين جمباز، وتدريب حرس الشرف الوطنيّ، وبروفات للمظاهرة. كان هناك نحو 50 فتى وفتاةً من ذوي الأجسام الرياضيَّة يمارسون حركاتٍ مختلفة، ثمَّ فجأةً رفعوا اليد اليمنى مثنيَّةً عند المرفق وبقبضةٍ مشدودة هتفوا بعد إعطاء إشارةٍ بصوتٍ عال: المجد... المجد... المجد...

تذكَّرت كيف أذهلني أمس أثناء المظاهرة، التزامن الغريب في الهتافات، وهو أمرٌ يصعب تحقيقه بالنسبة إلى أشخاص لم يتدرَّبوا واجتمعوا للتوِّ في الساحة بشكلٍ عفويّ. وكما لو قرأت المجموعة أفكاري، تفكَّك فجأةً تشكيلها المثاليُّ وتلت ذلك حالةٌ من الفوضى (تبدو حقيقيَّةً تمامًا). كان مدرِّبهم رجلًا قصير القامة مرتديًا زيًّا عسكريًّا، أكاد لا أراه من مكاني. صرخ شخصٌ من المجموعة: «اِرحلْ»... ثمَّ بدأ صراخ الآخرين يتعالى مع صراخه. كان الأمر في البداية غير منظَّمٍ عمدًا، مع أنَّه بدا وكأنَّه عفويٌّ وحقيقيّ. اكتست الوجوه غضبًا لوهلة، ثمَّ انحنى شخصٌ آخر، أخذ من الأرض حجرًا وهميًّا، ورماه نحو مبنى

وهميّ. وفعل الآخرون بجواره الشيء نفسه. سرعان ما بدأ الجميع يرمون الحجارة، وأذهلني صوت كسر النوافذ، لكنَّ ديمبي التفت نحو مكبِّرات الصوت، ففهمت كلَّ شيء. بعد فترةٍ قصيرةٍ ردَّت «الشرطة» على الضربة ثمَّ بدأت في التقدُّم؛ لأنَّ لاعبي الجمباز، إذا جاز التعبير، اتَّخذوا موقفًا دفاعيًّا. كانوا يجثمون محاولين الخروج من الطوق الذي فرضه رجال الشرطة، فأخرجوا عصيًّا خشبيَّة زوِّدوا بها مسبقًا، وكأنَّنا أمام مشهد تدريب أيكيدو. كان القائد قد أوصى بتعليماتٍ واستخدام شتائم بصوتٍ جِلف: أيَّتها الكلبة، اركليه في خصيتَيْه، اسقطي أرضًا، اسقطي، اصرخي الآن، ازعقي... بملء صوتك، ازعقي، تبًّا لك، الكاميرات تصوِّرك، ارفعي صوتك... كان هذا الكلام موجَّهًا نحو امرأةٍ تصرخ على الأرض... يبدو أنَّ الأمور كانت تنتقل بسلاسةٍ إلى مرحلةٍ مختلفة، مرحلة الضحيَّة. فجأةً، ظهر رجلٌ أبيض الشعر، كان رأسه جريحًا. لم ألاحظه من قبل، كان الدم (طلاء أحمر) يسيل من صدغَيْه ويقطر على قميصه. مرَّر كفَّه على وجهه، ورفع أصابعه الملطَّخة بالدماء فوق رأسه، وكأنَّه أعطى إشارة، فبدأ الآخرون يصرخون في صوتٍ واحد: قَتَلَة!... قَ تَ لَة!... قَ تَ لَة!...

ارفع اليد للأعلى!... تقدَّمْ إلى الأمام قليلاً! كان يصرخ القائد القزم، يجب أن تلتقطك الكاميرات، انشر أصابعك...، حرِّكْ، حرِّك...، تصرَّفْ كَشخصٍ ينزف رأسه...، توجَّه نحو رجال الشرطة، نعم، نعم، استفزَّهم... حتَّى يضربوك... كي تصوِّرك الكاميرات...

أشار ديمبي بنظرةٍ إلى أنَّه يمكننا المغادرة لو أردتُ، فقد أصبح الجوُّ خانقًا.

هذه هي فرقتي المسرحيَّة، قال في الخارج، بينما ينفث الدخان من سيجارةٍ رفيعة برائحة الكرز. ثمَّ اتَّخذ وضعيَّةً مسرحيَّة وبدأ يطلق كلامه بسرعة:

«أبرع الممثِّلين في العالم... هم يجيدون المأساة والملهاة،
والمسرحيَّات التاريخيَّة، والريفيَّة، والريفيَّة الهزليَّة،
والريفيَّة التاريخيَّة، والمأسويَّة التاريخيَّة، والريفيَّة
التاريخيَّة الهزليَّة المأسويَّة، كما يجيدون تمثيل المشهد
اللَّا يجزأ والقصيدة اللَّا تُحد. لا يتصعَّبون سِنِكا، ولا
يستحينون بلاوطوس، وسواءٌ ألدَيْهم ما تقيَّد
بقوانين الكتابة أو ما تحرَّر منها. إنَّهم وحدهم الممثِّلون[1]»

«هاملت»، الفصل الثاني، المشهد الثاني، أحفظ ذلك عن ظهر قلب، لقد تقدَّمت به في امتحان القبول في الأكاديميَّة الوطنيَّة لفنون المسرح والسينما قبل سنوات، وقد فشلت... لكن لديَّ الآن مدرسةٌ مسرحيَّة خاصَّة... أدعو من حينٍ إلى آخر بعض الأساتذة كي يدرِّسوا فيها. أولئك الذين رسَّبوني في الامتحانات في الماضي... أدفع لهم بعض النقود اليوم.

إذن، هؤلاء هم كومبارس الثورات، قلت.

البعض منهم. كانت تلك بروفة لمفرزة الاحتجاج، لكن لدَيْنا كثيرٌ من الأشياء الأخرى... كثيرٌ من الأشياء، قال مجدَّدًا.

(1) هاملت، شكسبير، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا.

فكَّرت في سرِّي أنَّه بوجود مئة شخصٍ تمَّ تدريبهم على هذا النحو، أو ربَّما أقلَّ من ذلك، يمكنك هزُّ أركان السلطة بشكلٍ خطير، والتسبُّب في فضيحةٍ دوليَّة، والدخول في الأخبار العاجلة لوكالات الأنباء... ثمَّ بُحت به له.

أعرف، أجاب. ولكن لماذا عليَّ أن أفعل ذلك؟ ليس هناك شخصٌ تسلَّم بعدها زمام الحكم. يمكنني تدمير النظام وقلْبه رأسًا على عقب، لكن لا يمكنني العناية بصيانة الجهاز الجديد... أو النظام، سمِّه ما شئت. وأيًّا كان الذي سيأتي بعد ذلك الانقلاب المزيَّف، سوف يجتاحنا نحن أيضًا. إذا كان هناك شيءٌ يشبه دولةً تحافظ على نوعٍ من النظام، فهذا أمرٌ مفيد بالنِّسبة إلينا. لأنَّنا نعيش في هذا الوسط الغذائي. ونحن مثل فيروس في جسد الدولة. إذا كان الجسد ضعيفًا، فذلك أمرٌ في صالحنا، ولكن، إذا تلاشى، سنتلاشى نحن معه. إذن، ليس لديَّ أيُّ طموحاتٍ سياسيَّة. بالمناسبة، لقد حاولتُ تنفيذ بعض المشاريع الاجتماعيَّة بالمبدأ نفسه.

و... ؟

و... لا شيء، تفاهة... «تاراتانتسي»... (كلمةٌ بلغاريَّة عمرها 40 عامًا، كنَّا نستخدمها في حَيِّنا).

رغم أنَّ أحدها كان مشروعًا رائعًا، قال ديمبي.

- 17 -

حان وقت الغداء. جلسنا في منطقة «الزوايا الخمس الصغيرة» في مقهى سُمِّيَ قبل سنوات «الشمس والقمر». لأوَّل وهلةٍ يبدو كلُّ شيءٍ هناك ما زال على حاله، وحتّى اسمه ظلَّ كما كان. الفتى الذي جاء بقائمة الطعام، كان صاحب لحيةٍ طويلة على نمطِ آخر صَيْحات الموضة، وهو يشبه الشاعر الثوريَّ خريستو بوتيف. (أصحاب هذه اللحى يشبهون بوتيف دائمًا). تلا الفتى أسماء أطباق الغداء الخاصَّة: الزبادي البلغاريّ، لحم الضأن البلغاريّ مع صلصة النعناع، البيض المطهيّ على طريقة «باناغيوريشته» من الدجاج «المحرّر» (هكذا قال)، باجة العجل مع كرنب بروكسل وتوابل بلغاريَّة، وبغاشة الحنطة المحضَّرة حسب وصفةٍ تقليديَّة. وللتحلية كعكة كرز «انتفاضة نيسان» أو كريم بروليه على طريقة «ساموكوف». اخترنا من دون إبطاءٍ طبقًا من لحم الخروف البلغاريّ. ولم يكن ديمبي معجبًا بقائمة الطعام على عكسي.

كان مشروعًا رائعًا اجتماعيًا، قال مرَّةً أخرى. تعرف، المدن والقرى تعجُّ اليوم بأناسٍ مسنِّين، لقد غادر أولادهم إلى الخارج... بعضهم في التسعينيَّات، وبعضهم الآخر بعد ذلك. لم يعودوا منذ سنوات، وهناك في الخارج يولد أولادُ أولادِهم، ولا أحد يعتني بآبائهم في بلغاريا. يعني، وحدةً ثقيلة، مرضًا لا يسجِّلونه في السجلَّات الطبِّيَّة، وهو برأيي السَّبب الأساسيُّ للوفيَّات هنا. لَمَّا بدأتُ أشتغل بالعروض المسرحيَّة، سافرتُ إلى جميع أرجاء البلاد وشاهدت هؤلاء الناس، منهم كبار السنّ، ومنهم أشخاصٌ في عمرنا، وحكاياتهم متشابهة. في مكانٍ ما غادرت الزوجة إلى إسبانيا أو إيطاليا لرعاية المرضى، وكانت ترسل أموالًا إلى أسرتها، وبقي الزوج هنا عاطلًا عن العمل. في البداية كانت تعود إلى البلد كلَّ شهريْن أو ثلاثة أشهر، ثمَّ كلَّ نصف عام، ثمَّ توقَّفت عن العودة، أوَّلًا، لأنَّ السفر باهظ الثمن، وثانيًا، لأنَّها وجدت حبيبًا في الخارج. في مكانٍ آخر غادر الزوج، لكنَّ القصَّة هي نفسها. يعمل أحد الزوجَيْن في الخارج، ويرسل الأموال إلى الأسرة، ويبقى الآخر في الوطن مع الأطفال، إذا كان لديْهما أطفال. جيلٌ كاملٌ لا يرى أمَّهاته إلَّا على السكايب... جيلٌ كامل له أمَّهات سكايب. وقتها قلت لنفسي: لماذا لا أقوم بذلك، حتَّى يتمكَّن هؤلاء من «استئجار زوجة» مرَّةً في الأسبوع، يوم السبت أو الأحد، بحيث يمكنهم طبخ حساء الدجاج معًا، والجلوس في المقهى، والدردشة، في الوقت الذي سيشعر فيه الأطفال بحنان الأمّ. وليس من الضروريِّ أن تشبه والدتهم، أنا لا أبحث عن نظراء، تعرف، بالنِّسبة إلى اليتيم، كلُّ امرأةٍ أمٌّ وكلُّ رجلٍ أب. لقد عرضت آباء أيضًا. وكانت الأسعار رخيصة؛ لأنَّني لم أكن أريد أيَّ شيءٍ لنفسي، فقد كان لديَّ ما يكفي من المال.

في البداية اعتبر الناس المشروع سخيفًا، إذ لم يفهموا لبَّ فكرته. فكان من الأسهل عليهم أن يعثروا على شخصٍ ما لليلةٍ واحدة. لكنَّ الجنس لم يكن جزءًا من مشروعي. كانت هناك عدَّة حوادث في البداية، فقد حاول بعض الزبائن اغتصاب اثنتيْن من النساء اللَّاتي تمَّ تعيينهنَّ كزوجاتٍ ليوم السبت. كان ذلك قبل خمس أو ستِّ سنوات. أعتقد أنَّه في اليابان يفعلون الآن شيئًا من هذا القبيل. لعلَّ الأفكار مثل هذه تحوم في الهواء.

إنَّها فكرةٌ عظيمة، قلت بإخلاص. أعرف شخصًا سيقدِّرها. وطبعًا، كنت أقصد غاوسطين.

ابتسم ابتسامة متشكِّكٍ: على أيِّ حال، يبدو أنَّه تنتظرنا وحدةٌ رهيبة.

كان طعم كريم البروليه عاديًّا ولا يختلف عن بقيَّة أنواع كريم البروليه الأخرى. لماذا يسمُّونه «على طريقة ساموكوف»، سألت «بوتيف» بينما ندفع الحساب. لأنَّ الطبَّاخة من مدينة ساموكوف، أجاب النادل.

عاد ديمبي إلى مكتبه كي يعمل. قال لي: هناك فرصةٌ لتحقيق مكاسب في فترة ما قبل الانتخابات. وكما تعلم، فحصاد يومٍ يطعمك سنة. أخبرته أنَّني سأتَّصل به مرَّةً أخرى وأنَّ لديَّ فكرة.

حسنًا، يا جو، تعال وأنقذْني عندما تتأجَّج الأمور، صاح وهو يبتعد.

جو... تذكَّرتُ أنَّنا كنا نادي بعضنا البعض بهذا الاسم في المدرسة. «جو الليموناضيّ»... كان هناك فيلم رعاة بقرٍ تشيكيّ بهذا العنوان، وكنَّا مثل البطل، نكتسب قوى خارقةً عندما نشرب الليموناضة. كنت أشاهد كيف يختفي ديمبي في شارع «غراف إغناتيف» باتِّجاه

الحديقة أمام كنيسة «القدّيسون السبعة»، ومرَّةً أخرى، في هذه الزيارة شعرت بوحدةٍ شديدة. مثل بطلٍ خارق فَقَدَ بغتةً قواه الخارقة... مثل شخصٍ سافر إلى المستقبل وكلُّ من يعرفه قد مات... مثل طفلٍ ضائع في مدينةٍ غير مألوفة، كما حدث لي ذات مرَّة، عند حلول الظلام، بينما كان الناس يسارعون إلى منازلهم ولم يتوقَّف أحدٌ لمساعدتي... هنالك دائمًا لحظةٌ يشيخ فيها المرءُ فجأةً أو يُدرك ذلك فجأة. ربَّما في مثل هذه اللحظات تهرول مذعورًا وراء آخر عربات الماضي التي تذوب في الظلام. هذا الحنين إلى الوراء ينطبق بالتساوي على الأفراد والدول.

كنت بحاجةٍ ملحَّةٍ لأثمل فورًا بالليموناضة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-18-

جلست قبيل العصر مع الكمبيوتر المحمول على شرفة الشقَّة التي استأجرتها. كانت في بنايةٍ جميلة، يعود تاريخها إلى مطلع القرن العشرين، وربَّما كانت أوَّل تعاونيَّةٍ سكنيَّة في صوفيا، في حال كانت اللَّافتة المعلَّقة على المدخل صحيحة. عمارةٌ أوروبيَّة رائعة من تلك التي يمكن رؤيتها في براغ أو فيينا أو بلغراد. الشرفة تطلُّ على فناءٍ داخليّ يبدو عامًّا، بالنَّظر إلى درجة إهماله.

بعد كلِّ ما رأيته وسمعته في الأيَّام القليلة الماضية، وبعد ما أظهره لي ديمبي، أردت أن أعرف إلى أين وصلت المعركة من أجل الماضي.

كانت شبكة الإنترنت تغلي، فَما رأيته في الأخبار والشارع تضاعف مرَّاتٍ عديدةً على المواقع ووسائل التواصل الاجتماعيّ. لقد أظهرت معظم استطلاعات الرأي نتائج متساويةً تقريبًا للحركتَيْن الرئيسيَّتَيْن، حيث لم يتجاوز الفرق أعشارًا من النِّسبة المئويَّة، وهي نسبةٌ تقع ضمن

الخطأ الإحصائيّ. بالطبع، هنا لا نحسب الدِّراسات السوسيولوجيَّة التي تموِّلها الحركات نفسها؛ والطريف أنَّ كلا الحركتَيْن منحت نفسَيْهما التقدُّم بفارق ثماني نقاط. أمَّا «حركة العقلانيَّة» التي انضمَّ إليها أساتذةٌ جامعيُّون ومثقَّفون، ومن بينهم ك. ، فقد كانت متخلِّفةً بفارقٍ كبير، إلى جانب حركة حماية البيئة المعروفة أيضًا بحركة الشباب الخضراء، التي لقَّبها المتصيِّدون في الإنترنت فورًا بـِ«شباب وأغرار». لقد حاولت الحركتان أن تتَّحدا في ائتلاف، وعلى الرَّغم من عدم تشكيله، فقد أطلقوا عليه اسم «الأذكياء والخضر». في الواقع، كانت الحركتان تميلان إلى إبقاء الدولة في الحاضر، رغم أنَّ قادتهما أدلوا بتصريحاتٍ متناقضة تمامًا.

كتبت في غوغل الكلمة المفتاحيَّة «الأبطال» وإذ ببلغاريا تمتدُّ كلُّها أمام عينيّ. كانت الشبكة تعجُّ بكافَّة أنواع النوادي المتخصِّصة في العروض المسرحيَّة التاريخيَّة، والجمعيَّات الوطنيَّة، وجماعاتٍ صغيرة وكبيرة، ومواقع للدعاية، وورش المنسوجات لخياطة أعلام المتمرِّدين، وإعلاناتٍ عن عرض الأزياء المحلِّيَّة بجميع أنواعها المتاحة، والبدلات الرياضيَّة المطرَّزة بشعار «الحرِّيَّة أو الموت»، وقمصان بدون أكمام، وملابس داخليَّةٍ مختوم عليها «بلغاريا على البحار الثلاثة»، وصالونات الوشوم الوطنيَّة... تذكَّرت ما قاله لي ديمبي في مكتبه: لستُ من كبار اللَّاعبين، لكنَّهم يلجأون إلى خدماتي؛ لأنَّني أعمل بشكلٍ مختلف، نعم، ربما أصنع فنًّا هابطًا، لكنَّه على الأقلّ من مستوى رفيع.

كانت صفحات فيسبوك لهذه الجمعيَّات تتمتَّع بشعبيَّةٍ استثنائيَّة. وكانت كلُّ الصور الشخصيَّة مستوحاةً من الثورة، وكان لدى أعضاء الجمعيَّات وشومٌ على الذراع والصدر، حتَّى أنَّ بعضهم وشموا ظهورهم بالملحمة التاريخيَّة الكاملة لمعركة معبر شيبكا.

كانت نوادي العروض المسرحيَّة التاريخيَّة تتفوَّق على الأخرى من حيث العدد، وتشمل مئاتٍ من الأعضاء والمتطوِّعين. وإذا أحصيتَ الأسلحة، والبنادق، والخناجر، والسيوف، والمسدَّسات والرشَّاشات التي كانت بحوزتهم جميعًا، فمن المؤكَّد أنَّها ستكون أكبر من ترسانة الجيش البلغاريِّ بكاملها. وبمعنًى ما، يمكنها أن تمثِّل (وعلى الأرجح كانت كذلك) وحداتٍ قتاليَّةً حقيقيَّة مُقَنَّعَة.

من البديهيِّ أنَّ تلك المواقع تتمتَّع بدعم مؤسَّسات الدولة. فعلى موقع جمعيَّة «هايدوتي» مثلًا، نَرَى صورة العديد من الرجال المدجَّجين بخناجر ومسدَّساتٍ في أحزمتهم، وهم يقفون في قاعةٍ دراسيَّة أمام أطفالٍ خائفين. ربَّما كان ذلك أثناء درس التربية الوطنيَّة (وهي مادَّةٌ دخلت البرنامج التعليميَّ في الآونة الأخيرة)؛ إذ كانت المعلِّمة التي ترتدي فستانًا تقليديًّا أزرق، وعلى رأسها إكليلٌ من الزهور، تتلمَّس متحمِّسةً خنجر أكثر الرجال دمويَّة. بعد ذلك «مُنح الأطفال الفرصة لرؤية الأسلحة التقليديَّة عن قرب»، كما جاء في التعليق في أسفل الصورة. وكان يُلاحظ فيها طالبٌ في الثامنة أو التاسعة من العمر يمسك بمسدَّسٍ بكلتا يديْه ويصوِّبه نحو السبُّورة، ويحاول طالبٌ آخر في العمر نفسه سحب سيفٍ من غمده أمام وجوه الرجال المبتسمين، على الرَّغم من أنَّ إدخال الأسلحة إلى المدارس أمرٌ محظور رسميًّا. وقد قام المسؤولون عن الموقع بالتعبير عن شكرهم الخاصِّ للشركات الوطنيَّة التي تبرَّعت بأموالٍ لتعليم أبنائنا البلغار.

ونشرت الجمعيَّة نفسها على صفحةٍ أخرى من موقعها، مقطع فيديو لتمثيليَّةٍ يعرض فيها تقطيع أوصال بلقانجي إيوفو الذي رفض تسليم أخته يانا الجميلة إلى أيدي الأتراك العثمانيِّين. استخدموا من

أجل تحقيق هذه الغاية، عارض أزياء مرتديًا زيًّا وطنيًّا متقمّصًا دور بلقانجي إيوفو. ثمَّ اتَّضح أنَّه تمَّ ايقاف هذه التمثيليَّة؛ إذ أُغمي على عددٍ من الأطفال أثناء مشاهدتها. وقرأت في باب «أحداث مستقبليَّة» أنَّهم يعدُّون تمثيليَّة شنق البطل الثوريِّ فاسيل ليفسكي والمذبحة في بلدة باتاك التي وقعت في بداية انتفاضة نيسان.

كانت الشمس الحمراء تتدحرج فوق جبل فيتوشا مثل رأس متمرِّدٍ مقطوع. وامتلأ الهواء عند حلول المساء، برائحة فلفلٍ مشويّ... قويَّةٍ ومحبَّبةٍ وبلغاريَّة بكلِّ معنى الكلمة... إذا كنتُ وطنيًّا لسببٍ ما، فإنَّ ذلك يرتبط بالتَّأكيد بهذه الرائحة التي تملأ الجوَّ قبيل الأصيل. من مكانٍ آخر كانت تتضوَّع رائحة كفتة مقليَّة، ويُسمع صوت التلفزيون... كانت الحياة تستمرُّ بكلِّ روائحها، وتوابلها، وكفتتها وصخبها. برد الجوُّ قليلًا، فنهضت، وارتديت جاكيتي، وهممت بالاطِّلاع على مواقع الحركة من أجل الاشتراكيَّة.

-19-

لقد استحوذ نشطاء «سوتسا» أيضًا على وسائل الإعلام الجديدة، أو «استولوا عليها»، كما يقولون هم أنفسهم. كان شبح الشيوعيَّة يطوف في شبكة الإنترنت، وكانت الشعارات والهدايا التذكاريَّة القديمة قد تحوَّلت إلى رموزٍ مرَّةً أخرى. متى حدث كلُّ ذلك؟ ها هو موقع: «دعنا نُعيد الاشتراكيَّة، يا رفقاء»، نِصْفُهُ مكتوبٌ باللغة الروسيَّة، ويبثُّ فيه مقطعُ فيديو على الفور، نرى فيه لقطاتٍ أرشيفيَّةً لأطفالٍ «يربِّتون»، وفقًا للتقليد البلغاريّ، على ظهور الأمين العامّ وأعضاء المكتب السياسيّ بعصيٍّ مزخرفة لتمنِّي المزيد من الصحَّة لهم، أثناء حفلة عيد رأس السنة في مقرّ «بويانا» للحزب الشيوعيّ البلغاريّ، في وقتٍ ما، في أواخر السبعينيَّات. أمَّا المسنُّون فكانوا حائرين، مرتبكين، يربِّتون بأيديهم التي تشبه مخالب الدببة، على رؤوس الأطفال محاولين تقبيلهم. تمسح فتاةٌ صغيرة وجهها بكمِّها بطريقةٍ مقرفة، فيسرع المصوِّر في تغيير زاوية التصوير.

اللَّافت أنَّ الموقع بكامله يعجُّ بشعاراتٍ مقفَّاة على نحوٍ رديء، مثل تلك الموجودة في دفتر مُذكَّرات التلاميذ، وبالكثير من صور الرفيق تودور جيفكوف ورئيس الاتِّحاد السوفييتيّ ليونيد بريجنيف، وصور ستالين، ولقطاتٍ من الحرب العالميَّة الثانية، وصور سيَّارات «لادا»...

بقبضاتٍ قويَّة كلَّ يوم

العدو سيتحطَّم

واستمرَّت الحكاية اليساريَّة ركيكةً كما كانت في البداية.

قلتُ في نفسي إنَّه يجب علينا أن ننسى أشياءً كثيرة كي نواصل طريقنا إلى الأمام، وكي يبقى صَمغ هذه الحكاية صالحًا؛ أن ننسى الهجوم الإرهابيَّ عام 1925 في كنيسة «القديسة نيديليا»؛ وجميع الناس الذين قُتِلوا ودُفِنوا في مقابر جماعيَّةٍ إثر ذلك الانقلاب؛ وأولئك الذين ضُربوا ودُعسوا بالأحذية ثمَّ أُرسِلوا إلى المعسكرات؛ والذين لُوحِقوا، وتعرَّضوا للخداع، والفصل من العمل، والحظر، والإذلال... يجب أن ننساهم، ثمَّ ننسى أنَّنا ننساهم... فالنسيان يتطلَّب الكثير من العمل، إذ عليك أن تتذكَّر باستمرارٍ أنَّه يجب عليك أن تنسى شيئًا ما. على ما يبدو، هذه هي المهمَّة الرئيسيَّة لكلِّ أيديولوجيا.

أرغب في التدخين... أريد سجائر حادَّةً وثقيلة كتلك التي كانت في الماضي. لم أكن أريد البقاء في الشقَّة فخرجت. مررتُ بالحديقة الصغيرة أمام كنيسة «القديسة صوفيا» ووجدت نفسي خلف تمثال الملك صموئيل الذي نُصب هناك منذ سنواتٍ قليلة. كان النحَّات قد وضع مصباحَيْن صغيرين من نوع LED في مكان العيْنَيْن، ممَّا أثار رعب المارَّة والقطط. حمدًا للَّـه أنَّ الأضواء انطفأت بعد شهرَيْن ولم يكلِّف أحدٌ نفسه عناء تغييرها.

إذا كان هناك شيءٌ يمكنه أن ينقذ هذا البلد من كلِّ هذا الفنِّ الهابط الذي يُغرقه، سيكون الكسل واللّامبالاة فقط. ما يدمِّر البلد هو ما يحميه. فالدول اللّامباليَّة والكسولة لا يمكن أن ينتصر فيها الفنُّ الهابط أو الشرُّ لفترةٍ طويلة؛ لأنَّهما يتطلَّبان أيضًا جهدًا ومتابعة. هكذا كانت نظريَّتي المتفائلة، لكنَّ صوتًا داخل رأسي كان يقول لي: عندما تكون المعاناة مكتوبةً على الإنسان، فإنَّ الأخير سيتغلَّب على كسله.

كنت أتجوَّل في الشوارع، ويصدح في رأسي صراخ «الأبطال» والشيوعيِّين الفيسبوكيِّين، وتلفُّني برودة الهواء الليليّ، حتَّى أدرك في النهاية، أنَّ هناك وطنين بلغاريَّين، لكنَّ وطني ليس بينهما.

جلست بجانب التمثال ذي العيْنَيْن المتوهِّجتَيْن اللتَيْن لم تعودا تتوهجان. كنت أبدو منهكًا ومكتئبًا للغاية، كما جاء في تلك النكتة القديمة: هل أنت كاتب؟ لا، لست كاتبًا، أنا فقط أعاني من آثار الثمالة.

مرَّ بجانبي شباب، كانوا يبدون كَمَنْ حشَّشَ للتوّ، التفتوا إليَّ صائحين: يا عم، لا تضيِّع وقتك في حراسة هذا الملك، لا تخفْ، إنَّه لن يهرب من هنا! ثمَّ مضوا ضاحكين. قلت في نفسي إنَّ كلماتهم كانت الأكثر عقلانيَّةً مقارنةً بما سمعته في الأيَّام الماضية. ولو كان ممكنًا، لنهضت وانضممت إليهم.

هذه المدينة كان يجب أن تكون مدينتي... كان يجب أن يتدحرج ماضيي في هذه الشوارع، وأن يطلَّ من كلِّ زاويةٍ ويكلِّمني، لكن يبدو أنَّنا لم نَعُد نتحدَّث.

ـ20ـ

أكتشفُ أنَّ التواصل في هذه المدينة قد انقطع على كافَّة المستويات، حيث لا ارتباط بين المهن المختلفة، ولا يتواصل الأطباء مع المرضى، ولا البائعون مع الزبائن، ولا سائقو سيَّارات الأجرة مع الركَّاب، ولا الناس داخل النقابات، ولا يتحدَّث أيُّ كاتبٍ مع آخر. وكذلك لا يتواصل أفراد العائلات في المنزل مع بعضهم البعض، ولا الأزواج مع الزوجات، ولا الأمَّهات والآباء. كأنَّ كلَّ مواضيع الحديث قد انقرضت فجأةً مثل الديناصورات، أو ماتت في ظروفٍ غامضة كالنحل، أو تبخَّرت من خلال جهاز تهوية المطبخ أو النافذة الصغيرة في الحمَّام عبر الناموسيَّة الممزَّقة فيها.

وها هما الآن يقفان، هو وهي، عاجزين عن التذكُّر متى وأين انقطع خيط الحديث بينهما. وفي لحظةٍ ما تصمت. وكلَّما مرَّ الوقت، صار الحوار مستحيلًا. إنَّ الأمر بسيط، فالصمت يولِّد صمتًا. في البداية تريد أن تقول شيئًا، تقوله أوَّلًا في سرِّك، تأخذ نفسًا، تفتح فمك، ثمَّ تتخلَّى عن ذلك، وتغلق الباب في داخلك.

أعرف أسرةً لم يتحدَّث فيها الزوج مع زوجته على مدى 40 عامًا، أي طوال حياتهما المشتركة تقريبًا. لقد تشاجرا، وبما أنَّهما لم يعودا يتذكَّران سبب تلك المشاجرة، فإنَّ فرصة تصالحهما كانت ضئيلة، بل معدومة. وهكذا، ربَّى الزوجان أولادهما في صمت، وكبر الأولاد، وتركوا البيت. وفي المناسبات النادرة التي كانوا يعودون فيها إلى المنزل، يتحدَّث الوالدان مع بعضهما البعض بوساطة الأولاد: اسألْ والدك أين وضع المقص؛ قلْ لوالدتك ألَّا تضع الكثير من الملح في شوربة العدس.

وعندما أخذهما الأولاد إلى العيادة، كانا عاجزين عن الكلام تمامًا. وبدا لي أنَّهما لم يعودا يعرفان بعضهما البعض.

عندما يغادرك الأشخاص الذين قاسموك الماضي، فإنَّهم يأخذون نصفه معهم. أو في الواقع يأخذونه كلَّه؛ لأنَّه لا يوجد نصف ماض. كأنَّك مزَّقت صفحةً ما عموديًّا إلى قسمَيْن وأخذت تقرأ الجمل من بدايتها إلى وسطها، والآخر يقرأ أواخرها، فلا أحد من الاثنين يفهم شيئًا. والشخص الذي كان يُمسك بنصف الصفحة الآخر لم يَعُد موجودًا... ذلك الذي كان قريبًا منك في كلِّ الأيَّام والصباحات وأوقات الظهيرة والمساءات والليالي والشهور والسنين... وليس هناك من يؤكِّده، أو من تعزف معه الماضي. عندما هجرتني زوجتي، بدا لي أنَّني أضعت نصف الماضي، لكنَّني في الواقع، لقد أضعته كلَّه.

لا يمكن عزف الماضي إلَّا بأربع أيادٍ... بأربعٍ على الأقلّ.

ـ 21 ـ
السجل الزمنيُّ للأحداث

تطوَّرت الأحداث باختصارٍ كالتالي:

ثلاثة أيَّامٍ قبل الاستفتاء، قدَّمت حركة العقلانيَّة معلوماتٍ متعلِّقةً بتورُّط قراصنةٍ روس في دعم الحركة من أجل الاشتراكيَّة.

في الليلة نفسها، ضُرِب ثلاثة أعضاء من حركة العقلانيَّة في منازلهم، بما فيهم صديقي ك.

لقد مرَّ يوم الانتخابات مع ظهور عشرات التقارير عن حدوث مخالفاتٍ في مراكز الاقتراع، وقد تمَّ تجاهلها.

أشارت نتائج الانتخابات الأولى إلى النسب نفسها تقريبًا للحركة من أجل الاشتراكيَّة وحركة «الأبطال»، حيث لم يخرج الفارق بينهما عن مقدار الخطأ الإحصائيّ.

وخلال المؤتمرات الصحفيَّة التي عُقِدت في الساعات المتأخِّرة من الليل، لاحظ المحلِّلون وجود نبرةٍ سلميَّةٍ في الحوار بين زعيمي الحركتَيْن والتقارب في موقفهما.

في اليوم التالي، بعد إعلان النتائج النهائيَّة، التي أظهرت انتصار الحركة من أجل الاشتراكيَّة بفارق ثلاثة أعشار في المئة، خرجت زعيمة الحركة مرتديةً بدلةً حمراء، ورحَّبت بجميع مؤيِّديها ترحيبًا حماسيًّا، ودعت إلى المنصَّة... «شيخ» «الأبطال». الأمر الذي صدم المراقبين الجالسين في قاعة المؤتمر الصحفيّ. إضافةً إلى ذلك، أعلنت الزعيمة أنَّ اللجنة المركزيَّة، بعد إجراء جلسةٍ قصيرة، قرَّرت تشكيل ائتلافٍ مع حركة الأبطال بهدف الحفاظ على وحدة الأمَّة، نظرًا لانقسام الأصوات بالتساوي بين الحركتَيْن. رفعت صوتها قائلة: من أجل خير الأمّ بلغاريا، ومن أجل الحفاظ على تراث الرفيق غيورغي ديميتروف والخان كوبرات، ثمَّ انحنت مع شيخ «الأبطال» والتقطتا معًا حزمةً من العصيّ التي كان من الواضح أنَّها معدَّةٌ مسبقًا محاولين كسرها، لكنَّهما بالطبع لم ينجحا[1]. فرفعاها فوق رأسَيْهما وقالا بصوتٍ واحد: ليكن شعبنا موحَّدًا مثل هذه الحزمة، في الأفراح والأحزان، في السعادة والتعاسة!

كان هذا الكلام يشبه التمنِّيات الموجَّهة إلى عروسَيْن في يوم زواجهما.

كان من البديهيّ، أنَّهم اتَّخذوا القرار بشأن توحيد الحركتَيْن قبل أسبوع على الأقلّ (إن لم يكن قبل ذلك) وبعد ظهور نتائج الانتخابات

(1) تقول الحكاية إنَّ الخان كوبرات أعطى أبناءه حزمةً من العصيّ طالبًا منهم كسرها. حاول كلٌّ منهم كسر الحزمة، لكن لم ينجح أحد. ثمَّ فكَّ كوبرات الحزمة وبدأ في كسر العصيّ واحدةً تلو الأخرى. ونظر إلى أبنائه، قائلًا: «طالما أنَّكم معًا ويدعم بعضكم بعضًا، فستكونون مثل حزمة العصيّ هذه، ولن يتمكَّن أحدٌ من هزيمتكم. أمَّا إذا تفرَّقتم، فستصبحون ضعفاء وتسهل هزيمتكم».

المتوقَّعة كشفوا عمَّا قرَّروه مسبقًا. رغم أنَّ ذلك لم يكن كلَّ شيء، فبدلًا من اختيار عقدٍ معيَّن، اختارت بلغاريا بعد تردُّدٍ طويل، مزيجًا زمنيًّا غريبًا يشبه وجبة طاجن التورلي التي تضمُّ العديد من الخضروات أو طبق المشاوي بجميع أنواع اللحوم... لو سمحتم، نريد القليل من الاشتراكيَّة، نعم، نعم، من تلك التي بجانب الليوتينيتسا. ووجبةً من النهضة البلغاريَّة، لكن من منزوعة العظم وكثيرة الدسم تلك...

رجالٌ في أزياءٍ وطنيَّة ينامون بجانب نساءٍ تعود موضة تسريحات شعرهنَّ لأيَّام الاشتراكيَّة.

كان الجزء الثاني من الخطاب أكثر راديكاليَّة. سكتت الزعيمة لوهلة، كأنَّها تهمُّ بالإعلان عن قرارٍ صعب، وأكَّدت أنَّ الزعيمَيْن اتَّفقا على انسحاب البلد من الاتِّحاد الأوروبيّ والانطلاق في طريقٍ جديدٍ نحو أمَّةٍ متجانسةٍ ونقيَّة، وفيَّةٍ لعهود المتمرِّدين والفدائيِّين البلغار...

لم يتوقَّع المراقبون الأجانب أنَّ بلغاريا ستتخلَّى عن الاتِّفاق بهذه السرعة، وستصبح أوَّل دولةٍ تخرج من الاتِّحاد الأوروبيِّ بعد الاستفتاء. فلم يكن من عاداتها أن تحتلَّ المركز الأوَّل في أيِّ مجال.

«أصبحت الأمَّة مؤمَّمةً والوطن موطَّنًا». كتبتُ ذلك في فيسبوك. وبعد أقلّ من ساعةٍ تمَّ الإبلاغ عنِّي وحظر حسابي.

أخذت الطائرة في اليوم التالي وغادرت.

بعد يومَيْن أُغلِقت حدود بلغاريا.

بعد دكتاتوريَّة المستقبل تأتي دكتاتوريَّة الماضي كما يقول صديقي ك.

من الأفضل لك أن تعرف وطنك جيِّدًا كي تغادره قبل أن تقع في الفخّ.

لقد عشت ما سيحدث.

-22-

كنت أستطيع أن أتخيَّل ما سيحدث منذ ذلك الحين وأن أكتبه على عجلٍ في دفتري:

من يريد إعادة زمن الاشتراكيَّة سيحصل على حزمةٍ مجَّانيَّة فيها حظرٌ لعمليَّات الإجهاض، واشتراكٌ في صحيفة «شؤون العمَّال»، ومنعٌ من السفر، وعمليَّات تفتيشٍ مفاجئة، ونقصٌ في الفُوَط الصحِّيَّة. (من لا يريد الاشتراكيَّة سيحظى أيضًا بما ذُكر آنفًا). ستختفي بضائع مختلفةٌ من المتاجر تدريجيًّا. وستغادر شركة «إيكيا» البلاد، ومَنْ اعتبر زيارتها يوم الأحد بمثابة متعة الأسبوع، سيشعر فجأةً وكأنَّه يتيم... ستغلق شركات «بيجو» و«فولكس فاجن» وبقيَّة الشركات الغربيَّة متاجرها في البلاد، لكنَّ مصنع «كريميكوفتسي» سيستأنف عمله، بحيث ستطلق مداخنه وابلًا من الدخان الأسود مرَّاتٍ متتاليةً للإعلان عن هذا الحدث. ستختفي الواقيات الذكريَّة، وستظهر واقياتٌ بلغاريَّة مصنوعة من المطَّاط المخفَّف المغطَّى ببودرة التلك، وسنتمكَّن من الحصول عليها في السوق السوداء،

أو بوساطة أصدقاء أو معارف... ستحلُّ الصحف المقطَّعة إلى قطعٍ مستطيلةٍ مكان ورق التواليت المفقودة في المراحيض. كما أنَّ تصرُّف المنشقِّين السابق المتمثِّل في استخدام قصاصة الصحيفة التي تحمل صورة السكرتير الأوَّل لمسح مؤخِّراتهم ستعود إلى الموضة مرَّةً أخرى. ستستعيد أجهزة الراديو قيمتها من جديد، ولا سيَّما Selena وVEF التي يمكنٍ من خلالها التقاط المحطَّات المحظورة... إذاعة «أوروبَّا الحرَّة» التي أُغلقت قبل سنواتٍ كونها لم تَعُد ضروريَّةً في العصر الديموقراطيّ، ستفتح مقرَّها الرَّئيسيَّ في براغ من جديد، وستعتقل الميليشيات الشعبيَّة مستمعيها في الصباح الباكر وسيقتادونهم بسيَّارات «لادا».

في البداية سيظنُّ الناس أنَّ كلَّ ذلك مجرَّد لعبة، لكنَّ الميليشيا سرعان ما ستتمكَّن من شرح الأمور بشكلٍ واضحٍ وقاطع... ستعود إلى العمل من جديدٍ تلك الأسلحة القديمة الجيِّدة التي كانت موجودةً قبل زمن الليبراليَّة المتواضعة: لكمةٌ في البطن، لوي الذراعِ، تكسير الأصابع، ضربٌ بالهراوات، ركلاتٌ في الضلوع. ربَّما في ظلِّ التحالف الجديد سيرتدي رجال الميليشيَّات قبَّعات قلباق بدلًا من قبَّعات الشرطة. لن تواجه شبكة المخابرات أيَّ مشكلة، لأنَّه لم يتمَّ حلُّها أبدًا، ولم يُنزَع عنها طابعها المهنيّ، كما يصرِّح أعضاؤها بفخر، فمن الطبيعيِّ أن تستمرَّ المخابرات في عملها من تلك النقطة التي توقَّفت عندها، رغم أنَّها لم تتوقَّف أبدًا.

ستُصادَر جوازات السفر الدوليَّة؛ سيُعاد بناء الأسوار على طول الحدود الوطنيَّة في زمنٍ قياسيّ، رغم أنَّهم بدأوا بناءه قبل الاستفتاء، بسبب تدفُّق اللَّاجئين. وستعود قوَّات حرس الحدود الوطنيَّة إلى مواقعها المهجورة. وستعرض المتاجر ملابس جاهزةً من عدَّة موديلات شائعة. وسرعان ما ستتغيَّر الموضة في الشوارع، فيزداد عدد النساء اللواتي يرتدين بدلاتٍ من الموديل نفسه، ولن يكون هناك شيءٌ جديد سوى الفساتين الوطنيَّة المنمنمة. ومن

جديدٍ سيتمُّ إنتاج الجينز البلغاريّ من ماركتي «ريلا» و«باناكا». أتذكَّر في الماضي أنَّه بعد شرائنا الجينز البلغاريّ، كنَّا نسارع إلى إزالة ملصقاته لنضع مكانها ملصقات Rifle وLevi's، ولا أعرف حتَّى الآن من أين كنَّا نحصل عليها. وإلى جانب الجينز البلغاريّ ستظهر قمصان بيضاء بتطريزٍ فولكلوريّ، وقمصان تحمل صورة الخان أسباروخ، وأحزمةٌ عريضة تقليديَّة.

ستثير الصحف والتلفزيون كراهيَّة مَن نَسِيَ ذلك الوقت. ستكون قراءة الصحف الحكوميَّة عذابًا حقيقيًّا. ستنتهي برامج التليفزيون في العاشرة والنصف مساءً بنشرة الأخبار، وبعدها النشيد الوطنيّ، ثمَّ يبدأ تنميش الشاشة الفارغة.

من دواعي سرور المدخِّنين أنَّ التدخين سيكون مسموحًا في كلِّ مكان. ومن دواعي أسفهم، أنَّه لن تتوفَّر في السوق سوى العلامات التجاريَّة القديمة. سيكون طعم سجائر «ستيوارديسا» و«BT» حادًّا كما كان، أمَّا السجائر النسائيَّة «Phoenix» و«Femina» فستحافظ على طعمها الحلو الرديء. في حين أن «أردا» بفيلتر أو بدونه، سيستمرُّ في تمزيق رئتي المدخِّنين الذين دلّلتهم السجائر الغربيَّة.

وكما كان دائمًا، سيتكيَّف معظم الناس بسرعةٍ مفاجئة، كأنَّهم انتظروا ثلاثين عامًا بصبرٍ عودة ذلك العصر. سيتَّضح أنَّ العادات القديمة ما زالت حيَّةً وثابتة. أمَّا الذين لم يعتادوا على النظام الاشتراكيّ، فلن يصدِّقوا ما يحدث، لذا سيواصلون العيش في ظلِّ القواعد الديموقراطيَّة (وضمنًا الشباب)... وسرعان ما سيجدون أنفسهم في السجون. وبالنِّسبة إلى الطابق السفليّ في شارع موسكو 5 الذي تحدَّثنا عنه مع صديقي البروفيسور كافكا، فسيبدأ يعمل بكلِّ طاقته، وليس كمتحفٍ بالطبع.

النكات القديمة ستصبح مُضحكةً مرَّةً أخرى... ومخيفة...

- ١٧ -

استفتاءٌ على الماضي

وحين التفتوا إلى الوراء رأوا مستقبلهم...

-1-

نزلت في مطار زيورخ وتوجَّهت إلى ديرٍ يُبعد مسافة نصف ساعةٍ بالقطار. استأجرت هناك حجرةً مزوَّدة بِواي فاي (لم أكن في حاجةٍ إلى أكثر من ذلك) في الجناح المخصَّص للضيوف. كان الرهبان الفرنسيسكان يقدِّمون غرفًا بأسعارٍ رخيصة منذ سنوات، فاستفدت من هذه الخدمة. أردت أن أكون وحيدًا لفترةٍ من الزمن، وأتابع في هدوءٍ التطوُّرات المتعلِّقة بالاستفتاء في البلدان الأخرى. كذلك أردت إنهاء هذه الملاحظات التي ظننتُها تسبق الأحداث وتتنبَّأ بها، ثمَّ اكتشفت أنَّها في الواقع لا تفعل إلَّا وصْف ما حدث واللهاث وراءه. فكلُّ النزعات المثاليَّة تتحوَّل فيما بعد إلى روايةٍ تاريخيَّة.

رأيت كلَّ شيءٍ عبر شاشة الكمبيوتر، وأنا داخل حُجرةٍ مُحَدَّثة بدير رهبان فرنسيسكان له جرسٌ وأبواب ونوافذ يعود تاريخها إلى عدَّة قرون، زجاجها إلهامٌ حقيقيّ. كنَّا نعتقد دائمًا أنَّ المباني والحجارة لا تغادر الزمن، لكن بقاء شيءٍ هشٍّ مثل زجاج تلك النوافذ منذ القرن

السابع عشر، كان معجزةً حقيقيَّة. زجاجٌ محبَّبٌ وخشن، مصبوبٌ بأيادٍ بشريَّة ما زال يُرى فيه الرمل الذي صُنع منه. كانت بالقرب من الدير مزرعةٌ صغيرة فيها عشر بقراتٍ تقريبًا لا تختلف عن نظيراتها في القرن السابع عشر. لعلَّ الحيوانات تأكل الإحساس بالزمن. أكتب كلَّ شيءٍ في دفتري بعناية.

اتَّصلت بغاوسطين أكثر من مرَّةٍ لكنَّه لم يرد. ثمَّ تذكَّرت أنَّه إذا نزل في غرف الستينيَّات، فلا يستخدم الجوَّال لأنَّ الهواتف المحمولة لم تكن موجودةً في ذلك العقد. كان ينبغي أن أُخبره بما رأيته حتَّى الآن. ويمكنني أن أصف كلَّ شيءٍ بكلمةٍ واحدة؛ ألا وهي «إخفاق». كانت هواجسه السَّوداء... هواجسنا السَّوداء، تتحوَّل إلى واقع.

-2-

كلُّ الدول السعيدة متشابهة، أمَّا الدول التعيسة، فكلُّ واحدةٍ منها بائسةٌ بطريقتها الخاصَّة، كما يُقال.

لقد اختلط كلُّ شيءٍ في الأسرة الأوروبيَّة. كلُّ شيءٍ في بيت هذه القارَّة انقلب رأسًا على عقب، وكلُّ فردٍ ممَّا كان يُسمَّى حتَّى وقتٍ قريب بـ«الأسرة الأوروبيَّة» كان تعيسًا بطريقته الخاصَّة، المحلِّيَّة والفريدة. بالمناسبة، فإنَّ كلمة «فريد» ذاتها تكاثرت في هذه السنوات الأخيرة مثل ذباب العهد القديم أو الجراد المغربيّ، بحيث حجبت بقيَّة المخلوقات اللَّفظيَّة. كلُّ شيءٍ كان «فريدًا» من نوعه، خاصَّةً التعاسة. لم تكن هناك أمَّةٌ تريد التَّخلِّي عن تعاستها التي كانت بالنِّسبة إليها موردًا خامًّا... مادَّةً جاهزة يمكن استخدامها في إنتاج كلِّ شيء: عذر، ذريعة، سبب للادِّعاء...

كيف لك أن تهجر التعاسة عندما لا تملك بعض الشعوب إلَّا هذه الثورة، ونفط الحزن هو موردها الوحيد الذي لا ينضب؟! وتعرف

حقَّ المعرفة أنَّها كلَّما حفرت في بئره تدفَّق. فَرواسب التعاسة الوطنيَّة لا تجفُّ أبدًا.

الفكرة بصدد بحث الشعوب والأوطان عن السعادة هي وهمٌ كبير. فالسعادة ليست مستحيلةً فحسب، بل لا تُطاق أيضًا. فماذا يمكنك أن تنتج من مادَّتها المتطايرة والمتبخِّرة... الخفيفة مثل شبح... مثل فقاعة الصابون التي ستنفجر في وجهك تاركةً بعض الرَّغوة اللَّاذعة في العينَيْن...

السعادة...؟ إنَّها تَفسد مثل حليبٍ تُرك في الشمس، مثل ذبابةٍ في الشتاء، والزعفران في أوائل الربيع، ظهرها هشٌّ كظهر اليعسوب. ليست السعادة فرسًا كي تركبه وتجري به بعيدًا، ولا حجر أساسٍ تبني كنيستك ودولتك عليه. السعادة لا تدخل كتب التاريخ (تدخلها المعارك والهزائم والخيانات والاغتيالات الدمويَّة)، ولا تُدرج في السجلَّات والأخبار التاريخيَّة... السعادة لا تكمن إلَّا في كتب الأبجديَّة، وكتب المحادثة باللغات الأجنبيَّة. ربَّما لأنَّ قواعدها سهلة، إذ دائمًا ما تكون في الزمن المضارع... بالمضارع فقط: الجميع سعداء؛ تشرق الشمس؛ تنبعث رائحة الأزهار؛ نذهب إلى شاطئ البحر؛ نعود من الرحلة؛ لو سمحت، هل يوجد مطعمٌ جيِّد في مكانٍ قريب؟...

السيوف لا تُصنَع من السعادة، لأنَّ مادّتها هشَّة، قابلةٌ للكسر، ولا تصلح لرواياتٍ عظيمة ولا لأغانٍ وملاحم. فلا وجود لـ«مجموعات العبيد الثلاث المكبّلين بالسلاسل» (كما جاء في الأغنية البلغاريَّة المشهورة)، ولا طروادة محاصرة، ولا خيانات، ولا البطل رولاند ينزف على التلِّ بسيفٍ مكسورٍ وقرنٍ متشقِّق، ولا بيولف العجوز

المصاب بجروحٍ قاتلة... لا يمكنك حشد الجيوش تحت رايات السعادة...

نعم، لم يكن هناك بلدٌ يريد التَّخلِّي عن تعاسته، عن هذا النبيذ المعتَّق في قبو الماضي الذي دائمًا ما يكون في متناول اليد عندما تحتاج إليه، فهو مخزون التعاسة المقدَّس. لكنَّ الآن (ولأوَّل مرَّة) ها قد أتى الوقت لانتقاء السعادة.

-3-

كان من الواضح أنَّ فرنسا ستختار إحدى السنوات السعيدة والمجيدة من فترة Les trente glorieuses عندما ازدهر الاقتصاد وعمَّ الرخاء، وتعلَّق الجميع بالسينما الفرنسيَّة: آلان رينيه، فرانسوا تروفو، جان لوي ترينتينيان، آلان ديلون، جان بول بلموندو، انوك ايمي، آني جيراردو؛ ودَنْدَنَ الجميع أغنية Et si tu n'existais pas لِجو داسان، وتحدَّثوا عن جان بول سارتر، ألبير كامو، جورج بيريك... ووراء كلِّ ذلك وقفت آلةٌ اقتصاديَّة وُظِّفت بشكلٍ ممتاز. إنَّها «السنوات الثلاثون المجيدة والسعيدة»، أي الفترة ما بين 1945 و1975. يبدو أنَّ كلَّ شيءٍ في فرنسا بعد عصر ملك الشمس، استمرَّ طويلًا، مثل الفترات السعيدة التي استغرقت ثلاثين عامًا، وكذلك الحرب...

راهن البعض بشكلٍ حاسمٍ على الستينيَّات. وطبعًا كان هناك عامٌ مفضَّل عام 1968 الذي تمَّ تأليفه، وتصويره سينمائيًّا، وتحويله إلى حكاية. آه... أن تكون شابًّا في 1968... من منَّا سيرفض ذلك؟

...اتَّضح أنَّ الفرنسيِّين أنفسهم لا يريدون ذلك، حيث كانت الستينيَّات فترةً عصيبة، والمستعمرات في طريقها إلى الزوال. ففي عام 1962 خسرت فرنسا الجزائر، وحدثت صداماتٌ مع أولئك الذين اعتبروها مستبدًّا لا وليَّ نعمة.

كانت باريس في الستينيَّات مكانًا رائعًا صالحًا لوصفها في مقالات، ولتصوير الأفلام، وقضاء عطلةٍ لمدَّة أسبوعَيْن، لكنَّ المرء في نهاية المطاف يختار دائمًا العيش في أوقاتٍ غير مميَّزة. والأوقات غير المميَّزة هي الأكثر ملاءمة للعيش. وهكذا، فإنَّ الستينيَّات لم تكن لديْها فرصةٌ حقيقيَّةٌ للنجاح في الانتخابات في فرنسا.

أعتقد أنَّه خلال عام 1968 لم يكن عام 1968 نفسه موجودًا بعد. ففي ذلك الوقت لم يقل أحدٌ لك: يا أخي، ما نعيشه الآن هو عام 1968 العظيم الذي سيبقى في التاريخ. في الواقع، يقع كلُّ شيءٍ بعد سنواتٍ من حدوثه... هناك حاجةٌ إلى وقتٍ وقصَّةٍ كي يحدث ما يُفترض أنَّه قد حدث... متأخِّرًا، كما كانت صور شريط النيجاتيف القديم تُظهَّر ببطءٍ في الظلام... وربَّما خلال عام 1939 أيضًا لم يكن عام 1939 موجودًا بعد، كانت هناك صباحاتٌ تستيقظ فيها قلقًا، مصابًا بصداع.

اللافت أنَّه في وقت الاستفتاء ظهرت حركاتٌ كثيرة، لكنَّ أبرزها حملت اسم «عيد متنقِّل» على اسم مذكَّرات أرنست همينغواي المتعلِّقة بالعشرينيَّات والتي تدور أحداثها في عاصمة العالم. باريس كما كانت... المقاهي في الحيِّ اللَّاتيني، «سان جيرمان دي بري»، «لا كلوزيري دي ليلاس»، «لا كوبول»، «لا روتوند»، «سان ميشيل»... منزل الآنسة ستاين، مكتبة سيلفيا بيتش Shakespeare & Co التي

أحبَّ جيمس جويس زيارتها، باريس لِفرنسيس سكوت فيتسجيرالد، وعزرا باوند... كنتُ أحبُّ هذا الكتاب كثيرًا، ولو كان بإمكاني، لصوَّتُّ لحركة «عيد متنقِّل» التي تأسَّست على يد مجموعةٍ من الكُتَّاب الشباب. ولكن كما ذكرتُ آنفًا، لم يكن الجميع يريدون العيش في العيد والوليمة المتنقِّلة. فالعيد مناسبٌ للاحتفال، لكنَّه غير مريحٍ للعيش. والحفلة يلازمها دائمًا ضجيجٌ وضوضاء، لا يمكنك النوم، كما قالت في تقريرٍ إخباريٍّ سيِّدةٌ مسنَّة تؤجِّر عقاراتٍ تملكها بمركز المدينة. كانت المشكلة تكمن في أنَّ الحركة راهنت بشكلٍ رئيسيٍّ على مدينةٍ واحدة بغضِّ النظر عن أنَّها عاصمة العالم. لكنَّ فرنسا كبيرةٌ من حيث المساحة وتشمل الكثير من المناطق الريفيَّة، وهناك صيَّادو الأسماك في بريتون، والمزارعون وقاطفو التفَّاح في نورماندي، وأهل المدن الصغيرة الهادئة في جنوب فرنسا. وهؤلاء جميعًا لا يهتمُّون مطلقًا بهذه المجموعة من الكتَّاب الشباب الذين يعربدون، ويتجوَّلون المقاهي، ويتنقَّلون من امرأةٍ إلى أخرى، ويتقلَّبون في فنادق رخيصةٍ خالِيي الوفاض. إنَّها القضية الضائعة لجيلٍ ضائع. لقد حصلت الحركة على نحو أربعةٍ في المئة من الأصوات، وهي نسبةٌ غير قليلة، إذ كانت تساوي عدد الكُتَّاب في فرنسا آنذاك.

أمَّا مؤيِّدو الجبهة الوطنيَّة بزعامة مارين لوبان، فاختاروا إستراتيجيَّةً تبيَّن فيما بعد أنَّها خاطئة. قرَّروا في البداية مقاطعة الاستفتاء، بحيث أضاعوا المزيد من الوقت ولم يحقِّقوا شعبيَّةً مرتفعة. ثمَّ انضمُّوا إلى الحملة في نهايتها، وفاجئوا الكثير من الناس عندما دعموا جناح الجنرال شارل ديغول واختاروا أواخر الخمسينيَّات كعقدٍ للعودة إليه. فكان الجنرال ديغول أقوى مُدافعٍ عن فرنسا العظيمة والمستقلَّة، ورجلًا

أسطوريًّا يقاوم الكبار، ويناضل من أجل فكرة «أوروبًّا الأمم»، فكان قائدهم المنشود par excellence.

لقد أثَّرَت أشياءٌ كثيرة على التصويت، أشياءٌ غير عقلانيَّة وغالبًا شخصيَّة، وعندما أظهرت نتيجة الانتخابات فوز الذين صوَّتوا لصالح أوائل الثمانينيَّات التي كان يلفُّها ذلك الشعور العذب بانعدام الزمان في فترة رئاسة جيسكار ديستان وبعده فرانسوا ميتران، كان المحلِّلون بحاجةٍ إلى بعض الوقت كي يفسّروا منطقيَّة ما حدث.

بعبارةٍ أخرى، فاز في الانتخابات مَن كان شابًّا ونشيطًا في ذلك العقد. جاءت الستينيَّات في المركز الثاني بفارق ثلاث نقاطٍ مئويَّة خلف الثمانينيَّات، وذلك أمرٌ كان يرجع قبل كلّ شيءٍ إلى التصاعد الحاليّ لحركاتٍ فوضويَّة أرادت إلقاء حجارة الرصيف على الشرطة، في محاولةٍ منها لإعادة إحياء ما جرى في أحداث أيّار في فرنسا عام 1968.

كان حزب مارين لوبان الوحيد الذي لم يقبل نتائج الانتخابات، وأعلن عزمه على عرقلة كلّ قرارٍ بشأن هذه القضيَّة في البرلمان الأوروبيّ.

-4-

إسبانيا التي تمتلك خبرةً طويلة في مجال التعاسة لم تجد صعوبةً في حلِّ هذه المشكلة. فإذا عشتَ حربًا أهليَّة ثمَّ في ظلِّ نظامٍ سياسيٍّ مثل نظام الجنرال فرانشيسكو فرانكو، يمكنك استبعاد نصف قرنٍ من قائمة سنواتك المفضَّلة، الأمر الذي يسهِّل تصويتك في الانتخابات. وإذا شطبتَ العقود الأولى من بداية القرن الماضي بسبب الإنفلونزا الإسبانيَّة والحرب المغربيَّة وديكتاتوريَّة الجنرال دي ريفيرا، سيصبح الوضع بسيطًا بالفعل. كانت الثمانينيَّات سنواتٍ رائعةً ومجنونة، قال أحد سكَّان مدريد في تقريرٍ إخباريّ. فبعد مرور عقودٍ باردةٍ ومُظلمة مثل طوابق أرضيَّةٍ إبَّان فترة أيَّام حكم الجنرال فرانكو، فجأةً تجد نفسك خارجًا، حيث تشعُّ الشمس، ويفتح العالم أبوابه أمامك كي تعيش كلَّ ما فاتَك، وكذلك الثورة الجنسيَّة وجميع الثورات الأخرى.

من جهةٍ أخرى، أكَّد البعض على أنَّهم عاشوا أفضل لحظات حياتهم في التسعينيَّات، عندما انتهت الفترة الانتقاليَّة بعد نظام الجنرال

فرانكو، واستقرَّت الأمور، وازدهر الاقتصاد زاعمين أنَّهم كانوا يحصلون على مالٍ أكثر لقاء عملٍ أقلّ، لذا كانوا متفائلين بالمستقبل...

لم يكن لديَّ الحقُّ في فتح حسابٍ مصرفيّ، ولا في الحصول على رخصة قيادة، أو جواز سفرٍ من دون إذن زوجي، كانت تصرخ سيِّدةٌ خلال مناقشةٍ تلفزيونيَّة في وجه رجلٍ مسنٍّ تجرَّأ على القول إنَّ فترة حكم الجنرال فرانكو كانت آمنة، محاولًا أن يذكِّر بالمعجزة الاقتصاديَّة الإسبانيَّة في الستينيَّات.

في النهاية، اختارت إسبانيا انفجار الثمانينيَّات مع La Movida Madrileña, Almodovar, Malasaña... في ذلك الوقت شاهدنا لأوَّل مرَّةٍ بعد انتهاء حكم فرانكو نهود نساءٍ عارية في السينما الإسبانيَّة لأهدافٍ بعضها كان واضحًا وبعضها لم يكن كذلك. أتذكَّر الوقت الذي وصلتنا فيه تلك الأفلام (ربَّما كنَّا في الـ 17 أو الـ 18 من العمر) وكيف كنَّا نراهن على أنَّه بحلول الدقيقة الثانية سنرى مشاهد ساخنة، ولذلك أحببنا السينما الإسبانيَّة.

بكلِّ الأحوال، لم تندلع حربٌ أهليَّة أثناء إجراء الاستفتاء، كما كان يتوقَّع بعض المراقبين (كانت نسبة الدَّعم للجنرال فرانكو أقلَّ من التوقُّعات) وعادت إسبانيا سعيدةً إلى احتفالات الثمانينيَّات.

ذات مرَّةٍ وجدت نفسي في مدريد، في نهاية أيلول دافئ، بعد منتصف الليل، وأنا في ساحةٍ تعجُّ بشبابٍ منهم من يشرب البيرة، ومنهم من يبتلع النار، وبعضهم يدخِّن الحشيش، وآخرون يعزفون على الغيتار، وأصدقاءُ يستغرقون في الضحك... مشهدٌ يناسب عدَّة قرونٍ مختلفة. وفي وقتٍ متأخِّرٍ من تلك اللَّيلة، في طريق عودتي إلى المنزل،

لمحت بعض الفتيان والفتيات يتبوَّلون بهدوءٍ في الأزقَّة، مباشرةً على الرصيف بين السيَّارات. هكذا كانت رائحة مدريد، رائحة البيرة والبول مليئةً بالفرح.

وقياسًا على ذلك، اختارت **البرتغال** بعد فترة نظامٍ سياسيٍّ بارد استمرَّت طويلًا وانتهت بثورة القرنفل، منتصف السبعينيَّات كبدايةٍ جديدة، عندما كانت الثمالة عام 1974 لا تزال حيَّةً تُرزق، وبينما تستمرُّ الذكريات الخاصَّة بـ Estado Nuovo, António de Oliveira Salazar، و Marcelo Caetano تعيش في القلوب كجزءٍ من تعاسة البرتغاليِّين. إنَّها أسطورةٌ كانت توطِّد العلاقة بين الناس على مدى عدَّة قرون بعد عصر الاكتشافات العظيمة، بل جعلتها أكثر توطُّدًا بعد عصر الخسارة الجسيمة لتلك الأراضي المكتشفة.

أتذكَّر أنَّنا في الطفولة كنَّا نلعب لعبةً تسمَّى «الدول». نقف في دائرةٍ وكلُّ طفلٍ يختار بلدًا بعد أن يتلو هذه الكلمات بإيقاعٍ معيَّن: الأرض تَدووورُ تَدووورُ... أَيُّ بلدٍ أنت تختاارُ؟ ثمَّ نصرخ جميعًا «فلتنتصرْ، فلتنتصرْ»... فرنسا مثلًا. نركض جميعًا، فتصرخ «فرنسا» «قفْ»، ثمَّ عليها أن تحدِّد عدد الخطوات التي ستصل بها إلى إحدى الدول الأخرى. إذا خمَّنتْ «فرنسا» العدد الصحيح من الخطوات، فستملك الأراضي الأجنبيَّة. أمَّا الخطوات فكانت لها أحجامٌ مختلفة: خطوات عملاق، خطوات بشر، خطوات فأرة، خطوات نملة وإلخ. لعبةٌ بسيطة، يبدو أنَّ أهمَّ شيءٍ فيها هو البلد الذي تختاره. كان الجميع يرغبون في اختيار إيطاليا أو ألمانيا أو فرنسا أو الولايات المتَّحدة أو حتَّى دولةٍ كنَّا نسمِّيها «الخارج». والفتاة التي أحببتها سرًّا كانت تختار دائمًا البرتغال. أمَّا أنا فكنت أختار إسبانيا باستمرارٍ كي أكون بالقرب منها. ناهيك عن أنَّ

البرتغال لا تجاورها بلدان أخرى، إذ كان موقعها الجغرافيُّ ينقذني من الغيرة الحتميَّة. وأتذكَّر الآن كم كانت البرتغال تناسب تلك الفتاة.

ماذا نعرف عن البرتغال؟ دولةٌ تقع على حافَّة أوروبَّا، صغيرة، محشورةٌ في محاذاة جدار المحيط، لا تتميَّز بشيءٍ خاصّ. أتساءل عمَّا إذا كانت حبيبتي تختارها بسبب اسمها الغامض الذي يصدح مثل «البرتقال»؟ كنتُ على يقينٍ من أنَّ البرتقال «يعيش» في البرتغال أساسًا. وبما أنَّها بعيدةٌ جدًّا، فإنَّ هذه الفواكه نادرًا ما تصل إلينا؛ أو ربَّما هناك من يأكلها خلال رحلتها الطويلة إلى بلادنا، لأنَّه لا يستطيع مقاومة الإغراء. لعلَّ سائقي الشاحنات هم الذين يفعلون ذلك، وأنا لا ألومهم، كوني شخصًا لا يستطيع مقاومة إغراء أكلها. برتقاليا برتغاليا، هكذا أسميتها. ولم يبقَ في ذاكرتي إلَّا هذا الاسم.

-5-

على عكس إسبانيا والبرتغال، وجدت **السويد** صعوبةً أكبر في اختيار وقتٍ سعيد للعودة إليه بسبب وجود القليل من العقود التعيسة، ممَّا جعل مدى الخيارات أمامها واسعًا.

نعم، كانت تستطيع استبعاد السنوات الخمس عشرة الأولى من القرن الماضي بسبب البطالة الناتجة عن الزيادة الحادَّة في عدد السكَّان والتي يُرجعها بعض المؤرِّخين إلى اللقاحات والبطاطس. لكن بعد الحربَيْن الكبيرتَيْن والحفاظ على حيادٍ مُربح، عادت المياه إلى مجاريها. وكلُّ ما أهلك القارَّة الأوروبيَّة، نفع السويد. فالعالم يحتاج دائمًا إلى الفولاذ السويديّ القويّ وقطع غيار الآلات، خاصَّةً في زمن الحرب. وهكذا، ظهرت على المسرح السياسيّ في عشيَّة الاستفتاء الحركة الأولى المؤيِّدة للأربعينيَّات التي تصاعدت شعبيَّتها بسرعة. فقد اقتبس أحد أعضائها بعض المقتطفات من يوميَّات الكاتبة أستريد ليندغرين، حيث نجد قائمةً دقيقة تضمُّ كلَّ ما يتوفَّر في مائدة عيد الميلاد المجيد

في سنوات الحرب: «ساق لحم خنزيرٍ وزنها 3.5 كيلوغرام، باتيه كبدة منزليَّة، لحم بقرٍ مشويّ، ثعبان بحرٍ مدخَّن، لحم غزال»، أو قائمة الهدايا العائليَّة بمناسبة عيد ميلاد المسيح عام 1944: «جاكيت شتويّ، أحذية تزلُّج، سترةٌ من الصوف، شالٌ شتويّ من الصوف الأبيض، زوجان من السراويل الداخليَّة الرجَّاليَّة (أقدِّم له هذه الهديَّة كلَّ عام)، أزرار أكمام، بنطلون، سلسلةٌ لساعة الجيب، كتب، تنُّورة رماديَّة مطويَّة، سترةٌ كحليةٌ، جوارب، كتب، لغز، منبِّهٌ جميل جدًّا، فرشاة حمَّام، خنزيرٌ صغير من معجون اللوز.»

لا أعرف لماذا، لكنَّ هذا الخنزير من معجون اللوز ملأ رأسي، وكذلك رؤوس الصحفيِّين السويديِّين، كما اتَّضح لاحقًا. حيث رفع معارضو الحركة الشعار التالي: «ليست السويد خنزيرًا من معجون اللوز في زمن الحرب». نعم، كان أهل السويد يعيشون في نعمة، لكن بالطبع، كانت هناك مشكلةٌ مستمرَّة تتَّصل بالشعور بالذنب. فهل يمكن للمرء أن يكون سعيدًا وشبعان والناس في جحيمٍ من حوله؟! في النهاية أظهرت الاستطلاعات أنَّ الأربعينيَّات حصلت على نسبةٍ متواضعة، واحتلَّت المركز الخامس أو السادس في التصنيفات، لذا لم تكن لديْها فرصةُ للنجاح، مع أنَّ ظهور شبح سنوات الحرب كان أمرًا مخيفًا بحدِّ ذاته.

لقد كشفت كلُّ الاستطلاعات الاجتماعيَّة أنَّ الخمسينيَّات تتصدَّر الحملة، ووفقًا للمحلِّلين، فإنَّ النسبة العالية من مؤيِّدي هذا العقد كانت ترجع، من جهة، إلى الازدهار الذي عاشته البلد في الأربعينيَّات، ومن جهةٍ أخرى، الشعور بالحرج من أن تختار سنوات الحرب، رغم أنَّ الخمسينيَّات كانت عقدًا قويًّا فعلًا. وقد ذكرت وسائل الإعلام كيف وقفت السويد قويَّةً بمواردها وصناعتها المزدهرة وسط أوروبًّا

المدمَّرة من الحرب، والحياة فيها تزداد رخاء. «كانت لدَيْنا غسَّالةٌ نصف أوتوماتيكيَّة جميلة، وتلفزيون لأوَّل مرَّة، وثلَّاجةٌ كبيرة جدًّا...». قالت سيِّدةٌ في تقريرٍ تلفزيونيّ، ونشرت يدَيْها إلى أكبر حدٍّ تستطيعه لتعبِّر عن حجم الثلَّاجة الكبير. كانت السيِّدة في السبعين من عمرها، وتبدو كامرأةٍ تهتمُّ بنفسها، و... هنا توجَّهت الكاميرا نحو الرجل الذي كان بجانبها، وهو سيِّدٌ مسنٌّ ونحيفٌ وطويلُ القامة وذو وجهٍ أحمر. فأضاف إلى الحديث عن الثلَّاجة وصفًا لسيَّارته «فولفو أمازون»، أوَّل موديل في عام 1957، «سيَّارةٌ سوداء مع سطحٍ رماديٍّ فاتح... كاملةٌ مكمَّلة...». قال ذلك وهو يُظهر أمام الكاميرا صورةً بالأبيض والأسود يقفان فيها أمام السيَّارة مبتسمين ابتسامةً عريضة. مكتبة سُر مَن قرأ

حدَّقتُ في سيَّارة الـ«فولفو»، كانت تشبه سيَّارة والدي الـ«وارسو» التي كانت بدورها نسخةً طبق الأصل عن سيارة «بوبيدا» السوفييتيَّة. هكذا كانت سيَّارات الخمسينيَّات... قويَّة، كبيرةً وثقيلة كالدَّبابة وتستهلك الوقود مثلها تقريبًا.

بالطبع، كانت شركة إيكيا السويديَّة إحدى الأوراق الرابحة التي تمسك بها الحركة المؤيِّدة للخمسينيَّات. نعم، في تلك السنوات أصدرت إيكيا كتالوجها الأوَّل، وفتحت أبواب أوَّل متاجرها، وربَّما الأهمُّ من ذلك، أنَّها قدَّمت فكرة تفكيك أرجل المنضدة كي يمكنك وضعها في صندوق السيَّارة وتجميعها في البيت. هكذا كانت الخمسينيَّات... عمليَّة، آمنة، رخيصة، قاسيةً بعض الشيء وبسيطة.

لكنَّ منافسها الأكبر كانت السبعينيَّات، على الرَّغم من الأزمات الاقتصاديَّة فيها، ممَّا جعل السؤال الأساسيَّ عن الفترة التي

سيصوّت لها المواطن السويديُّ (الخمسينيَّات أم السبعينيَّات؟) محور الاستفتاء السويديّ. كانت السبعينيَّات تتميَّز بطابعٍ إسكندنافيّ. وخلال السبعينيَّات والثمانينيَّات، إلى جانب الستار الحديديّ، انقسم العالم أيضًا إلى قسمَيْن بصدد السُّؤال عن تفضيلات كلِّ رجلٍ هناك: الشقراء أم السمراء (وأحيانًا ذات الشعر الأحمر) من فرقة ABBA الموسيقيَّة. وقد طُرح السؤال بهذه الطريقة تمامًا حيث لم يكن يسأل أحد: Agnetha أم Anni-Frid (Frida)؟ وأنا كشخصٍ في العاشرة من عمره حينها، لم أكن من بين أفراد الفئة المستهدفة، إلَّا أنَّني مثل معظم الرجال كنت أفضِّل الشقراء سرًّا. لكنَّني ما لبثت أن أدركت أنَّ ذلك أمرٌ سخيفٌ وأنَّني سأكون جذَّابًا أكثر لو أظهرت إعجابي بالسمراء، أو على الأقلِّ أن أقول إنَّني أفضِّلها. على أيِّ حال، كانت فرقة ABBA تمثِّل كلَّ ما هو شماليّ، وفاتح البشرة، وراقص، وبرَّاق، وأبيض في السبعينيَّات.

العصور والأزمنة لا يقلِبها ويُغيِّرها الناتج المحليُّ الإجماليُّ وتصدير الخشب والفولاذ، بل أشياء مثل فرقة ABBA أو كرسيِّ «إيكيا» Poang. في نهاية المطاف، رغم أزمات السبعينيَّات وتغيير الحكومة، ورغم ارتفاع أسعار البترول والأزمة المستجدَّة لاحقًا... رغم كلِّ ذلك، فإنَّ أغنية «الملكة الراقصة» لِفرقة ABBA من أواخر السبعينيَّات انتصرت على سيَّارة الـ«فولفو» من عام 1957 الذي ظهرت فيه تلك الثلَّاجة الكبيرة والغسَّالة نصف الأوتوماتيكيَّة. لم تَعُد هناك أيُّ رومانسيَّةٍ في الثلَّاجة، فكان الناس يرغبون في الرَّقص، وكانت عاطفةٌ جيَّاشة جديدة تحوم فوق المياه الشماليَّة. وهكذا، استيقظت السويد بعد الاستفتاء في عام 1977 الجديد.

لم تكن مفاجأةً أنَّ **الدنمارك** قد اختارت أيضًا السبعينيَّات، على الرَّغم من أنَّ التسعينيَّات ظلَّت في السباق حتَّى النهاية. نعم، كان هناك شيءٌ إسكندنافيٌّ في السبعينيَّات... كانت تشبه بطاقات رأس السنة المرشوشة بسكَّرٍ بدلًا من الثلج الذي كنَّا نلعقه سرًّا آنذاك.

لأنَّه في السبعينيَّات بدأنا نستمتع بالحياة، كما قالت لي صديقةٌ دنماركيَّة. وماذا عن الستينيَّات؟ سألتها، ألم تبدأ متع الحياة معها؟ صمتت لوهلة، ثمَّ أضافت: أنت على حقّ، لكنَّنا لم نكن نعرف بعدْ ماذا علينا أن نفعل بهذه المتع. لم أكن أريد طفلًا، لكنَّني حملتُ وأنجبت، واختفى الأب، فكرهت الطفل وتركته عند والديّ، ثمَّ غادرتُ إلى موسكو، وبدأتُ حياةً جديدة لم أتحمَّلها أكثر من سنة، ففي الملاعب كان أنصار الشاعر يفتوشينكو والشاعرة أحمدولينا وممثِّلو الجيل الجديد من النخبة السوفييتيَّة المثقَّفة في الستينيَّات يصرخون... أمَّا شعراؤهم الموهوبون، أي ممثِّلو الثقافة السرِّيَّة، فكانوا مهمَّشين، وسكرى، ومنفيِّين، وأعمالهم ممنوعةٌ من النشر.... وما إن اكتشفتهم حتَّى اعتقلتني الشرطة، ثمَّ أعادتني إلى الدنمارك عبر القنوات الرسميَّة. هكذا انتهت الستينيَّات بشكلٍ عام، مثل حفلة شبابٍ ثملتَ فيها وبدأتَ تستمتع بكلِّ شيءٍ حولك، وفجأةً اقتحم رجال الميليشيا المكان. إذن لم يبقَ من تلك السنوات إلَّا الثمل. في السبعينيَّات كنت قد عرفتُ كيف أُجرِّب ملذَّات الحياة، كلُّنا عرفنا ذلك وعشنا حياةً سعيدة. إذن، كُنْ على يقينٍ من أنَّ الجميع سيصوِّتون في صالح السبعينيَّات.

لم يصوِّت الجميع لهذا العقد، ورغم ذلك، فإنَّ صديقتي كانت على حقّ.

-6-

... أمطرت السماء طوال الليل، وأيقظني صوت المطر. كنت أستلقي على السرير مغمض العينَيْن، أستمع إلى القطرات المتساقطة وأنا في غرفةٍ علويَّة بها عوارض سقفٍ سميكةٌ من طرازٍ قديم. أستلقي وأستمع. هنالك حديثٌ قديم بين الجسد والمطر كنت قد نسيتُه. هنالك حياةٌ بسيطة، حياةٌ في العزلة قد نسيتُها... أن تأكل خبزًا على طاولةٍ خشبيَّة، وأن تجمع فُتات الخبز بعد الأكل ثمَّ ترميه للعصافير... أن تقشِّر تفَّاحةً ببطءٍ بسكِّين جيب وتكتشف أنَّ هذه الحركة هي تكرارٌ لحركة والدك التي هي، بدورها، تكرار لحركة جدِّك. المكان ليس ذاته، ولا الزمان، ولا اليد، لكنَّ الحركة تعلق في الذاكرة... أن تفتح صحيفة Zuger Woche المحلِّيَّة، وأن تقرأ توقُّعات الطقس، بينما تُفكِّر في البصل الذي نبت للتوِّ وشجرة الكرز المتفتِّحة في الفناء، مُعتنيًا بعالمٍ لا تنتمي إليه. في الخامسة، رنَّت ساعة الدير الكبيرة وراء الجدار بصوتٍ قويٍّ كصوت الأجراس. كان الفجر ينبثق، فنهضت، ارتديت

ملابسي، وجلست بجانب النافذة. فتحت كتاب الشعر لِتوماس يوستا ترانسترومر، كنت أقرأ ببطءٍ ولذَّةٍ تنبع من زمنٍ آخر، ثمَّ أغلقته وتساءلت عمَّا سيحدث مع الشعر والروايات التي لم تكتب بعدْ إذا عادت البلدان إلى الوراء، إلى السبعينيَّات أو الثمانينيَّات. حاولت أن أتذكَّر الكتب العظيمة التي قرأتها في السنوات الأخيرة... لعلَّني لن أندم على أيِّ شيءٍ من ذلك.

-7-

ماذا عن الاستفتاء في دول أوروبًا الشرقيَّة السابقة، تلك الدول التي تلتصق بها دائمًا صفة «السابقة»؟ طبعًا، كان الجميع قد تفرَّقوا منذ زمن، تمامًا مثل عائلةٍ سابقة أُجبر أفرادها على العيش تحت سقفٍ واحدٍ إلى أن كبر الأولاد، ثمَّ ذهب الجميع في طريقهم. إذا لم يكره بعضهم البعض، ففي أحسن الأحوال لن يهتمُّوا ببعضهم البعض. كان كلُّ فردٍ منهم يريد السفر إلى أوروبًا الغربيَّة كونها تلك العشيقة التي كان يحلم بها، بينما يقاسم زوجته سرير الزفاف الاشتراكيّ.

كنت آمل أنَّ هذه الكتلة الشرقيَّة (السابقة) بالضبط، لا سيَّما بعد فشل فرنسا، ستختار العودة إلى عام 1968 «الجديد». بالطبع، كانت **التشيك** المكان الأكثر ميلًا للعودة إلى هذا العام. أن تكون في العشرين من عمرك في شوارع باريس أو براغ، من يحلم بأكثر من هذا؟ لكن بعد التصويت في فرنسا لصالح الثمانينيَّات، أضعنا نصف هذا الحلم. لقد خسرنا باريس، وعقدنا الأمل على براغ.

وكما هو الحال في فرنسا، فإنَّ ما تَراه خيرًا من الخارج لا تَراه هكذا من الداخل. كانت أسطورة عام 1968 تبدو جميلة، فقد صقلها الزمن، وكان ربيع براغ مُغريًا مثل جنَّة عدن، باستثناء اللَّحظة حين يدخل الربُّ الجنَّة غاضبًا. لكنَّ دخوله قد حدث، وكان الربُّ يرعد مثل دبَّابةٍ سوفييتيَّة، منتقمًا مثل «جيوش الأخويَّة»... مثل آلهةٍ آليَّةٍ حقيقيَّةٍ مدرَّعة.

بعد ربيع براغ جاء صيفٌ مُدَمِّرٌ وغيَّر كلَّ شيءٍ من مكانه، كما يحدث دائمًا حينما تنكسر الحياة، فَمَنْ كان في الشوارع انسحب الآن إلى الظلِّ البارد لذلك الصيف وكلِّ صيفٍ يليه؛ ومن كان مذعنًا خرج في الشوارع واحتلَّ المكان الفارغ. في الحقيقة لا تسحقك الاشتباكات، ولا نوافذ المتاجر المكسورة، ولا قصص المطرودين والمعتقلين والمضروبين والمغتصبين، ولا حتَّى المقتولين، بل ذلك الإحساس الخفيف المتغلغل باللَّامعنى في ظهيرةٍ ما، في الوقت الذي ترى فيه الناس يضحكون في الشارع، ويجتمعون، وينجبون أولادًا داخل النظام السياسيِّ نفسه الذي رماك خارج الحياة لسنواتٍ طويلة. يمكن للتاريخ أن يتحمَّل ضياع 60-50 عامًا من حياته، فهو يملك الآلاف منها، وليست هذه الفترة بالنسبة إليه إلَّا ثانية. ولكن ما الذي يجب أن تفعله هذه الذبابة الإنسان حين تساوي تلك الثانية كلَّ حياته. وهكذا، بسبب أوقات الظهيرة تلك التي عقبت عام 1968، لم يرغب سكَّان براغ في اختيار الستينيَّات.

ومع ذلك، فقد دارت في التشيك معركةٌ طويلة بين ثلاث دولٍ سابقة مرشَّحة وهي: الجمهوريَّة الأولى، حيث ذكَّرت الصحف بفترة «العشرينيَّات الذهبيَّة»... «المعجزة الاقتصاديَّة»... «الثقافة المزدهرة»... «كواحدةٍ من بين الاقتصادات الرائدة في العالم»... سنواتٌ مليئة

بحماسة أمَّةٍ شابَّة حَالَفَها النجاح في كلٍّ شيء؛ ثمَّ الدولة الثانية التي ظهرت أواخر القرن، أي الثورة الناعمة عام 1989؛ وأخيرًا، ربيع براغ عام 1968 الذي لم نستطع تجاهله، على الرَّغم من أنَّه جاء في المرتبة الثالثة. فكيف لك أن تختار دولة، حين تغريك أسماؤها بالذات: الذهبيَّة، الناعمة أو الربيعيَّة؟ ومن وراء العشرينيَّات أطلَّ شخصٌ ما بشوارب، تمكَّن من إعادة إقليم السوديت محوِّلًا الدولة المزدهرة إلى محميَّة. وراء ربيع براغ كان يقف الصيف الروسيُّ البارد، ووراء الثورة الناعمة خيبات الأمل والأحلام الضائعة.

وقد تبيَّن في النهاية، أنَّ الخوف ممَّا أعقب العشرينيَّات كان أشدَّ مقارنةً بالخوف الذي أعقب التسعينيَّات.

تلك كانت معركة المخاوف العظمى التي انتصرت فيها الثورة الناعمة للمرَّة الثانية، وعادت التشيك إلى التسعينيَّات.

وفي **بولندا** ظهرت أيضًا حركةٌ مؤيِّدة للعشرينيَّات والجمهوريَّة البولنديَّة الثانية، رغم أنَّها لم تلق نجاحًا كبيرًا. وفي النهاية، اتَّجهت الأمور بشكلٍ واضحٍ نحو الثمانينيَّات بوجود فصيليْن: أحدهما كان يطالب بالعودة إلى أوائل العقد، إلى المقاومة وولادة حركة التضامن خلال عام 1980. وأصرَّ مؤيِّدوه على ضرورة إعادة تفعيل الحماس الذي كان سائدًا حينذاك كي تكون الانطلاقة قويَّة. وذكَّروا كيف أنَّه في غضون بضعة أشهرٍ فقط قد وصل عدد أعضاء أوَّل نقابةٍ عماليَّةٍ غير شيوعيَّة يسمح بها النظام السياسيّ، إلى عشرة ملايين عضو (10,000,000!!) وعلى الرَّغم من مرور سنواتٍ طويلة على ذلك، فلا يزال هذا العدد يبدو كبيرًا جدًّا.

لكنَّ الفصيل الآخر لوَّح بفزَّاعة فويتشخ ياروزلسكي من الفترة نفسها؛ الجنرال ذو النظارة السَّوداء الذي كانت جدَّتي في بلغاريا تخيفني به: اذهب للنوم وإلَّا سيأتيك ذلك الرجل ذو النظارة السَّوداء. بعد عام 1980، أتت فترةٌ فيها أحكامٌ عسكريَّة، وقمع، وسجون... ولذلك أرادوا البدء من جديد... من أواخر العقد، ومن أوَّل انتخاباتٍ شبه حرَّةٍ فاز فيها ليخ فاونسا. على أيِّ حال، فإنَّ الفصيل الذي دعم أوائل الثمانينيَّات تفوَّق على منافسه. حتَّى أنَّ بولندا ذهبت إلى حدٍّ إعادة تشغيل عامَيْن قبل بداية الثمانينيَّات للاحتفال باختيار البابا يوحنَّا بولس الثاني الذي كان بمثابة إشارةٍ ربَّانيَّة، بدأ بعدها عقد الثمانينيَّات المجيد.

إذن اختارت كلُّ دول الكتلة الشرقيَّة (باستثناء بلغاريا ورومانيا) عام 1989 كأفضل مكانٍ للعودة وإعادة تشغيل الماضي. ونجد في هذا الأمر تفكيرًا عقلانيًّا حصيفًا مجدولًا بمشاعر شخصيَّة. ففي مكانٍ ما، في أواخر القرن الماضي، كان الجميع، كُنَّا جميعًا، شبابًا لآخر مرَّةٍ بما في ذلك الأشخاص الذين عاشوا في عام 1950 وآمنوا بأنَّ النهاية ستأتي واستقبلوا هذه النهاية؛ وأولئك الذين كانوا شبابًا في عام 68، (الذي حدث ولم يحدث) رأوا في عام 89 قلبًا سعيدًا لهذَيْن الرقمَيْن؛ وأخيرًا الشباب الذين كان عمرهم في 1989 عشرين سنة، فقد كانت هذه أوَّل ثورةٍ في حياتهم، وهنا أستطيع أن أتحدَّث بضمير المتكلِّم. كان يبدو أنَّ كلَّ ما لم يحدث في الماضي سيحدث الآن، وكأنَّ كلَّ شيءٍ كان أمامنا،... كلَّ شيءٍ بدأ للتوِّ في نهاية القرن ذاته.

أمارس حقِّي في التعليق على تلك الأحداث بمثابتي شاهد عيان، لأنَّني حضرت الاحتجاجات عام 1989، فكنتُ أقفز، وأهتفُ، وأبكي، ثمَّ كبرتُ فجأةً أثناء تحوُّلات الأعوام التالية. يا له من رثاءٍ مضحكٍ

للتسعينيَّات!! كان النظام يتغيَّر أمام عيوننا ويَعِدُ بحياةٍ رائعة، وحدودٍ مفتوحة، وقواعد جديدة... في أسرع وقتٍ ممكن، اليوم، غدًا... أتذكَّر الحوارات التي كانت تدور في الميادين عام 1989. ذات مرَّة، قال أحد أصدقائي، ربَّما كان ك.: يا شباب، لا أريد إحباطكم، لكن برأيي يجب أن يمرَّ عامٌ أو عامان على الأقلّ، حتَّى تستقرَّ الأمور... ثمَّ علَّق آخر مرتبكًا: وربَّما يجب أن تمرَّ ثلاث سنواتٍ أو أربع، أو حتَّى خمس... يا إلهي، كيف هجمنا عليه وكدنا أن نضربه: اسكت أيُّها الأبله، من سينتظر خمس سنوات... فامتحاناتنا تبدأ بعد ثلاثة أشهر، لقد ذهبت الخطط الخمسيَّة مع الاشتراكيَّة... في ذلك الوقت كنَّا ما زلنا نتمتَّع بمخزونٍ مقدَّسٍ من المستقبل ونوزِّعه بشجاعةٍ وبسذاجةٍ تامَّة، كما أدركنا لاحقًا.

بعد مرور عشر سنواتٍ نفد هذا المخزون، ولم يبق منه إلَّا قاعه المثقوب الخالي الذي كان يلمع أمام نظراتنا. في ذلك الوقت تقريبًا، في أواخر الثمانينيَّات ومطلع العقد التالي تعطَّل شيءٌ ما في آليَّة الزمن، انزلق عنها، قرقع وتوقَّف.

-8-

بينما كانت الدول الإسكندنافيَّة تتردَّد في اختيار فترةٍ معيَّنةٍ بسبب وفرة سنواتها السعيدة، كانت رومانيا تتردَّد بسبب وفرة سنواتها التعيسة. فكان القرن العشرون لديْهم مليئًا بتذبذباتٍ تاريخيَّة، تطوُّراتٍ مروِّعة، تردُّداتٍ في اختيار الحصان الذي يجب أن تركبه: الألمانيّ أو الإنكليزيّ أو الروسيّ؟ إضافةً إلى فقدان أراضٍ، وخسارة معارك، وحصارات، وأزمات، وانقلاباتٍ داخليَّة، وحتَّى ثورة عام 1989 لم تكن في رومانيا ناعمةً أبدًا. لكن يبدو أنَّه في أواخر الستينيَّات وأوائل السبعينيَّات فُتِحت نافذةٌ أطلَّت على فترةٍ سعيدةٍ قصيرة (سوف يصوِّتون لها بسبب عدم وجود خيارٍ آخر)... محاولةً الحصول على الاستقلال في عالمٍ منقسم. ثمَّ أوصدت النافذة فجأةً في وجه العقد التالي بكلِّ ما فيه من بؤسٍ وديون، ومتاجر مقفرةٍ وعنف الشرطة السرِّيَّة الرومانيَّة «سكيوريتات».

«كلُّ تلك الشعوب السَّعيدة المُتخَمة... الفرنسيُّون والإنكليز... آه، أنا لست من بينهم، فخلفي قرونٌ من تعاسةٍ لا نهاية لها. أنا ابن

أمَّةٍ محرومة من الفرص، فالسعادة تنتهي في فيينا؛ ومن خلفها تبدأ اللعنة!».

إنَّها كلماتٌ غايةٌ في القسوة لإيميل سيوران، وهي لا تصف الأوضاع في رومانيا فقط.

أمَّا التَّصويت في **النمسا** فكان الأكثر تشتُّتًا وغموضًا، وسجَّلت البلاد أدنى نسبة مشاركةٍ في الاستفتاء. وحصلت عدَّة حركاتٍ مرشَّحة ضعيفة على نسبةٍ متساوية تقريبًا من أصوات المقترعين. يبدو أنَّ ذكريات تلك الإمبراطوريَّة الملوَّنة ومتعدِّدة اللغات من العقد الأوَّل للقرن العشرين، كما يقدِّمها الأدباء واتِّحاد الفنَّانين النمساويِّين، كانت تبرد ببطءٍ مثل قهوةٍ في فنجان منسيٍّ على الشرفة أو قطعةٍ من كعكةٍ قديمة. إضافةً إلى أنَّها لم تكن تنتهي بشكلٍ جيِّد، حيث شهدت اغتيال الأرشيدوق، والحرب العظمى، والانهيار، وغير ذلك... حصلت النمسا في زمن أنشلوس على نسبةٍ مثيرةٍ للقلق من الأصوات، ولكنَّها لم تكن كافية. فكان لا يزال هناك شعورٌ بالعار في المجتمع النمساويّ، وهو عادةٌ أكثر منه قناعة، يطوف في المكان. أمَّا النمسا في السبعينيَّات والثمانينيَّات، فكانت بمثابة متعةٍ مذنِبة للشرق والغرب، لكنَّها استطاعت حينها تحويل حيادها المتواصل إلى مصدر دخلٍ دائم، الأمر الذي جعل هذه المرحلة القطعة الأخرى المفضَّلة من كعكة الانتخاب. وقد جاءت فترة التسعينيَّات في المركز الثالث، حين كُشف فيها أخيرًا عن سرِّ العقود السابقة، وفُتحت الحقائب، وصُرفت الشيكات وطالب الجواسيس المزدوجون بما كسبوه من قبل أصحاب العمل من كلا الجانبَيْن.

مع هذه النتائج الغامضة المتساوية المرتبطة بمختلف العقود من القرن الماضي، كانت النمسا تتعرَّض لخطر الإبادة واقفةً بين الإمبراطوريَّات الزمنيَّة المجاورة، حيث بقيت فيينا بمثابة مدينةٍ متحف كما كانت دائمًا... منطقةٍ حدوديَّةٍ في جغرافيا السعادة. في النهاية حقَّقت الثمانينيَّات فوزًا بفارق نقاطٍ مئويَّةٍ قليلة، واعتبر معظم الناس أنَّ هذا الفوز كان مدعومًا بتصويتٍ قوميٍّ خفيٍّ من خلفاء يورج هايدر الذي سطع نجمه في ذلك العقد بالذات. وبينما كنت أشاهد التقارير الإعلاميَّة من فيينا وسالزبورج، تخيَّلتُ كيف ينظِّم الفائزون المؤيِّدون للثمانينيَّات استفتاءً جديدًا، بعيدًا عن عيون أوروبَّا، وهناك يختارون آنشلوس في عام 1938، أي ضمَّ النمسا إلى ألمانيا النازيَّة. كم من الأشياء دُفنت في سفح جبل عام 1939.

-9-

لكنَّ اللغز الكبير كان **ألمانيا**. هناك رقصَ التاريخُ أطول فترة، وكانت برلين مسرحه وملهاه، وميدان أسلحةٍ وواجهة متجرٍ وجدارًا في آنٍ واحد... كانت كلَّ شيء. لقد بُتِر النصف الأوَّل من القرن العشرين، على الرَّغم من محاولات اليمين المتطرّف الجديد تعويضه بطرفٍ صناعيٍّ لسدِّ الفراغ. لم تكن ألمانيا تنوي العودة إلى هناك، ليس بعد، على الرَّغم من وجود الطرق السريعة، وسيَّارات الفولكس فاجن التي ظهرت في السوق السَّوداء خلال هذا السباق. لكن كلُّ عقدٍ من العقود التالية كانت له فرصته. «يتوقَّع الخبراء الاجتماعيُّون فوز الثمانينيَّات»، كتبت لي إ. مذعورةً من برلين. «أيمكنك أن تتصوَّر ذلك؟! لن تفوز المعجزة الاقتصاديَّة في الخمسينيَّات، ولا الستينيَّات بسبب عام 1968 المميَّز وكلِّ ما يرتبط به، وإنَّما الثمانينيَّات... يا للعار! تَعْرِفُ، أنَّني أدعم التسعينيَّات، أَلَمْ نَقُلْ دائمًا إنَّها بالنسبة إلينا تمثِّل عام 1968... نعم، كان هذا العام عندنا رَثًّا قليلًا، ومستعملًا بعض الشيء، لكنَّه عامنا

المحبوب. كم أتمنَّى أن أعيش في أوائل التسعينيَّات، وإذا فازت، فتعال لنلتقي هناك في برلين أو صوفيا... قبلات إ.».

كم هي لطيفةٌ صديقتي إ.! عشنا معًا أوائل التسعينيَّات وكانت علاقتنا عاصفةً مثل كلِّ العلاقات في ذلك الوقت. «وصلتنا الستينيَّات أخيرًا»... قالت آنذاك ضاحكةً بينما كانت تعطيني سيجارتها ونحن في السرير. حتَّى أنَّنا تزوَّجنا، الأمر الذي أظنُّه خطأً كبيرًا، ففي التسعينيَّات لم يتزوَّج أحد، بل كان الجميع يتطلَّقون. غير أنَّنا تمكَّنا من تصحيح الغلطة في العقد نفسه وافترقنا، ثمَّ غادرتْ إلى ألمانيا. فكلُّ طالبٍ متفوِّق في دراسة اللغة الألمانيَّة كان يغادر إلى ألمانيا لاحقًا، أمَّا أنا، فكنتُ متفوِّقًا في البلغاريَّة وبقيت.

وفيما يخصُّ الثمانينيَّات، فإن إ. لم تكن على حقّ، أو على الأقلِّ ما قالته بشأن الثمانينيَّات الألمانيَّة. كان هناك شيءٌ يهدر ويغلي في كلَّا الجانبَيْن. Wir sind das Volk (إنَّنا الشعب) كانوا يهتفون في Alex-anderplatz وفي ميادين ألمانيا الشرقية. Atomkraft? Nein, danke (الطاقة الذرِّيَّة؟ لا، شكرًا) صرخوا في ألمانيا الغربيَّة التي كانت تطفح بسلاسل بشريَّة، ومسيرات سلام، وبالونات حمراء، وأغنيات الفنَّانة نينا، والإيدز وموسيقى البانك روك. في الحقيقة كانت الحياة ممتعةً في كلا الجزأيْن من ألمانيا، رغم أنَّ أتباع الثمانينيَّات لم يتصوَّروا أنَّهم سيعودون إلى ألمانيا المنقسمة. لذلك صوَّتوا لعام بعيْنه، أو بتعبيرٍ أدقّ، لعشيَّة عام 1989 على أمل أن يؤجِّلوه لمدَّة عامٍ أو عامَيْن أو ثلاثة. لو كان بوسع المرء أن يبقى إلى الأبد في عشيَّة الاحتفال، ويحافظ على «رنكة الحماسة طازجة» (وفقًا لـِ Otto von Bismarck) وقتًا طويلًا، ويؤجِّل المستقبل لفترةٍ غير محدَّدة، فمن يرغب في أكثر من ذلك؟

تصوَّرتُ أنَّه بعد الهدم المستمرّ لجدار برلين سيعيدون بناءه سرًّا لاحقًا كي يهدموه من جديد... ليبقى الفرح عامرًا دائمًا.

في الواقع لم تكن لدى عام 1968 فرصٌ كثيرة في ألمانيا. فهذا العامُ العظيم لم يحظَ بالكثير من المؤيِّدين، باستثناء مجموعةٍ صغيرة من الماركسيِّين والفوضويِّين المصابين بالتهاب المفاصل (الفوضويُّون أيضًا يشيخون). وذلك لأنَّه بعد 1968 جاءت السبعينيَّات التي لم يكن من السَّهل التَّصويت لها، ففيها ميليشيا الجيش الأحمر الألمانيَّة، إلى جانب الانتشار الكبير لجرائم القتل، والانفجارات، والاختطاف والسرقة.... الاختيار بين Mao وDao، Bandiera Rossa، Che Guevara، Marcuse، Dutsche هكذا كانت تبدو فوضى السبعينيَّات في أوروبًّا، رغم أنَّ الحرب العالميَّة الثانية لم تنته إلَّا قبل عشرين أو ثلاثين عامًا.

أحيانًا لا ندرك جيِّدًا أنَّ بعض الأحداث التاريخيَّة تبدو أبعد ممَّا هي عليه في الواقع. عندما ولدت كانت الحرب العالميَّة الثانية تبعد عنَّا مسافة 23 عامًا فقط، لكنَّها بالنسبة إليَّ بدت دائمًا كما لو اندلعت في عصرٍ مختلف تمامًا. وكما يقول غاوسطين: انتباه! التاريخ في مرآة الرؤية الخلفيَّة هو دائمًا أقرب ممَّا يبدو...

في النهاية فازت الثمانينيَّات. أو بتعبيرٍ أدقّ، فازت الثمانينيَّات الألمانيَّة الغربيَّة، فأصبحت برلين مرَّةً أخرى مدينةً منقسمة. ومن اللَّافت أنَّ كلا الجانبَيْن من ألمانيا أصرَّا على ذلك.

لقد اختار المسنُّون الألمان هذا العقد بسبب شخصيَّة هلموت كول الرائعة التي كانت تشعُّ بالاستقرار والأمن. أمَّا الشباب، أو الذين كانوا شبابًا آنذاك وهم أغلبيَّة الناخبين، فاختاروا العقد بسبب موسيقى الديسكو.

في النهاية ينتصر دائمًا ما هو تافه، ويستولي الابتذال وبرابره على إمبراطوريَّات الأيديولوجيَّات القاسية. إذن، يمكننا القول إنَّ الفائزين الكبار في الاستفتاء كانوا Falco، Nena، Alphaville، الفريق الألمانيّ الغربيّ لكرة القدم من الثمانينيَّات، ولحية Paul Breitner، Becker، Steffi Graf، والترف االفاحش لِـ KaDeWe، «Dallas»، «Dirty Dancing»، وMichael Jackson الذي كان الجميع يموتون وَلَهًا به، وحتَّى ذلك البرنامج المُملّ «المرجل الملوَّن» الذي بُثَّ بمناسبة عيد رأس السنة في ألمانيا الشرقيَّة.

«تزعم دائمًا أنَّ الثمانينيَّات هي الفترة التي أنتجت أكبر مقدارٍ من الملل وموسيقى الديسكو. لكن يبدو أنَّ الناس يتمنَّون أن يعيشوا في هذا الملل والديسكو.»، كتبت لي إ. بعد الانتخابات.

كانت على حقٍّ بالطبع، لكن هناك شيءٌ آخر. فربَّما صوَّت الناس للثمانينيَّات بسبب نهايتها المقبلة. كان في هذه الانتخابات شيءٌ خاصٌّ لفت انتباهنا إلى مسألةٍ جليَّة: عندما تختار عقدًا أو عامًا معيَّنًا، فأنت تختار كذلك ما يأتي بعده... فأنا أريد أن أعيش في الثمانينيَّات، لأنَّني متلهِّفٌ لقدوم عام 1989.

(لم يلاحظ أحدٌ أنَّ حزب الثلاثينيَّات كان يمثِّل القوَّة السياسيَّة الثانية في معظم المحافظات الشرقيَّة).

ـ10ـ

لم أتكلَّم مع أحدٍ منذ أيَّام (أو ربَّما أسابيع؟). يبدو لي أنَّني أفقد شعوري بالزمن. استيقظت، وارتديت ملابسي، ونزلت إلى المدينة كي أشتري السمك، فاليوم كان يوم التسوُّق. حاولت الاتِّصال بغاوسطين مرَّةً أخرى، ولم يردّ، وكنت أسمع فقط إشارةً صوتيَّةً غريبة من الجانب الآخر. تبادلتُ بعض الكلمات مع بائع الزيتون. كان يتحدَّث بالإيطاليَّة، وأنا أجيب بالألمانيَّة المكسَّرة. في النهاية باع لي كمِّيَّة الزيتون التي أراد أن يبيعها لي في البداية. وفي أثناء صعودي التلَّ باتِّجاه الدير، كنت أدحرج في ذاكرتي كلماته الأخيرة مثل نوى الزيتون – prego, olive, grazie, prego, olivo, grazie ثمَّ أبصقها عندما أصل إلى القمَّة. اشتريت سمكًا وجبنًا. نظَّفت السَّمكة، وقطَّعت تفَّاحةً حامضةً إلى قطعٍ رفيعة، ثمَّ أضفت زيت الزيتون والريحان والليمون وبعض النبيذ وقطعة جبنٍ أبيض من منطقة جبال الألب. وبعد نصف ساعةٍ أصبحت السَّمكة جاهزة. وضعتها على الطاولة في أجمل طبق، وسكبت لنفسي النبيذ، وجلست... حينها أحسست أنَّه ليس لديَّ أيُّ شهيَّةٍ للطعام.

-11-
متلازمة الغائب

غائبٌ أنا عن أماكن كثيرة... غائبٌ عن نابولي، طنجة، كويمبرا، لشبونة، نيويورك، إسطنبول، ويامبول. ليس مجرَّد غياب، بل غيابٌ مؤلم... عن ظهيرةٍ ممطرة في لندن، وعن ضجيج مدريد في المساء، وعن بروكلين في الخريف، وعن الشوارع الخالية أيَّام الأحد في صوفيا أو تورينو، وعن سكون بلدةٍ بلغاريَّة في عام 1978...

لقد غبت كثيرًا... يضجُّ العالم بغيابي... وتجري الحياة بلا توقُّفٍ في الأماكن التي أكون أو لا أكون فيها.

لست غائبًا عن الجغرافيا فحسب، بل وعن المكان، مع أنَّ المكان لم يكن مجرَّد مكان، ولا الجغرافيا محضَ جغرافيا.

غائبٌ عن خريف عام 1989، وعن أيَّار المجنون من عام 1968، وعن صيف 1953 البارد. غائبٌ أنا عن كانون الأوَّل 1910، وعن نهاية

القرن التاسع عشر، وعن الثمانينيَّات الشرقيَّة المهووسة بموسيقى الديسكو، التي أكرهها من أساسها.

لم يُخلَق المرء كي يعيش في سجن جسمٍ واحد وزمنٍ واحد.

(غاوسطين، «التشخيصات الجديدة واللّاحقة»)

- 12 -

يأتي دور **سويسرا**. إنَّ موافقتها على المشاركة في الاستفتاء من دون أن تصبح دولةً عضوة كانت مفاجأةً سارَّة (وإن كان تفسيرها مستحيلًا).

عدَّة أشهرٍ قبل ذلك، جرى بيني وبين غاوسطين النقاش التالي:

تذكَّرْ كلامي، هؤلاء سيختارون الأربعينيَّات من دون أن يرفَّ لهم جفن، ممَّا سيثير هلع الجميع.

انظرْ، ربَّما في أوروبَّا التي كانت تمزِّقها الحرب، بدت سويسرا وكأنَّها جنَّة، لكن صدِّقْني، لم يكن الأمر كذلك. فكانوا هناك في انتظار الهجوم عليهم باستمرار، وتحليق الطائرات الحربيَّة فوق حدودهم. هِتْلَر لم يتردَّد قطّ، فقد رسم خطَّةً مفصَّلةً للاستيلاء على سويسرا مدينةً تلو الأخرى.

كنت أحبُّ زمن الفعل الذي يستخدمه غاوسطين أثناء الحديث، مع أنَّ ذلك يثير أعصابي أحيانًا. فكيف لك أن تتجادل مع من يروي الأحداث كما لو كان شاهد عيانٍ على ما حدث؟

نعم، لكنَّ الاستعداد للحرب هو أمرٌ يختلف عن التواجد في خضمِّها، أليس كذلك؟ قلت بنبرةٍ ساخرة.

لا، لا أوافقك، قد يكون الأمر أسوأ أحيانًا. فعليك أن تسمع الأخبار عن كلِّ الفظائع التي يتعرَّض لها جيرانك، وأن تنام وبندقيَّتك تحت الوسادة، وأن تكون مستعدًّا دائمًا للمعركة، وأن تحفر جبال الألب كي تَبْني مخابئ (أسميناها «معاقل»)، وأن تختبئ في المعاقل، وأن تمنح الامتياز وتقدِّم القروض للرايخ باستمرار... خاصَّةً بعد أن سحق أولئك فرنسا بسرعة البرق. فلنتذكَّر أنَّ بعض المدن السويسريَّة تعرَّضت للقصف من قبل التحالف، منها بازل وجنيف، وكذلك زيوريخ، إذا لم تخنّي الذاكرة.

إنَّها أخطاء ملاحيَّة، أجبت، مستخدمًا التفسير الرَّسميَّ الذي قدَّمته القوَّات الجوِّيَّة الأميركيَّة. لن يقصف أحدٌ البنك الذي أودع أمواله فيه، كما يقولون.

لكن، انظر إلى حجم الأموال التي ضخَّها هؤلاء السويسريُّون مباشرةً بعد انتهاء الحرب في الصناديق الخيريَّة... مشروع «مارشال»، ومنظَّمة الصليب الأحمر في جنيف. هذا أمرٌ لا يمكن إنكاره.

ومع ذلك، فإنَّهم سيختارون الأربعينيَّات، تذكَّرْ كلماتي. لم تشهد البلاد حتَّى الآن مثل هذا التدفُّق من الذهب والمال واللَّوحات الفنِّيَّة هنا... بنوك ورسَّامين خلَّدهم التاريخ.

نعم، لكنَّ الأموال كانت تذهب إلى البنوك، في حين أنَّ الناس كانوا فقراء، خاصَّةً خارج زيوريخ. إذن، لن يختاروا الأربعينيَّات أبدًا، ردَّ غاوسطين.

واتَّضح فيما بعد أنَّ غاوسطين كان على حقّ. لقد كان دائمًا على حقّ، مع أنَّ جميع استطلاعات الرأي أشارت إلى نسبةٍ عاليةٍ من الدَّعم لسنوات الحرب، الأمر الذي أثار قلق بروكسل. لكن في اللحظة الأخيرة اتَّخذ سادة الاستفتاء الكبار قرارًا منطقيًا وغير متوقَّعٍ في آنٍ واحد. يا لها من مفاجأة!! اختارت سويسرا الحياد.. حيادًا زمنيًّا غريبًا، إذا جاز التعبير. أو بالأحرى، اختارت سويسرا لفترتها السنة والشهر واليوم المحدَّد لإجراء الاستفتاء.

لكنَّه... لكنَّه ليس الماضي، تلعثم المفوَّضون الأوروبيُّون. بالعكس، كلُّ هذا أصبح ماضيًا بينما نتحدَّث، ردَّ ممثِّلو الحكومة بهدوء. وغدًا، بالتأكيد، سيتحوَّل إلى ماضٍ أعمق. وهكذا الأمر مع كلِّ يومٍ يمضي.

إنَّ مراعاة الحياد كان دائمًا بمثابة لعبةٍ خارج الزمن. كأنَّ سويسرا قالت: أنا لن ألعب وفقًا لقواعد زمنكم لفترةٍ من الزمن. ولكن، إذا دفعتم لي، فإنَّني أستطيع أن أقيس زمنكم، وأسجِّله باستخدام مقياس الزمن (صُنِعَ في سويسرا، بالطبع)، وأبيع لكم ساعات، وأحافظ في بنوكي على لوحاتكم الفنِّيَّة وخواتمكم وجواهركم وجميع أمتعتكم، في الوقت الذي تلعبون أو تتقاتلون فيه.

لا يمكن الاعتراض على هذا الكلام.

وقد اعترف الأوروبيُّون بعد مناقشة الأوضاع بأنَّ اختيار سويسرا قدَّم في الواقع مزايا معيَّنةً للجميع. ولم تكن فكرةً سيِّئة أن تكون في هذا الانقلاب التاريخيِّ للزمن دولةٌ يضبط الجميع ساعاتهم على ساعتها. فهل يمكنك الوثوق بساعةٍ غير الساعة السويسريَّة؟ الجميل في الأمر أنَّه أوَّلًا، سنتمتع بنموذجٍ محفوظ، أي المعيار الذهبيّ للزمن الذي ابتعد

عنه الآخرون. وثانيًا، لو عانى أحدٌ من فوبيا الماضي الشديدة، لمنحته سويسرا ملجأً مؤقّتًا... ملجأً للحماية من الماضي.

كذلك قرّر الأوروبيُّون أنَّه من الأفضل أن تتواجد مقرّات المؤسَّسات الأوروبيَّة المستقلَّة التي ستراقب الالتزام بالحدود الزمنيَّة الجديدة في هذا البلد... في أرض الزمن المحرَّمة.

-13-

إيطاليا P.S.

كنت قد فقدتُ كلَّ آمالي، وإذ بإيطاليا غير المنظَّمة، والبطيئة على نمط شعوب الجنوب، قد تمكَّنت من إنقاذ الستينيَّات في اللحظة الأخيرة. مع أنَّه في البداية لم يوحِ أيُّ شيءٍ بذلك.

آه، لو كان بإمكاننا العود إلى زمن موسوليني، لَكِن بدون موسوليني...، فقد بُني الكثير من الأشياء في تلك الفترة، هكذا قال على قناة RAI 1 قبل التصويت رجلٌ ممتلئ الجسم كان يرتدي أفرول جينز متَّكئًا على سيَّارته الصغيرة من طراز «فيات». لكن مثل هذه التصريحات أصبحت نادرةً في سياق الحملة الانتخابيَّة. لقد استيقظ في إيطاليا نوعٌ مختلف من الحنين وكان قريبًا وعزيزًا بالنسبة إلينا، على عكس طرق موسوليني السريعة التي تبيَّن لاحقًا أنَّ جودتها لم تكن عالية. وهكذا، أُستبدل Il Duce بِـ La Dolce.

«فَلْيَخْسَأْ Il Duce وَلْيَحْيَا La Dolce vita!»، كتب أتباعُ حركة «الحياة الحلوة» على الجدران. «كانت لدينا أموالٌ لنصرفها، وشبابٌ لننفقه»، قالت امرأةٌ إيطاليَّة في Piazza di Spagna وهي تلعق آيس كريم جيلاتو، وبدت الجملة كعبارةٍ من فيلم. إنَّ المعجزة الاقتصاديَّة التي حدثت في الخمسينيَّات استمرَّت في الستينيَّات أيضًا، وكان هناك ما يكفي الجميع من أجهزة التلفاز، والغسَّالات، والدرَّاجات الناريَّة من طراز Vespa، وسيَّارات «فيات» صغيرة، ناهيك عن وجود Federico Fellini, Gina Lollobrigida, Marcello Mastroianni, Adriano Celentano.

لقد اختارت إيطاليا في الاستفتاء العقد الذي لم يجرؤوا في براغ وباريس وبرلين على اختياره. وفي اليوم التالي تصدَّر صحيفة Corriere della Sera ومعظم الصحف الأخرى العنوان الآتي: «إيطاليا تنقذ الستينيَّات».

Vita brevis, Dolce vita longa.

كانت الستينيَّات فيلمًا تمَّ إنتاجه على الأرجح في أستوديوهات Cinecittà، لكن مَنْ منَّا لا يريد أن يعيش في الأفلام؟ إيطاليا... الدرَّاجات الناريَّة ذات اللون الأزرق السَّماوي، والليالي، والمعاطف الطويلة، والطلاق على الطريقة الإيطاليَّة، وFontana di Trevi, Via Veneto، والشرفات، والحكايات عن تلك الحفلة الشهيرة في أوائل تشرين الثاني عام 1958 بمناسبة عيد ميلاد الأميرة الشابَّة أولغا دي روبيلان، حيث قامت الراقصة عائشة نانا بالتَّعري المفاجئ، فألهبت بعض صور الحفلة خيال الأمَّة. هكذا ابتُكِرت عبارة La dolce vita، وتكوَّنت الستينيَّات التي بات الجميع يشتاقون إليها.

تلك الحياة الحلوة، La dolce vita، كانت، على الأقّل، ممكنةً في بلدٍ واحد.

كنت أعتقد دائمًا، خاصّةً بعد تقدُّمي بالسنّ، بأنَّ جميعنا في يومٍ ما سنغادر إلى إيطاليا كي نعيش في الستينيَّات هناك... ربَّما ليس في باليرمو بالتَّحديد، لكن في مكانٍ ما في توسكانا، لومبارديا، فينيتو، إميليا رومانيا، كالابريا... حيث يكفيك أن تحسَّ بطعم هذه الأسماء في فمك؛ الجيلاتو الذائب لهذه الأسماء بحروفٍ رقيقة مثل الـ «ل» والـ «ي» والـ«م»، وحرف الـ«ر» القاسي كالمكسَّرات.

مرَّةً في شبابي وجدت نفسي في ساحةٍ صغيرة في مدينة بيزا. ومنذ ذلك الحين أعرف كيف يبدو ما كنت أريده دائمًا...

كانت ليلةً من تلك الليالي التي تعرف أنَّه ليس بإمكانك النوم فيها، فتغرق في شوارع غير مألوفة، وما إن تقطع بعضها حتَّى تتلاشى الضوضاء خلفك. حينها تكتشف ساحةً في وسطها نافورة، وكنيسة في الزاوية، ومجموعة أصدقاء، وصُبيان وبنات خرجوا للدردشة في الجوِّ البارد في منتصف الليل. تجلس على مقعدٍ في الطرف الآخر من الساحة، وتنصت لأصواتهم، ولو سألك أحدٌ في تلك اللحظة ما هي السعادة، لأشرتَ إليهم صامتًا: أن تشيخ مع الأصدقاء في مثل هذه الساحة، أن تتحدَّث معهم، وتشرب البيرة في الليالي الدافئة وسط المباني القديمة... أن تكون مرتاحًا في لحظات الصمت التي تليها موجاتٌ من الضحك متمنّيًا أنَّ العالم سيحافظ على هذا الإيقاع من الصمت والضحك في ليالي الشيخوخة والسنين المقبلة التي لا مفرَّ منها.

هذه هي أوروبَّا التي كنت أحلم بها مع غاوسطين... ساحاتها صغيرةٌ مليئة بالدردشة، وصباحاتها نمساويَّةٌ مجريَّة، ولياليها إيطاليَّة، وأحزانها بلغاريَّة.

-14-

تلك كانت خريطة أوروبًا الجديدة:

لقد اختار الناس في الاستفتاء السنوات التي كانوا فيها شبابًا. فالأشخاص الذين يبلغون اليوم السبعين من العمر كانوا صغارًا في السبعينيّات والثمانينيّات، أي كانوا حينها في العشرين أو الثلاثين من أعمارهم. ورغم أنّهم اختاروا سنوات شبابهم، إلّا أنَّ الشباب الذين لم يكونوا قد ولدوا بعد آنذاك هم الذين سيعيشون فيها. هناك شيءٌ من الظلم في ذلك... أن تختار وقتك المفضَّل الذي سيعيش فيه الجيل القادم، كما يحدث في جميع الانتخابات.

والسُّؤال الآخر الذي يطرح نفسه هنا: هل كان الشباب أبرياء إلى هذا الحدّ؟ لقد أشارت استطلاعات الرأي إلى أنَّ معظمهم صوَّتوا بحماسةٍ أكبر مقارنةً بالكبار لعقودٍ من القرن الماضي لم يكونوا يتذكَّرونها. وكان هذا نوعًا جديدًا من الأيديولوجيا المحافظة، والنزعة العاطفيّة، والحنين المغروس ينتقل من جيلٍ إلى جيل.

لقد تشكَّلت إمبراطوريّة الثمانينّيات كأكبر كتلةٍ وأقواها في أوروبّا، بل كانت بمثابة عمودٍ فقريٍّ في وسط القارّة، وشملت ألمانيا، وفرنسا، وإسبانيا، والنمسا، وبولندا، ثمَّ انضمَّت إليها لاحقًا اليونان... وهي نسخةٌ عن إيطاليا، لكنَّها أكثر فقرًا.

كان تحالف السبعينيّات الشماليّ هو الكتلة الكبيرة المقابلة التي تضمُّ السويد، والدنمارك وفنلندا، أمَّا البرتغال فكانت الاستثناء الجنوبيّ الوحيد. لكن، هل هناك شيءٌ أجمل بالنسبة إلى الشماليّين في السبعينيّات، من أن تكون لديْهم مستعمرةٌ جنوبيّة بشواطئ دافئةٍ على الجانب الآخر من القارّة؟! ثمَّ انضمَّت المجر أيضًا إلى هذا التحالف باعتبارها «أسعد برَّاكة» في عصر الاشتراكيّة.

أمَّا التسعينيّات التي كانت تمثِّل في معظم البلدان القوّة السياسيّة الثانية، الحلم الثاني، وبمعنى ما المستقبل المشرق أمام إمبراطوريّة

الثمانينيَّات، فكانت كتلةً لا يُستهان بها. وقد انضمَّت إليها التشيك، وليتوانيا، ولاتفيا وإستونيا التي كانت لا تزال منتشيةً من حصولها على الاستقلال بعد عام 1989. كما واختارت سلوفينيا وكرواتيا هذا العقد أيضًا، بشرط ألَّا يتمَّ إدراجهما إلَّا بعد نهاية الحرب اليوغوسلافيَّة. كان هذا الاختيار جيِّدًا بالنِّسبة إلى الليبراليِّين والقوميِّين في آنٍ واحد، إذ إنَّ الجميع رأوا فيه آفاقًا للتنمية. علاوةً على ذلك، فإنَّ النمر الأيرلنديَّ مدَّ يد العون (أو مخلب العون) إلى دولة التسعينيَّات التي كانت مجزَّأةً وغير مستقرَّةٍ بعض الشيء. ناهيك عن توقُّع تدفُّق مهاجرين جددٍ من الدول الأخرى. يبدو أنَّه في النهاية، سوف يجتمع الجميع في ملتقى عام 1989.

إنَّ تشكيل ثلاثة أو أربعة تحالفات زمن رئيسيَّة، كلُّها من النصف الثاني للقرن العشرين، كان يُعَدُّ خطوةً واعدة إلى توحيد الدول في المستقبل. لكن كان على جميع المواطنين أن يبقوا لفترةٍ من الزمن داخل حدود بلادهم والعقد الذي حاز أكبر عددٍ من الأصوات. كذلك كان لا بدَّ من تجنُّب اختلاط الأزمنة، على الأقلِّ في البداية، حتَّى تستقرَّ الأمور.

بعدها كانت الحدود ستُفتح بين جميع هذه الدول... في الحقيقة نشأ خلافٌ حادٌّ بصدد هذه النقطة، حيث طالب أتباع مدرسة اللاتزامنيَّة بإعادة تشغيل الزمن وأن يُطلَق على نحوٍ تدريجيٍّ وطبيعيٍّ في السنوات الأولى المختارة. في حين أنَّ مؤيِّدي مدرسة التزامنيَّة أصرُّوا على البقاء في حدود العقود المختارة لفترةٍ أطول. فبدت عمليَّة إعادة الزمن بطيئةً ومرهقة، ولم يكن واضحًا كم من الوقت ستأخذ...

ها قد فُتح صندوق باندورا مع ما يحمله من نِعَم الماضي...

-15-

مكتبة
t.me/soramnqraa

بحثوا عنه في كلِّ زمان، بما فيه السبعينيَّات، والثمانينيَّات... فتَّشوا الستينيَّات التي كان يحبُّ قضاء الوقت فيها، لكنَّه ضاع من دون أثر. لم يعثروا عليه في العيادات ولا في مستوطنات الماضي. اتَّصل بي أطبَّاء من هيليوسشتراسيه ومن أماكن أخرى وسألوا عنه. وأنا بدوري حاولت الاتِّصال به مرارًا وتكرارًا، لكنَّه لم يكن يجيب. فغادرت الدير وأخذت القطار إلى زيورخ.

كان اليوم جميلًا. وطيورٌ مختبئة تصدح من بين أغصان الأشجار. امرأةٌ تجلس تحت أشعَّة الشمس فاتحةً كتابًا... امرأةٌ على الشرفة تقرأ كتابًا. ما زال العالم هو... هو.

لقد اختفى غاوسطين بالطبع. لم يكن ذلك حدثًا استثنائيًّا، نظرًا لتجربتي معه، ومع ذلك فإنَّه كان أمرًا غريبًا يشبه إلى حدٍّ ما الهروب من تحمُّل المسؤوليَّة في مثل هذه اللحظة. لعلَّه شعر بوجود قنبلةٍ في إطلاق

العنان للماضي؟ لعلَّه شعر بالذنب الذرّيّ الذي عانى منه علماء الفيزياء في الثلاثينيّات؟ أو ربَّما امتصَّه الماضي مرَّةً أخرى؟ أو سقط في زمنٍ آخر وسيطفو قريبًا؟ ظننتُ لوهلةٍ أنَّه قرَّر الانتحار. لكن إذا كنت أنا ما زلت حيًّا، فهل يمكن أن يكون غاوسطين ميّتًا...؟

تذكَّرت الغرفة الصغيرة في طابق الأربعينيّات التي التقينا فيها آخر مرَّة، وهي عبارةٌ عن مكتبه السرّيّ الأخير. قلت في نفسي إنَّه سواءٌ أعثر عليه أم لا، فإنَّ ذلك سيكون مخيفًا بالقدر نفسه. فتحت الباب وأنا أشعر ببعض الخوف. كان هناك ظرفٌ بنّيٌ كبير يحمل اسمي وُضِع على المكتب بجانب نماذج الطائرات. كانت في داخله ورقةٌ مكتوبة بخطِّ يده ومذيَّلةٌ بتوقيعه، وجاء في الرسالة أنَّ كلَّ ما يتعلَّق بالعيادة ومستوطنات الماضي يبقى تحت تصرُّفي مؤقتًا لفترةٍ غير محدَّدة. كذلك كان هناك دفترٌ أصفر اللون، حجمه 1/16، ذو غلافٍ ناعم، نصفه مملوء، سوف أقرأه لاحقًا. وجدت أيضًا بطاقةً بريديَّةً مفتوحةً بالأبيض والأسود عليها صورة قاعة القراءة الرئيسيَّة بمكتبة نيويورك. وقد كُتب على ظهرها بخطِّ غاوسطين ما يلي:

عليَّ أن أغادر إلى عام 1939. سأكتب عندما أصل.

تحيَّةٌ طيّبة، صديقك المخلص غ.

هكذا يتصرَّف غاوسطين دائمًا!! يترك كلَّ شيء، ولم يكتب إلَّا سطرَيْن. (يجب أن أعترف بأنَّني شعرت بإهانةٍ شخصيَّة) بلا إرشادات، بلا كلمات دافئة، بلا شيء. كانت كلُّ مشاريعه تنتهي بالطريقة نفسها. لا، أردت أن أقول «كلَّ مشاريع جنونه»، إلى جانب جنوني الخاصّ، لأنَّني كنت جزءًا منها، فقد وثقت به، وابتكرتها معه.

أمَّا غاوسطين، فلم يفعل إلَّا القفز من قطار قرنٍ إلى آخر. لقد علم كلَّ شيءٍ عندما التقينا آخر مرَّة، واتَّخذ قراره. ولذلك حدَّق في وجهي بتلك النظرة عندما قلت إنَّنا سنلتقي في السادسة قبل الحرب.

ربَّما ذهب لنزع فتيل قنبلة عام 1939... ربَّما سوف أتبعه لاحقًا.

ماذا عليَّ أن أفعل بهذه العيادات والمستوطنات، فقد زحف الماضي منها واستقرَّ رسميًّا في المدن المجاورة؟! ماذا عليك أن تفعل مع مستوطنات آلزهايمر في عالمِ مُصابٍ بآلزهايمر؟ قضيت عدَّة ليالٍ أفكِّر في ذلك. كيف يمكن أنْ يحمِّلني كلَّ ذلك؟! طبعًا، ستبقى العيادات مفتوحة، فالمرضى في حاجةٍ إلى ماض محميّ. ولا سيَّما في ظلِّ فوضى الأزمنة في الخارج.

- ٧ -
وحوشٌ كامنة

خرج الجنُّ من زجاجة الماضي وتقمَّص هيئة إنسان.

غاوسطين، «الدفتر الأصفر»

لا أدري أيَّ واحدٍ من الاثنيْن يكتب هذه الصفحة.

خورخي لويس بورخيس، «بورخيس وأنا»

-1-
فُتح الصندوق...

في البداية، بعد أن اختارت الدول عقودها السَّعيدة، كانت الأمور هادئةً نسبيًّا لعدَّة أشهر. لقد شهد العالم ازدهار الأفلام القديمة، وألبومات الموسيقى، وأسطوانات الفينيل، وإنتاج أجهزة الغرامافون. استُؤنف إصدار المجلَّات والصحف القديمة، وظهرت البرقيَّات والآلات الكاتبة من جديد... فتذكَّر الناس كم كان الماضي مُفعمًا بالتفاصيل وبدأوا يكتشفون الأشياء القديمة بسعادة، وينزلون إلى الأقبية، فيُخرجون أغراضًا قديمة، ويقومون بتنظيفها وطلائها وإصلاحها. كانوا يُخرجون مجموعاتهم من الطوابع وعلب الكبريت والمناديل الورقيَّة وأسطوانات الغرامافون. كانت دور السينما تعرض الأفلام القديمة على مدار الساعة، ويتلقَّى المخرجون طلباتٍ لإعادة إنتاجها، وتكاثرت نوادي الرَّقص التقليديِّ مثل الفطريَّات. وازداد عدد سيَّارات «لادا» القديمة في الشرق و«أوبل ريكورد» في الغرب... وأخذت الصناعات الخفيفة تغيِّر مسارها...

لكن كانت هناك أشياءُ يمكنها بمرور الوقت أن تقلب الأمور رأسًا على عقب. فالنسيان أحيانًا أصعب من التذكُّر. كما كان الحال مع الهواتف المحمولة، والإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعيّ، حيث تخلّى البعض عنها بطِيب خاطر، فكان بيت القصيد إبطاء الزمن والتخلُّص من الأشياء... لكنَّ هؤلاء كانوا يمثّلون نسبةً صغيرةً جدًّا، فقد أدّى هيروين العالم الافتراضيّ مهمَّته جيّدًا. ومعظم الناس، بمن فيهم الذين صوَّتوا في الخمسينيَّات والستينيَّات، لم يرغبوا في التخلّي عن هذه الأشياء. كما ولم تكن إمبراطوريّات تشغيل الهاتف المحمول ووسائل التواصل الاجتماعيّ سعيدةً بالتغيُّر المحتمل، وظهرت شائعاتٌ تقول إنَّها تضخُّ سرًّا أموالًا في حملاتٍ لمقاطعة القواعد الجديدة.

من جانبٍ آخر، بدأ «الخاسرون» في الاستفتاء يتمرَّدون. فمَنْ راهن على التسعينيَّات مثلًا، رفض العيش في السبعينيَّات وما يلفُّها من شعورٍ بانعدام الزمن. كان كلُّ شخصٍ يتمنّى أن يعيش في العقد الذي صوَّت له، والذي جعله محطَّ الاهتمام أثناء الحملة الانتخابيَّة. فحامت الفوضويَّة والانفصاليَّة فوق البلدان. وما كان ينبغي أن يجعل الحياة جميلة، أخذ فجأةً في الانهيار... وبدأ المتمرِّدون في الانفصال وتأسيس مجتمعاتٍ ومستوطنات، وتحديد مناطق صغيرةٍ وإسكانها بأزمنةٍ مختلفة، فأصبح ما هو محلّيٌّ مُهمًّا من جديد.

وهكذا، لو انطلق أحد الأغرار في رحلةٍ الآن، لكان من المُمكن أن يجد نفسه فجأةً في وقتٍ مختلفٍ لم يأتِ على ذكره أيُّ دليل سفر: قريةً في أوروبّا الشرقيَّة تعيش في فترة الاشتراكيَّة المبكّرة، وفيها تعاونيّاتٌ وجرّاراتٌ قديمة؛ أو بلدةً بها بيوتٌ تعود إلى عصر النهضة البلغاريَّة، حيث يجري الاستعداد للانتفاضة؛ أو غابةً فيها أكواخٌ مستديرة الشَّكل، وسيَّارات «ترابانت» وهنودٌ من ألمانيا الشرقيَّة. كانت في شوارع القارَّة تتدحرج أزمنةٌ مختلفة، اختلطت وحدثت في آنٍ واحد. كان يجب استبدال الأدلة السياحيَّة القديمة بأدلَّةٍ زمنيَّةٍ جديدة.

-2-

لقد تحوَّل العالم إلى عيادة ماضٍ مفتوحة، كما لو كانت جدرانه قد تهاوت. هل استشعر غاوسطين كلَّ ذلك؟ هو الذي كان يصرُّ دائمًا على أن أوصد الباب جيِّدًا عند الخروج كيلا تختلط الأزمنة...

لقد تدفَّق الماضي كنهرٍ يفيض عن ضفَّتَيْه، ويغمر كلَّ شيءٍ من حوله، ويندفع إلى الأزقَّة، فيغرق الطوابق السفليَّة، ثمَّ يتسلَّق الجدران، ويكسر النوافذ، ويدخل الغرف، ويسحب معه أغصانًا، وأوراقًا، وقططًا غارقة، وملصقات، وقبَّعات موسيقيِّي الشوارع، وأكورديون، وصورًا فوتوغرافيَّة، وصحفًا، ومشاهد سينمائيَّة، وأرجل طاولة، وعباراتٍ مكرَّرة، وأوقات ظهيرةٍ غريبة، وأسطوانات غرامافون معطَّلة...

إنَّها موجةُ مدٍّ الماضي الكبيرة.

وبات واضحًا أنَّ خريطة الزمن الجديدة لن تبقى على شكلها الحاليِّ طويلًا. والشياطين التي أيقظها الاستفتاء لن تعود إلى الزجاجة، فما إن تخرج منها حتَّى تزحف في كلِّ مكانٍ «لا صوت لها، لكنَّها مُوَسْوِسة» تمامًا كما وصفها هسيودوس.

كان العالم يعود إلى حالته البدائيَّة من الفراغ، ولم يكن ذلك الفراغ الأوليَّ الذي خُلق منه كلُّ شيء، بل فراغ النهاية، وغزارة النهاية القاسية والفوضويَّة التي سوف تُغرق الزمن الموجود وكلَّ مخلوقٍ فيه...

ها قد خرجت الشياطين...

-3-

عيَّنتُ طبيبَيْن شابَّيْن وعهدت إليهما بإدارة العيادات. أخذت بعض الكتب والدفاتر الفارغة وأقلام الرصاص، وعدت إلى ذلك الدير الواقع على التلّ وإلى حجرتي تحت برج الجرس وراء أسوار القرن السابع عشر. هناك من أعلى الدير (والقرن السابع عشر) كنت أستطيع أن أراقب جيّدًا تدفُّق طوفان الماضي، فقد يمرُّ وقتٌ حتَّى تصل مياهه إلى الدير. لقد أخذت أيضًا ذلك الدفتر الأصفر لغاوسطين، وكان مليئًا بملاحظاتٍ متنوّعة، تشخيصاتٍ جديدةٍ ولاحقة (هكذا سمَّاها غاوسطين)، ومذكَّراتٍ شخصيَّة، وفراغاتٍ تركها عمدًا كما يبدو، لكنّي سرعان ما بدأت أملأها. في البداية كنت أكتب تحت ملاحظات غاوسطين حرف غ. ، وتحت ملاحظاتي (غ. غ.)، ثمَّ توقَّفت عن ذلك، إذ لم يكن ممكنًا التمييز بين خطّي وخطّه.

-4-

أيُمكن أن يحدث اختلاط الأزمنة هذا لأنَّ اللَّـه يعيد لفَّ الشريط؟ فنحن حاضرون في الذكريات الضبابيَّة لإلهٍ أخذ ينسى، بل بدأ يفقد ذاكرته بخصوص ما قاله في البداية. وعندما يتكوَّن أيُّ عالَمٍ من أسماء، فإنَّ نسيانها سيكون نهايةً طبيعيَّةً له.

اللَّـه لم يمت... اللَّـه نَسي... اللَّـه مصابٌ بالخرف.

(الدفتر الأصفر، غ.)

ما لا أجرؤ على فعله (أو قوله) يتحوَّل إلى غاوسطين.

ومع ذلك، فهو متطرِّفٌ جدًّا في عبارته: «اللَّـه مصابٌ بالخرف». فاللَّـه لم يفعل شيئًا سوى أنَّه أخذ ينسى. أحيانًا، يمزج أزمنةً ويخلط ذكريات، إذ إنَّ الماضي لا يجري في اتِّجاهٍ واحد.

أتساءل عمَّا يحدث في رأس إلهٍ يحفظ كلَّ حكايا العالم التي حدثت ولم تحدث؛ كلَّ حكايانا، في كلِّ ثانيةٍ من هذا العالم.

(الدفتر الأصفر، غ. غ.)

-5-

لا أتذكّر متى بدأ غاوسطين يتحوّل إلى شخصٍ أكثر واقعيّةٍ منّي. كان الناس يقرأون عنه، يهتمّون به، ينتظرون ظهوره، ويسألون عن سبب تأخُّره. المجلّة التي كانت تنشر بانتظامٍ قصصي القصيرة عنه ضاعفت أجري. وكأنّني كنت أراه يغمز لي كشخصٍ قفز من الستينيّات، قائلًا: يا أخي، يجب أن تعطيني نصف الأجر الذي تحصل عليه. فأجيب: أنت لست في حاجةٍ لأيِّ شيء، فأنا من ابتكرتك، أليس كذلك؟! فيرفع حاجبه مستغربًا: أَلا أستحقُّ أكثر من هذه الكنزة ذات القبّة العالية، وهذه النظارة! أظنُّ أنَّ سيّارة «بونتياك» زرقاء فاتحة أو «ميني كوبر» على الأقلّ، ستناسبني تمامًا.

اغرب عن وجهي، أيُّها الوغد، يمكنني أن أعطيك موتور «فيسبا» لا أكثر.

ومع مرور السنين، بات من الصّعب عليَّ إدراك هويّة من يكتب بيننا الآخر، أنا أم هو؟!... أو هناك شخصٌ ثالث يكتبنا نحن الاثنيْن من

دون بذل جهدٍ أو دأبٍ يُذْكَر. أحيانًا، أنا شخص أكثر سعادةً وطيبة... هكذا يصفونني، فأطير فرحًا، لكن في الفقرة التالية يُقصقصون جناحي فأترنَّح مثل حمامةٍ في الغبار. وأكرِّر في نفسي: لا تنسَ أنَّك في الجانب الآخر من القصَّة... لا تنسَ أنَّك في الجانب الآخر من القصَّة. ليست هي التي تكتبك، وإنَّما أنت الكاتب. وإذا راودك الشعور بوجود آخر يكتبك، فذلك يعني أنَّ الشياطين قد استولت عليك... والسلام!! لقد أتى أسوأ ما كنتَ تخشاه، فيفرغ عقلك مثل صومعة الحبوب في الشتاء. لا، أنا ما زلت متماسكًا... يبدو لي أنَّني ما زلت أوصد الأبواب جيِّدًا.

أنا الذي أكتب...

عندما أكتب أعرف من أنا، ولكن بمجرَّد أن أتوقَّف لا أعود كذلك.

-6-

كلُّ محطات الإذاعة تبثُّ الموسيقى والأخبار من العقود الماضية. ما يحدث اليوم لم يَعُد مُهِمًّا. وكذلك العقد الذي اختير في الاستفتاء، لأنَّ كلَّ شخصٍ يعيش في عقده الخاصّ. كنَّا نعتقد بأنَّ الماضي مُرَتَّبٌ مثل ألبوم الصور العائليَّة: ها هنا صورةٌ لنا من الطفولة، ثمَّ من حفلة التخرُّج، وها هنا أنا جنديّ، وهنا في حفل زفافي الأوَّل، وهذه مع ابنتي بعد ولادتها...

لكنَّ الماضي ليس فيه شيءٌ من هذا الترتيب...

وجدتُ محطَّةً إذاعيَّةً صغيرة ناشئة تحاول نقل أخبار اليوم، لكنَّها أيضًا مضطرَّةٌ إلى بثِّ الماضي (بكلِّ فوضاه).

-7-

خطر ببالي اليوم أن أطبخ شيئًا لم أجرِّبه منذ طفولتي: بيضةً مشويَّةً على جريدة. إنَّها أبسط وصفة طبخٍ أعرفها. تضع قطعةً من ورقة الجريدة على الموقد وتكسر بيضةً عليها. كانت المشكلة في الماضي أنَّ البيض لم يكن متوفِّرًا، أمَّا الآن فالصحف غير متوفِّرة... أحمد لله أنني وجدت جريدة. أشعلت الموقد على نارٍ هادئة، فامتلأت الغرفة برائحةٍ لم أشمَّها منذ أن كنت في الثامنة من عمري... رائحة البيض والورق المحمَّص، رائحةٌ جافَّة. تذكَّرت كيف كانت بعض حروف الجريدة تطبع على بياض البيض، وكيف كانت الصحف تُستخدم لكلِّ شيء. كان جدِّي يُغلِّف الجبنة بها، وكنت أستطيع قراءة عناوين الجريدة المطبوعة عليها أثناء تناولنا الغداء.

في الصيف، كان الناس يضعون الصحف على النوافذ بدلاً من الستائر وكيلا يُلوِّث الذباب الزجاج. وعلى ذِكْرِ الذباب، تذكَّرت

المصباح المتدلِّي من السقف في بيت أسرتي في القرية. كان مُلوَّثًا بالذباب وكانت جدَّتي تصنع من الجريدة أباجور تغطِّي به المصباح، غير أنَّه سرعان ما كان يصفرُّ ويحترق.

البيضة التي شويتها على الجريدة صارت لذيذةً جدًّا.

-8-

لم أنم مرتاحًا، حلمت بطوفان، ووحوش، وحرائق... أحلامًا من العهد القديم... إنَّها كوابيس حقيقيَّة. فوق هذا كلِّه، فإنَّ سجائري نفدت، لكنِّي لا أرغب في الخروج. هناك في البيت ما يكفي من التبغ، أحتاج فقط إلى ورق لفِّ السجائر. الصحف لم تَعُد موجودة... وأوراق دفتري سميكة... لكن لديَّ دفترٌ قديم من التسعينيَّات مليءٌ بقصائد لا تستحقُّ الحبر الذي كُتبت به، وأوراقه رقيقةٌ مثل ورق الأرزِّ وهي مناسبةٌ لهذا الغرض...

-9-
مُتلازمة فايشا العمياء

وُصِفت حالةً طبّيّةً لفتاةٍ ترى بعيْنها اليسرى الماضي فقط، وبعيْنها اليُمنى لا ترى سوى المستقبل. وأحيانًا تتقلّص الحدود بين الماضي والمستقبل إلى درجة أنَّ عيْنها اليُسرى ترى غروب القمر، بينما ترقب اليمنى شروق الشمس؛ وفي أحيانٍ أخرى تكون الحدود ملتبِسة، بحيث تمتدُّ أمام عيْنها اليسرى الأرض خَرِبَةً مُقفِرةً كما كانت في أيّامها الأولى، في حين تبدو أمام اليمنى مدمَّرةً مُوحِشةً كما ستكون في أيّامها الأخيرة.

تتميَّز «متلازمة فايشا العمياء» كما سيتمُّ تعريفها علميًّا لاحقًا، بهذا التزامن بين الماضي والمستقبل، والقدرة (أو اللعنة) على رؤية العالم ما قبل وما بعد في آنٍ واحد، وليس كما هو عليه راهنًا. وتختلف هذه الحالة عن «مُتلازمة ساكني الماضي» و«مُتلازمة ساكني المستقبل»، فخطورتها مضاعفة.

الصورة السريريَّة: شعورٌ مؤلمٌ بعدم الانتماء إلى أيِّ وقت، وقفزاتٌ مفاجئةٌ بين الماضي والمستقبل، وعمى وظيفيٌّ على الرَّغم من أنَّ حدَقَة العَيْن تعمل بشكلٍ طبيعيّ، ومحاولاتٌ لإلحاق الأذى بالنفس وميولٌ انتحاريَّة، على غرار ما يُسمَّى بمُتلازمة اللَّامنتمي.

يَعجز المرضى عن الخروج بمفردهم، لأنَّ الشارع الذي يسيرون فيه غير موجودٍ بعدْ بالنِّسبة إلى إحدى عينَيْهم، في حين أنَّه طريقٌ سريعٌ مزدحمٌ بالسيَّارات بالنسبة إلى العين الأخرى. ومن المتوقَّع تضاعف عدد الحالات في غضون عامٍ أو عامين.

(غاوسطين، «التشخيصات الجديدة واللَّاحقة»)

أحيانًا يُثير غ. غضبي فعلًا لدرجة أنَّني لا أريد كتابة اسمه كاملًا. كان يغيظني سابقًا، لكنَّه حتَّى في غيابه يستمرُّ بحرق أعصابي، فتراه يضحك عليَّ بين السطور، وهذا أمرٌ شنيع. كذلك أشعر بالغضب منه بسبب نهمه لاحتكار كلِّ شيءٍ من دون وازعٍ من ضميره. ما كلُّ هذا الانفلات ولم التغافل عن المبدع الحقيقيّ؟!... مَنْ أنت، يا هذا! تريَّث قليلًا، أنا الذي خلقتك!!... وأنا مَنْ سوف... تكفي جملةٌ واحدةٌ من قبيل: «رحل غاوسطين في اليوم الأوَّل من شهر أيلول ذاك... » والسلام!

طوال حياتي أتعثَّر بمَنْ يستغل دفء قلبي الشرقيّ الجنوبيّ.

ـ 10 ـ

قبل سنوات، عندما كنت مسافرًا، توقّفت لحضور قدّاس الأحد في كنيسة الدومينيكان في كراكوف. كان شهر شباط باردًا ومظلمًا، والثلج يتساقط. رأيت فتاةً مرتديةً معطفًا قصيرًا تجلس على الدرج؛ ووالدَيْن مع عربة أطفال، يلتصق بهما طفلان خائفان؛ وعجوزًا متشرّدًا يهزّ لحيته كأنّها بندول الإيقاع... وجوه ناسٍ قلقة... عندها انتابني شعورٌ بأنّني قد رأيت هذه الوجوه والأجسام، والمشهد نفسه في وقتٍ ما في الأربعينيّات (رغم أنّني ولدتُ بعد ذلك بعشرين عامًا). تُرى، كيف ستبدو وجوه الناس عندما تحلّ نهاية العالم؟ هل سترتسم عليها علامةٌ ما، أم أنّها ستشبه وجوهنا؟

سنواتٌ بعد ذلك، في ظهيرة أحد الأيّام، وبعد هجومٍ إرهابيٍّ حدث في أوروبّا، قضيت ساعاتٍ في متحف لاهاي، وكأنّني في ملجأ زمنٍ آخر. كان المتحف يعجّ بأناسٍ هربوا من أخبار اليوم، فضلًا عن فتاةٍ مرتدية جينز وسترةً تشاهد لوحة «الفتاة ذات القرط اللؤلؤيّ». كنت أقف لا أتحرّك على مسافة ذراعٍ منهم. كانت وجوههم متشابهةً تمامًا. فالوقت إذن، ليس سوى ثوب، سوى قرط... كان منسّق المعرض يشبه يوهانِس فيرمير.

-11-

دفاتري مليئةٌ بوجوهٍ رسمتُها على عجل... وجوه أشخاصٍ لا وجود لهم، كما هي في هذا الدفتر أيضًا. وبقيَّة دفاتري ملأتُها على مدى سنين... بوجوهٍ لا أعرفها، ولا يهمُّني من تشبه...

ماذا تفعل؟

أرسم وجوهًا غير موجودة.

أهي لمنْ لم يولد بعد، أم لمن رحل؟

هي لمن لم يولد بعدْ وقد رحل.

اخترعوا برنامج كومبيوتر يجمع بين ملامح مختلفة، لتصميم وجوهٍ غير مألوفة، تبدو حقيقيّةً تمامًا. «هذه الوجوه غير موجودة»... هكذا كُتب تحت كلِّ صورةٍ في مقالةٍ نشرتها إحدى المجلّات. لكنّي كنت أشعر بأنّني رأيتها في مكانٍ ما. هناك شيءٌ مخيفٌ في إنتاج وجوهٍ لأشخاصٍ غير موجودين... حتّى أنّه يصعب عليَّ وصف ذلك.

- 12 -

تعطُّشٌ للوجوه: أنا في التاسعة عشرة من عمري وأؤدّي خدمتي العسكريَّة كحارسٍ على الحدود البلغاريَّة اليونانيَّة. سأبقى هناك طوال السنة، في الأرض المحرَّمة التي إذا رأيتَ فيها وجه إنسان، توجَّب عليك إطلاق النار عليه. لا يحقُّ لأحدٍ أن يعبر الحدود الوطنيَّة. تتألَّف وحدتنا العسكريَّة من قائدٍ و12 جنديًّا، وأنت لا ترى إلَّا هؤلاء صباحًا وظهرًا ومساء. غير أنَّ هذا المكان ليس سجنًا، ويحقُّ لك مرَّةً في الشهر الحصول على إجازةٍ لمدَّة يومٍ واحد، ومعظم الجنود يستخدمونها لأخذ قسطٍ كافٍ من النوم. فالنوم من بين أهمِّ الأشياء بالنسبة إلى الجنود، إلى جانب الطعام. أمَّا الجنس، فهو حلمٌ بعيد المنال. أستغلُّ إجازتي كي أزور المدينة المجاورة التي لا يزيد عدد سكَّانها عن 3000 نسمة. لا أعرف أحدًا هناك. أصحو قبل بزوغ الشمس، ثمَّ أمشي بضع كيلومتراتٍ سيرًا على الأقدام، وإذا رأيت عربةً يجرُّها حصانٌ أو حمار، أوقِفها وأسافر معها، فنادرًا ما يمكن رؤية سيَّاراتٍ هنا. بعد ساعتَيْن، أجد نفسي في

مركز المدينة، وحينها بالضبط يفتح المقهى الوحيد، فأجلس خارجًا، وأطلب ليموناضة أو شيوبس، ثمَّ أبدأ بتأمُّل الوجوه... أجلس وأشاهد وجوه «المدنيِّين» كما نسمِّيهم، «وجوهًا غير عسكريَّة». وتسير عيناي وراءها تلقائيًّا. إنَّه الأمر الوحيد الذي يثير المتعة والراحة في نفسي. في مكانٍ ما من العالم، خارج هذه النقطة الحدوديَّة، هناك أناسٌ يعيشون حياةً عاديَّةً تبدو لي بعيدةً إلى درجة أخاف من أنَّني لن أعود إليها أبدًا «بكامل قوايَّ»[1]، كما جاء في كتاب، أحمله سرًّا في حقيبتي إلى جانب قناع الغاز.

إنَّه المعرفة التي تخفِّف القلق من وجود وجوهٍ بشريَّة مختلفة، والخوف المتراكم من أنَّ وجهك ليس واحدًا منها... ولعلَّه ليس موجودًا.

(1) اقتباسٌ من قصَّة جيروم ديفيد سالنجر «من أجل إيسمه... مع الحبِّ والدناءة»، ترجمة: ملك أبيض العيسى.

-13-

أتأمَّل العالم وأنا داخل غرفةٍ من القرن السابع عشر، مزوَّدةٍ بالواي فاي من القرن الحادي والعشرين، وأكتب على طاولةٍ خشبيَّةٍ عمرها مئة عامٍ على الأقلّ، وأنام في سريرٍ بألواحٍ معدنيَّة من القرن التاسع عشر. أحاول رؤية الماضي الذي ينتظرنا. تتلاشى ذاكرتي، ويهجرني عقلي، وما أخطُّه يتبع خطاي ويلاحقني، بل ويسبقني. اغفرْ لي، يا ربَّ المثاليَّة، فقد اختلطت الأوقات ولا أعرف الآن ما إذا كانت القصَّة التي أرويها قد حدثت أم أنَّها لم تحدث بعد.

-14-

وهكذا، بدأت تتكاثر أحداثٌ حدثت ولم تحدث... مليئةً بالتفاصيل، وشبيهةً بأحداثٍ واقعيَّة، وأحيانًا أكثر واقعيَّةً منها لدرجةٍ أنَّه لن يستطيع أحدٌ التمييز بين ما هو حقيقيٌّ وما هو خياليّ.

سوف يختلط الاثنان، فإذا سالت في مكانٍ ما دماءٌ بشريَّة دافئة حقيقيَّة، ستجد الناس يصفِّقون كما لو كانوا في المسرح، في حين أنَّهم في مكانٍ آخر سيعتبرون صبغة الزنجفر السامّ دماء، وسيستشيطون غضبًا.

(غاوسطين، «في اختلاط الأزمنة»)

-15-

Burgtheater, 1925/2025

يعود Peer Gynt، ذلك الأوديسيوس الشماليّ إلى منزله... وإذ بعاصفةٍ تندلع، وتمزّق صواعق البرق السماء، والبحر يهوج ويموج، أمّا السفينة فستتحطّم قريبًا...

وفجأة، وسط أصوات الرعد الآتية من المنصّة، تدوّي طلقات مسدَّسٍ قادمةً من قاعة المشاهدين. تصرخ امرأةٌ من مقعدها في الشرفة الأولى. لقد اخترقت رصاصةٌ خدَّها الأيمن، وخدشت لسانها ثمَّ خرجت عبر خدِّها الأيسر. يرفع الجالسون في أسفل القاعة رؤوسهم. يا للهول!!... رأس رجلٍ معلّقٌ فوق الدرابزين!! تتسرَّب قطرات دمٍ إلى الفساتين الورديّة للفتيات المذعورات في أسفل القاعة. فينهض جميع المتفرّجين من مقاعدهم... منهم من تدافعوا ببعضهم البعض وتزاحموا عند المخرج؛ ومنهم من تجمَّدوا في أماكنهم من دون حراك.

في هذه اللحظة، تظهر في الشرفة امرأةٌ قصيرة القامة، حاملةً مسدَّس «ماوزر» ما زال الدخان يخرج منه، وتمدُّ يدها إلى المرأة المصابة، فيرفع «القتيل» وجهه الملطَّخ بالدِّماء، ثمَّ ينحني الثلاثة بأدبٍ أمام الجمهور المذعور...

نهاية المأساة... تسدل ستائر المسرح ببطءٍ على المنصَّة، رغم أنَّ أحدًا لم يَعُد ينظر إليها.

إنَّها مسرحيَّة Peer Gynt في Burgtheater، إحدى المسرحيَّات الأكثر إثارةً في فيينا. وهي في الحقيقة إعادةٌ كاملة للعرض المسرحيِّ من عام 1925، لكنَّهم أضافوا إليها مشهد اغتيال الثوريِّ المقدونيِّ تودور بانيتسا الذي حدث في 8 أيَّار من العام نفسه، وذلك في الفصل الخامس، أثناء اندلاع العاصفة ومباشرةً قبل عبارة «لا يمكن أن يموت المرء في منتصف الفصل الخامس». المرأة المصابة هي زوجة الثوريِّ المقدونيّ، أمَّا تلك التي أطلقت النار عليها، فهي من أتباع فصيلٍ معادٍ اسمها مينشا كارنيتشيفا (اسمها الكامل ميلبومينيه، على اسم إلهة الإلهام التراجيديّ، يا لها من مفارقة).

لقد أتى الجمهور قبل كلِّ شيءٍ ليشاهد حُطام السفينة على منصَّة المسرح والدِّماء في القاعة. فمنْ منَّا لا يريد أن يُجرِّب طعم العشرينيَّات عبر جريمة قتلٍ في المسرح؟! لقد بيعَت التذاكر لمدَّة عامٍ مُقدَّمًا.

ـ16ـ

هل أنفقنا، يا أصدقائي، شيك المستقبل؟ شيك المستقبل غير المضمون...

يقول القدِّيس أوغسطينوس في كتابه «الاعترافات»[1]: الماضي انقضى والمستقبل لم يأتِ بعد.

حيث نجد بعض العزاء في كلمة «بعدْ»، أي لم يأتِ المستقبل بعد، لكنَّه سوف يأتي. ولكن ماذا نفعل في الزمن الذي انقضى فيه المستقبل؟ وما مدى اختلاف المستقبل الذي لم يأتِ بعد عن ذلك الذي انقضى؟ إلى أيِّ حدٍّ هو مختلفٌ عن لا وجوده هذا؟ الأوَّل كلُّه وعود، أمَّا الثاني فهو نهاية العالم...

غاوسطين، «ملاحظاتٌ بصدد نهاية الزمن»

(1) اعترافات القدِّيس أوغسطينوس، ترجمة: الخوري يوحنَّا الحلو.

- 17 -

تحبسك الذاكرة، تسجنك في حدودٍ ثابتة لشخصٍ وحيدٍ لا تستطيع تركه. ثمَّ يأتي النسيان كي يحرِّرك. وتفقد ملامح الوجه حدَّتها ودقَّتها، ويطمس الغموض الشكل. إذا لم أتذكَّر بوضوحٍ من أنا بالضبط، فأستطيع أن أكون أيَّ شخص، حتَّى نفسي... حتَّى نفسي عندما كنت طفلًا. وإذ بألعاب بورخيس الازدواجيَّة التي كنت تحبُّها كثيرًا في شبابي، تصبح فجأةً حقيقيَّة كألعابٍ تحدث معك. ما كان استعارةً قد صار مرضًا، إذا عكسنا أقوال سوزان سونتاج. لم تَعُد هناك أيُّ استعارات، كما قال غاوسطين في لقائنا الأوَّل بينما كنَّا نناقش موت ذباب مايو في نهاية اليوم. وهنا لم تَعُد متأكِّدًا في أيِّ جانبٍ للقصَّة تقف. هنا تصبح كلمة «أنا» خاليةً من المعنى، كقوقعةٍ فارغة تدحرجها الأمواج على الشاطئ.

ويأتي يوم الهجران الكبير. فتهجرك الآن وتتلاشى واحدًا تلو الآخر كلُّ الأجساد التي عاشت تحت جلدك.

ملاك الهاجرين... ملاك المهجورين... أحيانًا هو الملاك نفسه...

-18-

عثرتُ في الدفتر الأصفر على الملاحظة التالية، التي تقضّ مضجعي منذ أيّام:

«بينما يكتب روايةً عمّن هجرته الذاكرة، يبدأ هو نفسه بفقدان الذاكرة... لذا يسارع إلى إتمامها قبل أن ينسى ما يتحدّث عنه».

هل يسخر غاوسطين منّي، هل يخوّفني أم يطرح عليَّ فكرة؟

-19-

الحرج من نسيان الأسماء... طبعًا، يشكو الجميع من ذلك في سنٍّ معيَّنة. لكنّي أتحدَّث هنا عن أسماء الأقارب والأعزَّاء لديْنا. فلا يمكنك مثلًا أن تنسى اسم المرأة التي عشت معها في الماضي، وكنت متزوِّجًا منها عدَّة سنوات، وها هي الآن تمدُّ لك روايتك، وتبتسم منتظرةً توقيعك. لقد وقفتْ في الطابور للحصول على توقيعي أثناء إحدى مشاركاتي النادرة في أمسيَةٍ أدبيَّة، وكنت أقف متجمّدًا معقود اللِّسان... أستطيع أن أتذكَّر تفاصيل جسدها وكلَّ شاماتها، وليلتنا الأولى، فقد عشنا معًا خمس سنواتٍ من حياتنا.

لكنَّ الاسم... قلَّبتُ بعض الأسماء في رأسي ولم أستطع أن أتذكَّر اسمها. لم يحدث ذلك لي لأوَّل مرَّة، رغم أنَّ الأمر لم يكن مخيفًا إلى هذا الحدِّ من قبل. فلم أنس أبدًا اسم شخصٍ قريب. نظرت من حولي خائفًا، وكان الناس في الطابور ينتظرون دورهم. كنت أعرف بعض الحيل المناسبة لمثل هذه الحالات: لو رأيتُ أحد معارفي لعرفتُها عليه

حتَّى أسمع اسمها، ولكن لسوء الحظِّ لم يكن هناك مثل هذا الشخص، فلجأت إلى الخطَّة البديلة. إذن، سأكتب إهداءً مؤثِّرًا بما فيه الكفاية، لكن من دون أن أذكر اسمها. فكتبت شيئًا من قبيل: «من أجل ماضينا المشترك الذي وُلدنا منه». سلَّمتها الكتاب، ففتحته، ثمَّ أعادته إليَّ ببراءة: «جميل، شكرًا لك، ولكن أضِف اسمي، من فضلك».

ضغطت بدافع القلق السطح الزجاجيَّ للطاولة التي كنت أكتب عليها، تحطَّم الزجاج وسقطت قطعٌ منه بين قدميّ. بدأ معصمي ينزف بغزارة، وفقدت إحدى السيِّدات في الطابور وعيها، فتجمَّع الناس حولها، سكبت الفتاة التي تعمل في كشك الكتب الماء على جرحي وأَخْرَجَتِ الضمادات، وتوقَّف عندها حفل التوقيع، فبدأ الناس ينصرفون. التقط مصوِّران بعض الصور، لعلَّني غدًا سأرى نفسي على أحد مواقع الصحافة الصفراء... «غارقًا في الدماء»... ومع ذلك فإنَّني تنفَّست الصُّعداء. هل يمكنني المساعدة؟ همست زوجتي خائفة، زوجتي السابقة التي كنت أنزف من أجلها كذبيحة. كلُّ شيءٍ على ما يرام، قلتُ ولاحظتُ بعض قطرات الدم على نسختها من كتابي بجانب الإهداء.

هل تريدين استبدالها؟ سألَت فتاة كشك الكتب.

لا، شكرًا، ذلك يجعل الإهداء أكثر حميميَّة، ردَّت إيمَّا وغادرت موقع الجريمة.

إيمَّا!! طبعًا إيمَّا!!... مثل إيمَّا بوفاري.

-20-

ذهبت بعدها إلى أحد أصدقائي، طبيبٍ للأمراض العصبيَّة كان يظنُّني منذ زمنٍ مصابًا بوسواس المرض.

لعلَّها ردود فعلٍ دفاعيَّةٌ ناتجة عن التوتُّر. إنَّك تلتقي بالكثير من الناس، وإذا أضفنا إليهم الأشخاص الذين تبتكرهم...

(هو على صواب، فلم يخطر ببالي حتَّى الآن أنَّني في الحقيقة أحبس في رأسي كلَّ الشخصيَّات التي تتجوَّل في كتبي، وأنا إنسانٌ رحيم، فليس من السَّهل عليَّ أن أقتلها كما يفعل الآخرون، ممَّا يعقِّد الأمور).

طبعًا، قال الطبيب، كلُّنا نتبلَّد قليلًا عند التقدُّم في السنّ، وتموت الخلايا العصبيَّة هنا وهناك، وتبدو بعض الروابط مفقودة، رغم أنَّها يمكنها أن تظهر فجأةً في يومٍ ما، وربَّما لن يكون ذلك في الوقت الذي تحتاج إليها. كما يحدث ليلًا قبل النوم، فكلَّما كرَّرت في نفسك «يجب أن أنام، يجب أن أنام»، كلَّما جافاك النوم. تحتاج إلى الراحة...

غادرت العيادة وانتابني ذلك الشعور بالذنب الذي أحسُّه عندما يظنُّونني مخادعًا، مختلِق جنوني الخاصّ. فليذهبوا إلى الجحيم... ولكن... ماذا كان اسم ذلك الطبيب...، تساءلت بعد قليلٍ وعدت أدراجي إلى الوراء كي أقرأ اسمه على اللّافتة المعلّقة على الباب.

لقد شربنا، قبل أن نرى النور، من مياه نهر النسيان «ليثي» كي ننسى تمامًا ما حدث لنا في حياتنا السابقة، كما تقول الأسطورة الإغريقيَّة. ولكن، لماذا نصحو أحيانًا في منتصف الليل، أو ينقضُّ علينا بغتةً في الثالثة بعد الظهر ذلك الشعور بأنَّ ما يحدث الآن قد عشناه سابقًا ونعرف ما سيأتي بعده. وإذ بشقوقٍ تنفتح في الذاكرة... شقوقٍ يتدفَّق منها نور الماضي. رغم أنَّه كان علينا أن ننسى كلَّ شيء.

ومياه نهر ليثي أيضًا ليست كما كانت.

- 21 -

لا أستطيع أن أعثر في الأساطير على أيِّ إلهٍ كبيرٍ للذاكرة، أو إلهٍ للنسيان على الأقلّ، مثل آلهة الحبِّ والنار والانتقام... لا أجد حتَّى أنصاف آلهةٍ أو حوريَّاتٍ للذاكرة والنسيان. إنَّ الميثولوجيا الإغريقيَّة التي تضجُّ بالآلهة، وأنصاف الآلهة، والقنطورات، والأبطال، وما إلى ذلك، نسيت آلهة الذاكرة والنسيان. نعم، هناك منيموسين، لكنَّها معروفةٌ أكثر باسم أمِّ الملهمات، وهناك أيضًا ليثي، غير أنَّ كلتيْهما تبقيان دائمًا في الظلّ، شبه منسيَّتيْن بطريقةٍ أو أخرى. لعلَّ العالم، عند ظهور الأساطير، كان شابًّا لدرجةٍ أنَّه لم يمتلك ذكريات، وشابًّا إلى درجةِ أنَّه لمَّا يبدأ بالنسيان... إضافةً إلى أنَّ الناس كانوا يموتون في سنٍّ مبكِّرة قبل أن تُفرِغ الشيخوخة ذاكرتهم.

في نهاية المطاف، تبدأ الكتابة حين يشعر المرء بأنَّ ذاكرته لم تَعُد كافية.

إنَّ الألواح المسماريَّة من بلاد ما بين النهرين لا تحتوي على حكمةٍ عن أسرار العالم كما قد توقَّعنا، بل معلوماتٌ عمليَّة عن عدد الأغنام الذي يتكوَّن منه القطيع أو مرادفاتٌ لكلمة «خنزير». كانت الكتابات القديمة الأولى عبارةً عن قوائم. في البداية (والنهاية) دائمًا هناك قائمة.

- 22 -

قالت لي إحدى صديقاتي: أعيد كتابة يوميَّاتي من العام الماضي يومًا بيوم، فلا شيء يحدث هذا العام في حياتي. في اليوم السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني الجاري، أنسخ ما حدث في اليوم السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني الماضي.

لم أسمع شيئًا أكثر كآبةً حتَّى الآن.

وأنا بدوري كنت أكتب اليوميَّات لفترةٍ طويلة، رغم أنَّني لم أسجِّل التاريخ ولا السنة، حيث كنت أشير فقط إلى وقت الكتابة بكلمة «ليلًا» أو كلمة «نهارًا»، ثمَّ توقَّفت حتَّى عن هذا الأمر.

الآن، وأنا أفقد الذاكرة تدريجيًّا، أظنُّ ذلك حماقةً ليس بعدها حماقة، فهكذا فقدت حتَّى النقاط المرجعيَّة الصغيرة للسنوات والأشهر. بعض الأحداث أستعيدها إلى ذهني بينما أقرأ، ولكن يصعب عليَّ أن أتذكَّر متى حدثت... قبل سنةٍ أو قبل 15 سنة؛ وبعضها الأخرى نسيتها تمامًا، كأنَّها تتعلَّق بشخصٍ لا أعرفه، وسجَّلتها يدٌ لا أعرفها.

أصبح خطُّ يدي غير واضح، لقد بدأت أكتب بحروفٍ صغيرةٍ وخطوطٍ حادَّةٍ كما كنت أكتب وأنا طفل.

تتلاشى بعض الكلمات بمجرَّد أن أكتبها، وتفقد معناها، وتغيِّر أوضاع مقاطعها، ويحتلُّ الرأس مكان الذيل، كأنَّها حيواناتٌ أسطوريَّة... كأنَّها قنطوراتٌ أو شراغيف متحوِّلةٌ خُلقت على عجل:

طلب لطب

أين كنَّا؟ وماذا أردت أن أروي... أحاول إتمام كتابٍ عن انسحاب الذاكرة. أسرع في إكماله قبل أن أنسى موضوعه الحقيقيّ. ولكن إذا أصبح كلُّ ما أكتبه واقعًا، فعليَّ أن أهرب من ضمير المتكلِّم إلى ضمائر أخرى.

-23-

في البداية اختفت عدَّة كلماتٍ فقط. لقد حدث ذلك منذ زمن، بينما كانا ما زالا طالبين في الجامعة. كان يحوّل النسيانَ إلى لعبة، فأخبر زوجته وأصدقاءه بتلك الكلمات الخمس أو الستّ، وعندما لم يستطع تذكُّرها كانوا يردِّدونها أمامه: كورنيش، تجاريّ، إكليل الجبل، مُجابَهة...

ذات يوم، ربَّما لأنَّه طلَّق زوجته وتوقَّف عن الاجتماع مع أصدقائه، فأخذت الكلمات المنسيَّة تتكاثر، قرَّر أن يسجِّلها. في البداية كانت تكفيه صفحة، ثمَّ صفحتيْن، ثمَّ ثلاث صفحات، أربعًا... ثمَّ اشترى دفترًا أطلق عليه اسم «قاموس مختصرٌ لِما هو منسيّ»، خصَّص فيه قسمًا لأسماء الناس. بعدها ازداد عدد الأقسام تدريجيًّا، وظهر قسمٌ للروائح التي كانت تُذكِّره بأشياءٍ مختلفة، وأضاف قسمًا للأصوات، وفوق كلِّ ذلك فإنَّه بدأ يفقد سمعه. (قال له أحد الأطبَّاء إنَّ هناك علاقةً بين فقدان السمع وفقدان الذاكرة، لأنَّهما يتقاسمان الغرفة نفسها في الدماغ).

في النهاية أضاف إلى الدفتر قسمًا آخر، ولعلَّه كان الأهمّ، إذ بدأ يكتب فيه ما حدث له بالفعل، حتَّى يمكن أن يميِّزه عمَّا كان قد قرأه في الكتب وعمَّا ألَّفه بنفسه.

كلُّ شيءٍ سوف يختلط قريبًا. ما الذي حدث، وما الذي قرأه، وما الذي ألَّفه، كلُّ ذلك سوف يقفز ويبدِّل أماكنه، إلى أن يهدأ تدريجيًّا ويتلاشى. لكنَّه الآن كان ما زال قادرًا على حماية الحدود.

سنواتٌ بعد ذلك، ستكون زوجته السابقة تنتظر في الطابور للحصول على توقيعه ولن يستطيع العثور على اسمها في ذاكرته...

-24-

لكنَّ الأسماء كانت تزعجه أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. ولو كان عليه أن يتكلَّم بلغةٍ أجنبيَّة، فإنَّ ذلك قد يتحوَّل إلى كابوسٍ حقيقيّ. كان ينسى حتَّى العبارة الملائمة التي يمكن أن يستخدمها للاعتذار والسؤال:

Sorry, your name escapes me... Sorry, your name...

كلُّ صباحٍ كان يأخذ ورقةً ويملؤها بهذه الكلمات الخمس، الأمر الذي كان يذكِّره بالعقاب المدرسيِّ في الماضي، عندما كانت المعلِّمة تجبره على أن يكتب مئة مرَّةٍ الكلمات التي أخطأ فيها أو بعض المخالفات البسيطة مثل «نسيتُ واجباتي المدرسيَّة بالبيت». ومن هنا توصَّل في سنٍّ مبكِّرةٍ إلى اكتشاف أنَّ تكرار الكلمات يغيِّر مغزاها، إذ ينزع لبَّ ما هو مكتوب، ويجرِّده من المعنى، فيتفكَّك كلُّ شيءٍ عند إعادة كتابته مئة مرَّة (بما فيه الذَنْب نفسه) إلى مقاطع لفظيَّةٍ لا معنى لها.

لا بأس، لكنَّ هذه الذكريات كانت تعجبه الآن. فكانت من بين الذكريات القليلة التي لم تُبارحه، وهو يعتني بها وكأنَّها حيواناتٌ أليفة محبوبة، يستدعيها، ويداعب آذانها، ويتحدَّث معها.

كان يعلم أنَّه سيستخدم في يومٍ ما هذه العبارة أيضًا:

Sorry, my name escapes me.

-25-

كان يتساءل عمَّا إذا اقتربت اللحظة التي سينسى فيها كتابة الحروف، وهو الأمر الوحيد الذي لن يتحمَّله. فقد تعلَّم الكتابة في سنٍّ مبكِّرةٍ جدًّا، في الرابعة أو الخامسة، ممَّا يعني، أنَّها ستكون آخر شيءٍ يمضي. كان يتخيَّل بوضوحٍ كيف تغادر الحروف كأنَّها حيواناتٌ صغيرة، أو نمل، أو خنافس، تترك هذا الدفتر، تهجر الكتب في مكتبته، تزحف، تعبر الغرفة وتخرج جميعًا.

الهجرة العظمى للأحرف: ها هو حرف Щ يزحف مثل أمٍّ أربعةٍ وأربعين، ويُلوِّح حرف Б بيده ثمَّ يغادر وهو يجرُّ بطنه البارز أمامه، ويتدحرج O مثل خنفساء الروث، ويُلوِّح حرف Й بقبَّعته المضحكة عند الوداع، ويقفز Ж مثل ضفدعةٍ ويختفي وراء الباب. يفتح كتابًا كما اتَّفق فيجده فارغًا... ليس فيه إلَّا حرفًا صغيرًا هو حرف e يسقط على الأرضيَّة ويتدحرج ثمَّ يختفي خلف مشعاع السخَّان.

مكتبةٌ بها كتبٌ فارغة مهجورة، لا عناوين لها، ولا مؤلِّفين ولا نصوص. صفحاتٌ بيضاء، Tabula Rasa. إنَّ عقل الطفل هو تابولا رازا، ولا بدَّ لنا أن نكتب كلَّ شيءٍ عليها، قالت معلِّمته أثناء حفل استقبال تلاميذ الصف الأوَّل الابتدائيّ. لقد حفظ تلك العبارة الغريبة، لأنَّه لم يكن يفهمها. وها هو عقله الآن صار من جديدٍ صفحةً بيضاء، لكن لم يَعُد ممكنًا كتابة أيِّ شيءٍ عليها. كأنَّ الشريط الفوتوغرافيَّ لذاكرته قد تعرَّض للضوء.

ـ26ـ

الخليَّة العصبيَّة (من اليونانيَّة القديمة: νεῦρον ليف، عصب) هي خليةٌ قابلة للاستثارة كهربائيًّا يمكنها معالجة المعلومات ونقلها. تتلقَّى التشعُّبات إشارات الخلايا العصبيَّة الأخرى، ويقوم المحور العصبيّ، من خلال آلاف التفرُّعات، بنقل هذه الإشارات إلى الخلايا

العصبيَّة الأخرى، والتي بدورها... (كتاب علم التشريح للصفّ السابع المتوسِّط).

ذلك التواصل المبهج (أو المقلق) بين الخلايا العصبيَّة! ذلك الطنين المستمرّ! الومضات، وحركة الأيونات، ورفيف الأغشية، والمحاور العصبيَّة، والناقلات العصبيَّة، وتبادل المشابك العصبيَّة، والإشارات، وقفْز النبضات، و«الضجيج الممتع للعمل»... وفجأة، أو ليس فجأة، بل تدريجيًّا، تتوقَّف عن التحدُّث مع بعضها البعض، وعن تبادل الزيارات، وعن تبادل الأشياء، كما يفعل الجيران الذين يتبادلون الطحين والملح والقصص، فيتلاشى الضجيج، وكلُّ شيءٍ في الورشة يتوقَّف، ويتجمَّد... والمصابيح تنطفئ...

- 27 -

كان أحد أصدقائي يروي قصَّةً عن والدته وحماته، وهما سيِّدتان في الثمانين من العمر بدأتا تفقدان الذاكرة في الوقت نفسه تقريبًا. فلم يملك خيارًا آخر غير أن يأخذهما إلى شقَّته في صوفيا. وكان يسمع كلَّ صباحٍ حوارًا كالتالي:

مَنْ حضرتكِ، ومن أين أتيتِ؟ سألت إحداهما الأخرى.

يعني ي ي ي... أنا من تلك المدينة، اسمها... كيف كان... على شاطئ البحر...

(لم تعودا تتذكَّران أسماءهما، ولا أسماء مدينتَيْهما).

صحيح؟ وأنا أيضًا من منطقة البحر. يا لها من مصادفة! وحضرتك، ماذا تفعلين هنا؟

لقد جئت لزيارة ابني. إنَّه يعيش هنا مع زوجته، وكذلك لرؤية حفيدتي. وماذا عن حضرتك؟

أنا جئت لزيارة ابنتي. إنَّها تعيش هنا مع زوجها، ولرؤية حفيدتي أيضًا.

انظري... يا لها من مصادفة! كم عمر حفيدتك، سيِّدتي؟

إنَّها في السابعة أو الثامنة. وحفيدتك؟

يا إلهي! وحفيدتي في العمر نفسه... ها هي في الصورة.

أتمازحينني، يا سيِّدتي؟! هذه حفيدتي!!

كان الوضع بين السيِّدتيْن يصل أحيانًا إلى حدِّ الشجار، وأحيانًا أخرى تجدهما تتصالحان، مع العلم أنَّهما تعيشان في الشقَّة نفسها، ومع العائلة نفسها، فابنة إحداهما متزوِّجةٌ من ابن الأخرى.

في الصباح التالي كان الحوار نفسه يبدأ بينهما من جديد.

مَنْ حضرتكِ، ومن أين أتيت؟

ـ 28 ـ
مِلح

إنَّ الأساطير القديمة (والأيديولوجيَّات الجديدة) لا تحبُّ الالتفات والنظر إلى الوراء... نَظَرَ أورفيوس إلى الوراء فأضاع يوريديس إلى الأبد؛ ونظرت زوجة لوط إلى سدوم، فتحوَّلت إلى عمود مِلح؛ إنَّ الذين ينظرون إلى الوراء يُحبَسون لاحقًا. يجب أن يبدأ كلُّ شيءٍ من جديد، وبدون ذاكرة. (جديدة، جديدة هي نجمة الشيوعيَّة ولا يوجد شيءٌ قبلها، هكذا كان يُكرِّر سكرتير الحزب الشيوعيّ المحلِّيّ في بلدة ت. في الماضي).

اذكروا امرأة لوط. اذكروا سدوم وعمورة، والنار التي تمطر من السماء. ولا تجرؤوا على النظر إلى الوراء، هذا ما يُذكِّرنا به لوقا الإنجيليّ. وعلى الجميع أن يبقوا حيث كانوا. «وَالَّذِي عَلَى السَّطْحِ فَلاَ يَنْزِلْ لِيَأْخُذَ مِنْ بَيْتِهِ شَيْئًا»، «وَالَّذِي فِي الْحَقْلِ فَلاَ يَرْجعْ إِلَى وَرَائِهِ لِيَأْخُذَ ثِيَابَهُ».

أقوال... تشبه أوامر الشرطة.

ولكن ما هي الجريمة التي ارتكبها الماضي؟ لماذا عليهم ألَّا ينظروا إلى الوراء؟ لماذا يُعتبَر الماضي خطيرًا، والنظر إليه خطيئةٌ تحوِّلك إلى عمود ملح؟ لا تأتي نهاية العالم إلَّا للقضاء على الماضي. من السَّهل عليك أن تغادر سدوم وعمورة، فالجميع يهربون من الكارثة، لكنَّ الهروب ليس كافيًا. هناك شرطٌ لا بدَّ منه وهو نسيان الماضي، ومحوه من ذاكرتك، وعدم الاشتياق إليه. غادرت امرأة لوط المدينة، لكنَّها لم تتمكَّن من نسيانها.

الزمن، كما يصفه «والتر بنيامين»، ليس الثانية التي مرَّت لتوِّها، بل هو عبارةٌ عن سلسلة إخفاقاتٍ تعود إلى الوراء (وأخرى تتقدَّم إلى الأمام)، تَراكُم أطلالٍ يقف أمامها ملاك التاريخ مذعورًا، مديرًا وجهه بعيدًا. هل ملاك التاريخ الذي رسمه بول كلي باسم Angelus Novus هو زوجة لوط نفسها؟

لماذا وقفتْ ونظرتْ إلى الوراء؟

لأنَّه من طبيعة الإنسان أن يفعل ذلك.

ماذا تركتْ هناك؟

الماضي.

لماذا صارت عمود مِلح، وليس شيئًا آخر؟

لأنَّ الملح لا ذاكرة له، ولا شيء ينبت فوق الملح.

تحتوي الموسوعة التاريخيَّة «حوليَّات نورمبرغ» التي وضعها هارتمان شيدل في نهاية القرن الخامس عشر على رسمٍ توضيحيٍّ نرى

فيه لوط وبناته يرأسهم ملاكٌ مبتهج ثرثار، وهم يسيرون إلى الأمام مبتعدين عن سدوم المحترقة وأبراجها المنهارة. بينهم وبين المدينة المحترقة تقف امرأةٌ بثيابٍ بيضاء وقد أدارت وجهها نحو المدينة، رغم أنَّها في الواقع لا تنظر إلى الوراء، بل جانبًا. فالماضي، وكذلك النار، لا يمكن النظر إليهما العيْن بالعيْن. وجه المرأة هادئ... لا علامة على رعب، ولا خوف، ولا ألم... لا شيء سوى الملح. أمَّا بناتها ولوط العجوز الذين يرأسهم الملاك الثرثار، فلا يلاحظون غيابها. فقد نسوها.

-29-

لاَ تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزًا في الحَاضِرِ حَيْثُ يُفْسِدُ السُّوسُ وَالصَّدَأُ، وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ. بَلِ اكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزًا فِي المَاضِي، حَيْثُ لاَ يُفْسِدُ سُوسٌ وَلاَ صَدَأٌ، وَحَيْثُ لاَ يَنْقُبُ سَارِقُونَ وَلاَ يَسْرِقُونَ، لأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضًا.

غاوسطين «الكتب الأبوكريفيَّة والعهود الجديدة»

-30-

لا شيء يُريح الأعصاب مثل المجلَّدات المرتَّبة والمتشابهة ذات اللون الأحمر الكرزيّ والبنّيّ والأسود لموسوعاتٍ من القارّات المختلفة.

... وقراءة العناوين التالية يمكن استعمالها ككلمات «المانترا» للحماية السحريَّة من الأزمنة والقوى الروحيَّة الشرِّيرة:

Enciclopedia General Ilustrada Del Pis Vasco

Enciclopedia de Mexico

Nueva Enciclopedia de Puerto Rico

Diccionario Biografico De Venezuela

Enciclopedia Britanica

The New York Public Library, Oriental Collection

The South in American Literature 1607-1900

Poisonous and Venomous Marine Animals Of The World

Nomenclator Zoologicus

Grande Libro Della Cucina Italiana

The Cuisine of Hungary

Book Prices Current (London), 1905-06

Subject Index of Books Published Before 1880

The Mother of All Booklists

Anonymous and Pseudonymos English Literature

Diccionario Bibliographico Braziliero

Catalogo De La Bibliografia Boliviana

Short-Title Catalogue Of Books Printed in England and Scotland..., 1475-1640

Catalogue of German Books, 1455-1600

Crime Fiction 1749-2000

Bibliographia De La Literatura Hispanica

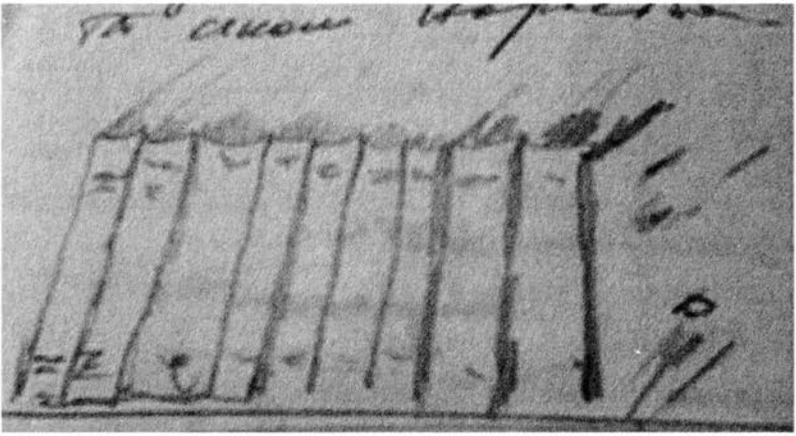

-31-

في مكانٍ ما في جبال الأنديز، يعتقدون حتَّى يومنا هذا أنَّ المستقبل وراءك، حيث يأتي ويفاجئك من الخلف، في حين أنَّ الماضي قد حدث فيمتدُّ دائمًا أمام عينيْك. وعندما يتحدَّث عن الماضي، يشير أهل قبيلة أيمارا بأيديهم إلى الأمام؛ أي أنَّك تَسير إلى الأمام في مواجهة الماضي، بينما تلتفت إلى الوراء نحو المستقبل. تُرى، كيف ستكون قصَّة زوجة لوط في هذه الحالة؟

نمشي إلى الأمام وندخل حقول الإليزيَّة السرمديَّة للماضي.

أمشي إلى الأمام وأتحوَّل إلى ماض.

-32-

رأيت هذا المنام مجدَّدًا. في مكانٍ ما من مكتبة العالم، في قاعة المطالعة الرئيسيَّة ذات السقف المرتفع المزيَّن بالرسومات، والطاولات الخشبيَّة والمصابيح الدوَّارة بلون الذهب العتيق الهادئ، يجلس رجلٌ مختبئًا خلف صحيفةٍ مفتوحة. الصحيفة كبيرة، وبالتالي فهي قديمة، كما كانت الصحف في الماضي. أسير نحوه بين وجوه أناس (لا أرى في منامي سوى وجوه) وهي تلتفت إليّ. وجوه نساءٍ ورجالٍ أعرفها من مكانٍ ما، لكنَّها فقدت أسماءها منذ زمن. أعرف (لا أعرف، لكنِّي أشعر) بأنَّ الجميع يراقبونني، وهذا مشهدٌ مُهِمّ. لقد كُتب في الصفحة الأولى من الجريدة بأحرفٍ كبيرة وبأسلوبٍ تلغرافيّ، كُتب... ماذا؟ لا أستطيع قراءته بعد. الرجل الذي أسير نحوه يبدو قريبًا، لكنَّ الطريق في منامي يطول من تلقاء نفسه، وأنا أبدأ أمشي بصعوبة، وكأنَّني أغرق في شيءٍ لزج أو لعلَّني أخاف من الوصول إلى الرجل... أخاف من قراءة المكتوب على الصفحة الأولى، مع أنَّني في أعماقي أعرفه جيِّدًا (أحفظ مضمون الصحيفة بأكمله عن ظهر قلب) وأخاف أيضًا من أنَّ الرجل، حين أصل إليه، سيزيل الصحيفة عن وجهه، وسأرى وجهي أنا بالذات.

-33-

هنالك أيَّام، يبدو كلُّ شيءٍ فيها على ما يرام، حتَّى أنَّني قادرٌ على الكتابة واسترجاع الذكريات عن مدنٍ وغرف سكنتُها، وذهني صافٍ مثل مياه الأمطار، ثمَّ يتعكَّر ماء ذاكرتي، يتعكَّر... يأتيني أشخاصٌ لا وجوه لهم، يتجوَّلون في غرفتي، ويهدِّدونني مُصرِّين على أن يجعلوني سعيدًا، ثمَّ لا أتذكَّر شيئًا، أركِّز نظري على نقطةٍ ما، وأعجز عن تحويله عنها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-34-

أنا في بروكلين، في صالون الحلاقة عند الطاجيكيّ جاني الذي يدندن بأغنية فرانك سيناترا، وحين يمسك بالشفرة كي يحلق رقبتي، ينتابني ذلك الخوف الأزليّ من أنَّه سيذبحني مثل خروف. ثمَّ يُخرج منشفةً رطبة ساخنة إلى درجةٍ تُطاق، ويغطّي بها وجهي ويضغط عليها ضغطًا خفيفًا. وهكذا أبدو شبه مذبوح، شبه مخنوق، مغمورًا بكولونيا الخزامى، ثمَّ أفتح عينيَّ كما لو بُعِثت من الموت وأقدِّم له إكراميَّةً كبيرة، وكأنَّني أدفع فديةً من أجل نجاتي. وعندما أخرج وأجد نفسي على الرصيف، أسجِّل في دفتري رائحة كولونيا الحلاقة، كونها رائحةً توقظ ذكريات قصِّ الشعر. فكلُّ شخصٍ لديْه ذاكرةٌ وخوفٌ من هذه التجربة. وكلُّ شخصٍ بمرور السنين يلاحظ شيب رأسه أثناء جلوسه على كرسيِّ الحلاقة.

أضيف أيضًا إلى قائمة الروائح في دفتري تلك الرائحة الخاصَّة لشوارع نيويورك الآتية من الفاكهة المتعفِّنة لنبات الجنكة بيلوبا...

«الجنكة بيلوبا في نيويورك». تُرى، ماذا يوجد في ذاكرة تلك الشجرة التي تتذكَّر نهاية الديناصورات كناطحات سحابٍ متحرِّكة (ومنهارة) منذ ما قبل العصر الجليديّ، وفي الوقت نفسه لا تنسى أيضًا انهيار ناطحات سحابٍ حقيقيَّة... إنَّها ذاكرة مرعبة. هل فهمتَ الآن لماذا تراودك الكوابيس؟ قلت لنفسي،... لأنَّك منذ سنواتٍ وأنت تلتهم جنكة بيلوبا لمحاربة النسيان من دون أن تدرك أنَّها نبتةٌ تخزِّن في ذاكرتها أفظع الذكريات.

أذهب كلَّ يومٍ من بروكلين إلى مكتبة نيويورك في أفينيو 5 وشارع 42، وقد اعتدت تدريجيًّا على كلِّ تفاصيل هذا الطريق: الخروج باتِّجاه جسر مانهاتن، حيث يُطلُّ تمثال الحرِّيَّة من بعيد، وجدران ملتصقةٌ ببعضها البعض، ومداخن، وأبراج مياه، وشرفاتٌ واسعة على الأسطح وغسيلٌ منشور فيها، قبل أن يدخل مترو الأنفاق تحت الأرض مرَّةً أخرى. أنزل في تايمز سكوير، وأقف هناك قليلًا كي أقرأ اللَّوحات الإعلانيَّة، وكأنَّني أطالع الصفحات الأولى من جريدة اليوم... اللَّوحات الإعلانيَّة هي الصحف الجديدة. ما الأخبار التي تقدِّمها لنا؟ أخبارٌ عن بعض الوحوش، العودة إلى المستقبل، الأفلام الرائجة التي تبثُّ الخوف من اقتراب نهاية العالم، الساعات، القروض... يبدو أنَّه لا ينتظرنا أيُّ شيءٍ جميل. أستمرُّ في السير في شارع 42 على أنغام زعيق صفَّارات سيَّارات الإطفاء والشرطة، وكأنَّني في مشهدٍ سينمائيّ. أدخل حديقة براينت، أمرُّ بالطاولات والكراسي الخضراء، أسير تحت أشجار الدلب الشاهقة، ألقي نظرةً على مبنى كرايسلر بزخارفه الرائعة المبتكرة بأسلوبٍ فنِّيٍّ جديد، ثمَّ أختبئ في كهف المكتبة البارد، وكأنَّني في زمنٍ آخر... في ملجأ زمن.

-35-

أذاعوا في الراديو أنَّ الثلوج تساقطت في الصحراء خلال شهر تموُّز وغطَّت الأهرام. أتخيَّلُ أبا الهول بقبَّعة ثلجٍ على رأسه، فالثلج يسخر من التماثيل الأثريَّة كما كتب ويستن هيو أودن. ماذا تفعل الجمال في هذه الصحراء المغطَّاة بالثلوج؟ لعلَّها تحفر في البئر العميقة للذاكرة وتبحث عن معلوماتٍ عمَّا يجب فعله في مثل هذه الأحوال، لكن لا توجد معلوماتٌ عن ذلك، ولا تحتوي الكبسولة الزمنيَّة للجينات على أيِّ شيءٍ من هذا القبيل.

يقولون إنَّ فصول السنة سوف تختلط في نهاية الزمن.

-36-

رأيت حلمًا، لم أتذكَّر منه إلّا العبارة التالية: وحش الماضي البريء... نسيت الحلم، لكنَّ العبارة بقيت عالقةً في ذاكرتي.

-37-

سرايفيو 1914/2024

لقد أصبحت العروض المسرحيَّة للأحداث التاريخيَّة أكثر وحشيَّةً وواقعيَّةً من أيِّ وقتٍ مضى. ومن أشهرها في منطقة البلقان تلك التمثيليَّة التي تعرض اغتيال الأرشيدوق النمساويِّ فرانز فرديناند بكلِّ تفاصيله: جولةً في سرايفيو بسيَّارةٍ مكشوفة نسخة طبق الأصل من سيَّارة الأرشيدوق Graf & Stift Phaeton، سوداء اللَّون وذات محرِّكٍ رباعيِّ الأسطوانات؛ أيضًا الملابس: القميص الأبيض لِولي العهد، والزيُّ الرَّسميّ، والسيف؛ والمسار ومحطَّات التوقُّف؛ والخطأ القاتل الذي ارتكبه السائق... كلُّ شيءٍ كما حدث في ذلك اليوم.

«ادخُل في التاريخ، ولا تبقَ في خارجه! كنْ لمدَّة ساعةٍ غافريلو برينسيب أو فرانتس فرديناند في سرايفو عام 1914!».

بمناسبة ذكرى اغتيال الأرشيدوق النمساويّ فرانز فرديناند، يسعى منظِّمو العرض الذين تربطهم علاقةٌ مع بلديَّة المدينة، إلى تقديم شيءٍ مُميَّزٍ وأصيلٍ وواقعيّ، وذلك في اليوم 28 من شهر حزيران (حسب التقويم الجديد) الذي يصادف أيضًا ذكرى اندلاع الحرب العالميَّة الأولى. آلاف السكَّان المحليِّين سيشاركون في العرض كممثِّلين كومبارس، وهم يتجوَّلون في المدينة منذ أسابيع مُرتدين ملابس قديمةً من موديلات ذلك الزمن. سيقدِّم المنظِّمون المسرحيَّة بكلِّ تفاصيلها، استنادًا إلى الصور الأرشيفيَّة الموجودة وبالتشاور مع أكاديميِّين متخصِّصين بالتاريخ. لكن هُناك شيءٌ ينقصهم؛ ألّا وهو التشويق والتهويل. فهذه ليست مجرَّد جولةٍ قصيرة يقوم بها وليُّ العهد في يومٍ جميل من حزيران... إنَّه يومٌ تبدأ فيه حرب، وليس مجرَّد حفلةٍ في حديقةٍ ما. لقد استطاعوا العثور على شخصٍ من سلالة فرانز فرديناند كي يلعب دوره، فهناك حاجةٌ إلى «دمٍ أزرق»، أليس كذلك؟

وفيما يخصُّ دور القوميّ الصربيّ غافريلو برينسيب، فقد أجروا تجارب أداءٍ لاختيار شبابٍ من الصرب ذوي ميولٍ فوضويَّة، عاطلين عن العمل ومستعدِّين لأيِّ شيء، مع العلم أنَّه في هذا الوقت، تمَّ أيضًا إعادة تأسيس حركة «اليد السوداء» السابقة التي ينتمي إليها من قاموا بعمليَّة الهجوم آنذاك، فاختاروا فتى من صفوفها، وزوَّدوه بالمسدَّس المناسب Browning M 1910، وهو صغيرٌ ومسطَّح، ويَسهُل حملُه وإخفاؤه. طبعًا، كانت الطلقات خُلَّبيَّةً وآمنة، وكان الهدف من استخدامها سماع صوت إطلاق النار فقط.

لقد أتى 28 من حزيران. اجتمع سكَّان المدينة لمشاهدة التمثيليَّة... البعض منهم كانوا قد اشتروا التذاكر، في حين كان البعض

الآخر يشاهدونها من شرفات المباني المجاورة، أمَّا الأطفال فقد اعتلوا الأشجار جالسين على أغصانها. كلُّ شيءٍ في هذا اليوم يشبه بصورةٍ مذهلة اليوم الثامن والعشرين من حزيران عام 1914. «حتَّى الغيوم هي نفسها»، كما علَّق أحدهم بعد مقارنة الصور. يهبُّ نسيمٌ حاملًا أزهار الزيزفون المتساقطة، وبعض الممثِّلين الكومبارس ارتدوا ربطة عنقٍ بيضاء وقبَّعاتٍ عالية، بينما كانت ملابس بعضهم الآخر غير رسميَّة، وكانوا يتجوَّلون في المكان متوتِّرين. والنساء أيضًا كانت ثيابهنّ من تلك المرحلة نفسها المتَّجهة إلى نهايتها الحتميَّة (بسبب ذلك اليوم بالذات) وكنَّ يمشين بفخر، وعلى رؤوسهنَّ قبَّعاتٌ كبيرة مثل أعشاش طيور اللقلق.

يحدث كلُّ شيءٍ كما كان في ظهيرة 28 حزيران عام 1914: جلوس الأرشيدوق في السيَّارة السَّوداء المكشوفة Graf & Stift Phaeton، وانطلاق موكب السيَّارات الثلاث، وأوَّل محاولةٍ فاشلة لتفجير القنبلة، وتوقُّف الموكب عند مبنى البلديَّة، حيث يقول وليُّ العرش مرتجفًا: «لقد جئت لرؤيتكم وتستقبلونني بالقنابل»، ثمَّ الوصول إلى مستشفى سراييفو لزيارة الجرحى، واتِّخاذ السيَّارات مسارًا خاطئًا في أحد الشوارع قريبًا من الجسر اللَّاتينيِّ أمام عيني غافريلو برينسيب اليائس الذي صادف أنَّه كان يشرب البيرة أمام الحانة هناك كي يبدِّد حزن الاغتيال الفاشل، وإذ به يرفع عينيْه ويرى أنَّ الضحيَّة قد جاء إليه بمحض إرادته، فأخرج مُسدَّسه، وقفز نحو السيَّارة التي تدور في مكانها مثل خنفساء ثقيلة، مطلقًا النار على الأرشيدوق.

تتفتَّح وردةٌ حمراء من الدم على قميصه الأبيض، ويبدو كلُّ شيءٍ واقعيًّا إلى درجة أنَّ المشاهدين كانوا مذهولين ولم يجرؤوا على التصفيق.

تسقط زوجته صوفيا عند قدميْه، غير أنَّه لم يهتمّ أحدٌ بذلك، تمامًا كما هو مسجَّلٌ في كتب التاريخ. لكنَّ القاتل قام بشيءٍ لم يكن في الحسبان، حيث بدا غير قادرٍ على تصديق ما قد حدث فعلًا. فوِفْقًا للسيناريو، يجب عليه أن يقوم بمحاولةٍ فاشلة لإطلاق النار على نفسه، وأن يبتلع بعدها السيانيد، لكنَّه وقف لحظتها مذهولًا وكأنَّه ابتلع لسانه بدلًا من السيانيد.

ثانية طويلة.. ثانية طويلة تاريخيَّة تجمَّدتْ فوق مركز مدينة سراييفو. وكأنَّ آليَّة الزمن تتحرَّك إلى الوراء فنشاهد غافريلو برينسيب يقف مرتبكًا، وفي يده مُسدَّسٌ يتصاعد منه الدخان، والجمهور يحدِّق فيه ويقف متجمِّدًا للحظاتٍ قبل أن يندفع نحوه وينهال عليه ضربًا. هدأت الريح، وساد صمتٌ عميق، وطفلٌ سقط عن غصن شجرةٍ من دون أن يجرؤ على البكاء.

(خيِّل إليَّ لوهلة، أنَّ هذا السيناريو أُخرِج بقلم صديقي دامبي في مسرحه الجديد في الهواء الطلق الذي يُقدِّم فيه الكوميديا السوداء).

حينها كان الأرشيدوق يحتضر، ودمه يتطاير مثل ماء النافورة. المشهد حقيقيّ، ويبدو أنَّ الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة.

اندفع الحرَّاس نحو غافريلو برينسيب، أي نحو الشخص الذي يلعب دور غافريلو برينسيب، لكنَّ ذلك لم يَعُد مهمًّا، فقد أصبح كلُّ شيءٍ يتحرَّك، تمامًا كما كان في ذلك الوقت. ووسط الهرج والمرج تخرج طلقةٌ ثانية من المسدَّس وتصيب بطن أحد الحرَّاس، وحينها فقط اندفع الحشد نحو القاتل لينهال عليه ضربًا. تُسمَع صفَّارات الإنذار لسيَّارات الشرطة، وتحاول سيَّارة الإسعاف أن تشقَّ طريقها، وترمي الخيول رجال الشرطة من فوق ظهورها وتدوس بعض السيِّدات

وقبّعاتهن. كلُّ الفوضى تحدث خارج إطار السيناريو المعدّ ولا يمكن السيطرة عليها.

لم يستطع أحدُ أن يشرح كيف تحوّلت الطلقات الخلّبيّة إلى ذخيرةٍ حيةّ. مرّةً كلَّ مئة عامٍ يمكن أن يحدث إطلاق نارٍ من بندقيّةٍ فارغة، كما يقولون في هذه المنطقة، لكن من يدري...

أرسلت السلطات النمساويّة فورًا مذكّرة احتجاجٍ على مقتل مواطنها من نسل الأرشيدوق. ووجّه مكتب المدّعي العامّ الأوروبيّ اتّهاماتٍ ضدّ منظّمي العرض المسرحيّ، ودعا إلى الاعتقال الفوريّ لجميع المشاركين وإجراء تحقيقٍ بصدد حركة «اليد السوداء» المتمرّدة، رغم أنَّ سكّان سراييفو ليسوا بحاجةٍ إلى دعوةٍ كي يدمّروا مباشرةً مكاتب العديد من من الشركات والوكالات الصربيّة.

وهكذا قد وجدت أوروبّا نفسها على أعتاب حربٍ عالميّةٍ أولى «أخرى».

-38-

هنالك شيءٌ قد تغيَّر، شيءٌ ليس كما كان.

أسمع خطاه المتثاقلة، ولهاثه. لم تكن الحياة هكذا من قبل. فالماضي كان يضجُّ بالإيقاع والرقص والجري.

ألمح لوهلةٍ بين أوراق الأشجار الضوء المتعب الباقي من يوم البارحة، أو من ظهيرةٍ منسيَّةٍ منذ سنين. هنالك شيءٌ يتسرَّب من أزمنةٍ أخرى، يقطر، ويستقرُّ في الحاضر.

أحسُّ في حلقي طعم الرماد، أشمُّ رائحة شيءٍ محترق شبيهةً برائحة الحقول المحصودة والغابة المحترقة...

هنالك شيءٌ قد تغيَّر، شيءٌ ليس كما كان.

ألمس بأصابعي جلدًا آخر، باردًا وخشنًا، كان في زمنٍ ما دافئًا وناعمًا، حيًّا مثل يد إنسان، أمَّا الآن فهو يشبه جلد الأفعى المسلوخ.

تتجوّل أثناء ظهيرةٍ حارَّة من شهر آب، وتلفحك فجأةً رائحة جثَّةٍ متعفّنة. لعلّها رائحة جرذ، لكنَّ الجثَّة تبقى جثَّة.

هنالك شيءٌ بدأ يتعفَّن، ويفسد، ويسودّ، ويبرد، ويصبح طعمه مرًّا، وأنا أحسُّه بحواسّي الخمس.

هنالك شيءٌ تغيَّر، شيءٌ ليس كما كان.

ولكن ماذا لو توقَّف الزمن فعلًا؟ كيف سندرك ذلك؟ هل ستتوقَّف الساعات؟ هل ستبقى التقويمات في تاريخ يومٍ واحد؟ احتمال حدوث هذا ضعيف... فهي لا تتغذَّى على الزمن، ولا تتعيَّش على ذلك.

إذن ما الذي يتغذَّى على الزمن؟

كلُّ مخلوقٍ حيّ، بالطبع. القطط، والأبقار، والنحل، والثعابين المائيَّة، ونبات الأقسون الشوكيّ، وصقور الفئران والفئران، والسناجب في الحديقة، وديدان الأرض، وذبابة الفاكهة، والحوت الأزرق، والسمك الأحمر وكلُّ مخلوقٍ يسبح، ويطير، ويزحف، وينسلُّ خفيَّة، ويتسلَّق الأشجار، وينمو، ويتكاثر، ويكبر ويموت. كلُّ هذه المخلوقات هي التي تتغذَّى فقط على الزمن... أو الزمن يتغذَّى علينا. نحن غذاءٌ للزمن.

اللعنة، لو كان الزمن ميِّتًا، لكنَّا شعرنا بذلك.

-39-

أعود مرَّةً أخرى إلى رفوف الكتب، كي أتأكَّد من أنَّ العالم مجلَّدٌ ومرتَّب. ها هنا الحرب العالميَّة الأولى انتهت في موسوعةٍ مكوَّنةٍ من اثني عشر مجلَّدًا متطابقًا أحمر. والحرب الباردة مدفونةٌ إلى الأبد بين أغلفة ثلاثة مجلَّداتٍ رماديَّة. لم تَعُد الحرب الأهليَّة الإسبانيَّة مخيفة (نائمةً الآن على الرفِّ العلويّ)، ولا الحرب العالميَّة الثانية التي خُصِّص لها رفَّان في المكتبة. كلُّ شيءٍ يتحوَّل إلى كتب، كما قال مالارميه في أحد الاقتباسات المفضَّلة لدى بورخيس. وإذا فكَّرنا في الأمر، سنجد ذلك مخرجًا رائعًا.

أجلس في Main Rose Reading Room بالقرب من رفوف الكتب التاريخيَّة، تحت السماوات المرسومة بأسلوب باولو فيرونيس. أمسك بيدي المجلَّد الأوَّل من موسوعة الحرب الباردة، طبعة عام 2018 الذي يمتدُّ بصفحاته من الحرف A إلى الحرف D. أستطيع أن أروي ذكريات الجبهة من هذه الحرب التي «قاتلنا» فيها خلال طفولتنا.

أتصفَّحه وأسترِقُ النظر مثل جاسوسٍ إلى الأشخاص من حولي. ما تقرأه هو الذي ستتحوَّل إليه. على الطاولة في مواجهتي يجلس رجل، أدركت فورًا أنَّه متشرِّد. كنت أشعر دائمًا بقربٍ لا يمكن تفسيره من المتشرِّدين. كان يرتدي سترةً شتويَّة حجمها كبيرٌ لا يناسب مقاسه (لديَّ واحدةٌ مماثلة) وقبَّعةً ذات أغطية أذنٍ متدلية على الجانبيْن. الجوُّ في غرفة المطالعة دافئ، لكنَّ المتشرِّد فضَّل أن يجلس مرتديًّا سترته الشتويَّة، ومستعدًّا للمغادرة في أيِّ لحظةٍ إذا طردوه، وأنا أعرف جيِّدًا هذا الشعور المسبق بالذنب.

لقد وضع على يساره كومةً من الكتب. وفي الحقيقة هو من بين القلائل الذين يقرأون بالفعل، في حين ترى الآخرين يحدِّقون في هواتفهم، ويرسلون رسائل نصِّيَّةً منتظرين انقطاع المطر في الخارج. المكتبة هي ملجأ، مكانٌ دافئٌ مريح ومفتوح للجميع. قبل سنواتٍ كان هناك اقتراحٌ بمنع المتشرِّدين من الدخول إليها، لكن تمَّ رفضه. يستبدُّ بي الفضول لرؤية ما يقرأه، فأنهض متظاهرًا بأنَّني أبحث عن كتابٍ على الرفوف القريبة وألتفت إليه قليلًا. رأيت أمامه مجلَّدًا كبيرًا ممزَّقًا بعض الشيء، عنوانه «تاريخ البرابرة»، ثمَّ تمكَّنت من قراءة عنوان الكتاب الآخر الذي يقع تحته وهو «تاريخٌ موجز للهند»، وفي أعلى الكومة... لا، لا أصدِّق عينيّ!!: «المختارات من أعمال غاوسطين». مددتُ يديَّ بحركةٍ لا إراديَّة، فرفع المتشرِّد عينيْه، وحينها قرأت اسم المؤلِّف بشكلٍ صحيح: أوغسطين بالطبع. (يمكنني أن أقسم أنَّ الاسم المكتوب كان قبل ثانيةٍ غاوسطين). أعتذر منه... حدَّق في وجهي، ثمَّ انكبَّ مرَّةً أخرى على الكتاب... ألبوم صورٍ لبيوتٍ إسبانيَّةٍ ضخمة من القرن التاسع عشر.

-40-

مكتبة
t.me/soramnqraa

قبل عدَّة سنواتٍ بدأت أفقد سمعي. المُعينة السمعيَّة الصغيرة التي وُصفت لي مع وعدٍ بأنَّني سأستعيد بها أصوات طيور الشحرور صباحًا والجداجد في ليالي الصيف، لم تساعدني قطّ. سمعت من خلالها كلَّ شيء كما لو كان مسجَّلًا على أسطوانة غرامافون قديمة، حيث يُسمع صدى خافتٌ وطقطقة هنا وهناك. إنَّه شعورٌ بالتكاثر الميكانيكيّ، كما يقول والتر بنيامين، موسيقى تصويريَّةٌ لعالم الأمس سُجّلت وشُغّلت من دون توقُّف.

وحتَّى أثناء الحرب كانت الطيور تزغرد. أقلّب هذه الجملة في رأسي، بينما أستمع إلى «رباعيَّة نهاية الزمن» لأوليفييه مسيان التي ألّفها وأدّاها لأوَّل مرَّةٍ في يناير 1941 في معسكر أسرى الحرب الفرنسيّ. أرفع مستوى الصوت إلى حدِّه الأقصى. تبدأ الرباعيَّة بتلك الكلمات من سفر الرؤيا عن الملاك الذي يعلن نهاية الزمن. لقد هطل مطرٌ بارد بعد ظهر اليوم الذي أقيمت فيه الحفلة الموسيقيَّة في الهواء الطلق،

لكن لم يغادر أيٌّ من السجناء أو حرّاس السجن البالغ عددهم 400 شخص. غريبٌ وجميل هذا المزيج من أصوات البيانو والكلارينيت والكمان والتشيلو (لم يجدوا بين الأسرى سوى هؤلاء العازفين)... يبدأ المقطع الأوّل «القدّاس البلّوريّ» بتغريد الطيور، حيث قلّد الكلارينيت صوت الزرياب في عزفٍ منفردٍ رائع، وتبعه الكمان بتقليد صوت البلبل، وهو صوتٌ عذبٌ ومتواتر وشارد وقلق في آنٍ واحد... هادئ، لكنّه متوتّر.

وحتّى أثناء الحرب كانت الطيور تزغرد. وفي هذا تكمن الرهبة كلُّها... والسّلوى كلُّها.

- 41 -

يُعلِّمنا سِفر الجامعة، أنَّ هناك وقتًا لكلِّ شيء، وقتًا لهذا... ووقتًا لذاك، وفجأةً في الإصحاح الأخير من الكتاب المقدَّس تُعلَن نهايةُ الزمن. هذا ما يُخبرنا به الملاك في سفر الرؤيا، واضعًا رجله اليمنى في البحر واليسرى على الأرض، وفي يده كتاب. ذاك الكتاب الذي يجب على يوحنَّا أن يأكله. وحين نقول اليوم «لقد أكلت هذا الكتاب أكلًا من الغلاف إلى الغلاف»، لعلَّنا نسمع صدى صوت سفر الجامعة.

«خُذْهُ وَكُلْهُ، قال الملاك، وهو يقدِّم الكتاب ليوحنَّا «فَسَيَجْعَلُ جَوْفَكَ مُرًّا، وَلكِنَّهُ فِي فَمِكَ يَكُونُ حُلْوًا كَالْعَسَلِ». (مرَّةً في شبابي أكلتُ بمثابتي قارئًا مخلصًا صفحة كتابٍ لا أتذكَّر عنوانه، ربَّما كان كتاب الشعر، لأنَّهم يستخدمون كمِّيَّةً أقلَّ من الحبر في كتب الشعر... لقد كان طعمها مرًّا).

لحظتها يعلن الملاك أنَّه لن يكون هناك زمنٌ آخر، وهذا كلُّ شيء. إذن، لا يعلن نهاية العالم، بل نهاية الزمن. سوف تنفتح أقفاص الأيَّام وتجتمع كلُّ الأزمنة في زمنٍ واحد.

واللَّـه سيأمر الماضي بالعودة إلى الوراء...

- 42 -

حياتي كلُّها محبوكةٌ من حيوات الآخرين. أمَّا ما أعيشه الآن، فهو حياةٌ أخرى لا أعرف صاحبها. أشعر وكأنَّني وحشٌ حيكَ من نسج أزمنةٍ مختلفة. أقيم في مدينةٍ غريبة، تضجُّ على نحوٍ متواصلٍ بزعيق سيَّارات الإطفاء، وكأنَّ النيران تأكلها دائمًا. أقضي كلَّ أيَّامي في المكتبة، في قاعةٍ باردةٍ تحت سماءٍ مزيَّنةٍ بالرسومات، وتحيط بي موسوعات العالم ذات أغلفةٍ حمراء وبأحرفٍ مذهَّبة. أقرأ صحفًا قديمةً وأتأمَّل وجوه الناس. أخاف من أنَّ أحدًا سيدخل القاعة في لحظةٍ من اللحظات، فيتلفَّت حوله، ثمَّ يتَّجه إليَّ...

أجلس في مكتبة... مكتبة العالم. أقرأ كلَّ صباحٍ أعداد الصحف الصادرة في اليوم نفسه من عام 1939. لقد سكنتُ هذا العام، وكلُّ شيءٍ فيه مألوفٌ بالنِّسبة إليّ، لقد كنت هناك، شربتُ في إحدى حانات شارع 52، وبلَّلتني أمطار ذاك الخريف. الصحيفة ليست سوى باب... إنَّ الماضي بآليَّته الزمنيَّة التي يجب نزع فتيلها، يكمن كما يُقال، في تلك التفاصيل

الصغيرة غير المهمَّة. سنجده هناك بين المنتجات الموسميَّة الأخيرة التي عليها تخفيضات، وفي ذلك المقال عن أقنعة الغاز في المدارس الألمانيَّة مع صورةٍ كبيرة في الصفحة الثالثة من أحد أعداد «نيويورك تايمز» (يقف جميع الطلَّاب من مدرسةٍ ثانويَّة أمام المبنى ممسكين بأيدي بعضهم البعض، ومرتدين أقنعة الغاز تختفي وجوههم خلفها). سأطَّلع على الأفلام التي تقدِّمها دور السينما والنوادي الليليَّة، وسأجلس في حانة «سينزانو» في الصفحة الـ 37، وسأشغِّل جهاز الراديو الجديد «إيمرسون» اللَّاسلكيّ بدون هوائيٍّ الذي يبلغ سعره 19. 95 دولارًا فقط، وسأستمع لآخر الأخبار العالميَّة، وسأبيت في الإعلانات الصغيرة عن غرفٍ للإيجار في مانهاتن السفلى متأمِّلًا وجوه الناس الذين ظهروا قبيل الغروب في أعمدة القيل والقال. يجب ألَّا يفوتني أيُّ شيء، فالمفتاح يكمن في إحدى الليالي الأخيرة من شهر آب... صديقك المخلص غ.

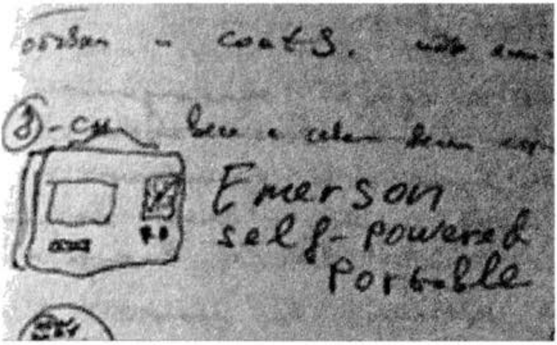

أقفُ عند النافذة، وفي يدي الرسالة، أنا... المرسِل والمرسَل إليه، أقرأ وأقول لروحي إنَّ العالم دائمًا على عتبة الأوَّل من أيلول، في نهاية الصيف، مع إعلانات الجريدة وضجيج القصْف البعيد لِحربٍ اندلعت للتوّ... إنَّها ظهيرة العالم تَرِفُ فيها ظلالنا تحت الشمس المتلاشية قبل حلول الظلام.

-43-

طالما تتذكَّر، فإنَّك تُبقي الماضي بعيدًا، وكأنَّك أشعلت نارًا وسط غابةٍ في الليل، حيث تجثم الشياطين والذئاب من حولك، وتُضيِّق وحوش الماضي عليك الدائرة من دون أن تتجرَّأ على دخولها. التعبير المجازيُّ هنا بسيط: طالما أنَّ نار الذاكرة تشتعل، فأنت الربّ. وما إن تبدأ تخمد، حتَّى يتعالى عواء الذئاب وتقترب الوحوش منك... عصابة وحوش الماضي.

كلَّما تقلَّصت مساحة الذاكرة، اتَّسعت رقعة الماضي.

ستختلط الأوقات قبيل نهاية العالم... ستنسلُّ خارجًا، لأنَّ الأقفاص مفتوحة... «إذا لم تكن الأيَّام موجودة، فأين سنعيش؟». قال هذا شاعرٌ اسمه... نسيته... لكنَّ الأيَّام انقضت... وليس في التقويم سوى يومٍ وليلةٍ يتواتران دائمًا...

أتذكَّر كي أحبس الماضي في الماضي...

(الدفتر الأصفر)

-44-

عمري 7 سنوات... وأنا مع والديَّ في زيارةٍ إلى مدينةٍ غريبة، حيث يحتفلون بأحد الأعياد. المكان مكتظٌّ بالناس، وأنا بالكاد أصل إلى خصورهم... يتدافعون، فيدوسون عليّ، ويبصق أحدهم قشور بذور عبَّاد الشمس فوقي، أتشبَّث بسروال والدي، ثمَّ أتركه، وأتوقَّف عند حقل الرماية، لكنَّ رأسي بالكاد يصل إلى المنضدة، ولا أتذكَّر كم من الوقت وقفت هناك، وعندما ألتفت... كان والداي قد اختفيا. والآن ماذا أفعل؟! «ذهب الوالد مع هانسيل وغريتيل إلى الغابة البعيدة و... وعندما التفتا، كان قد اختفى».

أركض وسط الحشد، وأصرخ، وأغادر المكان، وبدأ الظلام يحلّ، والشوارع تعجُّ بأناسٍ يعودون من العمل. أُوقِف باكيًا سيِّدةً في عمر والدتي: يا عمَّتي، أنا ضائع، ولا أتذكَّر اسم الشارع، ولا رقم المنزل الذي نقيم فيه. لكن أعرف أنَّ بابه أخضر... كلُّ الأبواب هناك خضراء، يا بنيّ، أنا أعود من العمل، اسأل شخصًا آخر. أسألُ امرأةً أخرى، لا

أتجرَّأ على إيقاف الرجال... أسرِع، أيُّها الصغير، اسأل أحد رجال الشرطة، لا تَخفْ... لقد حلَّ الظلام، والسيَّارات تسير بسرعةٍ جنونيَّة، في حين تخلو الشوارع من الناس، والجوُّ يصبح باردًا من دون أن ينتبه لي أحد... ينزف الدم من أنفي... فجأةً تمسك بي يد، وأتلقى صفعتيْن قويَّتيْن... أيُّها الحمار... كاد قلبي يتوقَّف من الخوف...

أتنفَّس الصُّعداء، أنا ناجٍ.

-45-

أنا في السادسة من عمري، وأخي في الرابعة، نقف في ساحة القرية أمام تمثال أحد الفدائيّين البلغار، ونحن نرتدي سراويل قصيرةً وصنادل، لديْنا شعرٌ طويلٌ مثل أفراد فرقة البيتلز (أنا جون لينون وأخي بول مكارتني). إنّها صورةٌ التقطها أبي قبل دقيقةٍ من اصطحابنا (برفقة شرطيّ القرية) إلى الجدّ بيتريه الذي سيحلق رؤوسنا بأمرٍ من رئيس البلديَّة. وهو سيفعل الشيء نفسه مع والدي، فشعره طويل، وكذلك شواربه أيضًا. لا يوجد صالون حلاقةٍ في القرية، لذا يُجلسنا الجدُّ بيتريه على جذع شجرةٍ يشخر بجانبه حمار. أشاهد كيف تتساقط خصلات شعري الأشقر على الأرض، لكنّي لا أتجرّأ على البكاء خوفًا من الشرطيّ. من يدري، قد يمنعوننا من البكاء أيضًا، مثلما منعونا من تطويل الشعر...

ثمّ نسرع نحن الثلاثة، أنا وأخي ووالدي، إلى البيت، ونشبه السجناء، رؤوسنا حليقة، وتفوح منها رائحة الكولونيا الرخيصة التي رشّنا بها الجدُّ بيتريه. «إيّاكَ أن تبكي!»، قال أبي من بين أسنانه المطبقة.

Strawberry fields forever...

-46-

أهرم... وأنا في المنفى، بعيدًا عن روما الطفولة، في محافظات الشيخوخة البعيدة المقفرة التي لا عودة منها. وروما لم تَعُد تجيب على رسائلي.

في مكانٍ ما يتواجد الماضي كَبيتٍ أو شارعٍ غادرتَه للحظة، لخمس دقائق، ثمَّ وجدت نفسك في مدينةٍ غريبة. وقرأت أنَّ الماضي كان غربة... هذا كلامٌ فارغ. فالماضي وطني الحقيقيّ، أمَّا المستقبل المأهول بوجوهٍ غريبة، فهو غربتي... لن تطأ قدمي هناك أبدًا.

دعوني أعد إلى البيت!!... ماما قالت لي ألَّا أتأخَّر...

- 47 -

لعلَّ عمري 3 سنوات، طولي يساوي طول الورود في الحديقة. أقف حافيًا على التربة الدافئة وأمسك بيد أمّي متأمّلًا لوقتٍ طويلٍ وردةً عن قرب. إنَّها الذكرى الوحيدة... الأولى والأخيرة.

- 48 -

مُتلازمة اللامنتمي

لا تنتمي إلى أيِّ مكانٍ وأيِّ زمان. ما تبحث عنه لا يبحث عنك، وما تحلم به لا يحلم بك. كنت تمتلك شيئًا في مكانٍ آخر وزمنٍ آخر، لذلك ما فتئت تتنقَّلُ بين الغرف والأيَّام الماضية. إذا كنت في المكان الصحيح، فإنَّ الزمن خاطئ... وإذا كنت في الزمن الصحيح، فإنَّ المكان خاطئ.

إنَّها حالةٌ مستعصية.

(غاوسطين، «التشخيصات الجديدة واللَّاحقة»)

الخاتمة

تَمنحُنا الروايات والقصص عزاءً كاذبًا بصدد وجود نظامٍ وشكل. وتخلق شعورًا بأنَّ هناك من يمسك بكلِّ خيوط الأحداث، ويعرف تسلسل المشاهد وترتيبها ونهاية الحبكة. لكنَّ الكتاب الشجاع حقًّا، الكتاب الجريء والبائس في الوقت نفسه، يجمع كلَّ القصص التي حدثت ولم تحدث... تلك التي تطفو حولنا في الفراغ الأوَّليّ... تصرخ وتهمس... تبتهل وتضحك... تلتقي وتمضي في الظلام.

فنهاية الرواية مثل نهاية العالم، لذا من الأفضل تأجيلها.

يغرق الموت في القراءة وقد نَسِي كلَّ مَنْ حوله، فيصدأ منجله بجانبه. إنَّه مشهدٌ يلائم نقوش اَلْبْرِخْت دورِر، أو لوحات هيرونيموس بوس.

لم أكن أحبُّ النهايات أبدًا، ولا أتذكَّر نهاية أيِّ كتابٍ أو فيلم. تُرى، هل يوجد مثل هذا التشخيص: غياب ذاكرة النهايات؟ وما الذي يجب تذكُّره حقًّا بشأن النهاية (المحتومة دائمًا)؟

لا أتذكَّر سوى البدايات.

أتذكَّر كيف كنتُ أنام مبكِّرًا لسنواتٍ طويلة... أتذكَّر كيف جلبوا الثلج الجافَّ إلى القرية لأوَّل مرَّةٍ وأخذني والدي عند الغجريّ... نسيت اسمه. أتذكَّر عاصفةً شتويَّة رهيبة وشمعةً مشتعلة في البيت... شمعةً كانت مشتعلة... وأتذكَّر وردةً تأمَّلتها وجهًا لوجه، وطولي لا يتجاوز طولها. أتذكَّر كيف استلقيتُ مرتديًا معطفًا عسكريًّا مبلَّلاً في خنادق إحدى الحروب، مدخِّنًا سجائر قصيرةً ثقيلة... وأجلس في إحدى الحانات في الشارع الثاني والخمسين مرتبكًا وخائفًا... أو أربط صندلي وأرفع درعي الذي يلمع في الشمس.

يقولون إنَّ حياتي كانت مختلفةً تمامًا.

أوافقهم كيلا أزعجهم، رغم أنَّني لا أملك حياةً أخرى.

لم أعُد أتذكَّر ما إذا كنتُ ابتكرت غاوسطين أو هو من ابتكرني. هل كانت عيادة الماضي هذه حقيقيَّةً أم أنَّها لم تكن سوى فكرة، أو ملاحظةٍ في الدفتر، أو قصاصةٍ من صحيفةٍ عثرتُ عليها صدفة؟ وهل حدث تدفُّق الماضي ذلك أم أنَّه سيبدأ غدًا...

-٥-

1939/2029

احتشدت القوَّاتُ وهي في حالة ترقُّب. ستطلق سفينة Schleswig-Holstein الطلقات الأولى باتِّجاه المستودعات العسكريَّة في شبه جزيرة فيستربلات بالقرب من دانزيج. إنَّه عرضٌ مسرحيٌّ يستعدُّون له منذ زمنٍ منتظرين اللحظة المناسبة. سيُعاد إنشاء كلِّ التفاصيل ساعةً بساعة، بالرَّغم من وجود جدلٍ بسيط بشأن تحديد لحظة البداية، حيث يدَّعي البعض أنَّ البداية كانت في الساعة 4:44، في حين يشير آخرون إلى أنَّها في الساعة 4:48. سوف تحصد الحرب أوَّل ضحيَّةٍ لها... إنَّه الرقيب البولنديُّ Wojciech Najsarek. سوف تدعم القوَّات الجوِّيَّة الألمانيَّة Luftwaffe أدولف هتلر في تنفيذ الهجوم الجوِّيّ... ستكون الغوَّاصات في بحر البلطيق على أهبَة الاستعداد.

أعرف ماذا سيحدث. مليون ونصف مليون جنديٍّ على أهبَّة الاستعداد... تكفي طلقةٌ و... سوف تندفع الدبَّابات عبر الأشجار، ستبدأ تلك السفينة القديمة في إطلاق القذائف، وستظهر الرشَّاشات المخفيَّة، وسيُسمَع قصف المدافع طراااااخ طرااااخ. سيتمزَّق الجسدُ الأوَّل، آه... هناك من بدَّل الطلقات الخلَّبيَّة بالذخيرة الحيَّة، وسيأتي الردُّ من الجانب الآخر... عواء ثعالب مجنونة، وغربان خائفة، وطلقاتٌ تحذيريَّة تقطع السماء، كلُّ شيءٍ كان في الانتظار، كلُّ شيءٍ كان يتراكم كي يتدفَّق الآن... أعرف من مكانٍ ما أنَّ الحرب في اليوم الأوَّل ستحصد 20 ضحيَّة: 4 بولنديِّين و16 ألمانيًّا، وبعدها سيصبح عدد الضحايا بالملايين...

إنَّه أكبر عرضٍ تاريخيّ، إذ يُشارك فيه مليون ونصف مليون جنديٍّ من الفيرماخت كممثِّلين كومبارس، مُتمركزين على طول الحدود مع بولندا البالغة 1600 كيلومتر... 62 فرقة، 54 منها في حالة استعدادٍ قتاليٍّ كامل: 2800 دبَّابة، 2000 طائرةٍ حربيَّة (لقد أصلحوا الطائرات القديمة من طراز Junkers وStukas)، وقطع المدفعيَّة مخفيَّةٌ في الغابة في حالة تأهُّب، وغوَّاصات، وبوارج حربيَّة، وأسطولٌ من المدمِّرات، وأسطولٌ من قوارب الطوربيد.

سيقول أحدٌ عبر الإذاعة: نحن نعيد هذه الحرب، حتَّى لا تتكرَّر أبدًا في المستقبل. هذا اللغو السخيف سيطلِق، بالتأكيد، العنان أمام كلِّ شيء.

غدًا كان 1 أيلول.

-1

Жгмцццрт №№№№кктррпх ггфпр11111111….

внтгвтгвнтгггг777ррр…

29.02.2020

Berlin

إشارات

بالنِّسبة إلى شخصٍ يحبُّ عالم الأمس، فإنَّ هذا الكتاب لم يكن سهلًا. ولعلَّني أفترقُ من خلاله مع الماضي كحلم، أو مع ما يريد البعض تحويل الماضي إليه. وبمعنى ما أودّع عبره المستقبل أيضًا.

أماكن وملاجئ مختلفةٌ كانت جزءًا من رحلة هذه الرواية.

أودُّ أن أشكر Cullman Center, New York Public Library، حيث قضيتُ عشرة أشهرٍ في عامَي 2017 و2018 وأنا سعيدٌ بالقراءة وتدوين الملاحظات.

أودُّ أن أشكر أيضًا Literaturhaus Zurich على دعوتهم الكريمة في عام 2019 التي منحتني الوقت والجوَّ للكتابة.

يعتقد المرء أنَّه يكتب في عزلة، لكنَّه في الحقيقة ما فتِئ يتحدَّث في ذهنه مع أشخاصٍ آخرين وكتبٍ أخرى. أشكرهم جميعًا، وربَّما

ستسمعون أصداء أحاديثنا في هذه الرواية. كذلك أشكر غاوسطين الذي كان دائمًا في مكانٍ قريب.

أشكر الأشخاص الذين تبادلت معهم الأفكار بصدد هذه الرواية أو الذين كانوا قرّاءها الأوائل : بويكو بينتشيف، إيفان كراستيف، ناديجدا رادولوفا، ديميتار كيناروف، بوجانا أبوستولوفا، أنجيلا روديل، غالين تيهانوف...

أشكر هيلي دالغور، ماري فرينا نيكولوف، ماريا فوتوفا، هنريك شميدت، ماجدة بيتلاك، ياروسلاف غودون، هيلين كويمان، بوريسلافا شاكرينوفا، جوزيبي ديل أغاتا، فيسيلين فاتكوف ومارينيلا ليبتشيفا ومارتن فايس، على مساعدتهم بشأن بحوثي، وخاصّةً فيما يتعلّق بأحد فصول الكتاب المرتبط بالاستفتاء على الماضي.

أشكر Wissenschaftskolleg Berlin، حيث أنجزت الكتاب في نهاية شباط عام 2020. لقد أجريتُ محادثاتٍ لطيفةً ومشجّعةً مع أصدقائي وزملائي هناك؛ منهم إفراين كريستال (كان بورخيس معنا طوال الوقت)، وولف ليبينيس، تورستن فيلهلمي، باربرا ستولبرغ ريلينغر، كاتارينا بيغر، دانييل شونبفلوغ، ستويان بوبكيروف، لوكا جولياني، ديفيد موتاديل، فيليكس كورنر...

أشكر أيضًا بوجانا أبوستولوفا التي دعمت المخطوطة، وكذلك كتبي السابقة التي نشرتها دار النشر «جانيت 45».

أشكر والديَّ على الصبر والمحبّة، اللذين انتظرا بهما هذا الكتاب وتحمّلا غيابي.

في النهاية، كما هو دائمًا، أشكر أولئك الذين كانوا بجانبي وتحمَّلوني أثناء كتابة هذه الرواية: أشكر بيليانا التي كانت تقرأ وتحرّر، وبنتي راية الناقدة والمتسامحة (قالت لي: شخصيَّاتك ليست لها أسماء حتَّى لا تنساها. وكانت على حقّ).

أشكر كلًّ من سيقضي أوقات الظهيرة في ملجأ الزمن لهذا الكتاب.

غ. غ.

29/02/2020، برلين

مكتبة
t.me/soramnqraa

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

طبيبٌ غريبٌ "متشرِّدٌ في الزمن" يبدأ بفتح عياداتٍ للماضي، تُقدِّم علاجًا مبشِّرًا للمصابين بفقدان الذاكرة والزهايمر. كلُّ غرفةٍ في كلِّ طابقٍ من تلك العيادات مجهَّزةٌ بديكورٍ من عقودٍ زمنيَّةٍ مختلفة، حيث تخلق أجواؤها أدقَّ التفاصيل للعودة بالمرضى إلى الماضي. ومع نجاح هذه الطريقة، يبدأ أشخاصٌ أصحَّاء بالتدفُّق إليها بحثًا عن ملاذٍ في الكهف الدافئ للماضي، الذي يشرع بابتلاع الحاضر وتملُّك العالم تدريجيًّا.

كم من الماضي يمكن أن يتحمَّل المرء؟ كم من الماضي يمكن أن تتحمَّل الدولة؟

إذا لم نكن موجودين في ذاكرةٍ ما، فهل نحن موجودون بالفعل؟

روايةٌ عن ملاجئ الزمن التي نبنيها، بعد إدراكنا أنَّ المستقبل سُرِق منَّا، والحاضر لم يعد بيتنا.

"روايةٌ تأتي في وقتٍ مناسب... روائيٌّ يكتب ببراعة، وبدفءٍ كبير".

The Guardian

"روايةٌ تمثِّل الأدب الأكثر أناقة".

أولغا توكارتشوك

"روايةٌ رائعةٌ مليئةٌ بالسخرية والكآبة".

ليلى سليماني، رئيسة لجنة تحكيم جائزة بوكر الدوليَّة.

حازت رواية ملجأ الزمن جائزة بوكر الدوليَّة سنة 2023

غيورغي غوسبودينوف: قاصٌّ وشاعرٌ وكاتبٌ روائيٌّ ومسرحيٌّ بلغاريّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب